

الدكتور محمد
محمد أبو شهبه

المُدْخَلُ

لِلدِّرَاسَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

« الْقُرْآنُ بِحَرْفٍ لَا يَذْرُكُ عَنْوَرُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ
دُرَرُهُ ، وَلَا تَنْقُضِي نَجَائِيهِ ، فَمَا أَحَقُّ الْأَعْمَارَ
أَنْ تَعْنَى فِيهِ ، وَالْإِزْمَانُ أَنْ تَشْعَلْ بِهِ »

تَأَلِيفُ
الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ مُحَمَّدِ أَبِي شَهْبَةَ
رَحِمَهُ اللَّهُ

دارُ اللُّهَاءِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المدخل للدراسة القرآن الكريم

دار اللهواء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

المملكة العربية السعودية - الرياض ١١٤٦١

دار اللواء ص. ب : ٢٨٥٦ شارع الملك فيصل

هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤-٤٠٥١٧٥٤ - بريقياً : نشر دار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل « مامن بنى من الأنبياء إلا وآتاه الله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »

وعلى آله ، وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
« وبعد »

فقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب القويم ، الذي يدور في فلك

القرآن الكريم ، من منذ بضع سنين .

وقد رغب إلى الكثيرون من قرأوه ، وانتفعوا به ، من طلاب جامعة الأزهر الشريف ، وغيرهم من طلاب المعرفة وعشاق الثقافة الإسلامية الأصيلة ، هذه الثقافة التي تدور حول الأصلين الشريفين : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المنيفة

وقد رأيت أن تجيء هذه الطبعة الثانية - كما هي سنة الله في التطور والارتقاء - مشتملة على مزيد من التحقيقات ، ومن الموضوعات التي لا يستغنى عنها الدعاة الذين نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ولا سيما فيما أورده المستشرقون والمبشرون على القرآن من شبهات ، فقد عرضت للشبه التي أثيرت على الوحي ، وردتها بالقواعد العلمية الصحيحة لا بالعاطفة والعصية .

وكذلك زدت بحوثاً حول ثبوت النص القرآني بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، وسلامة هذا النص من التحريف والتبديل ، وهي خصيصة للقرآن لم تتوافر لأي كتاب آخر سماوى

وكذلك زدت فيه بحوثا حول القراءات والقراء ، ورد شبه بعض
المستشرقين في هذا ، والكتاب المعاصرين الذين لم يأخذوا من الدراسات
القرآنية بخط وافر .

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعل عملي مقبولا ، وأجرى
موصولا ، إنه سميع مجيب . وهو حسبي ، ونعم الوكيل ؟

أبو عمر
محمد بن محمد أبو شهبه

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده محمد، القرآن مشتملاً على الحكم والأحكام
والمواعظ والآداب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي خصه الله
بجوامع الكلم، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وصحابه، ومن
اهتدى بهديه إلى يوم الحساب.
«أما بعد».

فإن أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون -
مداومة كتاب الله، ومداومة البحث فيه، والغوص عن لآئمه، والكشف
عن علومه وحقائقه. وإظهار إعجازهِ، وتجليه محاسنه، والدفاع عن ساحته
ونفي الشكوك والريب فيه، والقرآن بحر لا يدرك غوره، ولا تنفذ درره
ولا تنقضي عجابه، فما أحق الأعمار أن تنفى فيه، والأزمان أن تشغل به
وكل ساعة يقضيها الباحث في النظر في كتاب الله، والتأمل فيه أو في البحث
فيما يتصل به، في سبيل الله، وفي سبيل الإسلام.

وبما أسند إلى تدريس «علوم القرآن» بقسم الدراسات العليا، بكلية
أصول الدين من كليات الجامعة الأزهرية رأيت أن أضع في هذا مؤلفاً
وسطاً: لاهو بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل؛ ليكون مرجعاً لطلاب
هذا القسم وغيرهم من عشاق القرآن وعلومه.

ولما كانت مباحث هذا العلم مدخلاً وسبيلاً لدراسة «القرآن الكريم»
وفهمه وتدبره لم أجد نفسي في حاجة إلى أن أتكلف لهذا المؤلف اسماً،
وسميته: «المدخل لدراسة القرآن الكريم».

ويعتبر هذا «المدخل»، أول كتاب ألف في هذا الفن، من أحد رجال
الطبقة التي تلى طبقة شيوخنا وأول باكورة شبيهة، لقسم الدراسات العليا
شعبة «التفسير وعلومه»، والحديث وعلومه، أقول هذا تحميداً بنعمة الله على
ولله الحمد، والمنة

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، وأن يجعل نفعه عاماً موصولاً
«أبو عمر» - محمد محمد أبو شهبه

القرآن الكريم

القرآن الكريم : هو كتاب الله - عز وجل - المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بأفضه ومعناه ، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب في المصاحف من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر سورة الناس .

أحكمه الله فأتقن أحكامه ، وفصله فأحسن تفصيله ، وصدق الله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١) ، لا يتطرق إلى ساحته نقض ولا إبطال ، وصدق العلي العظيم حيث يقول : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. تنزيل من حكيم حميد » (٢) وهو المعجزة العظمى ، والحجة البالغة ، الباقية على وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه . تحدى به الناس كافة ، والإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو يبعثه فباءوا بالعجز والبحر ، وقد وقع التحدى « بالقرآن » على مرات متعددة ، كي تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، وتنقطع المعذرة .

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثله فعجزوا وما استطاعوا ، قال عز شأنه في سورة « الإسراء » المكية الآية (٨٨) « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن .. لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ثم تحداهم : أن يأتوا بعشر سور مثله ، فما قدروا . قال تعالى في سورة « هود » المكية الآية (١٣٣ - ١٤) « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (٣) ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم

(١) هود - ١ (٢) فصلت ٤١ - ٣٢

(٣) هذا من قبيل التزل مع الخصم . والمساهلة معه في الحجاج ، كي يكون الإخام أدل على الإعجاز ، أى إن كان مفترى - كما تزعمون - فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . والمراد : المماثلة في الفصاحة والبلاغة وجزالة المعنى وسمو المقاصد والاشتغال على العلوم والمعارف .

يستجيبوا لكم فاعلموا : إنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو .. فهل أنتم مسلمون ، ؟ أى أسلموا ، فهو طلب برفق ، ولين ، وهو لون من ألوان أدب الخطاب فى القرآن

ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أى سورة مها قصرت ، كسورة « الكوثر » ، فما رفعوا بذلك رأساً ، قال تعالى فى لزورة « يونس » المكية الآية (٣٨ - ٣٩) : « أم يقولون اقتراه ، قل . فاتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »

وهذا الذى ارتضاه جمهور العلماء وارتضيته فى ترتيب آيات التحدى هو ما يجب أن يصار إليه ومن العلماء من يجعل آية يونس متقدمة على آية هود لتقدم نزول سورة يونس على نزول سورة هود فيجعل التحدى لسورة قبل التحدى بعشر سور (تفسير البغوى - ٤ ص ٣٤٩) والجواب أنه على فرض تسليم ذلك فلا يمنع من تأخر نزول آية فى سورة متقدمة ، على نزول آية فى سورة متأخرة ، على أن بعض العلماء يرى تقدم سورة هود على سورة يونس وحينئذ يكون « اذهبنا إليه هو الحق والصواب ، وإذا كان مستقبحا فى الكلام العادى التحدى بشيء فإذا عجز تحداه بعشرة أمثاله فبالك بأبلغ الكلام ، وأحكمه ؟ .

ثم كرر التحدى بسورة ما ، فقال فى سورة « البقرة » المدنية الآية (٢٣ - ٢٤) « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . »

فألقموا حجراً . ولم ينبسوا فى المعارضة بكلمة .. !

وبذلك ثبت إعجاز القرآن ، على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب فغيرهم بالعجز أخرى وأولى (١)

القرآن كتاب العربية الأكبر

والقرآن هو كتاب العربية الأكبر ، ورمز وحدة العرب الكبرى .
وجامعهم العظمى ، وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها ، وحيويتها ؛ وبه صار العرب أمة واحدة مؤمنة موحدة ، متألفة القلوب متجانسة المزاج ، متحدة اللسان ، متشابهة البيان ومنه استمد العرب علومهم ومعارفهم ، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب ، وله منه ورد ومدد ، ولولا هذا الكتاب العربي المبين لاستعجمت لغة العرب ، وأضحت في عداد اللغات الميتة ، فهو الذي يجدد شبابها كلما اعترأها الهرم والضعف ، ويأخذ بيدها إذا ألم بها التخلف والركود ولولا هذا الكتاب لما كانت هذه الثروة الطائلة من العلوم التي تدور حول القرآن ، ولغة القرآن وتجول في رحابه الواسعة وما من عربي - أيا كان دينه - إلا وله بهذا الكتاب مفخرة واعتزاز وحب ووفاء ، لأنه يخاطب فطرته اللغوية ووجدانه البياني ، وروحه العربية الصافية الشفافة .

القرآن كتاب الهداية الكبرى

والقرآن . هو هداية الخالق لإصلاح الخلق ، وشريعة السماء لاهل الأرض . وهو التشريع العام .. الخالد ، الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم . في العقائد ، والأخلاق وفي العبادات والمعاملات والمدنية ، والجنائية ، وفي الاقتصاد ، والسياسة ، والسلم ، والحرب ،

(١) اكتفيت في هذا الموضع بهذا القدر ، أما إشباع القول في الإعجاز فلذلك

والمعاهدات ، والعلاقات الدولية وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتبره خمل ولا اختلاف ، ولا تناقض وصدق الله . « أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١) » ، وأصيل غاية الأصالة ، وعدل غاية العدالة ، ورحيم غاية الرحمة ، وصادق غاية الصدق ، وصدق الله . « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (٢)

فلا عجب .. أن كانت السعادة الحقة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه ، والتزام ما جاء به ، وأن كان الشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع ؛ فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجراً كبيراً .. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً (٣) » . « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً (٤) » . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام .. ويخرجهم من الظلمات إلى النور - بإذنه - ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٥)

« القرآن حارب التقليد ، ودعا إلى النظر ، والتأمل في الكون ،

وهو الكتاب الذي فك العقول من عقالها ، وأطلق النفوس من إسارها ، وانحى على التقليد والمقلدين بالذم والتوبيخ . « وإذا قيل لهم . اتبعوا ما أنزل الله . قالوا . بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم

(١) سورة النساء الآية ٨٣ (٢) سورة الانعام الآية ١١٥

(٣) سورة الإسراء الآية ٩ - ١٠ (٤) سورة الإسراء الآية ٨٢

(٥) سورة المائدة الآية ١٥ - ١٦

لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (١) «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (٢) ١٤ .

وهو الكتاب الذي وجه العقول والأنظار إلى النظر في الأنفس، وما فيها من عجائب وأسرار وغرائب واستعدادات: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (٣) والنظر في الآفاق والآيات الكونية علوياً وسفلياً، ظاهرها وخفيها وعمما تنطوي عليه من حكم، وما أودع الله فيها من خواص وسنن وأفاض في ذلك في غير ماسورة وآية، وإن شئت البقن في ذلك فافقرأ قول الحق تبارك وتعالى: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون» (٤) «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار» (٥)

وقد روى: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: لما نزلت «ويل لمن قرأها ولم يتفكر» . وقال الله تعالى: «أفلا ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» (٦) . وقال - سبحانه - : «أفلا ينظرون إلى الإبل . . كيف خلقت» ١٤

(١) سورة البقرة الآية ١٧٠

(٢) سورة المائدة . الآية ١٠٤

(٣) سورة الذاريات الآية ٢١

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٤

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩٠

(٦) سورة ق الآية ٦ - ٨

وإلى السماء . كيف رفعت ؟ ! وإلى الجبال كيف نصبت ؟ ! وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ! فذكر إنما أنت مذكر ، است عليهم بمسيطر « (١) ؟ وقال : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وحنات من أعتاب ، وزرع ، ونخيل : صنوان وغير صنوان (٢) يسقي بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، (٣) . إلى غير ذلك من الآيات التي لا يحصها العد .

وقد زخر القرآن العظيم بهذا النوع من الآيات ، وكثرت كثرة زادت على آيات الأحكام ، ولا سيما في القسم المسكى ولذلك سر : ذلك أن هذا النظر ، وذلك التأمل غالبا ما ينتهيان بالإنسان العاقل المجرد عن الأهواء والشهوات ، إلى الوصول إلا الإيمان بالحائق - جل وعلا - ووحدانيته وتفرد صفات الكمال ، والجلال ، والجمال والإيمان بالبعث والمعاد ، وأن هناك حياة أخرى خيرا من هذه الحياة ، والإيمان بالملائكة والرسل الكرام وإذا ما آمن البشر بهذه العقائد سهل عليهم بعد تلقى الشرائع ، والتزامها علما ، وعملا ، وسلوكا ، وخير الإيمان ما كان عن بينة ودليل ، وخير العلم والعمل ما كان عن اطمئنان وبحث ، واقتناع .

و القرآن فتح الباب للعلوم التجريبية ، والقرآن حينما دعانا إلى النظر في الآيات الأفاقية والآنفسية لم يقف بنا عند حد الاعتبار والاعتاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب . وإنما أراد - إلى ذلك - استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار . والتقصى عما فيها من عجائب وسنن وخواص عن طريق الملاحظة حينما والتجارب أحيانا أخرى ؛ وبذلك يكون القرآن

(١) سورة الفاشية الآية ١٧ - ٢٢

(٢) جمع صنو أى نخلات أصلها واحد ونخلات ايست كذلك

(٣) الرهد الآية ٤

فتح أبوابا للعلوم التجريبية من منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .
ولو أن المسلمين استفادوا بما في هذا الكتاب الكريم من توجيهات
وإرشادات ؛ لسكانوا - كما كان الشأن في سلفهم الأولين - أسبق الأمم
إلى الكشوف العلية والاختراع والابتداع ، ولصاروا سادة الدنيا ،
وأضحى بيدهم زمام الأمور ، ولكنهم جمدوا ولم يستفيدوا بهدى القرآن
وإرشاداته ، فكانوا على ما ترى ! ! . . !

« القرآن حارب العنصرية ، والعنجهية الجاهلية ،

والقرآن هو الذى قضى على العنجهية ، ودعاوى الجاهلية ، وقضى على
التفرقة العنصرية والنسبية واللونية ، ووضع أساس المساواة بين الناس كافة ،
فالناس ربهم واحد وكلهم لآدم ، لا فضل لعربي على عجمي ، . ولا لعجمي
على عربي ، ولا لايبيض على أسود ولا لاسود على أبيض ، . وإنما
التفاضل بالتقوى ، والتقوى جماع كل هدى وحق وخير . وصدق الله :
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، (١) . فالناس مهما تعددت
شعوبهم ، وتباينت أممهم فيجمعهم رباط واحد ، وهو رباط الإنسانية العام ،
وهذا أسمى ما يطمع فيه من تشريع !
« القرآن كون أمة مثالية ،

وهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وحول مجرى التاريخ ، وأقام
أمة كانت مضرب الأمثال فى الإيمان والإخاء والعدل والوفاء ، والوفاق
والوئام ، وأظل العالم بلواء الأمن والسلام حقبا من الزمان ، وصير من
رعاة الإبل والشاة علماء حكماء رحماء ، وسادة قادة فى الحكم والسيادة
والحرب ، عمقت الدنيا عن أن تجود بمثلهم .
وهو الكتاب الذى لا تنفى ذخائره ، ولا يخلق على كثرة الرد ،
ولا يزداد على التكرار إلا حلاوة وطلاوة ، وصدق القائل :

تزداد منه - على ترداده - مقة وكل قول - على الترداد - مملول
وتلك لعمر الحق خصيصة من خصائص القرآن ، ومن كان في شك من
هذا فليستفت الذوق والوجدان والقلب والآذان ، وليوازن في هذا بين كلام
الله وكلام الإنسان ، وحينئذ سيتذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف
اعترف .

ومهما تعاقبت على هذا الكتاب العزيز الأجيال والسنون لا يزداد
إلا جدة وطرافة ولا يزال غصاً طرياً كما أنزل ، وكلما تقدمت العلوم
والمعارف الإنسانية تكشف للناس منه العجب العجيب وصدق الحق
وتبارك وتعالى حيث يقول : «سزيمهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ؛
حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد^(١)» ، بلى وأنا
على ذلك من الشاهدين .

وقصارى القول وحماداه : أنك لن تجد في الكشف عن حقيقة
هذا الكتاب وخفائاه وفضائله ومزاياه أوفى مما وصفه به نبينا محمد
ابن عبد الله ، :

روى الترمذى^(٢) بسنده عن الحارث الأعور قال : مررت في المسجد
فاذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي ، فقلت : يا أمير
المؤمنين ، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : أوقد فعلوها ؟

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) قاله الترمذى فيه : حديث غريب ، وإسناده مجهول ، وفي حديث الحارث
مقال ولكن ذكره الحافظ السيوطى ، في الإتيان ، وقال أخرجه الترمذى ،
والدارى وغيرهما ، وسكت عنه ، وكذا ذكره الحافظ ابن كثير ، ، فضائل
القرآن ، له ، وتمقب كلام الترمذى بما يدل على اعتماده للحديث ، والمتأمل فيه
محمد قيساً من نور النبوة ، وحكماً من يتابع الوحى ، مما يجعل القلب يطمئن إليه .

قلت نعم . قال : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة ، قلت : وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء^(١) ولا تلتبس به الألسنة^(٢) ، ولا يشبع منه العلماء^(٣) ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقض عجايبه ، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعه حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فأما ، » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

إن كتاباً هذا بعض شأنه لجدير أن يضعه الإنسان بين عينيه ، ويجعله أنيسه في خلوته ، ورفيقه في سفره ، وصديقه الصدوق في يسره وعسره ومستشاره الأمين في أمور دينه ودنياه ، وحجته البالغة في حياته وأخراه .

(١) بفتح التاء : أي لا تميل عن الحق إما تباعه الأهواء أو بعضها : أي لا تميله الأهواء المضلة عن نهج الاستقامة إلى الاحوجاج . من الإزاحة : بمعنى : الإمالة والباء لتأكيد التمهيد .

(٢) أي لا تقصر عليه ألسنة المؤمنين ، ولو كانوا من غير العرب قال تعالى : « واهد يسرنا القرآن للذكر ، وقال فإنما يسرناه بلسانك ، » .

(٣) أي لا يحيطون بكنهه إحاطة من يشبع من الشيء ، بل كلما اطلعوا على شيء منه اشتاقوا إلى غيره ، ومعنى « ولا يخلق عن كثرة الرد ، يخفق - بفتح الياء وضم اللام ، وضم الياء وكسر اللام - : من « خلق ، الثوب : إذا بلى ، أو من « اخلق ، » . ومن على بابها : أي لا يصدر الخلق عن كثرة تكراره . وقال الحافظ « ابن حجر ، : « عن ، : بمعنى « مع ، وفي بعض النسخ للترمذي : « على ، مكان « عن ، » . وهو يؤيد ما ذهب إليه « ابن حجر ، » .

عناية الأمة الإسلامية بالقرآن :

فلا عجب - والقرآن كما سمعت - أن عنيت الأمة الإسلامية به عناية فائقة ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، فحفظوا لفظه ، وفهموا معناه ، واستقاموا على العمل به وأفتوا أعمارهم في البحث فيه ، والكشف عن أسراره ، ولم يدعوا ناحية من نواحيه الخصلة إلا وقتلوا بها بحثاً وتمحيصاً ، وألقوا في ذلك المؤلفات القيمة ، فمنهم من ألف في تفسيره ، ومنهم من ألف في رسمه ، وقرآته ، ومنهم من ألف في استنباط الأحكام منه ، ومنهم من ألف في ناسخه ومنسوخه ، ومنهم من ألف في أسباب نزوله ، ومنهم من ألف في إعجازه ، ومنهم من ألف في مجازه . ومنهم من ألف في أمثاله . ومنهم من ألف في أقسامه ، ومنهم من ألف في غريبه ، ومنهم من ألف في إعرابه ، ومنهم من ألف في قصصه ، ومنهم من ألف في تناسب آياته وسوره إلى غير ذلك من العلوم المتكاثرة .

وقد تبارى علماءنا في هذا المضمار الفسيح ، وجروا فيه أشواطاً بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بميراث مجيد من تراث سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام ، وكانت هذه الثروة - ولا تزال - مفخرة تتحدى بها أمم الأرض ، ونباهى بها أهل الملل في كل عصر ومصر . وأضحت هذه العناية بحق أروع مظهر عرفة التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب وأجلها ، وأبعدها من التحريف والتغيير ، وبذلك هيأ الله الأسباب المتكاثرة لحفظ كتابه ، وهل هذا إلا مصداق قوله - سبحانه وتعالى - : **«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»** . ٤ .

المبحث الأول

معنى علوم القرآن

يقتضينا منهج البحث التحليلي أن نبين معنى كل من طرفي هذا « المركب الإضافي » ، ثم نبين بعد ذلك المراد منه بعد التركيب ثم بعد ما صار فنا مدونا طرفا هذا المركب ، هما لفظ « علوم » ، ولفظ « القرآن » .

أما « العلوم » : فهو جمع « علم » . والعلم في اللغة العربية : مصدر بمعنى الفهم والمعرفة ، ويطلق ويراد به : اليقين أيضا (١) .

أما في الإصلاح .. فقد اختلفت فيه عبارات العلماء باختلاف الإعتبارات ، فعرفه الشرعيون بتعريف ، وعلماء الكلام بتعريف آخر وعرفه الفلاسفة والحكماء بتعريف ثالث (٢) .

وليس شيء من هذه التعريفات بمرادها ، وإنما المراد : العلم في اصطلاح أهل التدوين وعرفهم ، و « العلم » في عرف التدوين العام عبارة عن : « جملة من المسائل المضبوطة بجملة واحدة » سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية والغالب أن تكون تلك المسائل كلية نظرية وقد تكون ضرورية وقد تكون جزئية ، مثل : « مسائل علم الحديث ورواية » كقولهم : « إنما الأعمال بالنيات .. » ، بعض قوله صلى الله عليه وسلم .

أما « العلم » بمعنى : « الملسكة التي بها تستحصل هذه المسائل » أو بمعنى « إدراك المسائل » فغير مراد هنا ؛ لأن بحثنا في « العلم » بمعنى « الفن المدون » ،

(١) في « قاموس المحيط » [عليه كسمه علما - بالكسر - عرفه ، و علم هو في نفسه] وفي المصباح المنير ، العلم اليقين ، يقال « علم يعلم . إذا تيقن . وجاء بمعنى المعرفة أيضا » .

(٢) عرفه الشرعيون بأهمه « العلم بالله تعالى وما يتعلق به من جليل صفاته وحكيم أفعاله ، ومعرفة حلاله وحرامه » .

وعرفه المتكلمون بأنه « صفة تنكشف بها الأشياء لمن قامت به » . وعرفه الحكماء بأنه « صورة الشيء الخاصة في العقل » .

ومعلوم . أن الذى يدون ويؤلف هي المسائل والقواعد ، لا الملكة
ولا الإدراك .

وأما القرآن ، :

لفظ « قرآن » ، قد اختلف فيه العلماء من جهة الاشتقاق أو عدمه ، ومن
جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز ، ومن جهة كونه مصدراً أو وصفاً على
أقوال نجملها فيما يأتي : -

أما القائلون : بأنه « مهموز » ، فقد اختلفوا على رأيين -

الأول . قال جماعة منهم « اللحياني » . القرآن : مصدر « قرأ » ، بمعنى :

تلا ، كالرجحان والغفران ، ثم نقل من هذا المعنى المصدرى ، وجعل
اسماً للكلام المنزل على نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من باب « تسمية
المفعول بالمصدر » ، ويشهد لهذا الرأي ورود القرآن مصدراً بمعنى : القراءة
في الكتاب الكريم ، قال تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » . فإذا قرأناه
فاتبع قرآنه^(١) . أى قرأته .

وقول حسان بن ثابت ، يرثى « ذا النورين ، عثمان - رضى الله عنه - :
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

أى قراءة .

الثانى : قال جماعة منهم « الزجاج » إنه وصف على « فعلان » .

مشتق من « القرء » ، بمعنى الجمع ، يقال فى اللغة : « قرأت الماء فى الحوض ،
أى جمعته ، ثم سمي به : الكلام المنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم -
لجمع السور والآيات فيه أو القصص والأوامر والنواهي ، أو لجمعه
ثمرات الكتب السابقة .

وهو على هذين الرأيين مهموز ، فإذا تركت الهمزة ، فذلك للتخفيف ،

(١) سورة القيامة الآيتان ١٧ ، ١٨ .

ونقل حركتها إلى الساكن قبلها والألف واللام فيه ليست للتعريف .
ولأنما للصح الأصل .

والقائلون بأنه غير مهموز اختلفوا في أصل اشتقاقه .

(١) فقال قوم منهم « الأشعري » ، هو مشتق من « قرنت الشيء بالشيء » .
إذا ضممت أحدهما إلى الآخر وسمى به « القرآن » ، لقران السور والآيات
والحروف فيه .

(٢) وقال « الفراء » : هو مشتق من « القرائن » ، لأن الآيات منه يصدق
بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا ، وهي قرائن . أي أشباه ونظائر
وعلى هذين القولين : فنونه أصلية ، بخلافه على القولين الأولين .
فنونه زائدة

رأى خامس . مقابل للأقوال السابقة .

وهو أنه اسم علم غير منقول ، وضع من أول الأمر علما على الكلام
المنزل على « محمد » ﷺ وهو غير مهموز . وهذا القول مروى عن الإمام
« الشافعي » ، أخرج البيهقي والخطيب وغيرهما عنه . أنه كان يهمز قراءة ،
ولا يهمز « القرآن » ، ويقول . « القرآن » اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من
قراءة ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل .

وبالتخفيف قرأ « ابن كثير » وحده : أما بقية السبعة فقرأوا بالهمزة

وأرجح الآراء وأخلقها بالقبول « الأول » ، يليه الرأي الثاني

ومما يقوى مذهب القائلين بالهمز . أنهم خرجوا التخفيف تخريجاً علياً
صحيحاً ، ولا أدري ماذا يقول القائلون بالرأى الأخير في توجيه قراءة
لفظ « القرآن » بالهمز ، مع أن عليها معظم القراء السبعة ، كما ذكرنا آنفاً ١٤ .

رأى آخر:

يرى بعض الباحثين (١). أن «قرآن» مأخوذ من «قرأ» بمعنى «تلا»، وهذا الفعل أصله في اللغة الآرامية ثم دخل العربية قبل الإسلام بزمن طويل ولو صح هذا، فلا ضير فيه، لأن هذه الكلمة وأمثالها - وإن كانت في الأصل أعجمية - فقد صارت بعد التعريب عربية بالاستعمال وياخضاعها لأصول العرب في نطقهم ولغتهم، واندججت فيها حتى صارت جزءاً منها فنزل القرآن بها، وهي على هذا الحال.

تعريف القرآن، عند الأصوليين، والفقهاء، وأهل العربية

هو كلام الله المنزل على نبيه «محمد»، ^{يرتفع} المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة «الفاتحة» إلى آخر سورة (الناس).

وقد خرج بقولنا. المنزل على نبيه (محمد) المنزل على غيره من الأنبياء كالنوراة والإنجيل والزبور والصحف، وخرج بالمعجز بلفظه المتعبد بتلاوته الأحاديث القدسية، على الرأي بأن لفظها من عند الله، فإنها ليست معجزة ولا متعبداً بتلاوتها. وخرج بقولنا (المنقول بالتواتر .. الخ) جميع ما سوى القرآن المتواتر من منسوخ التلاوة، والقراءات غير المتواترة سواء نقلت بطريق الشهرة كقراءة (ابن مسعود) في قوله تعالى في كفارة الإيمان (فصيام ثلاثة أيام)^(٢) بزيادة (متتابعات)، أو بطريق الأحاد مثل قراءة. (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان)^(٣) بالجمع فإنها ليست قرآناً؛ ولا تأخذ حكمه.

(١) الأستاذ عبدالوهاب حمودة د.ج. - لواء الإسلام، الم - دد الأول

من السنة الأولى ص ٢٨ (٢) المائة ٨٩

(٣) الرحمن ٧٦

ثم إن العلماء بحثوا في الصفات الخاصة بـ (القرآن) فوجدوا أنها تنحصر في الإنزال على - النبي ﷺ - والإعجاز ، والنقل بالتواتر ، والكتابة في المصاحف ، والتعبد بالتلاوة .

فرأى بعض العلماء زيادة التوضيح والتمييز ، فعرّفه بجميع هذه الصفات كما ذكرنا آنفاً .

واقصر بعضهم على ذكر الإنزال على النبي ، والإعجاز لأن ما عداهما من الصفات ليس من الصفات اللازمة ، لتحقيق القرآن بدونها في زمن النبي - ﷺ - فقالوا في تعريفه (هو الكلام المنزل على محمد ﷺ ، المعجز) .

واقصر بعضهم على الإنزال والكتابة في المصاحف ، والنقل تواتراً ، لأن المراد تعريفه لمن لم يدرك زمن النبوة . وإنزال الألفاظ والكتابة في المصاحف والنقل تواتراً من أبين اللوازم للقرآن وأوضحها بخلاف الإعجاز فليس من اللوازم البينة . إذ لا يعرفه إلا الخواص الواقفون على أسرار اللغة وأساليبها . كما أنه ليس شاملاً لكل جزء . إذ المعجز هو السورة أو مقدارها .

واقصر البعض على النقل في المصاحف تواتراً ، لأنه كاف في الغرض المقصود ، وهو تمييز القرآن عن جميع ما عداه . فقد ثبت أن الصحابة - رضوان الله عليهم - بالغوا في ألا يكتب في المصحف ما ليس منه . مما يتعلق به . حتى النقط والشكل . واحتاطوا في ذلك غاية الاحتياط . حتى لا يختلط القرآن بغيره .

واقصر بعضهم على ذكر الإعجاز لحسب . لأنه وصف ذاتي للقرآن إذ هو الآية العظمى المثبتة لرسالة نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم . ولكون القرآن المنزل عليه من عند الله لا من عند البشر .

ولما كان بحثنا في هذا العلم . إنما يتعلق بنظمه العربي المبين . فقد آثرت ألا أتعرض للقرآن من حيث كونه كلام الله . وصفة من صفاته . لأن

هذا البحث محله ، علم الكلام ، (١)

وذهب المحققون من الأصوليين ، والفقهاء ، وأهل العربية : إلى أن لفظ القرآن « علم شخصي » ، مدلوله : الكلام المنزل على النبي — صلى الله عليه وسلم — من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر سورة « الناس » ، وعليته : باعتبار وضعه للنظم المخصوص ، الذي يختلف باختلاف المتلفظين ، ولا عبرة بتعدد القارئين والحال .

وعلى هذا فما ذكره الأصوليون ، وغيرهم من تعاريف للقرآن ، ليس تعريفاً حقيقياً ، لأن التعريف الحقيقي لا يكون إلا للأمر الكلية ، وإنما أرادوا بتعريفه : تمييزه : عما عداه مما لا يسمى باسمه ، كالتوراة والإنجيل ، والأحاديث القدسية ، وما نسخت تلاوته .

ويرى بعض العلماء : أن لفظ القرآن موضوع للقدر المشترك بين الكل وأجزائه . فسماه : كلي . كالمشترك المعنوي .

(١) كما بحث المتكلمون في القرآن من جهة كونه كلام الله وصفة له ، بحثوا فيه أيضاً من جهة لفظه العربي المنزل على النبي . . وهم في تعريفهم للقرآن من هذه الجهة لم يخوجوا عما ذكره الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية في تعريفه وعرفوه من الجهة الأولى بأنه « الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى المتماثلة بالكلمات الحكيمية من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر « الناس » . وهذه الكلمات الحكيمية أزلية مجردة عن المواد مطلقاً . حسية كانت أو خيالية أو روحانية . وهي مترتبة غير متعاقبة وذلك مثل الصور تنطبق في المرآة . مترتبة غير متعاقبة . وقالوا : إنها حكيمية . لأنها ليست ألفاظاً حقيقية مضرورة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا : إنها أزلية . ليلتبوا لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن المواد مطلقاً — أي الحروف اللفظية أو الذهنية أو الروحية — لينفرد عنها أنها مخلوقة ، وقالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم الزمان والزمان حادث .

ويرى فريق ثالث أنه مشترك لفظي بين الكل وبين أجزائه . فهو موضوع لكل منهما بوضع .

والحق : أنه علم شخصي ، مشترك لفظي بين الكل وأجزائه فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : قرأ قرآنًا . ويقال لمن قرأ بعضه : قرأ قرآنًا . وهو ما يفهم من كلام الفقهاء . حينما قالوا : « يحرم على الجنب قراءة القرآن ، فإنهم يقصدون : قراءة كله أو بعضه على السواء .
أسماء القرآن :

للقرآن الكريم أسماء كثيرة : أشهرها . (القرآن) ومنها (الفرقان) ، لأنه فارق بين الحق والباطل قال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (١)) ومنها (الكتاب) وهو مصدر لكتب بمعنى . الجمع والضم . أريد به القرآن لجمعه العلوم والقصاص والأخبار على أبلغ وجه ، قال تعالى : والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبدش المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً (٢)

ومنها : التنزيل . مصدر أريد به المنزل ، لنزوله من عند الله ، قال تعالى : ولأنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٣) ، وغيرها من الآيات كثير

ومنها : « الذكر ، سمي به القرآن ، لاشتماله على المواعظ والزواجر . وقيل : لاشتماله على أخبار الأنبياء ، والأمم الماضية . وقيل . من الذكر ، بمعنى : الشرف . قال تعالى : « ولأنه لذكر لك ولقومك (٤) ، أي . شرف

(١) سورة الفرقان الآية ١ (٢) سولكف الآية ١ - ٢

(٣) فصلت الآية ٤١ - ٤٢ (٤) أممت الآية ٤١ - ٤٢

(٥) الزخرف ٤٤

لأنه نزل بلغتكم وقال تعالى . «إنا نحن نزلنا الذكر . . وإنا له لحافظون» (١) ،
وهذه الأربعة هي أشهر الأسماء بعد لفظ «القرآن» ، وقد صارت
أعلاما بالغلبة على القرآن في لسان أهل الشرع وعرفهم

وقد تسامح «أبو المعالي» . عزيزى بن عبدالملك» - المعروف بـ «شيدلة»
في كتابه «البرهان في مشكلات القرآن» - في عدم ما ليس باسم اسما ، بلغ بها
خمس وخمسين اسما وقد نقل ذلك عنه «السيوطى» في «الإتقان» ووافق
ثم شرع يوجه ما ذكره من الأسماء (٢) ، وبلغ بها صاحب «التبيان» نيفا
و تسعين اسما

ومما ينبغى أن يتنبه إليه أن أغلب ما ذكره أسماء للقرآن هو في الحقيقة
أوصاف له ، فمثلا : عدوا من الأسماء لفظ «كريم» ، أخذنا من قوله تعالى .
«إنه لقرآن كريم» (٣) ولفظ «مبارك» ، أخذنا من قوله تعالى . «وهذا ذكر
مبارك» . (٤) ، مع أن الظاهر كونهما وصفين للقرآن لا اسمين

كما أن في بعض ما عدوه اسما للقرآن بعدا وتكلفا في أن المراد به القرآن
وذلك مثل عدم من الأسماء . «مناديا» ، لقوله تعالى . «ربنا إنا سمعنا
مناديا ينادى للإيمان» (٥) ، ومثل عدم من الأسماء «زبور» ، لقوله تعالى :
«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» (٦)
مع أن الظاهر . والذي عليه جمهور المفسرين ، أن المراد بالمنادى الرسول
وبالزبور . الكتاب المنزل على داود - عليه السلام - والذكر النوراة وقيل
الزبور . جميع الكتب المنزلة ، والذكر . اللوح المحفوظ ، ويكون المراد
بالزبور الوصفية لا العلية ، فهو بمعنى الزبور أى المكتوب (٧)

(١) الحجر الآية ٩ . (٢) انظر الإتقان ١٥ ص ٥١-٥

(٣) الواقعة / ٧٧ (٤) الأنبياء / ٥

(٥) آل عمران الآية ١٩٣ (٦) الأنبياء الآية ١٠٥

(٧) انظر تفسير ابن كثير والبهرى ٥٣ ص ٥٤١

علوم القرآن بالمعنى الاضافى

والآن وقد وضع لنا المراد من كل طرفى « المركب الإضافى » يتبين لنا المراد من الإضافة التى بينهما . فهى تشير إلى كل المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن ، ومن ثم جمع لفظ « علوم » ولم يفرد . لأن المراد شمول كل علم يبحث فى القرآن من أى ناحية من نواحيه المتعددة . فيشمل ذلك « علم التفسير ، و « علم الرسم العثمانى » و « علم القراءات » و « علم غريب القرآن ، و « علم إيجاز القرآن » و « علم الناسخ والمنسوخ » و « علم المحكم والمتشابه » و « علم إعراب القرآن » و « علم مجاز القرآن » و « علم أمثال القرآن » . إلى غير ذلك من العلوم للكثيرة التى توسع العلماء فى بحثها ، وأفردوا لها المؤلفات المتكاثرة .

علوم القرآن بالمعنى اللقبى

أى الفن المدون

ثم اختصرت هذه المباحث والعلوم المتعددة ، وجمعت جل أصولها ومسائلهما فى كتاب واحد . وصار هذا العنوان « علوم القرآن » (١) علما ولقبا لهذه المباحث المدونة فى موضع واحد ، بعد أن كانت مبعثرة فى عشرات الكتب ، وصار علما واحدا بعد أن كان جملة من العلوم ، وبذلك يمكننا أن نعرف هذا الفن بمعناه « العلمى » - بفتح العين واللام - بأنه .

« علم ذو مباحث ، تتعلق بالقرآن الكريم . من حيث نزوله وترتيبه وكتابته وجمعه وقراءاته وتفسيره وإيجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه

(١) وامل الإبقاء على الجمعية بعد صيرورته هذا واحدا لما الأصل ، والإشارة إلى أنه خلاصة علوم كثيرة تجمعت فى مصب واحد وهو هذا العلم

إلى غير ذلك من المباحث التي تذكر في هذا العلم.

وموضوع هذا العلم . القرآن الكريم من أية ناحية من هذه النواحي السابقة في تعريفه . بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافي ، فإن موضوع كل علم منها إنما هو « القرآن الكريم » من هذه الناحية فحسب ، فعلم « التفسير » مثلا ؛ موضوعه . القرآن الكريم من حيث بيان شرحه ومعناه والمراد منه بقدر الطاقة البشرية ، وعلم « القراءات » موضوعه - ٤ - . القرآن الكريم من حيث لفظه وأداؤه ، وعلم الرسم موضوعه القرآن الكريم من حيث طريقة كتابته ، وهكذا

وفائدة علوم القرآن .

(١) إنه يساعد على دراسة « القرآن الكريم » وفهمه حق الفهم واستنباط الأحكام والآداب منه ، إذ كيف يتأتى لدارس القرآن ومفسره أن يتوصل إلى إصابة الحق والصواب ، وهو لا يعلم كيف نزل ؟ ولا متى نزل ؟ وعلى أى حال كان ترتيب سورته وآياته ؟ وبأى شيء كان إعجازه ؟ وكيف ثبت ؟ وما هو ناسخه ومنسوخه ؟ .. إلى غير ذلك مما يذكر في هذا الفن ، وإلا كان عرضة للزلل والخطأ .

فهذا العلم بالنسبة للمفسر مفتاح له . ومثله مثل (علوم الحديث) بالنسبة لمن أراد أن يدرس الحديث دراسة حقة . وقد صرح بذلك الإمام (السيوطي) في مقدمة (الإتيقان) حيث قال : (ولقد كنت في زمان طلب أتعجب من المتقدمين . إذ لم يدونوا كتابا في أنواع (علوم القرآن) كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى (علم الحديث) .

(ب) إن الدارس لهذا العلم يتسلح بسلاح قوى حاد . ضد غارات

أعداء الإسلام. التي شنوها على (القرآن الكريم) زورا وبهتانا واختلقوا عليه ما شاء لهم هوام أن يخلقوا. ولا شك أن الدفاع عن القرآن - الذي هو أصل الإسلام - من واجب الواجبات على الأمة الإسلامية . ولا سيما علماءها وأهل الرأي فيها . وإنه لشرف عظيم . وفضل كبير أن يكون المسلم مناخا عن هذا الكتاب الجليل .

(ج) إن المدارس لهذا العلم يكون على حظ كبير من العلم بالقرآن . وبما يشتمل عليه من أنواع العلوم والمعارف . ويحظى بثقافة عالية وواسعة فيما يتعلق بالقرآن الكريم . وإذا كانت العلوم ثقافا للعقول . وصلاحا للقلوب وتهذيباً للأخلاق . وإصلاحاً للنفوس والأكوان . وعنوان للتقدم والرقى . وباعثة للنهضات . ففي القمة - من كل ذلك - (علوم القرآن) فالقرآن أحسن الحديث . وأصدق . وعلومه أشرف العلوم وأوجبها على كل مسلم أيا كان تخصصه وأيا كانت حرفته .

تاريخ علوم القرآن

قبل عصر التدوين :

كان (القرآن الكريم) ينزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - مستجماً على حسب الوقائع والحوادث وحاجات الناس . وقد تكفل الله لنبيه : أن يقرئه (القرآن) ويفهمه معناه ، قال تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه)^(١) أى : جمعه في صدرك . وإثبات قرآته على لسانك . وبيان ما يخفى من معانيه . وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلم من القرآن وعلومه ما لا يعرفه أحد . وذلك بسبب الوحي والقبوضات الإلهية التي كانت تلقى في قلبه . ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه

لأصحابه فقرأه على مكث (١) . ليحفظوا لفظه ويفهموا معناه . ويقفوا على أسراره . وشرحه لهم بأقواله . وأفعاله وتقريراته وأخلاقه - أى بسنته الجامعة لكل ذلك - قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر . لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٢) وقال . (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . الآية (٣)

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يحرصون غاية الحرص على حفظ ما ينزل من القرآن ، على حسب ما يتيسر لكل واحد منهم وتفاوتهم في الحفظ قلة وكثرة . كما كانوا يعرفون من معاني القرآن ، وعلومه وأسراره الشيء الكثير ، لكونهم عربا خلصا متمتعين بمزايا هذه العروبة ومن صفاء القلوب ، وذكاء العقول ، وسيلان الأذهان ، وقوة الحافظة ولأنهم شاهدوا الوحي والتنزيل ، وعلوا من الظروف والملاسات ما لم يعلمه غيرهم ، وسمعوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - ما لم يسمعه غيرهم ، ورأوا من أحواله ما لم يره غيرهم وكان ابن مسعود - رضى الله عنه - من أعلم الصحابة بعلوم القرآن ولا سيما علم أسباب النزول . وعلم المكي والمدني . وعلم قراءاته روى البخاري بسنده عنه أنه قال : والله الذي لا إله غيره ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت ؟ ، وفيه نزلت ؟ ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه المظن لركبت إليه .

فإن خفي عليهم من القرآن شيء لم يدركوه بفطرتهم اللغوية ، ومعارفهم المكتسبة . رجعوا فيه إلى النبي ، فيعلمهم إياه . فن تم تجمع لهم من علم القرآن ، شيء كثير .

(١) تودة ونملى ، ومن لوازم ذلك التحقق من اللفظ ، وتفهم المعنى

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠٥ .

روى أنه لما نزل قوله تعالى : «الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم
بظلم . أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون» (١) . اهتم الصحابة ، وقالوا
أينالم يظلم ، فبين لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أن المراد بالظلم :
الشرك ، أخذنا من قوله الله تعالى . (يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك
لظلم عظيم) (٢) .

وروى : أنه لما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ، حتى يتبين لكم
الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (٣) ، عهد « عدى بن حاتم » إلى
عقالين ، أحدهما : أبيض ، والآخر : أسود ، ووضعهما تحت وساده
حتى بين له النبي - صلى الله عليه وسلم - أن المراد بالخيطين . بياض النهار
وسواد الليل . . . وغير ذلك كثير .

ولم يكن هم الصحابة حفظ ألفاظ القرآن لحسب . بل جمعوا إلى حفظ
اللفظ فهم المعنى ، وتدبر المراد . والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام
والآداب . قال « أبو عبد الرحمن السلمي (٤) » . « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا
القرآن . . . كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود . وغيرهما . أنهم كانوا إذا
تعلموا من النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا
مافيهما من العلم والعمل . قالوا . فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا .
ولهذا كانوا يتقون مدة في حفظ السورة الواحدة . وهذا هو السرفجاروى

(١) سورة الانعام الآية ٨٢ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة / ١٨٧ .

(٤) هو « عبد الله بن حبيب بن ربيعة ، تلميذ اميرى المؤمنين « عثمان »
و « علي » واضراهما من علماء الصحابة . كابن مسعود . وزيد بن ثابت .
وابن كعب وكان من خيار التابعين ، ومن علمهم بالقرآن .

أن « ابن عمر » أقام على حفظ « البقرة » ثمان سنين ذكره مالك في «الموطأ» وما يفسر لنا قول «أنس» - رضئ الله عنه - . « كان الرجل إذا قرأ «البقرة» و «آل عمران» جد في أعيننا (١) ، أى . عظم .

وعلى ما كان عليه الصحابة من العروبة الخالصة . والتصرف في فنون القول . وأخذهم بزمام الفصاحة . فقد خفيت عليهم بعض ألفاظ «القرآن» اللغوية . ولم يعرفوا معناها . أخرج « أبو عبيد » في «الفضائل» عن إبراهيم التيمي . أن أبا بكر - الصديق - سئل عن قوله تعالى . « وفاكهة وأبا » فقال « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم ، .

وأخرج عن «أنس» أن «عمر بن الخطاب» - رضئ الله عنه - قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : « هذه ، الفاكهة » قد عرفناها . . فما الأب ؟ ، ثم رجع إلى نفسه فقال : « إن هذا هو الكاف ياعمى ؛ وما عليك يا ابن أم عمر . أن لا تدري : ما الأب ؟ ، لأن عدم معرفة معنى كلمة من القرآن لا تضر المسلم مادام حافظاً للقرآن عاملاً بكل فيه من الأحكام والآداب

وأخرج أيضاً من طريق « مجاهد » عن « ابن عباس » قال . « كنت لا أدرى . ما « فاطر السموات (٢) ؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما . أنا فطرتها ، أى ابتدأتها . . وروى عنه أيضاً أنه قال ، « ما كنت أدرى . ما قوله . « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » (٣) حتى سمعت بنت « ذى وزن » - وقد جرى بينى وبينها كلام - تقول « تعال أفاتحك ، تريد . أقاضيك وأخاصمك (٤) .

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ ط السلفية

(٢) سورة فاطر ١ (٣) الأعراف ٨٩ (٤) الإنقان ١٣ ص ١١١ .

مقدمة تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٠١٤

وبلغ الصحابة ما حملوه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من تفسير القرآن وعلومه ، وما فهموه منه باجتهادهم إلى من جاء بعدهم من التابعين ، وبلغه التابعون إلى من جاء بعدهم ، فقد كان المعول عليه في القرون الأولى ، في « علوم القرآن » وكذلك الحديث وعلومه - هو الرواية والتلقي عن الغير والمشافهة لا على الخط والكتابة ، وقد استمر الأمر على هذا ، إلى أن جاء عصر التدوين ، فدونت المعارف والعلوم في الصحف والسطور ، بعد أن كانت مقيدة محفوظة في الصدور .

عصر التدوين :

لم تكن « علوم القرآن » وغيرها من العلوم مدونة في « العصر الأول » في الكتب والصحف . بل كانت مدونة على صفحات القلوت ، وإنما كان المدون والمكتوب هو « القرآن الكريم » فحسب^(١) ، وذلك لما ورد في الصحيح : من النهي عن كتابة القرآن :

روى مسلم في صحيحه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . »

(١) والقرآن الكريم . مع كونه كان مكتوباً في عهد النبي . ثم جمع في عهد « أبي بكر » في الصحف ، وفي عهد « عثمان » في المصاحف ، فقد كان يعتمد - الحفاظ والقراء على الرواية ، وهي التلقى من الشيوخ ، وأداء ما تلقه - وه إلى من جاء بعدهم ، ولم يعرف عنهم أنهم كانوا يعتمدون في الحفظ والقراء على المكتوب فحسب ، ولم توجد هذه البدعة إلا في العصر الأخير وإن كان القراء المجيدون لا يزالون في عصرنا يعتمدون على التلقى الشفاهي ، والأخذ عن الشيوخ .

فن ثم تخرج الصحابة والتابعون من كتابة وتدوين غير القرآن حتى الحديث الشريف لم يدونوه ، واكتفوا فيه وفي علومه بالحفظ والرواية .. إلى أن كان عهد « علي » - رضى الله عنه - فأمر « أبا الأسود الدؤلي » بوضع علم « النحو » فكان هذا فاتحة خير لتدوين علوم الدين ، واللغة العربية :

وفي العهد الأموي : اتسعت دائرة التدوين والتأليف عن ذي قبل ، وفي هذا العهد رأى الخليفة الراشد « عمر بن عبد العزيز » - رضى الله عنه - أن يجمع الأحاديث : فأمر علماء الأمصار بجمع أحاديث الرسول ؛ مخافة أن يذهب شيء منها بذهاب العلماء ، وحتى يتميز الصحيح من السقيم ، والمقبول من المردود .

وفي العصر العباسي : اتسعت دائرة التأليف ، واتسعت حتى شملت معظم علوم الدين واللغة العربية بل وغير علومها كالفلسفة وفروعها ، فقد ترجم كثير من كتب الفلسفة في هذا العصر .

وهكذا نرى : أن حركة التأليف والتدوين نشطت نشاطاً قوياً في هذا العصر ، وكان « لعلوم القرآن » من هذا النشاط حظ غير قليل .

التدوين في علوم القرآن بالمعنى الإضافي أى العام :

وكان من الطبيعي أن يكون أول ما يدون من « علوم القرآن » هو علم « التفسير » ، إذ هو الأصل في فهم القرآن وتدبره ، وعليه يتوقف استنباط الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام .

فألف في تفسير القرآن سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ وديلميان ابن عيينة ، المتوفى سنة ١٩٨ هـ . و « وكيع بن الجراح » ، م سنة ١٩٧ هـ . و « شعبة بن الحجاج » ، المتوفى سنة ١٦٠ هـ و « مقاتل بن سليمان » ، المتوفى سنة ١٥٠ هـ وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين .

ثم تلامه محمد بن جرير الطبري ، المتوفى سنة ٣١٠ هـ . فألف تفسيره المشهور ، وهو من أجل التفاسير ، وأعظمها ، لأنه أول من تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وبذلك يعتبر أول من حاول مزج التفسير بالمأثور بالتفسير بالرأى والاجتهاد .

وكان تفسير ابن جرير الطبري ، قطرة تلاها غيث كثير ، فألف في التفسير بقسميه : المأثور وغير المأثور ، خلق لا يحصون ، من أجلة العلماء ، ما بين مطب ومتوسط وموجز ، وما بين مفسر للقرآن كله ، ومفسر لبعضه .

وقد شملت هذه الحركة التأليفية كل نوع من أنواع علوم القرآن ، تقريباً فألف في أسباب النزول علي بن المديني ، شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ،

وفي الناسخ والمنسوخ أبو عبيد القاسم بن سلام ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وأبو جعفر أحمد بن محمد النحاس م سنة ٣٣٨ هـ ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

وألف في مشكله وغريبه ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ،

كما ألف في غريبه ومفرداته ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، وأبو بكر السجستاني م ٢٣٠ هـ و الراغب الأصفهاني ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ .

وألف في إعرابه ، محمد بن سعيد الحوفي ، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ .

كما ألف في إعجاز القرآن ، الرمانى ، م ٢٨٤ هـ و ، الخطابي ، م سنة ٣٨٨ هـ ، و أبو بكر الباقلاني ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، وغيرهم .

وفي مجاز القرآن « ابن قتبية » المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، والشريف الرضى
م ٤٠٦ هـ و « العز بن عبد السلام » م سنة ٦٦٠ هـ .

وفي قراءاته (علم الدين السخاوى) م ٦٤٣ هـ ، و (ابن الجزرى)
م ٨٣٣ هـ .

وفي أقسامه (ابن القيم الجوزيه) المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

وفي أمثاله : (أبو الحسن الماوردى) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، وألف في جده
(نجم الدين الطوفى) م ٧١٦ هـ وفي فضائله أبو عبيد (م ٢٢٤) و (النسائى)
المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ، و (ابن كثير) المتوفى سنة ٧٧٤ هـ إلى غير ذلك من
المؤلفات المتكاثرة ، التي تناولت كل نواحى القرآن العديدة .

وقد سلك هؤلاء العلماء فى تأليفاتهم طريقة الاستيعاب والانسقراء
لأجزاء الأنواع التى ألفوا فيها . فمن دون فى (مجاز القرآن) يتبع كل آية
فيها مجاز ، ومن يؤلف فى أمثاله يتبع كل آية فيها مثل ، ومن يؤلف فى
أقسامه يتبع كل آية فيها قسم ، حتى تكونت من كل ذلك ثروة ضخمة
فى (علوم القرآن) وبحسبك أن تتناول فهرسا لمكتبة من المسكاتب العامة ،
وستجد ما يبهرك ، وأن المؤلفات التى تدور فى فلك (القرآن) فى العصور
المتعاقبة تملأ خزانه كبيرة فسيحة .

علوم القرآن ، بمعنى الفن المدون

وهناك طريقة أخرى فى التأليف ، فقد رأى بعض العلماء أن
يجمعوا هذه الأنواع فى كتاب مستقل على غرار ما صنع المحدثون فى
« علوم الحديث » فاستخلصوا من هذه العلوم علما واحدا ، يكون
كالفهرس لها ، يجمع خصائصها ومقاصدها ، وإن لم يحط بكل مسائلها وأجزائها ،
فكان هذا العلم الذى سموه « علوم القرآن » .

وتد جاء التدوين على هذه الطريقة متأخرا عن التدوين على الطريقة

الأولى ثم سارا بعد ذلك جنبا إلى جنب ، فكان بعض العلماء يؤلف في العلم كمن مستقل ، والبعض يؤلف في نوع من أنواعه . متى ظهر هذا الاصطلاح ؟ :

كان المعروف لدى الكاتبين في هذا الفن أن ظهور هذا الاصطلاح كان في القرن السادس الهجري ، على يد «أبي الفرج ابن الجوزي» ، استنتاجا بما ذكره «السيوطي» ، في مقدمة «الإتقان» .

ولكنني وقفت على مؤلف بعنوان . «مقدمتان في علوم القرآن» ، طبع في عام ١٩٥٤ ، ووقف على التصحيح والطبع الأستاذ المستشرق «آرثر جفري» ، وإحدى هاتين المقدمتين لمؤلف لم يعرف ، لفقدان الورقة الأولى من المخطوطة (١) . التي نقل عنها الطابع ، إلا أنه ذكر في الصحيفة الثانية منها : أنه بدأ في تأليف كتابه في سنة أربع مائة وخمس وعشرين ، وسماه «كتاب المباني في نظم المعاني» ، وهو تفسير للقرآن الكريم وقد صدره بهذه المقدمة ، وهي تقع في عشرة فصول ، وهي إحدى المقدمتين المنشورتين ، والأخرى : مقدمة التفسير للإمام «عبد الحق بن أبي بكر» المعروف «بابن عطية» المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

وقد ذكر صاحب كتاب (المباني) في فصول هذه المقدمة العشرة : المسكى والمدنى ، ونزول القرآن ، وجمع القرآن وكتابة المصاحف ، واختلافها ، ورد الشبه الواردة على الجمع والمصاحف وبيان عدد السور والآيات والتفسير والتأويل ، والمحكم والمتشابه ، ونزول القرآن على سبعة أحرف إلى غير ذلك من مباحث (علوم القرآن) .

وقد بلغت هذه المقدمة مائتين وخمسين صحيفة من هذا الكتاب المطبوع وتمتاز هذه المقدمة بإشراق اللفظ ونصوع البيان ، وقوة الحجج ،

(١) هذه المخطوطة هي الوحيدة من هذا الكتاب ، وتوجد في دار الكتب ببرلين

عما يلقى ضوءاً على أن المؤلف من علماء الأندلس كما استنتج المصحح ،
وعسى أن يتاح لي ، أو لأحد الباحثين الوقوف على مؤلف هذا الكتاب
- إن شاء الله تعالى - .

وإن أغلب ما ذكره (السيوطي) في مقدمة (الإتيقان) من الكتب
المؤلفة في هذا الفن ، لا يداني هذه المقدمة ، بل بعضها لا يزيد عن فصل
من فصولها فهي جديرة بأن تذكر في كتب هذا الفن ، وهي - بحق -
تعتبر محاولة جديفة في التأليف في هذا العلم ، ولا يغض من قيمتها أنها مقدمة
لتفسير ، فكتاب الإتيقان الذي هو عمدة كتب الفن ، قد جعله مؤلفه مقدمة
لتفسيره الكبير كما ذكر .

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أذكر : أن بعض المفسرين في القديم
والحديث صدروا كتبهم بمقدمات قيمة في « علوم القرآن » ، لتكون
مفتاحاً لهذه التفاسير ، ولا تزال إلى اليوم مرجعاً للكاتبين في هذا الفن ،
وذلك كما فعل « ابن جرير الطبري » و « القرطبي » و « الألويسي » في
تفاسيرهم . ولعل أطول هذه المقدمات وأحفلها هي مقدمة تفسير
« القرطبي » ، وهي - على طولها - لا تبلغ ما بلغته هذه المقدمة في طولها ،
وتنوع موضوعاتها .

ويرى أستاذنا الشيخ « محمد عبد العظيم الزرقاني » - رحمه الله
وأثابه - في كتابه « مناهل العرفان » : إن هذا الإصطلاح ظهر في مستهل
القرن الخامس على يد « الحوفي » المتوفى سنة ٤٣٠ هـ في كتابه (البرهان
في علوم القرآن) . والرأى عندي : إن هذا الكتاب لا يخرج عن كتب
التفسير ، التي تتعرض لذكر التفسير ، وأسباب النزول والقراءات ،
والوقف والتمام ، ولا فرق بين صنيعه وصنيع (القرطبي) و (الفخر
الرازي) في تفسيرهما ، فكتابه هذا أمس بالتفسير منه بعلوم القرآن ،
وإن كانت التسمية تشعر أنه بعلوم القرآن أمس وقد ذكر - رحمه الله - :

أن الجزء الأول مفقود ، ولا أدري من أين عرف التسمية ؟ ولعله اعتمد على فهرس دار الكتب المصرية وقد رجعت إلى كتاب كشف الظنون (الجزء الأول ص ٢٤٢) فتبين لي إن اسم الكتاب (البرهان فى تفسير القرآن) وبذلك زالت الشبهة فى عده من علوم القرآن ، وثبت أنه كتاب تفسير ، وهو الحق والصواب .

وفى القرن السادس الهجرى . ألف الإمام (أبو الفرج بن الجوزى) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابا سماه : افنون الأفنان ، فى علوم القرآن) وكتابا آخر سماه : (المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن ^(١)) .

وفى القرن السابع : ألف الشيخ (علم الدين على بن محمد السخاوى) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ كتابا سماه (جمال القراء) . وألف العلامة (أبو شامة . المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتابا سماه (المرشد الوجيز . فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز) . وهذه الكتب - كما قال (السيوطى) - : عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذ قصيرة) بالنسبة للمؤلفات التى ألفت بعد فى هذا العلم .

ثم أهل القرن الثامن : فألف فيه للإمام (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى) المولود سنة ٧٤٥ والمتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتابا سماه : (البرهان فى علوم القرآن) ، ذكر فيه سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن ، وقد سردها (السيوطى) فى مقدمة إتيقانه ، ثم نقل عن (الزركشى) قوله : « واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لآفرغ عمره ، ثم لم يحكم أمره ، وليكننا اقتصرنا من كل نوع على أصوله ، والرمز إلى بعض فصوله ، فإن الصناعة طويلة والعمر قصير ، وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير . »

وهو كتاب جليل ، لا يفوقه فى هذا العلم إلا كتاب (الإتيقان)

(١) هما مخطوطان بدار الكتب .

السيوطي ، وقد اعتمد عليه السيوطي في تأليف إتقانه . كما استعلم فيما بعد .
وللإمام (تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني) المتوفى سنة ٧٢٨ هـ رسالة
في (أصول التفسير) وهي على وجازتها قيمة جدا ، وقد اشتملت على بعض
أنواع (علوم القرآن) .

ثم طلع القرن التاسع : فترعرع فيه هذا العلم ، وخطا خطوات فسيحة ،
فقد ألف فيه الإمام (محمد بن سليمان الكافيجي) المتوفى سنة ٨٧٣ هـ ، كتابا
يقول مؤلفه عنه : « لأنه لم يسبق إليه ، وهو صغير جدا في بابه ، وقد رتبته
على بابين وخاتمه :

الأول : في ذكر معنى التفسير والتأويل ، والقرآن والسورة والآية .
والثاني : في شروط القول بالرأى . والخاتمة : في آداب العالم والمتعلم .
وفي هذا القرن أيضا ، وضع الإمام (جلال الدين البلقيني) المتوفى سنة
٨٢٤ هـ كتاباً أسماه : (مواقع العلوم من مواقع النجوم) قال في مقدمته . « قد
اشتهرت عن الإمام (الشافعي) - رضي الله عنه - مخاطبة لبعض خلفاء
بني العباس (١) ، فيها ذكر بعض أنواع القرآن . يحصل منها المقصدنا الاقتباس
وقد صنّف في (علوم الحديث) جماعة في القديم والحديث ، وتلك الأنواع

(١) ذلك أنه قد وشى به حساده عند (الرشيد) بأنه يعمل له - لو بين ، وأنه
يؤثر بلسانه ما لا يؤثره المقاتل بسيفه ، فأمر به هرون الرشيد فحمل على بقل وهو
مكبل بقيود الحديد حتى قدم عليه ببغداد ، فدافع عن نفسه حتى ظهرت براءته .
ولقد كان لغزارة هذه أكبر شافع له في هذه المحنة فقد تناظر بين يدي الرشيد
هو ، ومحمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة فأدهش الحاضرين بحجته وقلبه
بالصواب ، ولما أعجب به الرشيد سأله عن كتاب الله . فقال الشافعي : عن
أى كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله قد أنزل كتباً كثيرة .
فقال الرشيد . قد أحسنك ، لكنني إنما سألت عن كتاب الله الذي أنزل على ابن
عمي (محمد) صلى الله عليه وسلم فقال الشافعي . إن علوم القرآن كشـ فهل
تسألني عن حكمه ومتشابهه ؟ أو عن تقديمه وتأخيريه ؟ أو عن ناسخه ومنسوخه ؟ =

في سنده دون متنه ، أو في مسنده وأهل فنه^(١) ، وأنواع علوم القرآن شاملة ، وعلومه كاملة ، فأردت أن أذكر في هذا التصنيف ما وصل إليه علمي ، بما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف ، وقد ذكر في كتابه هذا خمسين نوعا من علوم القرآن وقد سردها (السيوطي) في مقدمة (الإتقان) .

ثم جاء فارس هذه الحلية . الإمام د جلال الدين عبدالرحمن بن السكّال الأسيوطي ، المولود سنة ٨٤٩ والمتوفى سنة ٩١١ هـ ، فألف كتابا سماه : «التجوير في علوم التفسير» ضمنه ما ذكره شيخه البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وقد فرغ منه سنة ٨٧٢ هـ ، لكن نفسه التواقة إلى المعرفة والاستقصاء لم تقنع بهذا المجهود ، فعزم على تأليف كتاب جامع يسلك فيه مسلك الإحصاء والجمع ، والضبط مع حسن الترتيب ، والتبويب ، وفي هذه الأونة . . . وقف على كتاب «البرهان» للزركشي ولم يكن اطلع عليه من قبل فقوى عزمه على إبراز ما أراد ، وسأدع «السيوطي» يتحدث عن نفسه في هذه الفترة ، التي خطر له فيها تأليف هذا الكتاب الجامع فيقول .

فبينما أنا أجيل في ذلك فتكرى ، أقدم رجلا وأؤخر أخرى^(٢) ، إذ بلغني أن الشيخ الإمام د بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ألف كتابا حافلا يسمى «البرهان في علوم القرآن» فتطلبتة ، حتى وقفت عليه ، ثم قال : «ولما وقفت عليه ازددت به سرورا ، وحدثت الله كثيرا ، وقوى العزم على إبراز ما أضمرته ، وشددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته ،

أو عن... أو هن... وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويوجب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين وهذه القصة تدل على أن مباحث علوم القرآن كانت معلومة للعلماء مركزوزة في نفوسهم قبل أن تدون ، وتقيد في الكتب .

(١) رجاله وأمنته .

(٢) أي وأؤخرها أخرى كتابه عن التردد في الشيء . فالفعل محذوف وهو الضمير و «أخرى» صفة لموصوف محذوف أي «وأخرها مرة أخرى»

فوضعت هذا الكتاب العلى الشأن، الجلى البرهان، الكثير الفوائد والإتقان ورتبت أنواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان ، وأدجت بعض الأنواع فى بعض ، وفصلت ماحقه أن يبان، وزدته على ما فيه من الفوائد والفرائد والقواعد والشوارد ما يشف الآذان ، وسميته بـ «الإتقان فى علوم القرآن» وقد جعله مقدمة للتفسير الكبير الذى شرع فيه ، والجامع بين الرواية والدراية ، والمسمى : «مجمع البحرين ومطلع البدرين» .

«الإتقان فى الميزان»

الإمام «السيوطى» - عليه رحمة الله - رجل طلعة باقعة ، (٢) لم يدع شاردة ولا واردة ، إلا اطلع عليها ، فلا عجب أن جاء كتابه كالفهرس لعلوم القرآن ، وقد ذكر فيه خلاصات مئات الكتب المؤلفة فى هذه العلوم ، وفى غيرها ، وبحسبك أن تقرأ أسماء الكتب التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه ، وقد سردها فى مقدمته ، لتبين صدق هذا القول .

ومن محاسن «الإتقان» أن يذكر فى مقدمة كل نوع من أنواعه الكتب التى ألفت مستقلة فى هذا النوع وهو بهذا يرشد القارى إلى المراجع ، ويحمله على الاستزادة فى البحث ، والتحرى عن الحقائق ، واستقصاء ما كتب فى الموضوع ، ثم يأخذ فى ذكر نقول ونماذج من هذه الكتب ، توضح ما عنون له ، وفى هذه النقول روايات صحيحة وجياد ، لا يرد عليها ، أى طعن ولا يعلق بها غبار ، وفيها مرويات زائفة مدسوسة . وكان الأولى أن ينبه عليها ، أو ينزه كتابه عن ذكرها .

وقد اتخذ المبشرون والمستشرقون ، وأضرابهم المتابعون لهم من هذه الروايات مادة للطعن فى «القرآن» والإسلام؛ فقد صادفت هوى فى نفوسهم المريضة ، فقالوا ما شاء لهم هواهم أن يقولون من زور واقتراء .

(٢) طلعة - نضم الطاء - وفتح اللام - كثير الاطلاع ، والباقعة ، الذكى

والإمام « السيوطى » من حفاظ الحديث - ولاريب - ومثله أجل من أن يذكر مثل هذه الروايات الواهية الساقطة التي تصل إلى حدالوضع والاختلاق دون التنبيه عليها ، ولعله يرى ؛ أنه مادام ذكر الرواية بسندها أو عزاها إلى مخرجها ؛ فقد أعنى نفسه من التبعة ، وعلى القارىء أن يبحث ويجد فى البحث حتى يصل إلى مفصل الحق فى هذه الروايات المريبة . وهو أى لبعض حفاظ الحديث .

على أن هناك حقيقة ينبغى التنبيه إليها ، وهى أن الإمام « السيوطى » من نقاد الحديث ، المشددن جداً فى الحكم بالوضع أو السقوط ، ومن المتمسكين بحرفية قواعد أصول الحديث ، وربما يرجح هذه الحرفية على القرائن التي تؤكد تنطق بأن هذه الروايات مدسوسة على الحديث ورجاله .

وهناك حقيقة أخرى : وهى أن نقاد الحديث وأئمتهم ، ليسوا فى درجة واحدة فى أصالة النقد وبعد الغور وشفوف النظرى ، والكشف عن المعايير الخفية ، فمنهم الناقد الجهميد ، والصيرفى الماهر ، الذى لا يخفى عليه التزييف مهما استتر ، ومنهم الطيب النطاسى ، الذى يعرف ممكن الداء بمجرد النظر ومنهم من هو دون ذلك ، فمن ثم خفيت هذه الروايات المدسوسة على بعض العلماء دون بعض ، واغتر بها البعض فذكرها فى كتبه ، وتنبه إليها بعضهم ؛ فلم يخدع بها بل نبه على وضعها .

ومن المآخذ التي أخذتها على مؤلف هذا الكتاب أنه يذكر بعض الأقوال الشاذة والآراء الباطلة ، ويمر بها من غير أن يفندها ، ويبين بطلانها وليس من شك فى أن ذكر هذه الآراء من غير تمحيص ، وتحقيق ؛ يضرب بالقارىء الذى لم يتعمق فى الدراسات الإسلامية ، وليس له من العلم بأصول الدين ما يعصمه من قبول هذه الآراء الزائفة المنتشرة ، أو على الأقل ما يوقعه فى بلبلة فكرية ، وشكوك عليه .

والكتاب مع هذا « نفيس » ، ولكنه محتاج إلى التحقيق ، والتعليق ، حتى يسلم من هذه العيوب المعدودة ، وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه ! وقد راودتني هذه الفكرة مراراً .. إلا أن الأحوال لم تكن مواتية والفراغ غير ميسر ، ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهد جهيد وتفريغ ، وعسى أن يقوم بهذا العمل الجليل « قسم الدراسات العليا ، بكلية أصول الدين ، وبهذا يكون قد أسدى للعالم خدمة تذكر فنشكر .

وقد كان كتاب « الإيقان » - ولا زال - أوفى مرجع في هذا العلم ، وعليه اعتماد من جاء بعد مؤلفه من العلماء إلى عصرنا هذا ، وبهذا الكتاب توقف التأليف في « علوم القرآن » أو كاد . . ولم نعلم أن أحداً ألف في « علوم القرآن » إلا ما كان من الامام العلامة الشاه « أحمد ، المعروف بولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ فقد ألف رسالة سماها : « الفوز الكبير في أصول التفسير ، وهي رساله صغيرة .. إلا أنها اشتملت على مباحث قيمة ، وهي مطبوعه في « الهند ، .. إلى أن جاء العصر الاخير .. عصر نهضة العلوم .

عصر نهضة العلوم :

لما نهضت العلوم في العصر الأخير كان « لعلوم القرآن » من هذه النهضة نصيب ملحوظ ، ونشاط ملبوس ، فبدأت الحياة تدب في « علوم القرآن » من جديد . والذي ساعد على هذا النشاط ، وبعث هذه الحياة ، ما أخذ به « الازهر » في تطوره في القرن الأخير من إدخال الدراسات التخصصيه في منهجه - فخطى القرآن الكريم وعلومه يبعث شعب التخصص . ولم تقف مباحث علوم القرآن عند الأنواع التي عنى بها المؤلفون القدامى ، بل أضيفت مباحث أخرى ، فقد جدت بعض المباحث ، مثل ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ، وقد تناولها العلماء بالبحث ما بين مجوز ومانع ، وألغوا في الاتصاف لآرائهم الكتب والرسائل ، وكذلك جدت بعض الشبه التي أوردها المبشرون والمستشرقون ، ومتابعوهم من الكتاب

المعاصرين ، فرأى الغيارى المخلصون من علماء « الأزهر » وغيرهم أن يناهضوا هذه الحركة الهدامة . التي تتعرض لأقدس ما يقدهه المسلمون ، وهو « القرآن الكريم » ، فوضعوا في الرد على هؤلاء الطاعنين بعض الكتب والرسائل ، وبذلك أضيفت إلى مباحث هذا العلم مباحث أخرى جديدة ، وتضخمت هذه الثروة العلمية أكثر من ذي قبل ومن هؤلاء الذين حملوا شرف الدفاع عن القرآن الكريم الأستاذ الأكرم الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله - أحد شيوخ الجامع الأزهر الشريف في العصر الأخير ، فقد ألف كتاباً قيماً في الرد على أعدائهم طه حسين فيما ذكره في كتابه « الشعر الجاهلي » ، من شبهات على القرآن الكريم ، وقد فند شبهاته التي أوردها مع العفة في القول ، والأصالة في النقد كما هو شأن العلماء الراسخين ، وكذلك صنع العالم الكبير الأستاذ الشيخ محمد عرفه - مد الله في عمره في الرد على الدكتور طه فيما كان يلقيه على طلاب الجامعة من محاضرات فيها طعن على القرآن الكريم ، وألف في ذلك كتاباً صغير الحجم ، ولكنه جم الفائدة ، وسماه « نقد مطاعن القرآن » .

المؤلفات في العصر الأخير :

في هذا العصر ألفت كتب في « علوم القرآن » بعضها شامل لجميع أنواعه أو لجزءها ، وبعضها في بعض أنواعه ومباحثه ، وبعضها سلك فيه مؤلفه مسلك الاطناب والاستقضاء ، وبعضها متوسط ؛ وبعضها قصير . فن المؤلفات التي اشتملت على كثير من أنواعه كتاب « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » ، للعلامة المغفور له الشيخ « طاهر الجزائري » ، فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ وهو مختصر لبعض مباحث كتاب « الاتقان » ، وألف المغفور له العلامة الشيخ « محمود أبو دقيقه » ، من كبار علماء الأزهر كتاباً سلك فيه مسلك التوسط . إلا أنه لم يتم .

جاء بعده المغفور له العلامة الشيخ « محمد علي سلامة » ، من كبار العلماء ، فألف كتاباً سماه : « منهج الفرقان في علوم القرآن » ، وقد سلك

فيه مؤلفه مسلوكاً وسطاً ، وقد اشتمل على الكثير من أنواع علوم القرآن . ثم سار على هذا المنهج وزاد عليه الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ، - رحمه الله - فألف كتاباً حافلاً في مجلد كبير سماه « مناهل العرفان في علوم القرآن ، وهو دون سابقه في إسياعاب أنواع علوم القرآن ، إلا أنه أوسع فيه القول ، وأطنب في بعض موضوعاته لإطناباً مشكوراً ولا سيما في الرد على الشبه والمشكلات التي أثيرت حول « القرآن » والوحي ، ويظهر أن المؤلف - عليه سبحانه الرحمة - كان في نيته أن يكمل الكتابة عماترك من الأنواع في جزء ثانٍ ، ولكن المنية عاجلته (١) .

رسائل وكتب في بعض علوم القرآن .

كما ألف بعض العلماء والادباء كتباً ورسائل في بعض أنواعه ، منهم المغفور لهم ، العلامة الشيخ محمد بنحيت الطيمى ، مفتى الديار المصرية سابقاً ، وله رسالة سماها : « الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن » . والعلامة الشيخ محمد حسنين العدوى ، والعلامة الشيخ محمد حلف الحسينى ، فقد كتباً في نزول القرآن على سبعة أحرف ، ومنهم أستاذنا العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى ، رحمه الله . فقد ألف رسالة سماها : « إيقاظ الأعلام في اتباع رسم المصحف الإمام ، وهى رسالة قيمة ، تم عن علم عزيز ومنهم المغفور له الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، فقد كتب رسالة بعنوان : « أثر القرآن في تحرير العقل البشرى ، وألقاها في « نادى دار العلوم ، ومنهم المرحوم الأستاذ محمد عبد العزيز الخولى ، فقد ألف كتاباً بعنوان « القرآن الكريم - وصفه - هدايته - أثره - إعجازه » . ومنهم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى ، - رحمه الله - فألف كتابه « إعجاز القرآن ، وهو على كثرة ما كتب في الإعجاز ، يعتبر بدعاً في باب

(١) بعد كتابة هذا وقف على جزء ثانٍ صغير في بعض مباحث علوم القرآن . وبذلك صار الكتاب في جزئين .

وقد كشف فيه عن كثير من إعجاز القرآن الأدبي والعلمي والاجتماعي
وللأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء
رحمه الله وأتابه - كتاب جليل سماه «النبأ العظيم» عرض فيه لإعجاز
القرآن ، وأبان عنه بطريقة علمية فنية ، ثم شرع يدل على إعجاز القرآن
البياني في سورة من سور القرآن ، وهى سورة البقرة احدى الزهراوين
بما لا يدع مجالاً للشك في أن هذا القرآن فوق مستوى قدر البشر، وأنه من
عند خالق القوى والقدرة

ولو أنه تناول القرآن كله على هذا المنوال لكان ذخيرة من الذخائر
القرآنية التى تنتفع بها الأجيال المتعاقبة ، فعسى أن يقيض له الله سبحانه
من يقوم بإتمام هذه الدراسة القرآنية على هذا المنهج المستقيم البديع .
«ترجمة القرآن الكريم»

وجدت مسألة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، وتناولها العلماء
والأدباء بالجواز والمنع ، فألف المغفور له الأستاذ الأكبر محمد مصطفى
المراغى ، شيخ الجامع الأزهر سابقاً رسالة بعنوان «بحث في ترجمة القرآن
الكريم» وأحكامها ذهب فيها إلى جواز الترجمة وألف المرحوم الأستاذ
محمد فريد وجدى رسالة بعنوان «الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى
القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وقد أيد فيها الترجمة ورد على المخالفين
وقد انبرى الرد على المجوزين للترجمة المغفور له العلامة الشيخ مصطفى
صبرى ، شيخ الإسلام بتركيا سابقاً فى كتاب دقق سماه «مسألة ترجمة القرآن»
كما عارض الترجمة المرحوم الأستاذ الشيخ محمد سليمان ، نائب المحكمة الشرعية
العليا سابقاً وسمى كتابه : «حدث الأحداث فى الإسلام» . الإقدام على
ترجمة القرآن ، وألف الأديب الصحفي محمد الهياوى ، رحمه الله - رسالة
بعنوان «ترجمة القرآن الكريم غرض فى السياسة وفتنة فى الدين» .
وقد ألف - ولا يزال يؤلف - فى بعض أنواع علوم القرآن كثير من
الأحياء من أفاضل العلماء والأدباء .

وقد كان لي شرف أن أدلى بدلوى في الدلاء ، وأن أشارك في التأليف في هذا المضمار الشريف الفسيح ، مضمار الدراسات الاصيلية في كتاب الله العزيز فكان هذا الكتاب « المدخل لدراسة القرآن الكريم ، وفي النية - إن شاء الله - متابعة البحث والتنقيب عن كنوز القرآن الكريم وعلومه ، حتى أخرج ما تيسر من مباحث هذا العلم المنيف في بضعة أجزاء ، والله الموفق والمعين وقد استفدت مما كتبه المؤلفون في القديم والحديث في علوم القرآن ، وأمكنتني أن آتى بجديد لم يسبقني أحد إليه ، وبتحقيق لبعض مسائله لم يحوم أحد عليه ، وبتهذيب ، وترتيب لبعض مباحثه . وكل ذلك بفضل الله وتوفيقه .

ولبعض الزملاء ، والاقربان وبعض التلاميذ والابناء في مصر ، وغير مصر ، وفي الأزهر ، وغير الأزهر كتب قيمة ، ورسائل جيدة ، في الدراسات القرآنية أو إن شئت فقل في « علوم القرآن ، فجازهم الله خيراً على صنيعهم هذا ، ولأنه لمضمار شريف ، وفيه فليتنافس المتنافسون .

وسيزل هذا الكتاب الكرم منهلاً عذبا ، ومورداً صافياً ، ومادة خصبة للباحثين والمفكرين ، يدورون في فلكه الدوار ويستظلون بظله الظليل ، ويستهدون بهديه القويم ، ويسهرون على ضوته ، ومنارته . وسيستمر مصدر حركة فكر وباعث حياة شعوب ، ومجدد شباب أمة ، وحارس لغة هي أشرف اللغات ، وأعذبها ، ومشغلة للفكر الإنساني حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

المبحث الثاني

نزول القرآن الكريم

هذا المبحث من المباحث المهمة ، إذ به يعرف تنزلات « القرآن الكريم »
ومتى نزل ؟ وكيف نزل ؟ وعلى من نزل ؟ وكيف كان يتلقاه جبريل - عليه السلام -
من الله تبارك وتعالى ؟ وعلى أى حال كان يتلقاه الرسول - صلوات الله وسلامه
عليه - من جبريل ؟ ولا شك أن العلم بذلك يتوقف عليه كمال الإيمان بأن
القرآن من عند الله وأنه المعجزة العظمى للنبي ، كما أن كثيراً من المباحثات
التي تذكر في هذا الفرع يتوقف على العلم بنزوله ، فهو كالأصل بالنسبة
لغيره ، والعلم بالأصل مقدم على الفرع ، فأقول - ومن الله استمد
العون والتوفيق .

معنى النزول :

النزول لغة يطلق ويراد : الحلول ، يقال نزل فلان بالمدينة : حل بها
وبالقوم : حل بينهم والمتعدى منه معناه : الإحلال ، يقال : أنزلته بين
القوم ، أى أحللتهم بينهم^(١) ، ومنه قوله تعالى . « رب أنزلني منزلاً مباركاً ..
وأنت خير المنزلين » .^(٢)

ويطلق أيضاً . على تحرك الشيء من علو إلى سفلى . يقال . نزل فلان

(١) فى القاموس : مادة « نزل » ، [النزول : الحلول ، نزلهم وبهم وعلبهم ينزلون
نزولاً ومنزلاً - حل . ونزله تنزيلاً ، وأنزلاً ومنزلاً كجمل ، واستنزله بمعنى ،
وتنزل : نزل فى مهلة] وفى المصباح المنير : [نزل من علو إلى أسفل ينزل نزولاً
ويتعدى بالحرف والمهزة والتضعيف ، يقال : نزل به . وأنزلته ونزلته واستنزلته
بمعنى : أنزلته والمنزل : موضع النزول ، والمنزلة مثله ، وهى أيضاً المسكاة ،
ونزلت هذا مكان هذا : أقمته مقامه قال ابن فارس : التنزيل ترتيب الشيء

(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٩

من الجبل ، والمتعدى منه معناه : التحريك من علو إلى سفلى ، ومنه قوله تعالى « أنزل من السماء ماء ... الآية » (١) .

وكلا المعنيين اللغويين لا يليقان بنزول القرآن على وجه الحقيقة ، لاقتضائهما الجسمية والمسكانية والانتقال ، سواء أردنا بالقرآن : المعنى القديم القائم بذاته تعالى أو الكلمات الحكيمية الأزلية ، أو اللفظ العربي المبين . الذى هو صورة ومظهر للكلمات الحكيمية القديمة ، لما عدت من تنزه الصفة القديمة ومتعلقها وهو الكلمات الغيبية الأزلية عن المواد مطلقاً ولأن الألفاظ أعراض سيالة . تنتهى بمجرد النطق بها ، ولا يتأتى منها نزول ولا إنزال .

وعلى هذا يكون المراد بالنزول المعنى المجازى ، والمجاز فى اللغة العربية باب واسع ، فإن أردنا بالقرآن . الصفة القديمة أو متعلقها ، فالمراد بالإنزال الإعلام به بواسطة إثبات الألفاظ والحروف الدالة عليه . من قبيل : إطلاق الملزوم وإرادة اللازم . وإن أردنا اللفظ العربى الدال على الصفة القديمة . يسكون المراد : نزول حامله به سواء أردنا بالنزول : نزوله إلى سماء الدنيا . أو على النبي ﷺ ويكون الكلام من قبيل المجاز بالحذف ، وهذا هو ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق لفظ النزول .

وللقرآن الكريم وجودات ثلاثة :

١ - وجوده فى اللوح المحفوظ .

٢ - وجوده فى السماء الدنيا .

٣ - وجوده فى الأرض بنزوله على النبي ﷺ ، ولم يقترن لفظ « النزول » إلا بالوجود الثانى والثالث ، أما الوجود الأول ، فلم يرد لفظ « النزول » مقترناً به قط ، وعلى هذا . فلا ينبغى أن نسميه نزولاً أو تنزلاً .
أين كان للقرآن قبل النزول ؟

يقول الله تعالى : « بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ » (٢) فقد دلت

(١) سورة المرعد الآية ١٧ (٢) سورة البروج : الآية ٢١ ، ٢٢

الآية على أن القرآن ، كان قبل نزوله ثابتاً وموجوداً في اللوح المحفوظ وهذا اللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون الذي ذكره الله تعالى في قوله : «لأنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، (١) فالظاهر والذي عليه جمهور المفسرين : أن الكتاب المكنون : هو اللوح المحفوظ ، ومعنى «محفوظ» ، أنه عن استراق الشياطين ، ومحفوظ عن التغيير والتبديل ، ومعنى «مكنون» ، مصون محفوظ عن الباطل ، والمعنيان متقاربان .

واللوح المحفوظ : هو السجل العام الذي كتب الله فيه في الأزل كل ما كان وكل ما يكون . والواجب علينا : أن نؤمن به وأنه موجود ثابت ، أما البحث فيما وراء ذلك ، كالبحث في حقيقته وما هيته ، وعلى أى حالة يكون ؟ وكيف دونت فيه السكائنات ؟ وبأى قلم كتب ؟ فلا يجب الإيمان علينا به ، إذ لم يرد عن المعصوم عليه السلام في ذلك حديث صحيح ، وكل ما ورد إنما هي آثار عن بعض الصحابة والتابعين لا تطمئن إليها النفس (٢) .

وحكمة وجود القرآن ، في اللوح المحفوظ : ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح المحفوظ نفسه وإقامته سجلاً جامعاً لكل ما كان ، وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين ، فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وعلمه وإرادته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا شك أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه ، من هذه النواحي . وبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أفضيته ، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرائها وسرورها كما قال جل شأنه : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا

(١) سورة الواقعة ٧٧ - ٧٩

(٢) أنظر تفسير القرطبي ، و ابن كثير ، و د الالوسي ، في تفسير

آيه البروج

(٣) سورة الحديد . الآية ٢٢ - ٢٣ .

في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ، (١)
وللإيمان باللوح والكتابة أثر صالح في استقامة المؤمن على الجهاد ،
وتفانيه في طاعة الله ومراضيه ، وبعده عن مساخطه ومعاصيه ، لإعتقاده
أنها مسطورة عند الله في لوحه ، مسجلة لديه في كتابه (٢) كما قال جن شأنه .
« وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » ، (٣) .

نزول القرآن الكريم

للقرآن الكريم نزولان الأول . نزول من اللوح المحفوظ إلى السماء
الدنيا . الثاني . نزوله من السماء الدنيا على النبي ﷺ .
وهذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل وتوضيح .. وإليك البيان .
النزول الأول :

نزول القرآن الكريم ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء
الدنيا ، جملة واحدة وهذا النزول أكان بعد نبوته ﷺ ؟ أم كان قبل
ذلك ؟ رأيان للعلماء أرجحهما الأول . وهو الذي تبدل عليه الآثار
الآتية ، وكان هذا النزول في رمضان ليلة القدر .
والدليل على هذا النزول ما يأتي :

١ - قوله تعالى في مفتتح سورة القدر ، « إنا أنزلناه في ليلة القدر ،
وقال في مفتتح سورة الدخان ، « حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في
ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، وقال في سورة البقرة ، « شهر رمضان الذي
أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى الفرقان ، ، (٤)
« والإنزال ، أكثر ما يرد في لسان العرب ، فيما نزل جملة واحدة (٥) ، بخلاف

(١) سورة الحديد . الآية ٢٢/٢٣ . (٢) مناهل العرفان - ١ ص ٣٥ ط أول
(٣) القمر / ٥٢ ، ٥٣ ومعنى مستطر مكتوب في السطور (٤) البقرة / ١٨٥
(٥) الثناب في التفسير القرآني عما نزل دفعة واحدة بلفظ « الإنزال ، وما
(٤ م - للدخل)

التنزيل ، فإنه يعبر به في جانب ما نزل مفردا؛ فذلك الآيات على أن القرآن
نزل جملة واحدة في ليلة القدر ! أخذاً من سورة « القدر » ، وهي الليلة
المباركة ، أخذاً من آية « الدخان » ، وهي من ليلة شهر رمضان أخذاً
من آية « البقرة » .

وأيضاً فن البدهي : أن القرآن نزل على النبي ﷺ - في سنين لا في
ليلة واحدة ، وأنه نزل في غير رمضان ؛ كما نزل في رمضان فدل هذا على أن
النزول الذي نوهت بشأنه الآيات غير النزول على النبي مفردا في بضعة
وعشرين سنة ، وأن المراد به : هو النزول جملة واحدة .

٢ - قد جاءت الآثار الصحيحة مبينة لهذا النزول وشاهدة عليه .

(أ) فثمة ما أخرجه النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن هند
عن عكرمة عن ابن عباس ، أنه قال : « أنزل القرآن جملة واحدة
إلى سماء الدنيا ليلة القدر » ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ،
ثم قرأ : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيراً »
« وقرآنا فرقناه ؛ لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلاً » .
(ب) ومنها ما أخرجه الحاكم والبيهقي من طريق منصور عن سعيد
ابن جبير عن ابن عباس أنه قال : « أنزل القرآن في ليلة القدر جملة
واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على
رسوله بعضه في إثر بعض » .

(ج) وأخرج الحاكم وغيره ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :

== نزل مفردا ! التنزيل ولهذا لما جمع الله بين القرآن والتوراة والإنجيل عبر في جانب
نزول القرآن على النبي بالتنزيل ! وفي جانب التوراة والإنجيل بالإنزال ! لانها
نزلت دفعة واحدة ! وهذا ما لا خلاف فيه . قال تعالى في سورة آل عمران ،
« نزل عليك القرآن بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل »
والتفريق بين الإنزال والتنزيل أمر غالب ! وليس قاطعة مطردة ! ولذا عبرت
بلفظ « أكثر » ، بدليل قوله تعالى ؟ « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن
جملة واحدة . . . » الفرقان / ٣٢ فقد استعملوا التنزيل وأرادوا الإنزال

« فصل القرآن من الذكر ، فوضع في بيت العزة من سماء الدنيا
فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ .
(د) أخرج ابن مردويه والبيهقي - في كتاب « الاسماء والصفات ،
عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود . فقال : أوقع في قلبي
الشك قوله تعالى « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وقوله :
« إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وهذا أنزل في شوال ، وفي ذى القعدة
وفي ذى الحجة وفي المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع ، فقال ابن عباس
أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على
مواقع النجوم رسلا (١) في الشهور والأيام . »

ومعلوم : أن هذا لا يقوله « ابن عباس » ، بمحض الرأي ، فهو محمول على
سماحه من النبي - ﷺ - أو ممن سمعه من النبي من الصحابة ، ومثل هذا له
حكم المرفوع ، لأن القاعدة عند أئمة الحديث : أن قول الصحابي الذي لم
ياخذ عن الإسراييليات فيما لا مجال للرأى فيه ، له حكم الرفع ، وبذلك
ثبتت حجية هذه الآثار . (٢)

وقد ذكر « السيوطي » ، في « الإتيقان » ، (٣) عن القرطبي : أنه حكى الإجماع
على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة في
السماء الدنيا .

وهناك قول ثان . وهو أن « القرآن » نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة
قدر ، أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، (٤) ينزل الله في كل ليلة منها
ما يقدر إنزاله في كل السنة ، ثم ينزل به جبريل بعد ذلك عن النبي - ﷺ -

-
- (١) رسلا . أي رفقا ، وهل تمبل . مواقع النجوم . مساقطها ، يريد . أنه
نزل على مواقع منجما مفرقا يتلو بعضه بعضها على أودة ورفق
(٢) تومة النظر شرح نخبة الفكر ص ٤٣ (٣) الإتيقان ص ١ ص ٤٠
(٤) هـ - ذا مبني على الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة أمى عشر
سنوات ، أم ثلاث عشرة ، أم خمس عشرة ، وأصحابها أوسطها

فى جميع السنة ، وبه قال «مقاتل بن حيان» .

وهناك قول ثالث : هو أن المراد بالآيات السابقة : ابتداء إنزاله فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة على النبي - ﷺ - .
وبه قال «الشعبي» ، وكان صاحب هذا القول يبنى النزول جملة واحدة إلى السماء الدنيا .

وقد ذهب إلى هذا رأى من المتأخرين الأستاذ الإمام الشيخ ومحمد عبده ،
فى تفسير جزء «عم» ، فقد نقل كلام «الشعبي» وقواه ، وقال إن ما جاء من
الآثار الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، مما
لا يصح الاعتماد عليه ، لعدم تواتر خبره عن النبي - ﷺ - وأنه لا يجوز
الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه ، وإلا كان اتباعاً للظن (١)

وأعقب على قول الإمام فاقول : إن مسألة نزول القرآن جملة واحدة
إلى سماء الدنيا ليست من العقائد التى يتحتم تواتر الأخبار بها ، والتى لا بد
فيها من العلم القطعى اليقيني ، مثل وجود الله وصفاته ، ونحو ذلك من
العقائد ، وإنما يكفي فيها الأخبار الصحيحة .. التى تفيد غلبة الظن ورجحان
العلم ، ثم إن من قال . إن مثل هذه الحقيقة الخبيثة لا بد فيها من تواتر
الأخبار عن النبي ﷺ ١٤ إن كثير من السمعيات يكتفى فيها بالأخبار الصحيحة
التى تفيد رجحان العلم بما دلت عليه ، وعلى هذا جرى العلماء سلفاً وخلفاً
ثم إن تأويل الآيات بان المراد . ابتداء الإنزال صرف للآيات عن
ظواهرها ، وقد بينت . أن ظاهر الآيات يشهد للنزول جملة واحدة ؛
والظواهر لا يعدل عنها إلا بصارف ، وأنى هو ؟؟

وبعد . فالقول الأول ، هو الراجح والصحيح الذى تشهد له الآيات والآثار
حكمة هذا النزول . والحكمة فى هذا النزول أسرار .

تفخيم شأن القرآن ؛ وشأن من نزل عليه ، وشأن من سينزل إليهم ،
بإعلام سكان السموات من الملائكة بان هذا آخر الكتب المنزلة ، على خاتم

(١) تفسير جزء «عم» ص ١٢٢ ط . بولاق

الرسول ، لأشرف الأمم ، وهى الأمة الإسلامية ، وفى هذا تنويه بشأن المنزل ، والمنزل عليه ، والمنزل إليهم

(١) تفضيل القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية ، بأن جمع الله له النزولين : النزول جملة واحدة ؛ والنزول مفرداً . وبذلك شارك الكتب السماوية فى الأولى ، وانفرد فى الفضل عليها بالثانية ، وهذا يعود بالتفضيل لنبينا ومحمد ، على سائر إخوانه من الأنبياء ، ذوى الكتب المنزلة وأن الله جمع له من الخصائص ما لغيره وزاد عليها .
النزول الثانى :

قلنا فيما سبق . إن القرآن الكريم نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، فى ليلة القدر وهـ - ذا هو النزول الأول . وكان النازل به «جبريل» عليه السلام فألقاه على السفرة الكرام البررة ، فقيدوه فى صحفهم المكرمة ، كما قال تعالى ، كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة ، بايدى سفرة ، كرام بررة ، (١) وهم الملائكة المختصون بذلك .

وقد بقى القرآن محفوظاً فى هذه الصحف المرفوعة - المطهرة ، بايدى هؤلاء الملائكة الكرام البررة حتى أذن الله لهذا النور الإلهى أن يسطع فى أرجاء الأرض ، ولهدايته الربانية أن تتدارك الناس ، وتخرجهم من ظلمات الشرك والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والهدى والعرفان ، على يد مخلص البشرية ، ومنقذ الإنسانية سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله وسلامه ، فانزل عليه «القران» هادياً ومبشراً ونذيراً للخلق أجمعين ، ليكون آيته الكبرى ، ومعجزته الباقية على وجه الدهر ، شاهدة له بالصدق وأنه يوحى إليه من ربه ، وهذا هو النزول الثانى للقرآن .

وشواهد هذا النزول أكثر من أن تحصى ، قال تعالى شأنه . « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك (٢) لتكون من المنذرين

(١) سورة هبس الآية ١١ - ١٦

(٢) هب به للدلالة على أن القلب قد وعاه بعد أن وعته الاذان

بلسان عربي مبين،^(٧) وقال تعالى: . قل نزله روح القدس^(٢) من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين ،^(٣) وقال تعالى . الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ، قيماً ؛ لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويدبر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ما كثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ،^(٤) . وقال : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ؛ ليكون للعالمين نذيراً^(٥) » . وقال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله،^(٦) .

والذي نزل به على النبي - صلى الله عليه وسلم - هو أمين الوحي «جبريل» عليه السلام ، وهو المقصود بالروح الأمين في آية «الشعراء» ، وبروح القدس في سورة «النحل» ، وهو الرسول الكريم ذو القوة المتين الأمين في قوله تعالى ، إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون^(٧) ، والقول كما ينسب لقائمه الأول ، ينسب لمبلغه وحامله إلى المرسل إليه .

وهو شديد القوى . ذو المرة ، في قوله تعالى : «إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى^(٨)» . وقد جاء النص على أن النازل بالقرآن هو «جبريل» في قوله سبحانه : «قل من كان عدواً لجبريل ؛ فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله ، وملأئكته ،

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٢-١٩٥ (٢) هو جبريل الأمين على الوحي

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢ (٤) سورة الكهف الآية ١-٤ .

(٥) سورة الفرقان الآية ١ (٦) سورة البقرة الآية ٧٣ .

(٧) سورة التكويد الآية ٩-٢٢ .

(٨) سورة النجم الآية ٤-٧ . ومضى ذو مرة . ذو هيئة حسنة ، وقيل

ذو حسانة في العقل ، وإحكام في الرأي .

هرسله ، وجبريل وميكايل فإن الله عدو للكافرين^(١)، والمراد بهم اليهود .

كيف كان هذا النزول ومدته

وقد نزل به جبريل ، - عليه السلام - على النبي - صلى الله عليه وسلم - منجماً مفزناً ، على حسب الوقائع ، والحوادث ، وحاجات الناس ، ومراعاة للظروف والملايسات .

وقد اختلف العلماء في مدة هذا النزول : فقيل : عشرون سنة ، وقيل : ثلاث وعشرون سنة ، وقيل : خمس وعشرون سنة .

ومنشأ هذا الاختلاف . . إنما هو اختلافهم في مدة مقامه - صلى الله عليه وسلم - بمكة : فقيل : عشر سنين ، وقيل : ثلاث عشرة ، وقيل : خمس عشرة .

وأقربها إلى الحق والصواب ، هو أوسطها ، وهو ثلاث وعشرون سنة ، وهذا على سبيل التقريب ، وأبعد ما هو آخرها .

ولو راعينا التدقيق والتحقيق ، تكون مدة نزول القرآن اثنتين وعشرين سنة ، وخمسة أشهر^(٢) ونصف شهر تقريباً ، ويبان ذلك : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نبي على رأس الأربعين من ميلاده الشريف ، وذلك في شهر ربيع الأول ، الثاني عشر منه ، وقد بدى الوحي إليه بالرؤيا الصادقة ، ومكث على ذلك إلى السابع عشر من رمضان ، وهو اليوم الذي نزل عليه فيه صدر سورة اقرأ ، أول ما نزل من القرآن ، وجملة ذلك : ستة أشهر وخمسة أيام . وآخر آية نزلت من القرآن ، هي قوله تعالى . « واتقوا يوماً يترجمون فيه إلى الله . . ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون^(٣) » ، وقد روى : أن ذلك قبل وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بتسعة

(١) سورة البقرة الآية ٩٧ ٩٨ .

(٢) راجعت في هذا التحديد . ما ذهب إليه الجمهور من أنه - صلى الله عليه وسلم - ولد في الثاني عشر ربيع الأول عام الفيل . وتوفي في الثاني عشر أيضاً من ربيع الأول عام إحدى عشرة من الهجرة .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨١

أيام ، وقيل : بأحد عشر يوماً ، وقيل بواحد وعشرين يوماً ؛
فلو أخذنا بالمتوسط تكون جملة المدة التي لم ينزل فيها القرآن ستة أشهر
وسنة عشر يوماً .

وجملة عمره ﷺ ، ثلاثة وستون عاماً ، لأنه توفي في الثاني عشر
من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، كما عليه الجمهور ، فتكون مدة
نبوته : ثلاثاً وعشرين سنة ، فإذا أضفنا منها ستة أشهر وستة عشر يوماً ، يكون
الباقى : اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً . والحمد لله الذى
هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وقد ذكر بعض السكاكين
في تاريخ التشريع غير هذا وقد بنى حسابه على أن آخر آية نزلت « اليوم أكملت
لكم دينكم ، وهو خطأ مشهور وسندين الحق في آخر ما نزل فيما يأتى إن شاء الله

الدليل على نزول القرآن منجماً ،

المعروف الثابت : أن « القرآن الكريم ، نزل على النبي - صلى الله عليه
وسلم - مفزاً ، ويدل على هذا القرآن ، والسنة الصحيحة .

أما القرآن ، فقوله تعالى : « وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث ،
ونزلناه تنزيلاً ، (١) وقوله تعالى « وقالوا : لو أنزل عليه القرآن جملة واحدة .
كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق
وأحسن تفهيماً . (٢) فقد روى : أن المشركين أو اليهود دعابوا على النبي - صلى الله
عليه وسلم - نزول القرآن مفزاً ، وقالوا : هل أنزل جملة واحدة ، كما نزلت التوراة
على موسى ، فأنزل الله - سبحانه - هذه الآية ، حاكية لأقوالهم ، ورادة عليهم
بيان الحكمة في إنزاله مفزاً ، أى : أنزله مفزاً ، لنثبت به فؤادك وليرتله
ترتيلاً في خاصة نفسك ، وعلى أصحابك .

(١) الإسراء الآية ١٠٦

(٢) سورة الفرقان الآية ٣٢ ، ٣٣

أما السنن الصحيحة، فقد ورد فيها ما يدل على نزول القرآن، من جهام مفرقا،
ففي الصحيحين وغيرهما . عن عائشة - رضى الله عنها . - « أن أول ما نزل
صدر سورة ، اقرأ ، . . . إلى قوله تعالى : « ما لم يعلم ، . وفي الصحيحين
- أيضاً - عن جابر . « أن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة « المدثر » ، إلى
« والرجز فاهجر » ، وكذلك روى عن ابن عباس وغيره من الصحابة ، القول
في تقدم نزول بعض السورة والآيات على بعض ، وترتيب السور على حسب
النزول (١) . إلى غير ذلك من الآثار التي لا تدع مجالاً للشك في نزول القرآن
الكريم ، على النبي - صلى الله عليه وسلم - مفرقا، وهذه الأحاديث والآثار
وإن كانت آحادية إلا أنها بمجموعها تفيد التواتر المعنوي المفيد للقطع واليقين
في هذا .

نزول الكتب السماوية السابقة .

أما الكتب السماوية السابقة ، فالمشهور بين العلماء . أن ذلك كان جملة واحدة
حتى كاد يكون هذا الرأي إجماعا - كما قال « السيوطي » .

والدليل على ذلك آية « الفرقان » . « وقالوا الولا نزل عليه القرآن جملة
واحدة . . . الآية ووجه الدلالة . أن الله - سبحانه - لم يكذبهم في دعواهم .
نزول الكتب السماوية جملة ، بل بين لهم الحكمة في نزوله مفرقا ولو كانت
الكتب السماوية نزلت مفرقة ، لكان كافيا في الرد عليهم أن يقول لهم . إن التنجيم
سنة الله في الكتب التي أنزلت على الرسل ، كما أجاب بمثل ذلك قولهم . « وقالوا .
ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . . الآية (٢) فقال في الرد عليهم
« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق (٣)
فبين لهم . أن ذلك سنن الأنبياء والمرسلين . وكذلك لما قالوا . « هل هذا
إلا بشر مثلكم ؟ » (٤) فرد عليهم . بأن سفته ألا يرسل رسلا من البشر فقال -

(٢) سورة الفرقان الآية ٧ .

(٤) الانبياء الآية ٣ .

(١) الإنفان ١٦ ص ٩-١١

(٣) الفرقان الآية ٢٠ .

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (١) . ولما قالوا . كيف يكون رسولا ، ولا هم له إلا النساء ؟ رد عليهم فقال . « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلناهم أزواجا وذرية ، (٢) . إلى غير ذلك .

ويدل على ذلك أيضاً . قوله تعالى في إنزاله التوراة على موسى عليه السلام يوم الصعقة . . . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة ، (٣) وقوله . « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم رهبون (٤) وقال تعالى . « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا . أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعليكم تتقون ، (٥) والمراد بالألواح . الألواح التي كتبت فيها التوراة .

فهذه الآيات دالة على إنزاله . سبحانه . التوراة على « موسى » ، جملة . وهناك آثار (٦) صحيحة عن « ابن عباس » ، تفيد نزول « التوراة » ، جملة منها ما أخرجه النسائي وغيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في حديث التتوق قال ، « أخذ موسى الألواح بعد ما سكن عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمر الله أن يلبسهم من الوظائف ، فنقلت عليهم ، وأبوا أن يقرؤا بها حتى تنق الله عليهم الجبل ، كأنه ظلة . ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأقرؤا بها . . . » وإذا كانت التوراة ، وهي أعظم الكتب السماوية السابقة ، وأكثرها أحكاما وهداية . وقد ثبت نزولها جملة واحدة . فأحر بغيرها من الكتب السماوية - كالإنجيل والزيبور وصحف إبراهيم - أن تكون قد نزلت جملة واحدة . وآية (الفرقان) - كما ذكرنا - تدل على هذا التعميم وتؤيده .

(٢) سورة الرعد الآية ٣٨

(١) سورة الانبياء الآية ٧

(٤) سورة الاعراف الآية ١٥٤

(٣) الاعراف الآية ١٤٤-١٤٥

(٦) الانقان ١٦ - ٤٢

(٥) سورة الاعراف الآية ١٧١

« كيف كان جبريل يتلقى الوحي؟ »

هذا المبحث من أنباء الغيب . فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد عن معصوم . ولم نطلع في هذا على نقل من المعصوم - عليه السلام - وإنما هي نقول عن بعض العلماء :

١ - منها ما قاله الطيبي : « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه تلقفا روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ . فينزل به على النبي صلى الله عليه وآله فيلقيه إليه وكلمة لعل ، لا تفيد القطع ، وإنما تفيد التجويز والاحتمال . وقد ردد الإمام الطيبي ، الأمر بين هذين الاحتمالين ، ولم يقطع برأى

٢ - ما ذكره « البيهقي » في تفسير قوله تعالى . « إنا أنزلناه في ليلة القدر » قال يريد - والله أعلم - . « إنا أسمنا الملك . وأفهمناه إياه . وأنزلناه بما سمع ، وهذا الرأى أمثل الآراء . وأولاهها بالقبول ويشهد له ما رواه الطبراني ، من حديث الثوراس بن سمعان ، مرفوعاً إلى النبي - صلى الله عليه وآله - قال إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله . فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا . وخرجوا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه . جبريل . فيكلمه الله بوحيه بما أراد . فينتهي به إلى الملائكة فكلما مر بسماة سأله أهلها . ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهي به حيث أمر ، والحديث وإن لم يكن نصاً في القرآن إلا أن « الوحي » يشمل وحي القران . وغيره . بل يدخل فيه الوحي بالقران دخولاً أولياً .

وهذا الرأى هو أحد الاحتمالين الذين جوزهما الطيبي ، وهو مراده بقوله . « أن يتلقفه تلقفاً روحانياً »

والاحتمال الثاني . وهو حفظه من اللوح المحفوظ وإن كان غير مستبعد إلا أن ما دل عليه النص أولى . وينبغي أن يصار إليه وهو الأليق بالقرآن الكريم وفي تلقى « جبريل » - عليه السلام - القرآن من ربه دون وساطة : لإعظام للقرآن وتفخيم لشأنه ، وتلبية إلى غاية العناية به ، والحرص والمحافظة عليه ، ومبالغة في صيانتة عن التحريف ، والتبديل .

ألا ترى أن أحد الملوك أو الرؤساء ، أو الأمراء إذا أرسل رسالة مهمة ، في أمر مهم ، لرجل ، ذى شأن فإنه يتخير لها الرسول ، ويأبى إلا أن يختمها بختمه ، وأن يناولها إليه بيده ، فما بالك بالقرآن الذى هو كلام الله ورسالة الرسالات ؟ وأحق الكتب بالتحوط والصيانة ، والحفاظ عليه .

كيف كان يتلقى النبي القرآن

كان النبي - صلوات الله وسلامه عليه - يتلقى القرآن عن جبريل عليه السلام - على حالتين :

١ - أن ينسلخ النبي - صلى الله عليه وسلم - من حالته البشرية العادية ، إلى حالة أخرى ، بها يحصل له استعداد ، لتلقى الوحي من «جبريل» عليه السلام ، وهو على حالته المملكية وفي هذه الحالة قد يسمع عند مجيء الوحي صوت شديد كصهصلة الجرس (١) . . وأحياناً يسمع الحاضرون صوتاً عند مجيء الوحي كدوى النحل . . وتأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - حالة شديدة روحانية ، يغيب فيها عما حوله ، ويثقل جسمه ، حتى لتكاد الناقة التي يركبها تبرك ، وإذا جاءت تغذه على نخذ إنسان تكاد ترضها ، ويتصبب عرقه ، وربما يسمع له غطيط كغطيط النائم ، فإذا ما سرى عنه وجد نفسه واعياً لكل ما سمع من الوحي فيبلغه كما سمعه ، وهذه الحالة أشد حالات الوحي على النبي ﷺ ، ويشير إلى هذا قوله تعالى : «إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً» (٢) ؛ وعلى هذه الحالة تلقى القرآن .

٢ - أن يتحول جبريل ، - عليه السلام - من المملكية إلى الصورة البشرية ، فيأتى في صورة رجل ، فيأخذ عنه الرسول ويسمع منه . . وكثيراً

(١) قال الخطابي : والمراد ، أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبت أول ما يسمعه حتى يفهمه بهد . وقيل : هو صوت خفق أجنحة الملك . والحكمة في تقدمه ، أن يفرغ سمعه للوحي ، فلا يبقى فيه مكاناً لغيره . (٢) المزمل ٥

ما كان جبريل - عليه السلام - يأتي في هذه الحالة في صورة دحية الكلبي،^(١) أو صورة أعرابي لا يعرف^(٢). وهذه الحالة أهون الحالين على الرسول.

يدل على هاتين الحالين : ما رواه البخاري ، في صحيحه بسنده عن عائشة - رضی الله عنها - : أن الحارث بن هشام - رضی الله تعالى عنه - سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم^(٣) عني ، وقد وعيت منه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأعي ما يقول ، قالت « عائشة ، - رضی الله عنها - : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، وأن جبينه ليتفصد عرقاً ، وإنما اكتفى النبي في الجواب بهاتين السكيفيتين دون غيرهما من السكيفيات والأنواع ، لأن الظاهر أن السؤال كان على الوحي الذي يأتي عن طريق جبريل .

والقرآن الكريم لم ينزل منه شيء إلا عن طريق جبريل - عليه السلام - ولم يأت شيء منه عن تكليم أو إلهام^(٤) أو منام ، بل كله أوحى به في اليقظة ووحياً جلياً ، ولا يخالف هذا ما ورد في صحيح .. عن أنس - رضی الله عنه - قال : « بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى لإغفاءة^(٥) .. ثم

(٢) وذلك كما في حديث جبريل المشهور الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما ففي رواية لمسلم « بينما نحن عند رسول الله إذ طلع علينا رجل ... ولا يعرفه منا أحد ، وفي الصحيحين أن للنبي قال لأصحابه ، ردوا على الرجل ، فذهبوا فلم يجدوه فقال : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم ،

(٣) الفصم : القطع من غير إبانة ، والتعبير به في هذا المقام صادف عز البلاغة ، لأنه ينقطع عنه صلى الله عليه وسلم ليوم إليه . أما الفصم - بالقاف - فهو القطع مع الإبانة .

(٤) سنفصل الكلام عن الوحي وكيفياته فيما يأتي :

(٥) يقال . أغفى لإغفاءة ، أي (نام نومة خفيفة)

رفع رأسه مبتسماً ، فقلنا : ما اضحكك يا رسول الله ؟ فقال . إنه نزل على
آنفاً سورة ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك السكوتر ، فصل
لربك وانحر ، إن نباتك هو الأبر » .

إذ ليس المقصود بـ « الإغفاءة في الحديث . النوم ، وإنما المقصود .
الحالة التي كانت تعتبره عند نزول الوحي ، وهي الغيبوبة عما حوله .
وقد ذكر العلماء . أنه كان يؤخذ عن الدنيا ، وبهذا يفسر أيضاً ما ورد
في بعض روايات هذا الحديث : أنه أغمى عليه .

وقال « السيوطي » ، في « الإتيقان » ، (١) بعد أن ذكر : أن من كيفيات
الوحي تكليم الله إما في اليقظة وإما في المنام . « وليس في القرآن من هذا
النوع شيء - فيما أعلم - نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة « البقرة » ، لما
تقدم (٢) ، وبعض سورة « الضحى » ، و « ألم نشرح » ، فقد أخرج « ابن
أبي حاتم » ، من حديث « عدى بن ثابت » قال . قال رسول الله ﷺ .
سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سأله ، فقلت . أي رب ، اتخذت
إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، فقال . يا محمد ، ألم أجدك يتيماً
فأوتيت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ،
وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معي . .

وما أشار إليه فيما تقدم ؛ هو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن
مسعود قال . « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدره المنتهى ..
الحديث ، وفيه . « فأعطى رسول الله ﷺ منها ثلاثاً . أعطى الصلوات
الخنس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك - من أمته -
بالله شيئاً .. المقحجات ، . وفي « الكامل » ، للهندي . نزلت « آمن الرسول »
إلى آخرها بقاب قوسين » ، (٣) .

(٢) يعني في كتابه الإتيقان

(١) الإتيقان - ١ ص ٤٥

(٣) الإتيقان - ١ ص ٢٣

وأعقب على ما ذهب إليه الإمام السيوطي ، إمكاناً . بأن رواية
« مسلم ، ليس فيها تصريح بنزول خواتيم سورة البقرة ، عن طريق تكليم
الله . ففعل المراد بإعطائه إياها . لإعلام الله له باختصاصه ﷺ وأمه بما
تدل عاياه ؛ تمنناً عليه في هذا الموقف العظيم .. ألا ترى . أنه أعطى
الصلوات الخمس ، وفرضت ؛ مع أنها لم ينزل فيها قرآن هذه الليلة ، وليس
في رواية الهذلي على فرض صحتها التصريح بنزول الآيتين عن طريق التكليم .
وأيضاً فالإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بمكة ، وسورة البقرة كلها
مدينة ، فكيف تنزل خواتيمها بمكة ؟ !

وأما حديث « عدى بن ثابت » الذي أخرجه ابن أبي حاتم ، فليس
فيه أن الله أنزل هذه الآيات وإنما كل ما فيه . الثمن عليه بالمنن التي ذكرت
في هذه الآيات ولا سيما وألفاظ الحديث مغايرة للنص القرآني للآيات ،
كما يستبعد معه أن تكون الآيات نزلت في هذا التكليم .
فالحق ما قاله الإمام السيوطي ، أولاً ، وهو أنه ليس في القرآن من
هذا النوع شيء .

تلقى النبي القرآن عن جبريل وهو على ملكيته

والذي نقطع به - والله أعلم - أن القرآن الكريم كله نزل في الحالة
الأولى ، وهي الحالة التي يكون فيها جبريل على ملكيته ، وتحول النبي ﷺ
من البشرية إلى الملائكية ، وهذا هو الذي يليق بالقرآن الكريم ، ونفى أي
احتمال ، أو تلبيس في تلقيه . ولم أقف قط على رواية تفيد نزول شيء من
القرآن عن طريق جبريل ، وهو في صورة رجل ، وكل ما جاء من ذلك
في الأحاديث الصحاح كحديث جبريل المشهور وسؤاله النبي ﷺ عن
الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، والساعة ، وأشراطها فإنما هو في وحى
السنن لا في وحى القرآن .

نعم هناك قرآن لا تصل إلى حد الأدلة تدل على نزول القرآن بالطريق

الأول ، فمن ذلك قول الله تعالى ، « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » (١) أى ثقيلاً نلقيه ، وثقيلاً عليه ، وذلك إنما يكون في الحالة التي تسود فيها الملائكة عند تلقي الوحي ، وقيل ، ثقيلاً العمل به ، والقيام بفرائضه وحدوده . وقيل ، ثقیل من الوجهين معاً .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخارى عن ابن عباس في قوله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل » (٢) به ، قال ، « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفثيه ... » (٣) وهذه الشدة لن تكون إلا في الحالة الأولى .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبي ﷺ فقلت . هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ ، « أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحي إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض ، رواه أحمد ، وروى ابن جرير أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جرائنها (٤) فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه ، وعن زيد بن ثابت - رضی الله عنه - أنزل على رسول الله ﷺ وغضه على نخدى ، فكادت ترض (٥) نخدى (٦) .

وأيضاً فلو أنزل شيء من القرآن في الحالة وهي مجىء جبريل عليه السلام في صورة رجل لكان هذا مثاراً للشك ، والتلبيس على ضعفاء الإيمان ، ولكان فيه مستند للمشركين في قولهم : « إنما يعلمه بشر .. » وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله حكاية لمقالة المشركين ، « وادأ عليهم ، وقالوا ، لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا

(١) المرمل ٥/ (٢) سورة القيامة/ ١٦ (٣) صحيح البخارى - باب كيف بدأ الوحي

(٤) الجزان ، باطن العنق (٥) تكسر عظامها

(٦) تفسير ابن كثير ٩ ص ٢٧ ٢٨٦

عليهم ما يلبسون^(١)،^(٢)، فكان من الرحمة بالعباد ، وعدم التلبس عليهم أن لا ينزل القرآن إلا في هذا الجو الملائكي ، الروحاني .

ما الذي نزل به جبريل على النبي ؟

الذي نقطع به ، أن ، القرآن الكريم ، كلام الله سبحانه ، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ، « وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله .. ثم أبلغه مأمنه »^(٣) . وأن القرآن لفظه ومعناه من عند الله — سبحانه — قال تعالى ، « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »^(٤) . « حم . تنزيل الكتاب من العزيز العليم »^(٥) . وقال ، « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل »^(٦) .

وأن الذي نزل به هو أمين الوحي جبريل — عليه السلام — قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتسكون من المنذرين .. بلسان عربي مبين ، وأن الذي نزل به جبريل هو هذا اللفظ العربي من غير أن يكون له فيه شيء ما ، ومن غير أن يزيد فيه حرفاً ، أو ينقص منه حرفاً . وكذلك ليس للنبي ﷺ في القرآن شيء إلا التبليغ ، وهذا هو الحق ، الذي يجب على كل مسلم أن يعتقد ويؤمن به ، ولا تلتفت إلى ما زعمه بعض ما يعرف بما لا يعرف ، أو من يفترى ويخترق ، من أن جبريل أوحى إليه المعنى ، وأنه عبر بهذه الالفاظ الدالة على المعاني بلغة العرب ثم نزل على النبي كذلك . أو أن جبريل أوحى إلى النبي ﷺ المعنى ، وأن النبي عبر عن هذه المعاني بلفظ من عنده^(٧) ، متمسكاً بظاهر قوله تعالى : « نزل به

(١) سورة الانعام ٨ ٩

(٢) لقضى الأمر بإهلاكهم ، فقد جرت سنة الله مع الكافرين أنهم إذا سألوا أسئلة تعنتية ، ثم أجيبوا أن يهلكهم

(٣) سورة النوبة الآية ٥

(٤) سورة الزمر الآية ١

(٥) سورة غافر الآية ١ ٢٦٦

(٦) سورة الاسراء الآية ١٠٥

(٧) الإتيان ج ١ ص ٤٣ . وقد ذكر السوطي ذلك ناقلاً ، وقائه أن يعقب

عليه بالطلان .

الروح الأمين على قلبك لتسكون من المنذرين بلسان عربي مبين، (١)، فإنه زعم وحرص لم تقم عليه أثارة من علم، وما تمسك به هذا الزاعم من الآية لا يشهد له: فإن القلب كما ينزل عليه المعنى، ينزل عليه اللفظ، وإنما أثر الحق تبارك وتعالى هذا التعبير للدلالة على أن القرآن كما وعته الأذنان، وعاه القلب اليقظان.

وهذا القول، خلاف ما تواتر عليه القرآن والسنة، وانعقد عليه إجماع الأئمة: من أن القرآن - لفظه ومعناه - كلام الله، ومن عند الله. ولو جاز هذا الزعم. لما كان القرآن معجزاً، ولما كان متعبداً بتلاوته.

وهذا الزعم، لا يقول به إلا جاهل. استولت عليه الغفلة، أو زنديق يدس في الدين والعلم ما ليس منه، ولا تغتر بوجوده في بعض المكتب الإسلامية فأغلب الظن: أنه مدسوس على الإسلام والمسلمين. وإنا لنبرأ إلى الله أن يقول هذا عالم، مسلم، مثبت.

وقد بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن كما نزل إلى الأمة من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، ولا كتمان لشيء منه، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي، لسكنم الآيات التي فيها عتاب له وتنبية بلطف إلى ترك الأولى في باب الاجتهاد، وبحسبك أن تقرأ معي قول الله عز وجل: «يا أيها الرسول، بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»، (٢). وقول الله سبحانه: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا: انت بقرآن غير هذا، أو بدله، قل: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني

(١) سورة الشعراء ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧.

أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، (١) . وقوله تعالى : «ولو تقول علينا بعض الأقاويل . . . لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فامنكم من أحد عنه حاجزين ، (٢) .

نزول جبريل بالسنة ٣ :

وما ذكرنا . من محافظة جبريل - عليه السلام - على تبليغ اللفظ كما سمعه ، من غير تغيير . حتى ولو كان اللفظان بمعنى واحد . . إنما هو فيما يتعلق بتبليغ «القرآن» . أما وحى «السنة» فلا يلتزم فيه جبريل - عليه السلام - اللفظ الذى سمعه ، لأن تبليغ «السنة» مبناه . المعنى لا اللفظ ، إذ ليس لفظها معجزاً ، ولا متعبداً بتلاوتها كالقرآن .

ولالإمام «الجوينى» فى هذا المقام كلام حسن ، ذكره «السيوطى» فى «الإتقان» (٤) ، وعلق عليه .. وإليك هذا الكلام .

قال «الجوينى» : «كلام الله المنزل قسمان . قسم قال الله لجبريل : قل للنبي الذى أنت مرسل إليه إن الله يقول : افعل كذا - وكذا وأمر بكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ، ثم نزل على ذلك إلى النبي وقال له . ما قاله ربه ، ولم تكن العبارة تلك العبارة . . كما يقول الملك لمن يثق به . قل لفلان . يقول لك الملك . اجتهد فى الخدمة ، واجمع جندك للقتال ، فإذا قال الرسول يقول لك الملك . لا تنهاون فى خدمتى ، ولا تترك الحند تتفرق ، وحثهم

(١) يونس الآية ١٥ .

(٢) الحاقة الآية ٤٤ - ٤٧ . ومعنى باليمين : أى لا نطقنا منة بالقوة ، والوتين هرق متصل بالقلب إذا قطع مات الإنسان

(٣) السنة النبوية : بعضها بالوحى وبعضها بالاجتهاد على ما هو التحقيق وكلامنا هنا - فيما كان منها بوحى

(٤) الإتقان : ج ١ ص ٤٤

على المقاتلة . . لا ينسب إلى كذب ، ولا تقصير في أداء الرسالة .
وقسم آخر . قال الله لجبريل . اقرأ على النبي هذا الكتاب ، فنزل
جبريل بكلمة من الله . . من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسله إلى
أمين ، ويقول ، اقرأه على فلان ، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا .
قال السيوطي ، قلت . القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو
السنة ، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا .
جازرواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تجز القراءة بالمعنى
لأن جبريل أداءه باللفظ ، ولم يبيح له إحاؤه بالمعنى ، والسر في ذلك . أن
المقصود منه ، التعبير بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ
يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معاني ، لا يحاط بها كثرة ؛ فلا
يقدر أحد أن يأتي بما يشتمل عليه ، والتخفيف على الأمة ، حيث جعل
المنزل إليهم على قسمين ، قسم يروونه بلفظه الموحى به ، وقسم يروونه
بالمعنى ؛ ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل
والتحريف ، فتأمل ، وسئل الزهري عن الوحي فقال ، الوحي ما يوحى الله
إلى نبي من الأنبياء ، فيثبته في قلبه ، فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله ، ومنه
مالا يتكلم به ، ولا يكتبه لأحد ، ولا يأمر بكتابته ، ولكنه يحدث به الناس
حديثا ويدين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه
« وحي السنة ، أما وحي السنة فنه ما يكون عن طريق أمين الوحي
جبريل ؛ وفي إطار الحالة الأولى ، وهي الحالة الملائكية وذلك كما في
قصة يعلى بن أمية ، روى البخاري في صحيحه بسنده عن يعلى قال لعمر - رضى
الله عنه - أرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه ، قال ،
فبينما النبي في الجعرة جاءه رجل فقال ، يا رسول الله كيف ترى في رجل
أحرم بعمره ، وهو متضمنخ بطيب ، فسكت النبي ساعة ، فجاءه الوحي ،
فأشار عمر - رضى الله عنه - إلى يعلى ، وعلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ثوب قد أظلم به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

محر الوجه ، وهو يغط ، ثم سرى عنه ، فقال . أين السائل عن العمرة ،
فأتى برجل . فقال . اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات . وانزع عنك
الجبة . واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك .

وبعضه في إطار الحالة الثانية كما في حديث جبريل . وبعضه بالمسكاة
كما حدث ليلة الإسراء والمعراج . وبعضه بالإلهام والنام . وبعضه بالقذف
في القلب . وسواء أكانت السنة بوحي جلي . أو خفي فلفظها من عند النبي
صلى الله عليه وسلم .

« حكم نزول القرآن منجها مفرقاً »

لنزول القرآن الكريم على النبي - صلى الله عليه وسلم - مفرقاً . حكم
كثيرة . وأسرار عديدة نجم لها فيما يأتي .
الحكمة الأولى .

تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتطمين قلبه وخاطره وهي
ما أشار إليها الحق - تبارك وتعالى - في رده على المشركين أو اليهود حيث
قال : « كذلك لتثبت به فؤادك . ورتلناه ترتيلاً » (١) وهذه الحكمة من أجل
الحكم وأعظمها . ولذا ذكرها الله أول ما ذكر في الرد على هؤلاء .
ويندرج تحت هذه الحكمة :

١ - تثبيت فؤاد النبي ، وتقوية قلبه . وإلهاب حماسه ، وتسليته ،
وذلك بسبب تكرار نزول الوحي ، وتوالي آياته وما اشتملت عليه الآيات
من أن رسالته حق لا شك فيها ، وأن العاقبة للمتقين ، والنصر إنما هو
للائبياء وأتباعهم ، وأن الله مؤيده وناصره ، وكان النبي - صلى الله عليه
وسلم - كثيراً ما يتحسر ويحزن ، لعدم إيمان قومه ، كما قال تعالى .
« فاعلمك باخع نفسك على آثارهم . لمن لم يؤمنوا بهذا الحديث

أسفأً، (١). فكانت تنزل عليه الآيات ، مسلية له ، فتارة تنهيه أن يذهب نفسه عليهم حسرات ، كما قال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون » ، (٢) .

وتارة يبين له : أن هدايتهم إنما هي على الله . وإنما عليك البلاغ كما قال تعالى : « ليس عليك هدام ، ولكن الله يهدي من يشاء » ، (٣) ، « إنك لا تهدي من أحببت .. ولكن الله يهدي من يشاء » ، (٤) وقال : « فإنا على البلاغ ، وعلينا الحساب » (٥) .

وكان كلما آذاه قومه ونالوا منه ، وسفهاوا عليه ، نزلت الآيات داعية له إلى التحمل والصبر والثبات عليه ، وأن العاقبة للصابرين ، كما قال تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » ، (٦) « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون » ، (٧) وقال : « واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ، (٨) :

وتارة تنزل الآيات قاصة على النبي أخبار الأنبياء ، مع أممهم وما لاقوه منهم من عنت ومشقة ، وكيف كان تحملهم من أقوامهم ، وما آل إليه أمرهم من الفوز والنصر على الأعداء والمكذبين وذلك .. مثل قصص « نوح » ، و « إبراهيم » ، و « لوط » ، و « هود » ، و « صالح » ، و « موسى » ، وما لاقاه من بني إسرائيل . وقد ذكر الله ههنا في قوله : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل . ما نثبت به فؤادك » ، (٩) .

وحيثاً آخر - تنزل الآيات بوعيد المكذبين للأنبياء ، والمناهضين لدعوتهم

(١) باخع نفسك : قاتلها غما وحرزنا . سورة الكهف الآية ٦

(٢) سورة فاطر الآية ٨ (٣) سورة البقرة الآية ٢٧٢

(٤) القصص الآية ٥٦ (٥) الرعد الآية ٤٠

(٦) الاحقاف الآية ٢٥ (٧) النحل الآية ١٢٧

(٨) هود الآية ١١٥ (٩) هود الآية ١٢٠

كما قل تعالى : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا . وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، (١) . وقال : « فإن أعرضوا ؛ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، (٢) . « قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا ؛ فقد مضت سنة الأولين (٣) . وآونة .. كانت تنزل الآيات بالحجج والبراهين ، مبطللة لعقائدهم الزائفة ، ورادة عليهم ما يتمسكون به من شبه واهية ، كآيات الواردة في إثبات الله وصفاته وتوحيده ، واستحقاقه للعبادة ، وإثبات البعث والحشر ، وأحوال اليوم الآخر ، وإثبات رسالة الرسل وحاجة البشر إليهم . وكان من ثمرة هذا التثبيت : أن أبدى النبي غاية الثبات والشجاعة ، والوثوق بالله تعالى في أخرج المواقف ، وأشدّها هولا ؛ ألا ترى إلى قوله للصديق في الغار : « لا تحزن ؛ إن الله معنا ، وإلى ثباته يوم « أحد ، و « حنين ، يدعوا إلى الله ، وقد فر عنه الكثيرون فما زاده ذلك إلا إيمانا وثباتا .

٢ - تيسير حفظه وفهمه على النبي - ﷺ - فقد كان النبي حريصا على ذلك غاية الحرص ، ولقد بلغ من حرصه أنه كان لا ينتظر حتى يفرغ « جبريل ، من قراءته ، بل كان يتمجّل القراءة ، فأنزّل الله عليه : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ، وقل رب زدني علما ، (٤) وقوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ، (٥) فضمن الله لنبيه الحفظ والفهم . وطبعي . . أن نزول القرآن مفرقا أدعى إلى سهولة حفظه وفهمه ، وأيسر وأوفق بالفطرة البشرية .

(١) سورة الاعراف الآية ٩٧ - ٩٨

(٢) ، فصلت الآية ١٣ .

(٣) ، الانفال الآية ٣٨

(٤) ، طه الآية ١١٤

(٥) سورة القيامة الآية ١٧ - ١٩

وهذا المعنى الذى أراد الحق سبحانه - فيما أراد من حكم لنزول القرآن منجماً ومفرقاً قطعاً قطعاً - هو غاية ما وصل إليه أهل التربية فى حفظ النصوص الطويلة ، وتسهيل فهمها . وهذا المعنى التربوى ما كان يحول بخاطر بشر فى هذا العصر ، وفى هذه البيئة البدوية ، مما يدل على أن منزل القرآن على هذه الطريقة البديعة هو الله . العالم بالطبائع البشرية ، والنفوس وأسرارها .
الحكمة الثانية :

التدرج فى تربية الأمة دينياً وخلقياً واجتماعياً ، وعلمياً وعملاً . وهذه الحكمة هى التى أشار إليها الحق - تبارك وتعالى - بقوله : « وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث .. ونزلناه تنزيلاً (١) » . ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتى :-

١ - التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة ، والعادات الضارة والمنكرات الماحقة ، فقد بعث النبي - ﷺ - إلى قوم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله غيره ، ويسنسكون الدماء ، ويشربون الخمر ، ويزنون ، ويغتصبون الأموال ، ويتدون البنات ، خشية العار ، ويقتلون الأولاد خشية الفقر ، ويظلمون النساء ، ويتزوجون نساء الآباء ، ويجمعون بين الاختين ، كما كانوا يتظالمون ، وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب كثافة رعت من حمى ، أو سبق فرس ، أو نحو ذلك . وكانت الحروب ندوم بينهم عشرات الأعوام حتى تأكل الأخضر واليابس ، وكان التكافل والتعاون بينهم يكاد يكون معدوماً ، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء ولا بين السادة والعبيد ، ولا بين الأقوياء والضعفاء .

ومعلوم : أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة « وشديد عادة منزعجة ، والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهى عنه ، لأن للعقائد - حتى ولو كانت باطلة - وللعادات - ولو كانت مستهجنة - سلطاناً على النفوس ، والناس أسراء ما ألقوا ، ونشأوا عليه ، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة ، وطالبهم بالتخلي عما هم منغمسون فى حماته من كفر وجهل ومنكرات ، مرة

واحدة لما استجاب إليه أحد ، ولما وفق الرسول في أداء مهمته ، ولعاد ذلك بالنقض على الشريعة الجديدة .

لذلك اقتضت حكمة الله - سبحانه - ولله الحكمة البالغة - أن يتدرج معهم في انتزاع هذه العقائد والمنكرات ، فينهاهم عن عبادة غير الله ، فإذا ما أفلحوا عنه ، أخذ في النهي عن منكر غيره .. وهكذا .

وكذلك كان القرآن يتدرج معهم في انتزاع المنكر الواحد ، كما حدث في تحريم الخمر . فقد نزل فيها أول ما نزل : « ويسألونك عن الخمر والميسر قل : فيها إثم كبير ، ومنافع للناس . » (١) فشرها قوم ، وتركها آخرون ثم إن بعض المسلمين صنع طعاماً ، ودعا أصحابه : فأكلوا وشربوا ثم قام أحدهم ليصلي بهم ، فقرأ : « قل يا أيها الكافرون ، أعبد ما تعبدون ، فأنزل الله - سبحانه - « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . الآية » (٢) فكانوا يتركونها عند الصلوات ، وفي الأوقات القريبة منها .. حتى لا يقعوا في مثل هذا الخاط .

وبذلك .. صار من السهل تحريمها تحريماً باتاً قاطعاً : فقد صنع بعض المسلمين طعاماً ، فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برء وسهم فتناولوا الأشعار فتشاجروا حتى شبح أحدهم رأس الآخر ، فقال الفاروق « عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً .. ! » فخرمها الله تحريماً باتاً بقوله : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون ، (٣) إلى قوله « فهل أنتم منتهون ، فقال « عمر : انتهينا » (٤) فمن ثم .. اقتضت الحكمة نزول القرآن مفروقاً .

٢ - التدرج في تثبيت العقائد الصحيحة ، والأحكام التعبدية والعملية والآداب والأخلاق الفاضلة ، فأمرهم أولاً : بالإيمان بالله وصفاته وعبادته

(١) البقرة الآية ٢١٩

(٢) النساء الآية ٤٣

(٣) سورة المائدة الآية ٩٠ ، ٩١

(٤) أنظر تفاسير : الكشاف ، وابن كثير ، والقرطبي ، والالوس في آيات الخمر

وحده ، حتى إذا ما آمنوا بالله . دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر ، ثم بالإيمان بالرسول ، والملائكة ، حتى إذا ما اطمانت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه ، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر والتشريعات التفصيلية ، والأحكام العملية والفضائل والآداب العالية ، فأمروا بالصلاة والصدق والعفاف ، ثم أمروا بالزكاة ، ثم بالصوم ، ثم بالحج . وبينهم لهم أحكام النكاح والطلاق والرجعة والمعاملات : من بيع وشراء ، وتجارة ، وزراعة ، ودين ورهن . . إلى غير ذلك من المعاملات الصحيحة منها وغير الصحيحة .

ولذلك كان مدار الآيات في القسم المسكى على إثبات العقائد والفضائل التي لا تختلف باختلاف الشرائع . بخلاف القسم الممدنى ، فكان مدار التشريعات فيه على الأحكام العملية وتفصيل ما أجل قبل ذلك .

وقد أشارت السيدة العاقلة ، التي تربت في منزل الوحي وعائشة ، رضی الله عنها - إلى هذه الحكمة ، فقالت - كما ورد في صحيح البخارى - : « إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه سورة (١) من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء . لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لاندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزونا . لقالوا لاندع الزنا أبداً . (٢) »

ولاشك . أن من طبيعة التدرج نزول آيات القرآن ، وسوره بعضها فى أثر بعض ، وقد دل القرآن بهذه السياسة الرشيدة فى إصلاح الشعوب وتهذيبها على أنه معجز ، وأنه من عنده الله ، فما كان لبشر - مهما كان ذكياً - أن يتوصل إلى هذه الطرق الحكيمة فى ذلك الوقت ، الذى بعث فيه النبي - ﷺ - وإنما ذلك من صنع الحكيم العليم الخبير .

(١) لعل مرادها - سورة المدثر ، فإنها أول ما نزلت بعد فترة الوحي فنبها الأمر بتوحيد الله ، وذكر الجنة والنار ، أو أن مرادها بالسورة الجنس أى سور من المفصل ، وسور المفصل تدور حول تثبيت العقائد والفضائل .

(٢) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - باب تأليف القرآن

(٣) تيسير حفظه وفهمه على الأمة ، فقد أوجب الله على المسلمين حفظ ألفاظه ، كما أوجب عليهم فهم معانيه ، قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب » (١) . « أفلا يتدبرون القرآن . . أم على قلوب أقفالها » (٢) .

وقد ابتلى المسلمون في مكة بالمشركين ، كما ابتلوا في المدينة باليهود والمنافقين هذا إلى اشتغالهم بأمور معاشهم ، وبإقامة الدين ، ونشر الإسلام ، والدفاع عن دعوته ، فلو نزل القرآن مرة واحدة لما أمكنهم حفظه ولا فهمه مع وجود هذه الملابسات والظروف المحيطة بهم .

لذلك ، اقتضت حكمته أن ينزل القرآن مفرقاً ، حتى إذا ما نزلت قطعة منه أمكنهم أن يحفظوها ويحيدوا فهمها .

(٤) تثبيت قلوب المؤمنين ، وتعويدهم على الصبر والتحمل بذكر قصص الأنبياء ، والسابقين الفينة بعد الفينة ، وتذكيرهم . بأن النصر مع الثبات والصبر وأن العاقبة للمتقين ، والخذلان والخسران للكافرين . إقرأ - إن شئت - قوله تعالى : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله . . ؟ ألا أن نصر الله قريب » (٣) ، فقد ذكر « عطاء » أن المسلمين لما هاجروا إلى المدينة ، وتركوا الأهل والوطن والمال ، وآثروا رضاه الله ورسوله ، وتعرضوا لآلوان من الإيذاء والجهد والفقر والمرض . ومعاداة اليهود ، والمنافقين لهم . شق ذلك على نفوسهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال تعالى : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٤) ، وقال تعالى : « ألم . أحسب الناس أن يتركوا ،

(٢) سورة محمد الآية ٢٤
(٤) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(١) سورة ص الآية ٢٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢١٤

أن يقولوا . آمنا ، وهم لا يثبتون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلن الله الذين صدقوا ، وليعلن الكاذبين . (١) .

بل اقرأ هذا الوعد الذي يستحث الهمم ، ويقوى العزائم . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » . (٢) .

وطبعى .. أن دواعى هذا التذكير والإرشاد والتوجيه لم تكن في وقت واحد ، بل كانت في أزمنة متعددة متفاوتة ، فاقضى ذلك نزول القرآن مفرقاً على حسب ذلك .

الحكمة الثالثة :

مجاراة الحوادث والنوازل والأحوال والملابسات في تفرقتها وتجدها وهذه الحكمة هى التى أشارت إليها الآية الكريمة فى قوله تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيراً » .
ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتى :

١ - بيان حكم الله - سبحانه وتعالى - فى الأفضية والوقائع التى تحدث بين المسلمين ، فقد اقتضت رحمة الله بعباده : أنه كلما وقعت الواقعة لم يكن حكمها معروفاً عند المسلمين أن تنزل الآية أو الآيات عقبها ، مبينة حكم الله فيها ، ومثال ذلك : حادثة الإفك ، فقد نزلت فيها آيات من فوق سبع سموات ، ببراءة السيدة الحصان الرزان (٣) « عائشة - رضى الله عنها - وإدانة الذين رموها بدون شهود وبينة ، وبيان حكم الله فيهم ، وهى قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

(١) صوره العنكبوت الآية ٢ - ٣

(٢) صوره النور الآية ٥٥

(٣) صوره الفرقان الآية ٣٣

(٤) الحصان : المغيفة ، الرزان : العاقلة .

بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم . . . إلى قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . . وأن الله رؤوف رحيم (١) » .
ومثل حادثة « خولة بنت ثعلبة » التي ظهر منها زوجها « أوس بن الصامت » أي قال لها : « أنت علي كظهر أمي » ، فجماعت تشتكي إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتقول : « إن أوساً أخذني وأنا شابة مرغوب في ، حتى كبر سني ونثرت (٢) له بطني ظاهر مني ، وأن لي أولاداً إن ضممتهم إلى جاعوا . وإن ضممتهم إليه ضاعوا » فقال رسول الله : « ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء . . . فجعلت تجادل رسول الله وتحاوره ، رغبة منها أن يجد لها مخرجاً في عشرة زوجها ، فأنزل الله - سبحانه - أول سورة « المجادلة » ، ببيان حكم الظهار في الإسلام : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير ، إلى قوله تعالى : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٣) » . وغير ذينك كثير .

وطبعي . . . أن الحوادث لم تكن تقع في وقت واحد ، فنزل القرآن في هذه الحوادث مفرداً لذلك .

٢ - إجابات السائلين على أسئلتهم التي كانوا يوجهونها إلى النبي ﷺ سواء أ كانت هذه الأسئلة لغرض التثبيت وللتأكد من رسالته ، أم كانت للاسترشاد والمعرفة .

ومن النوع الأول . قوله تعالى « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً (٤) » ، وقوله : « ويسألونك عن ذى القرنين قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ... الآيات (٥) » .

(١) سورة النور الآية ١١ - ٢٠

(٢) أي أنجبته له أولاداً ، وهو من الكنايات البديعة

(٣) سورة المجادلة ١ - ٤ (٤) الإسراء الآية ٨٥

(٥) الكهف الآية ٨٣ وما بعدها

ومن الثاني : قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة .. قل هي مواقيت للناس والحج » (١) ، وقوله : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير ففلو الدين والأقربين ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير ، فإن الله به عليم » (٢) ، وقوله : « يسألونك عن الخمر ، والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك : ماذا ينفقون ؟ قل الغنم » (٣) .

وطبعي .. أن هذه الأسئلة لم تكن في وقت واحد ، بل كانت تحدث متفرقة فكان نزول القرآن مفرقاً لذلك .

(٢) تنبيه المسلمين من وقت لآخر إلى أخطائهم وأغلاطهم ، وتحذيرهم من معاودتها والوقوع فيها ، وذلك مثل ما حدث في « أحد » ، فقد خالف الرماة نصيحة رسول الله ، متأولين ، فكانت النتيجة : أن أتى المسلمون من جهتهم وأن شاعت الهزيمة بينهم ، وشج وجه النبي ، وكسرت رباعيته ، واستشهد منهم عدد كثير ، فأنزل الله في ذلك آيات عدة ، مسجلة الأغلاط ، وحذرة لهم من المخالفة ، والفرار عند اللقاء .. اقرأ - إن شئت - قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بأذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون .. » الآيات (٤) .

ومثل ما حدث في « حنين » ، فقد اغتر المسلمون بكثرةهم ، حتى قال قائل في هذا اليوم : « لن نهزم من قلة » . ولم يعتمدوا على الله حق الاعتماد في طلب النصر ، فكانوا أن منوا بالهزيمة أولاً ، ولولا تدارك الله تعالى لهم

(١) سورة البقرة ١٨٩ (٢) سورة البقرة ٢١٥

(٣) سورة البقرة ٢١٩

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٢ وما بعدها .

لهم برحمته ، وثبات النبي ﷺ وحوله فته قليلة من أبطال أصحابه ، وإنزال
الملائكة مشبته لقلوبهم ومقوية لروحهم لسكانت الهزيمة . اقرأ معي قول
الله سبحانه « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبتكم
كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم
وليتهم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل
جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم
يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » (١) .

وقد كانت « حنين » درساً .. تعلم منه المسلمون : أن النصر ليس بالعدد
والعدة فحسب ، وإنما هو من عند الله ، وأن الاعتزاز ليس من خلق
المسلم ، وأن الأسباب العادية لا ينبغي أن تشغل المسلم عن اللجوء إلى الله :
« وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . (٢)

ومثل ما حدث من « حاطب بن أبي بلتعة » قبيل الفتح ؛ فقد كان
رسول الله حريصاً على أن تتم غزوة الفتح في سرية تامة ، ولكن حاطباً
كان له أهل في مكة وكانوا ضعفاء ، فأحب أن تكون لهم يد على قريش
كي يكرموا أهلهم ، فأرسل إلى قريش رسالة في السر بنجر الغزوة ، ولكن
الوحي نزل مخبراً لرسول الله ، فأرسل من أحضر الرسالة ، وقد حاول
بعض الصحابة قتله ، زاعماً : أنه بعمله صار منافقاً ، ولكن الرسول ﷺ
لما استمع إلى وجهة نظره وعلم صدقه عفا عنه ، فأنزل الله في ذلك آيات
وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء
تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق : يخرجون الرسول
وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ؛ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي ، وابتغاء
مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن
يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . . . » (٣) الآيات .

(١) سورة التوبة ٢٥-٢٧ (٢) سورة آل عمران ١٢٦

(٣) المتحنته الآية الأولى وما بعدها .

ومعلوم : أن هذه الأغلط لم تقع في وقت واحد : فكان نزول القرآن مفرقاً لذلك .

٤ - تحذير المسلمين من المنافقين ، والكشف عن خبيثة نفوسهم فقد كانوا بحكم تظاهرهم بالإسلام ، يختلطون بالمسلمين ، ويطلعون على أسرارهم وأحوالهم فينقلونها إلى الأعداء ، أو يرففون بها في المدينة ، فكان ضرر هؤلاء المخالطين المداجين على المسلمين أشد من ضرر الأعداء المكاشفين ، فلا عجب أن كشف الله أستارهم ، وشنع عليهم أشد التشنيع في كثير من الآيات ، فقد كان لهم بالمرصاد ، فكلما بيتوا أمراً أطلع الله عليه رسوله والمؤمنين ، أو كادوا مكيدة ردها الله في نحورهم ، أو أخفوا قولاً أظهره الله . وطبعي أن هذه الأمور المبيتة ، والمسكايد المدبرة ، والاقوال السيئة التي كانت تصدر عنهم لم تكن في وقت واحد ، بل كانت في أزمنة متفرقة ، فمن ثم جاء القرآن مفرقاً .

ولأن شئت أمثلة لما كان يفعله المنافقون . ويقولونه ، وإظهار الله لحالهم ، فاقراً معي - قول الله - سبحانه - : ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . إلى قوله : **«لأن الله على كل شيء قدير»** (١) . وقوله : **«إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى .. الآيةين»** (٢) .

وقد أنزل الله في شأنهم سورة بتامها ، وهى سورة «المنافقين» كما ذكر الكثير من أحوالهم فى سورة «التوبة» . وما زال الله - سبحانه - يقول فى هذه السورة ، ومنهم ... ومنهم ... حتى فضحهم أشد فضيحة ، وجعلهم مثلاً لسوء الطباع . والاختلاق ، والنذالة ، والدس ، والوقعة - فى الاولين والآخرين .

(١) البقرة الآية ٨-٢٠

(٢) النساء الآية ١٤٢-١٤٣

الحكمة الرابعة :

بيان إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده ؛ لأن القرآن لو نزل جملة واحدة ؛ لقالوا : شيء جاءنا مرة واحدة ؛ فلا نستطيع أن نعارضه ، ولو أنه جاءنا قطعاً قطعاً لعارضناه فأراد ربك أن يقطع عليهم دابر المعذرة والتعلل ؛ فأنزله مفرقا .

وكان الله - سبحانه - يقول لهم - بعد نزول قطعة منه - : ان كنتم ترتابون في أن هذا المنزل على هذا الموضع من عند الله ؛ فأتوا أتم بقطعة مشابهة له . وقد ذكرنا سابقاً : أن الله تحدى الناس كافة بالقرآن على مراتب متعددة ؛ كي تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن تكرار التحدى في المرة بعد المرة ، وثبوت عجزهم المرة تلو المرة .

وهكذا يتبين لنا : أن القرآن بنزوله منجماً قد أعطاهم بعد كل مجم فرصة يعارضون فيها ؛ فإذا ما عجزوا كان ذلك أدل على الإعجاز . وأقطع للمعذرة .

وأيضاً فالقرآن على نزوله مفرقا ، وتباعد ما بين أزمان النزول يكون سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات متآخية الفقرات ، منسجمة الشكل ، لا تنبو كلمة عن كلمة ، ولا تنفر آية من آية بل كله في غاية الفصاحة والبلاغة والإحكام ، ولا يسمو بأسلوبه في بعض الآيات ، وينزل في البعض الآخر ولا تنبل الغاية والمقصد في بعض الآيات ، وتسف في البعض الآخر بما يدل أعظم الدلالة على أنه ليس من عند بشر .

ولو أنك نظرت في مؤلفات أديب من الأدباء ، مهما بلغ ، فإنك - لا شك - واجد تفاوتاً بيناً بين ما ألفه في أول حياته ، وما ألفه في آخر حياته ، سواء أكان في لفظه ومعانيه ، أم في أغراضه ومراميه ، أم في أسلوبه وتفكيره .

وإذا كان القرآن لم يأت على غرار ما يصنع البشر ، فقد تعين أن يكون من عند الله خالق القوى والقدر .

هذا .. وليست هذه نهاية الحكم ، فهناك لمن أحكم النظر ، وأجال البصر حكم ، وحكم .

تمتة :

الذي استقرىء من الأحاديث الصحيحة وغيرها ، أن القرآن كان ينزل به جبريل على النبي - صلى الله عليه وسلم - بحسب الحاجة : خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر أو أقل .

وقد صرح نزول العشر الآيات في قصة « الإفك » جملة ، وصرح نزول عشر آيات من أول سورة « المؤمنون » جملة ، وصرح نزول : « غير أولى الضرر ، وحدها ، في قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين - غير أولى الضرر - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (١) ... الآية » وكذلك قوله : « وإن خفتم عيلة ؛ فـوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ؛ إن الله عالم حكيم (٢) » ، نزل بعد أن نزل أول الآية ، كما حرره الإمام « السيوطي » في « أسباب النزول » ، وقد ورد في بعض الآثار نزول بعض السور جملة واحدة كسورة « الإخلاص » و « الكوثر » و « المرسلات » .

ولا يخالف ما ذكرنا ما رواه البيهقي في الشعب بسنده عن عمر قال : « تعلموا القرآن خمس آيات .. خمس آيات ؛ فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي - ﷺ - خمسا .. خمسا » وما أخرجه ابن عساكر من طريق أبي نضرة قال : كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغدادة ، وخمس آيات بالعشى ، ويغير : أن جبريل نزل القرآن خمس آيات .. خمس آيات ، فإن المراد - إن صح - إلقاءه إلى النبي ﷺ هذا القدر ، حتى يحفظه ، ثم يلقى إليه الباقي . لا إنزاله بهذا القدر خاصة .

ويشهد لهذا التفسير ما أخرجه البيهقي عن أبي العالية قال : « تعلموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ؛ فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يأخذ من جبريل خمسا .. خمسا » ، ويصح أن يراد به : أن ذلك هو الغالب الكثير فلا ينافي حصول الوحي بأكثر أو بأقل .

وما كان لنا - وقد تكلمنا عن إنزال القرآن - أن نغفل الكلام عن « الوحي » إذ الإنزال متوقف على معرفة : معنى « الوحي » ، وكيفيته ، وإمكانه ووقوعه ، وهو ما سنتكلم عنه الآن .

« الوحي »

ما هو الوحي .. ؟

للوحي معنى في اللغة ؛ ومعنى في الاصطلاح ؛ أما في اللغة .. فإليك ما قاله العلماء في هذا : —

قال في « الأساس » : « أوحى إليه ؛ وأوحى إليه بمعنى . ووحيت إليه ؛ وأوحيت . إذا كلمته بما تخفيه عن غيره . وأوحى الله إلى أنبيائه ؛ وأوحى ربك إلى النحل » (١) .

وفي القاموس المحيط : « الوحي : الإشارة والكتابة ؛ والمكتوب والرسالة ؛ والإلهام والكلام الخفي ؛ وكل ما ألقته لغيرك » .

وقال الراغب : « أصل الوحي : الإشارة السريعة ؛ ولتضمن السرعة قيل : أمر وحي . يعني : سريع . وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعويض ؛ وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ؛ وإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ؛ وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا - عليه السلام - : « فخرج على قومه من المحراب ؛ فأوحى إليهم : أن سبحوا بكرة وعشيا » (٢) ، أي أشار إليهم ولم يتكلم .

ومنه : الإلهام الغريزي ؛ كالوحي إلى النحل قال تعالى : «وأوحى ربك إلى النحل (١)» ؛ وإلهام الخواطر بما يلقىه الله في روع الإنسان السليم الفطرة ؛ الطاهر الروح ؛ كالوحي إلى «أم موسى» ؛ ومنه ضده (٢) ؛ وهو وسوسة الشيطان قال تعالى : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم (٣) » وقال : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ؛ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ! غرورا (٤) » ،

فالخلاصة في معنى الوحي اللغوي : أنه الاعلام الخفي السريع ؛ وهو أعم من أن يكون بإشارة أو كتابة أو رسالة ؛ أو إلهام غريزي ؛ أو غير غريزي وهو بهذا المعنى لا يختص بالأنبياء ؛ ولأبكونه من عند الله سبحانه وأما في الشرع : فيطلق ويراد به : المعنى المصدرى . ويطلق ويراد به : المعنى الحاصل بالمصدر . ويطلق ويراد به : الموحى به .

ويعرف من الجهة الأولى : بأنه «إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة» فهو أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده . فقد خص المصدر بالله سبحانه ؛ وخص المورد بالأنبياء

ويعرف من الجهة الثانية : بأنه عرفان مجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ؛ سواء أكان الوحي بواسطة أم بغير واسطة .
ويعرف من الجهة الثالثة : بأنه ما أنزله الله على أنبيائه ؛ وعرفهم به من أنباء الغيب والشرايع والحكم . ومنهم من أعطاه كتاباً . ومنهم من لم يعطه .

(١) سورة النحل الآية ٦٨

(٢) الوحي المحمدي . ص ٢٧ (٣) الانعام الآية ١٢١

(٤) الانعام / ١١٢

أقسام الوحي الشرعى .. وكيفياته :

ينقسم الوحي باعتبار معناه المصدرى إلى ما يأتى :-

(١) تسليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب ؛ إما فى اليقظة : وذلك مثل ما حدث لموسى - عليه السلام - قال تعالى : « وكلم الله موسى تكليماً ؛ ومثل ما حدث لنبينا « محمد » - صلوات الله وسلامه عليه - ليلة الأسراء والمعراج .

ولأهل السنة قولان فى الكلام المسموع ، فقيل . هو الكلام النفسى القديم المجرد عن الحروف والأصوات . وقيل : هو كلام لفظى يخلقه الله ، بحيث يعلم سامعه : أنه موجه إليه من قبل الله والقائلون بهذا لا ينكرون صفة « الكلام » لله سبحانه ، وهذا فرق ما بينهم ومن المعتزلة الذين لا يقولون بصفة الكلام ، أما الثانى ، فواضح ، وأما الأول . فلا استحالة فيه ، لأن الثابت أن النبى قد خص بمزايا وخصائص لم توجد فى غيره من أفراد نوعه وأن نفسه بأصل فطرتها - مستعدة لما لم تستعد له نفوس غيره ، فلا مانع إذا أن يسمع الكلام النفسى بطريقة غير مألوفة ، ولا معروفة لنا . ويكون ذلك من خوايق النواميس العادية المعروفة لنا .

وإما فى المنام : كما فى حديث « معاذ » مرفوعاً : « إلتانى ربي ، فقال : فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ .. » الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه وقال : حسن صحيح .

(٢) الإلهام أو القذف فى القلب : بأن يلقى الله أو الملك الموكل بالوحي فى قلب نبيه ما يريد ، مع تيقنه : أن ما ألقى إليه من قبل الله تعالى ، وذلك مثل ما ورد فى حديث : « إن روح القدس نفث فى روعى ^(١) : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود .

(١) الروع بضم الواو - . القلب والخاطر ، وبالفتح . الفزع ، والمراد هنا الأول

(٣) الرؤيا فى المنام : ورؤيا الأنبياء وحى ؛ وذلك مثل : رؤىة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أن يذبح ابنه ، ورؤىة نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فى منام - ه : أنهم سيدخلون البلد الحرام وقد كان . وفى الحديث الصحيح ، الذى رواه البخارى ، : « أول ما بدى به رسول الله - ﷺ - من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. »

(٤) تعليم الله أنبياءه بوساطة ملك ، والمختص بذلك من ملائكة الله هو أمين الوحى جبريل ، عليه السلام وهذا القسم يعرف بـ « الوحى الجلى » وقد بين الله - سبحانه - هذه الأقسام بقوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ؛ فيوحى - بإذنه - ما يشاء ، إنه على حكيم ، (١) إذ المراد بالوحى فى الآية : الإلهام أو المنام ، لمقابلته للقسمين الآخرين : التكليم من وراء حجاب أو بواسطة رسول . والوحى الذى بوساطة جبريل .. له حالات ثلاث :

(أ) أن يأتى جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها ، وهذه الحالة نادرة ، وقليلة ، وقد ورد عن السيدة عائشة ، : أن النبى لم ير جبريل ، على هذه الحالة إلا مرتين : مرة فى الأرض ، وهو نازل من غار حراء ، ومرة أخرى فى السماء ، عند سدرة المنتهى ، ليلة المعراج رواه أحمد

(ب) أن يأتى جبريل فى صورة رجل كدحية الكلبى ، أو أعرابى مثلاً ، ويراه الحاضرون ويسمعون قوله ، ولا يعرفون هويته ، واسكن النبى يعلم علم اليقين : أنه جبريل ، وذلك كما فى حديث جبريل الطويل فى الصحيحين (٢) وحديث أم سلمة ، ورؤيتها رجلاً على صورة دحية الكلبى ، فظنته هو ، حتى بين النبى لها أنه جبريل .

(١) سورة الشورى . الآية ٥١ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الإيمان رباب الإيمان والإسلام والإحسان
صحيح مسلم كتاب الإيمان رباب الإيمان والإسلام والإحسان

(ح) أن يأتي على صورته المملكية ، وفي هذه الحالة لا يرى ، ولكن يصحب مجيئه صوت كصلصلة الجرس ، أو دوى كدوى النحل ، وقد دل على هاتين الحالتين حديث سؤال الحارس بن هشام ، النبي ﷺ : عن كيفية مجيئ الوحي إليه ؟ وهو في صحيح البخارى كما تقدم

والوحي بجميع أنواعه يصحبه علم يقينى ضرورى من الوحي إليه بان ما أتى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا نزعات الشيطان ، وهذا العلم اليقينى لا يحتاج إلى مقدمات ، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية ، كالجوع والعطش والحب والبغض .

إمكان الوحي ووتوعه :

مبنى الوحي ومداره على أمرين :

(١) وجود «موح» وهو «الله» سبحانه وتعالى أو الملك الذى يبلغ الوحي وينقله من الله إلى الرسل . والملك : جسم نورانى لا يرى ، ولكنه قادر على التشكل بالأشكال المختلفة .

(٢) وجود نفس بشرية صافية صالحة لتلقى الوحي من الله أو الملك .

أما الأول : فالله - سبحانه - قد قام على وجوده وكاله الدليل العقلى وتواترت عليه الأدلة الآفاقية ، والأنفسية ، والتنزيلية . وأما الملائكة ، فقد أخبر بهم الأنبياء وجاءت بوجودهم الشرائع والكتب السماوية ، وقد استفاض القرآن والسنة بالإخبار عنهم بما لا يدع مجالاً للشك فى وجودهم ، والفلاسفة ، والعلماء قديماً وحديثاً - إلا الشرذمة المادية - يقرون : بوجود عالم غير محسوس ، وراء هذا العالم المحسوس ، وأن الإنسان ليس هو هذا الجسم المحسوس ، وإنما هو جسم وروح .

وأما الثانى : وهو استعداد النبى لتلقى عن الله أو الملك . فلا بعد فيه ، إذ الأنبياء لهم من سمو فطرتهم ، وصفاء أرواحهم ، وإعداد الله - سبحانه - لهم إعداداً خاصاً : جسمانياً ، وروحياً ما يؤهلهم لتلقى الوحي من الله ، أو

الملائكة، والفهم منهم، والتجاوب معهم ، وليس لنا في هذا الأمر أن نقيس الغائب على الشاهد ، أو عالم الروح على عالم المادة .
وإذا ثبت هذان الأمران ، فقد ثبت - لا محالة - إمكانية الوحي ، وأنه لا استحالة فيه .

«العلم يؤيد معنى الوحي ، وإمكانه»

وإذا ثبت وجود عالم الروح ، لم يبق مجال إذ لا إنكار وجود الملائكة - وقد استفاضت الأخبار بوجودهم . عن الأنبياء والشرائع السماوية وقد تمخض العصر الحديث عن علم يسمى «علم التنويم الصناعي» أو «للتنويم المغناطيسي» وقد أثبت هذا العلم وجود قوة خفية وراء هذا الهيكل الإنساني ، وهي الروح ، وبهذه القوة الخفية ، أو الروح يتسلط المنوم - بكسر الواو - على المنوم - بفتح الواو - ويلقى الأول إلى الثاني ما يشاء ، ويستجيب الثاني إلا ما يريد الأول وقد أجريت في هذا تجارب عدة حتى أصبح أمراً مسلماً به ، وهذا يقرب معنى الوحي إلى حد كبير وقد أصبح هذا شجى فى حلقو الماديين ، ولم يجدوا لدفعه سبيلا .

ثم إن بعض المخترعات الحديثة . كاللاسلكى ، والمذياع ، والتليفزيون ونحوها قد أمكن للإنسان بوساطتها أن يبلغ كلامه إلى من هو أبعد منه بألاف الاميال؛ فإذا توصل الإنسان - على عجزه - إلى هذه المخترعات ، أفنستبعد على خالق القوى والقدر ، العليم الخبير - أن يبلغ رسله ما يريد بوساطة ، أو بغير وساطة ؟ وأن يهيئ للوحي إليهم من الوسائل ما يجعلهم مستعدين لتلقى الوحي ؟

الدليل على وقوع الوحي

وإذا ثبت أن الوحي ممكن . وقد أخبر بوقوعه الصادق المصدوق عليه السلام فقد ثبت أنه واقع وثابت لا محالة .
أما الإخبار بوقوعه : فكثيرة فى القرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، فمن

فلك قوله سبحانه وتعالى : « والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى » وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى (١) » وقوله سبحانه : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان (٢) .. » وقوله : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى ، وإيوب ويونس ، وهرون ، وسليمان ، وآتيننا داود زبوراً (٣) » وقوله : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا (٤) .. » إلى غير ذلك من الآيات

ومن السنة قوله ﷺ « ما من نبي من الأنبياء إلا وأتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان ما أوتيته وحياً أوحاه الله فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » رواه الشيخان وحديث عائشة رضی الله عنها في الصحيحين « أول ما بدى به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم .. » وحديث الحارث بن هشام « سألت رسول الله ﷺ : كيف ياتيك الوحي قال : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فينصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعني ما يقول » قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقا » رواه البخاري إلى غير ذلك من الأحاديث المتكاثرة التي تدل بطريق التواتر المعنوي على ثبوت الوحي ووجوده وأما صدق الرسول : فقد قامت عليه الدلائل المتكاثرة ، والمعجزات المتواترة ، المعنوية والحسية الدالة على صدق دعواته القاء - تم مقام قول الله - سبحانه - : « صدق عبدي فيما يبلغ عني »

وقد أورد الملحدون وأعداء الأديان على الوحي شياً وإليك هذه الشبه وردها .

- (١) سورة النجم ١ - ٤
(٢) سورة الشورى الايتان ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة النساء الآية ١٦٣
(٤) سورة الجن آية ١

الشبه التي أوددت على الوحي المحمدي ،

لقد حاول الماديون الذين لا يؤمنون بوجود قوى روحية غيبية وراء المادة ، ومن على ساكنهم من يحملون الحقد والضغن للإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم - حارل هؤلاء أن يشككوا في الوحي المحمدي فنفوا أن يكون وحيا من خارج نفس النبي وقالوا : إنه وحى من داخل نفسه فليس هناك ملك تلقى عن الله ثم ألقى ما جاء به على النبي صلى الله عليه وسلم ولا غير ذلك من أنواع الوحي وإليك هذه الشبهة والرد عليها .

(شبهة الوحي النفسى)

قالوا : نحن لا نملك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وإنما نقول : إن منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذى يقال : إنه وراء عالم المادة والطبيعة الذى يعرفه جميع الناس فإن هذا الغيب شيء لم يثبت عندنا وجوده ، كما أنه لم يثبت عندنا ما يتفيه ويحققه بالمحال ، ونحن نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت ، فهذا الموحى الذى أخبر به محمد إنما هو إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج : ذلك أن منازع نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية رديئة - يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ، ويحدث في عقله الباطن الرؤى ، والأحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا ناز لا عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك ، يعتقد أنه من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك في المنام الذى هو مظهر من مظاهر الوحي عند الأنبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقى في روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده ، ولكن تفسيره عندنا ما ذكرنا من أن ما تخيله إنما هو نابع من نفسه ومن عقله الباطن .

وضربوا مثلاً للوحي النفسى : قصة (جان دارك) الفتاة الفرنسية ؛
التي اعتقدت أنها مرسله من عند الله لانقاذ وطنها ، ودفع العدو عنه ، وادعت
أنها تسمع صوت الوحي ، فأخلصت في دعوتها وتوصلت بصدق لإرادتها
إلى رئاسة جيش صغير تغلبت به على العدو ، ثم ماتت غيب انتصارها لما
خذلها قوما ، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النار حية ، وقد ذهبت
تاركة وراءها اسما يذكر في التاريخ ، وقد حظيت بتعليم قوما ، وإجلالهم
لها ، حتى قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها فيما بعد موتها بزم (١)

وبما يؤسف أن هذا التصوير الذى يصورون به ظاهرة الوحي قدسرت
شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين ، الذين يقلدون هؤلاء الماديين في
نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها ، وأغلب هؤلاء من المتعلمين الذى تلقوا
العلم فى الغرب ، ونيس عندهم من الثقافة الإسلامية العميقة ما يحصمهم من
الانسياق وراء هؤلاء .

ولأجل أن يؤيدوا فكرة الوحي النفسى ذكروا مقدمات تخيلوها أو
تصيدوها زاعمين أنها أساس هذه التشريعات والعلوم التى امتلا بها عقل
النبي الباطن ثم ناضت بها نفسه فقالوا :

(١) إن محمداً كان يصحب عمه أبا طالب فى كثير من رحلاته التجارية
وأنه استفاد من هذه الرحلات بما كان يسمعه من الأعراب الذين كانوا
يسكنون الديار التى يمر عليها كديار ثمود ، ومدين وغيرهما ، وما كان
يسمعه من أحبار اليهود و رهبان النصارى وذلك مثل بحيرى الراهب الذى
لقبه فى مدينته (بصرى) بالشام وقالوا . إنه كان نسطوريا من أتباع
(آريوس) فى التوحيد ، وينسب ألوهية المسيح ، وعقيدة الثليب وإن

محمد لا بد أن يكون علم منه عقيدته بل غالى بعضهم فرغم أنه كان معلماً للنبي ومصاحباً له بعد رسالته .

(٢) إن ورقة بن نوفل كان من منتصرة العرب العالمين بالنصرانية وكان يعرف العبرانية وله علم بالسكتب السابقة ، وكان قريباً لخديجة رضي الله عنها - وهو الذي ذهبت إليه خديجة ومعها النبي لما أخبرها بنحو الوحي وغرضهم بهذا إثبات أن النبي أخذ عنه بعض علم أهل الكتاب .

(٣) ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كعقس بن مسعدة الإيادي وأمية بن أبي الصلت ، وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء وغرضهم بهذا أن النبي استفاد من هؤلاء ، واستغل البشارة لنفسه

(٤) زعموا أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى وأن كانوا عبيداً أو خدماً ، وكانوا يسكنون أطرافها .

وكان هؤلاء يتحدثون بالكثير من القصص الذي جاءت به كتبهم فسمع منهم النبي ما سمع واستفاد منهم الكثير مما ذكره من قصص الأولين .
(٥) ذكروا ما كان من رحلتى قريش : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام واجتماعهم بالأحبار والرهبان في كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة ، وكان هؤلاء يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب ، فتعلقت نفسه بما سمع ، وظهر ذلك على لسانه بدعوى النبوة .

(٦) قالوا : إن محمداً توصل إلى ما توصل إليه من عقائد بالخلوة في غار حراء ، والانقطاع إلى عبادة الله وحده ، والتفكير في خلق السموات والأرض : من نجوم وكواكب وسهول ونجود ، وبحار ذات أمواج ، وليل ونهار ، وكان لهذا التعمد والتفكير أثرهما في صقل نفس محمد ، وامتلاء قلبه بوحداية الله ونظامه البديع في السكون ، وما زال يفكر ويتأمل

وينفعل بما يرى ويسمع . ويتقلب بين الآلام والامال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذي سيبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤيا المنامية ، ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك ويلقنه الوحي في اليقظة .

وأما المعلومات التي جاء بها في هذا الوحي فهي مستمدة من تلك الينايع التي ذكرناها سابقاً ، وما هداه إليه عقله وتفكيره في التمييز ما يصح منها وما لا يصح ، ثم تجلى له أنها نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق جلا وعلا بوساطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل عليه السلام الذي كان ينزل على سلفه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى غير ذلك من الأباطيل والترهات التي أرادوا بها تقريب فكرة (الوحي النفسى) وأن كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عقيدة ، وتشريع وآداب ، فهي من ذات نفسه وعقله الباطن لا من شيء خارج عن نفسه ، وهو الوحي عن الله جل وعلا .

(تفنيد شبهة الوحي النفسى)

والآن وبعد أن بسطت فكرة الماديين والملحدن في الوحي المحمدى وذكرت خلاصة المقدمات التي تذرعوها بها للوصول إلى ما يريدون سأكر عليها بالرد العلبى الذى يدعمه العقل السليم ، والنقل الصحيح ، والتاريخ الصادق ، وإذا أبطلنا المقدمات ، فقد بطل ما رتبوه عليها قطعاً ، وهى النتيجة التي ركبوا كل صعب وذلول فى سبيلها .

وبعد إبطال المقدمات سأعرض بالرد على المثال الذى ذكره وهى قصه (جان دارك) فأقول وبالله التوفيق والسداد .

(الرد على المقدمة الأولى)

إن المعروف الثابت الذى رواه كتاب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يصحب عمه أباطال فى التجارة إلا مرة وهو ابن تسع سنين

وقيل ابن اثنى عشر سنة وأن الراهب (بحيرى) لما رآه تظلمه سحابة من الشمس ، ورأى فيه بعض أمارات النبوة ذكر لعلمه أنه سيكون له شأن ، وحذره أن تناله اليهود بشر ، ولم تذكر الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع في صغره من بحيرى شيئاً ، أو تعلم منه شيئاً من معارف أهل الكتاب ، ولما صار رجلاً وتاجر للسيدة خديجة في مالها ذهب إلى بلاد الشام ولم يعرف أنه جاوز مدينة (بصرى) ولا أنه اشتغل في هذه الأسفار بغير التجارة ، ولا أنه اتصل بأخبار اليهود ، ورهبان النصارى ، ولو أنه حدث ما زعموا لنقله إلينا الرواة المسلمون الذين لم يدعوا صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالسيرة المحمدية إلا ذكروها .

وأما ما زعموه من أن محمداً مر على ديار مدين وتحدث مع أهلها غير صحيح ، وأين مدين من طريق تجارتهم إلى الشام ؟ وليس من المعقول من مثل النبي ، وهو من هو في رجائه العقل ، وقوة الفطنة أن يعتمد في أخبارهم ، وأخبار ثمود وغيرهم من الأمم السابقة ، على أعراب لا علم عندهم ولا تحقيق ، ولم يعرف عن القوافل التجارية أنها كانت تضيع وقتها في البحث عن الأحبار والرهبان ، وما كان للنبي وقد ذهب مع قافلة أن يشتز عنها ثم يذهب باحثاً عن علماء أهل الكتاب ، ولو أنه فعل لما تمكن من تصريف تجارته ، مع أن المنقول أنه كان تاجراً أميناً ناجحاً ، وأنه كان يربح ربحاً وافراً ، وهذا لن يتأتى في العادة لمن شغل بغير تجارته ثم لوسلنا جدلاً أنه سمع من أخبار أهل الكتاب ، فهل هذه التفت المبعثرة المشوشة تكون هذا القصص الوافى الدقيق على المنهج الذى جاء به القرآن ؟

(الرد على المقدمة الثانية)

وهى ما زعموه من أن ورقة كان من متصرفة العرب ، وأنه كان قريب خديجه ، وأن النبي أخذ منه بعض معارف أهل الكتاب ، فقد خلطوا فيه الحق بالباطل .

والذى ثبت في الصحيحين : أن ورقة كان من العرب الذين تنصروا في الجاهلية ، وكان يعرف العربية والعبرانية ، وكان له علم بالكتب السابقة ، وأن السيدة خديجة لما أخبرها النبي مارأى ، وما سمع بغار حراء ، وجاءه فرعاً خائفاً أخذته إلى ابن عمها ورقة ، فأخبره النبي بما رأى ، فقال له ورقة . هذا هو الناموس (١) الذى كان ينزل على موسى ، ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أ كون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال له النبي . أو مخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وقتر الوحي (٢) .

ولم تذكر الروايات أن النبي كانت له صلة به قبل هذا ، بل السيدة خديجة هى التى عرفته به ، ولا أنه أخذ عنه شيئاً من معارف أهل الكتاب ، ولم يعرف عن ورقة أنه كان من دعاة النصرانية المبشرين بها ، ثم أنه لم يلبث أن توفي ، وهذا هو الصحيح المعتمد .

وما روى من بقاء ورقة حتى شهد الدعوة المحمدية ، والصراع بين المسلمين والمشركين ، فغير صحيح ، وهى رواية شاذة ، فهل يعقل أن تكون هذه المقابلة الحاطفة ينبوعاً لما جاء به الوحي المحمدى !!؟

(الرد على المقدمة الثالثة)

وأما ما زعموه من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب ، ومن تنصر بعض فصحاء العرب ، وشعرائهم ، كقس بن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، ودعوتهم إلى التوحيد ، وإشادتهم بقرب ظهور النبي الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وتأثر النبي بهم في دعوى النبوة فغير صحيح .

(١) الناموس رسول الخير وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام .

(٢) انظر صحيح البخارى باب كيف كان بدء الوحي .

فاليهودية والنصرانية لم تكن منتشرة في بلاد الحجاز ، وهي التي بعث
هنا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى ، وإنما كان
اليهود بجوار المدينة المنورة ، ومع هذا فلم يكن لهم أثر يذكر في جيرانهم
- الأوس والخزرج - بالمدينة ، ولم يتهود من العرب إلا قلة ، والذين
تنصروا من العرب أقل من القليل ، وكانت معارفهم كمعارف أهل الكتاب
بالمدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية ، كنجران وبلاد الشام -
مشوشة ملفقة محرقة ، مما لا يعقل معه أن تكون مصدرأ لما جاء به
سيدنا محمد من أخبار وقصص تنسم بالصدق والحق ، وعدم التناقض
والاضطراب .

وأما قس بن ساعدة فقد مات قبل البعثة ، ولم يعرف أنه تنصر ،
وإنما كان من الحنيفيين الذين دعوا إلى التوحيد بفطرتهم ، أو تأثروا بما
بقي من شريعة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وما روى من أن النبي صلى الله
عليه وسلم رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطف الناس في سوق عكاظ على
جمل أورق ! وأن النبي سر بكلامه . قد ضعفه المحدثون . بل طعن فيها
الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي بالوضع والاختلاق . ولو سلمنا صحة لقاء
النبي له قبل البعثة . فإن ما أنز عن قس من كلمات لا تصلح أن تكون ملهمة
للنبي بهذه الرسالة التامة الوافية .

وأما أمية بن أبي الصلت . فقد كان شاعر ثقيف . وكان من الحنيفيين .
الذين يدعون إلى التوحيد . وكان علم أنه سيبعث نبي آخر الزمان من بلاد
العرب . فترهب وتعبد . ولبس المسوح (١) طمعاً في أن ينال النبوة . وقد
عاش حتى أدرك النبوة . ولكن استبد به الحقد والغضب أن لم تصادفه
النبوة فلم يسلم . ولما سمع النبي ﷺ شيئاً من شعره قال « وكاد أن يسلم »
وقال : « آمن شعره وكفر قلبه »

ولم يثبت قط أنه لقي النبي قبل البعثة ولا بعدها . وإن كان عاش إلى سنة

(١) جمع مسح - بكسر الميم - وهي اباس الرهينة .

تسع من الهجرة فكيف يعقل أن يكون النبي في نشأته قد أخذ عنه وتأثر بأفكاره ؟

(الرد على المقدمة الرابعة)

وهي زعمهم أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى . وكانوا عبيداً وخداما . ويسكنون خارج مكة . وأن النبي اتصل بهم وسمع منهم . فهي أوغل في الكذب من سابقاتها . وأبعد من نجوم السماء . ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى حتى يتعلم منهم النبي . ولو وقع ما زعموه لاتخذوه أعداؤه من المشركين حجة يحتجون بها عليه . وأن ما يدعيه من الوحي إنما تعلمه من هؤلاء . فانهم كانوا يوردون في معرض الحجاج والخضام ما هو أضعف وأوهن من هذه الشبهة ، فقد كان بمكة قين - حداد - رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحيانا يشاهد صنعته ، فطعنوا في النبي بأنه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله : « ولقد نعلم بأنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أجمعي ، وهذا لسان عربي مبين ، (١) »

لقد كان ذكر القصص بمكة من أقوى البراهين على صدق النبي ؛ لأن البيئته المسكية لم تكن بيئة علم ومعرفة ، ولم يكن فيها يهود ولا نصارى بشهادة الواقع التاريخي الصادق ، ولو تأخر ذكر القصص إلى ما بعد الهجرة لربما قالوا إنه تعلمه من أهل الكتاب بالمدينة ، وإذا ثبت أن النبي كان أمياً ، وانتفى أخذه عن أهل الكتاب ، فقد تعين أن يكون من عند الله سبحانه وصدق الله حيث يقول : « وما كنت تنلو من قبله من كتاب ، ولا تحطه يمينك ، إذا لارتاب المبطلون ، (٢) »

وكثيراً ما نبه الله عز شأنه إلى ما في القصص من دلائل على صدق النبي في دعوته بعد ذكر شيء منها . قال سبحانه بعد ذكر قصة موسى في مدینه

(١) النحل ١٠٣ (٢) العنكبوت ٤٨

من سورة القصص : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتناول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين ، » (١) . وقال بعد قصة نوح من سورة هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ، » (٢) وقال في آخر سورة يوسف : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى لقوم يؤمنون ، » (٣)

وتأمل في قوله سبحانه : « ولا قومك من قبل هذا ، فإنها ترد على هذا الاقتراء المكشوف :

رد المقدمة الخامسة

وهي استفادة العرب من رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام ، بالتقائم بأهل الكتاب والسماع منهم ، وبالتالي استفادة النبي من ذلك فيظهر تماثلها مما قدمناه في رد المقدمات السابقة ، وأزيد فأقول . إن هتين الرحلتين لم يكن لهما أثر يذكر في عقيدة القرشيين ، لأن مقصدهم كان التجارة لا تلقى العلم والمعارف من أهل الكتاب ، وعلى كثرة تكرار الرحلتين لم نجد أحداً من أهل مكة صار يهودياً أو نصرانياً ، ومن تنصر في غير مكة إنما هم قلة لا تكاد تذكر ، فكيف يتأثر النبي بقوم في شيء هم أجهل الناس به ؟

﴿ رد المقدمة السادسة ﴾

وأما ما زعموه من أن خلوة النبي وتعبده في حراء وتأمله في الكون علويه وسفليه ، وأنه بتعبده وتفسكره خيل إليه أنه النبي المنتظر ، وأنه قد تمكن منه هذا التخيل حتى تراه له أنه يوحى إليه وأن الملك يلقنه -

(١) القصص ٤٤ ، ٤٥ (٢) هود ٤٩ (٣) يوسف ١١١

فدعاوى باطلة ، ومقدمة لا تؤدي إلى ما يريدون من نتيجة ، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد ما كان يدور بخلده انه نبي هذه الامة المبعوث في آخر الزمان ، وليس أدل على هذا من قول الحق تبارك وتعالى « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » (١)

فهي صريحة في أن النبي ما كان يؤمل ذلك ، ولكن ألقى الله إليه بالكتاب رحمة من الله به ، وبالناس كلمهم ، لا كسب له فيه بعلم ، ولا عمل ولا رجاء ولا أمل ، والثبوة ليست بالتبني ولا بالرياضات الروحية ، ولو كانت تنال بذلك لناها أمية بن أبي الصلت ، وأمثاله ممن ترهبوا وتنسكوا ، وجاهدوا في سبيل الوصول إليها وأيضاً فغاية التعبد والتفكير في السكون أن يصلوا بصاحبه الى الإيمان بوجود إله خالق مدبر قيوم عالم قادر أما أنها يؤديان إلى كل هذه العقائد والتشريعات المتنوعة ، والآداب والتوجيهات التي لم تكن تخطر على بال إنسان ، فهذا أمر غير معهود في سنة السكون ومجرى العادة .

وبعد هذا المطاف تبين لك أيها القارئ الحصيف ان المقدمات التي ارادوا ان يرتبوا عليها فكرة الوحي النفسي مقدمات فاسدة غير مسلمة ودعاوى باطلة ، لا حقائق تاريخية ثابتة ، وإذا بطلت المقدمات ، بطل لزوم النتيجة لها بدهة العقل ، وما مثلهم إلا كمثل من أراد ان يبنى بيتاً من خيوط العنكبوت ، وإن أوهن البيوت لبنت العنكبوت لو كانوا يعلمون ، (٢)

رد عام لفكرة الوحي النفسي ،

إن فكرة الوحي النفسي كما صوروه مبنية على وجود معلومات وأفكار مدخرة في العقل الباطن وأنها تظهر في صورة رؤى ثم تقوى فيخيل لصاحبها أنها حقائق خارجية ، فبل كان الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء بعقائده وتشريعاته في العبادات والعمالات ، والحدود والجنائيات ، والاقتصاد والسياسة ، والأخلاق والآداب ، وأحوال السلم والحرب

مر كوزاً ومدخراً في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ؟
هذا ما تنسره العقول بداهة ، لأن ما جاء به النبي في العقائد يعتبر
مناقضاً لكل ما كان سائداً في العالم حينئذ من عقائد كالوثنية ، والجوسية ،
والتأليه ، والتثليث والصلب ، وإنكار البعث واليوم الآخر ، وكذلك جاء
النبي بتشريعات ما عرفت في الشرائع السابقة : سماوية وغير سماوية ،
واشتمل القرآن على أسرار في السكون ، والآفاق والأفانيس ما كانت تخطر
على بال بشر قط ، ولم يظهر تأييدها إلا بعد تقدم العلوم والمعارف في
العصر الأخير ، فكيف تكون هذه الأسرار من داخل نفس النبي صلى الله
عليه وسلم وهي لم تخطر له على بال ؟

وأيضاً فإن الوحي بعد نزول صدر سورة (اقرأ) على النبي وهو
يتعبد بغار حراء قد انقطع مدة من الزمان ، لم ينزل فيها قرآن . فكيف
سكت النبي طوال هذه المدة ، وهو هو صاحب العقل الباطن المملوء
بالمعارف ، والوجدان الملتهب ، والنفس المتوثبة للإصلاح ؟ أخبرونا
يا أصحاب العقول

ثم إن العقل الباطن على ما يقول علماء النفس ، إنما يفيض به فيه في
غفلة من العقل الظاهر ، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طريق الرؤى
والاحلام ، الأمراض كالحمى مثلاً وفي الظروف غير العادية ، والقرآن
الكريم نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في اليقظة ، وفي إكتمال من
عقله وبدنه ، ولم ينزل منه شيء في الرؤى والاحلام وهكذا نرى أن ما
استندوا إليه من فكرة العقل الباطن لا تساعدهم بل ترد عليهم . وبعد ،

فلا عليك أيقنت أن ما ذهبوا إليه من فكرة الوحي النفسي إنما تصدوا بها
إبطال الوحي المحمدي ، ولسكن يأبي الله والراسخون في العلم ذلك
• يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو
كره الكافرون ، (١)

د قصة جان دارك ،

إن تمثيلهم الوحي المحمدي بما زعمته جان دارك الفرنسية من أنها مرسله من عند الله لإنقاذ وطنها ، وأنها سمعت صوت الوحي يأمرها بذلك تبين على الرسالة المحمدية ، والوحي المحمدي ، وأين الحصان من نجوم السماء ، بل أين السراب ، من زلال الماء .

إن (جان دارك) لم تدع النبوة ، ولو أنها ادعتها لما صدقت ؛ لأن دعوى النبوة لا تثبت إلا بدليل وهي المعجزة ، وأين ما ظهر على يدها من معجزات ؟ وإنما هي فتاة قوية القلب ، مرهفة الحس ، أهاج وجدانها ، وحركة ما كانت تتصف به من شعور ديني كريم ، وما كان يعاينه قومها من ذل وعبودية ، لقد تلاقى شعورها الديني ، وشعورها السياسي ، فاستنهضت قومها للجهاد ، وقادتهم إلى التخلص من الاستعباد ، وقد صادفت دعوتها هوى في نفوس قومها ، فأجابوها وخرجوا معها ، وكان لهم النصر على العدو ، وكونها استغلت مزاعمها في إثارة النفوس وإلهاب الحماس لا يقتضى أنها صادقة فيما زعمت ، وما أسهل تهيج حماس أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات ، وبما هو أضعف منها ، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته عند الأهرام ، فهي لم تزد عن كونها امرأة شجاعة متدينة ، امتلا قلبها بحب بلادها ، ورغبتها في تخليصها من عدوها ، فقادت جيشا قوامه عشرة آلاف جندي وضابط ، وانتصروا على الإنجليز .

وإليك ما ذكره البستاني عنها في (دائرة معارفه) قال : « كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعى المواشي ، وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت ، وكان الناس في جوار (دومري) - يعني بلدها - متمسكين بالخرافات ، ويميلون إلى حزب (أوليان) في الانقسامات التي مزقت

مملكة فرنسا ، وكانت (جان) مشتركة في الهياح السياسي والحاس الديني ، وكانت كثيرة التخيل والورع . تحب أن تتأمل في قصص العذراء ، وعلى الأكثر في نبوءة كان شائعة في ذلك الوقت ، وهي أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها ، ولما كان عمرها ثلاث عشرة سنة كان تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعية ، وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ، ورؤى كانت تراها ، ثم بعد ذلك بوضع سنين خيل لها أنها قد دعيت لتخلص بلادها ، وتزوج ملكها ، ثم أدفع (البرغتيور) تعديا على القرية التي ولدت فيها ، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها (١) .

وكانت انتصارها سنة (١٤٢٩ م) ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت أختلتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية (١٤٣٠ م) فانكسرت وجرحت وأسرت .

وهكذا يتبين لنا بما ذكره أن دعوتها شبيهة بدعوات من زعم أنه المهدي المنتظر ، ودعوة الباب الإيراني ، وكذا البهاء والقادياني ، وأمثالهم ممن زعموا أنهم يوحى إليهم ، ووجدوا من يفتر بدعواتهم .

فأين هذه النبوة العصبية القصيرة الأجل المعروفة السبب ، والتي لا دعوة فيها إلى دين وعلم ولا إصلاح اجتماعي أو اخلاقي ، والتي لم تلبث أن اقل نجمها ، وغربت شمسها - أين هذه الدعوة من دعوة الأنبياء ولا سيما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذه الدعوة التي قامت في بيئة هي أبعد ما تكون عن العلم والمعرفة وأقوى ما تكون عناداً وصلابة وعنجهية ، والتي تعرضت لتكالب جيوش الشر والغدر ، والحقد والعصبية من العرب والرومان والفرس ، فإذا بها تصرعهم جميعاً ، وتمزقهم في عقر دارهم ،

وتمخض عن ميلاد أمة : هي خير أمة أخرجت للناس عقيدة وشريعة ،
وعلماً وعملاً ، وأخلاقاً وفضائل ، وعدلاً ورحمة ، وسياسة وقيادة
أما جان دارك ، فلم تصنع بدعوتها أمة ، ولم تقم بها حضارة
بل أين حال هذه الفتاة التي كانت كبارقة أومضت ثم اختفت ، وشعلة
أضاءت ثم لم تلبث أن خفت ، وثورة قدر سرعان ما زالت من حال شمس
النبوة المحمدية التي أشرقت فأضاءت الأرجاء ، وسطعت فبددت الظلمات .
ظلمات الشرك والجهل والفقر والخرافات ، ولا يزال نورها - ولن يزال -
متألق السماء ، ألا ما أبعد الفرق بين الحالين ، وفرق ما بينهما كفرق ما بين
الأرض والسماء

(شبهة أخرى على الوحي المحمدي)

لقد أسف بعض المستشرقين والمبشرين فزعموا أن الحالة التي كانت
تعزى النبي ﷺ عند تلقي الوحي من جبريل ، وهو على حالته المملكية ،
وهي الحالة التي كان النبي يغيب فيها عن الناس وعماحوله ، ويسمع له غطيظ
كغطيظ (١) النائم ، ويتصعب عرقه ، ويثقل جسمه هي حالة صرع
تمنخض عما يخبر به أنه وحي

وإليك رد هذه الفرية لترى أنهم طعنوا في غير مطعن ، وطاروا
في غير مطار

(١) إن النبي ﷺ بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء كان أصح الناس
بدناً وأقواماً جسماً ، وأوصافه التي تناقلها الرواة الثقات تدل على البطولة
الجسمانية . وقد بلغ من قوته أنه صارع ركبانة بن عبد يزيد فصرعه ، وكان
ركبانة هذا مصارعاً ماهراً ، ما قدر أحد أن يأتي بجانبه إلى الأرض ، ولما
عرض عليه النبي الدعوة قال . صارعني فإن أنت غلبتني آمنت أنك

(١) صوت النائم إذا احتبست أنفاسه

رسول الله ، فصارعه الرسول فغلبه ، فقليل إنه اسلم عقب ذلك (٢) والمصاب بالصرع لا يكون على هذه القوة ، وقد شهد للنبي رجل غريب عن الإسلام ولكنه منصف قال الكاتب الأجنبي (بودلى) في كتابه (الرسول . حياة محمد) مفنداً هذا الزعم : « لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي كان يتمتع بها محمد ﷺ حتى قبل وفاته بأسبوع واحد ، وإن كان من تنابته حالات الصرع كان يعتبر مجنوناً ، ولو كان هناك ما يوصف بالعقل ورجاحته . فهو محمد . »

(٢) إن مريض الصرع يصاب بالأم حادة في كافة اعضاء جسمه يحس بها إذا ما انتهت نوبة الصرع ، ويظل حزينا كاسف البال بسببها ، وكثيراً ما يحاول مرضى الصرع الانتحار من قسوة ما يعانون من آلام في النوبات فلو كان ما يعتري النبي ﷺ عند الوحي صرعا لأسف لذلك وحزن لوقوعه ولسعد بانقطاع هذه الحالة عنده ، ولكن الأمر كان على خلاف ذلك لقد قرأ الوحي عن الرسول مدة فحزن لذلك حزناً شديداً ، وكان يذهب إلى غار حراء وقم الجبال عسى أن يعثر على الملك الذي جاءه بجرأه وبقي محزون النفس من هذه الحالة حتى سرى عنه ربه بوصل ما انفصم من الوحي

(٣) ان الوحي لم يكن يأتي النبي ﷺ على هذه الحال التي قالوا عنها انها صرع إلا احيانا وأحيانا كان يأتيه وهو في حالته الطبيعية فلا غيبوبة ولا قلق ولا غطيظ ، وذلك حينما كان يأتيه جبريل في صوة رجل ، وكان الجالسون لا يعرفون انه جبريل ، ولكن النبي كان يعلم ذلك حق العلم وذلك كما حدث في الحديث الطويل الذي رواه البخارى ومسلم وغيرهما والذي يعتبر سجلا جامعاً لأصول الإيمان والإسلام والإحسان

(٢) الإصابة في تاريخ الصحابة ج ١ ص ٥٣١ والاستبواب ج ١ ص ٣١

[هامش الإصابة]

ويدل على حالتي الوحي هتين الحديث الذي رواه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها ان الحارث بن هشام - رضي الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ قال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعني ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليترعد عرقاً، (١)

(٤) إن الثابت علمياً ان المصروع حالة الصرع تعطل تفكيره وإدراكه تعطلاً تاماً، فلا يدري المريض في نوبته شيئاً عما يدور حوله، ولا ما يجيش في نفسه كما انه يغيب عن صوابه، وتعتبره تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور ويصبح المريض بلا إحساس.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد الوحي يتلو على الناس آيات بينات، وتشريعات محكمات، وعظات بليغات، وأخلاقاً عظيمة، وكلاماً بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة تحدى به الناس قاطبة عربهم وعجمهم أن يأتوا بأقصر سورة منه فما استطاعوا فهل يعقل من المصروع أن يأتي بشيء من هذا؟ اللهم إن هذا أمر لا يجوز إلا في عقول المجانين إن كانت لهم عقول.

(٥) لما تقدمت وسائل الطب، واستخدمت الأجهزة والكهرباء في التشخيص والعلاج. إذا الطب يضيف دليلاً لا ينقض، ويقيم حجة لا تحتاج إلى مناقشة على كذب فرية الصرع، ويؤكد أن ما كان يعتبرى رسول الله ﷺ إنما هو وحي من الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر.

لقد ثبت أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية في المخ

(١) صحيح البخاري باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

والدليل على ذلك أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ في أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجى ، وعلى أية صورة كانت هذه النوبات ومهما ضعفت حدة هذه النوبات ولقد أثبت ، الطب الحديث أخيراً بعد الاستعانة بالأجهزة ، والرسم الكهربائى على أن هناك مظاهر عديدة ، ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعاً لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائية ، وطريقة وسرعة انتشارها ، وأهم أنواع الصرع ما يسمى بالنوبات الصرعية النفسية ، وهو ما يشبه أن يكون النوع الذى افتراه الخصوم على الرسول بأنه مصاب به ، وفى هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معاً وتسمى «الهلاوس» ، وقد أثبت الطب أيضاً أن الذكريات التى تمر بالمريض لا بد أن يكون قد عاش فيها المريض نفسه حتماً ، إذ أن النوبة الصرعية ما هى إلا تنبيه لصورة أو صوت مر بالإنسان ثم احتفظ به فى ثنايا المخ ، وقد أمكن طبيياً إجراء عملية التنبيه هذه بوساطة تيار كهربائى صناعى ساط على جزء خاص فى المخ فشعر المريض بنفس «الهلاوس» ، التى تتنابه فى أثناء نوبة الصرع ، وكلما تكررت نوبة الصرع تكررت نفس الذكريات أو «الهلاوس» ، فهذا مريض يسمع أغنية ، أو قطعة من شعر ، أو حديثاً من أى نوع كان فى نوبة صرعه ، ويتكرر سماعه لها فى كل نوبة ، ولا بد أن يكون ما سمعه من النوبة قد سمعه يوماً فى طفولته ، أو شبابه ، أو قبا مرضه ، وكذلك إذا كانت النوبة تثير منظرأ لا بد أن يكون قد مر عليه.

وبتطبيق ما قرره الطب الحديث فى حقائق الصرع على ما كان يعترى النبي ﷺ نجده يردد آيات لا يمكن إطلاقاً أن يكون قد سمعها من قبل فى حياته فهى آيات واردة على اسنان الحق سبحانه وتعالى قبل أن يدمر البشر الأرض مثل قوله سبحانه : « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك

الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، (١)

وآيات أخرى فيها قول الله يوم القيامة مثل ، حتى إذا جاؤا قال أكذبتهم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ، (٢) وقوله سبحانه قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم (٣) .

وكذلك الآيات التي تحمى حضور ما قبل الإسلام ، والمقاومات والمحاورات التي جرت بين أقوام عاشوا قبل الرسول بآلاف السنين وذلك مثل قوله سبحانه وتعالى : «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هـ من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، (٤) وقوله سبحانه : « قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون قال : رب انى لا أملك إلى نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، (٥) إلى غير ذلك من الآيات التي تحمى قصص الأولين أو تصف احوال القيامة واليوم الآخر ولما كانت هذه الأحاديث والأحوال لم تمر بالرسول قطعاً فهي لم تختزن بالتالى فى المخ لتثيرها نوبات صرعية فيتذكرها ، وبذلك يقرر الطب الحديث فى احدث اكتشافاته بالنسبة للصرع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن ان يكون هناك ادنى شبهة فى إصابته بالصرع إطلاقاً وإن ما كان يعتره إنما هى حالة نفسية وجسدية لتلق وحى الله سبحانه وتعالى ، هذا الوحى الذى اخبره الله فيه عما مضى ، وعما يستقبل (٦) .

(١) البقره ٣٤ ، ٣٥ (٢) النمل ٨٤ (٣) المائدة ١١٩

(٤) آل عمران ٣٧ (٥) المائدة ٢٤ ، ٢٥

(٦) مجلة منبر الإسلام العدد ٩ السنة ١٩ رمضان سنة ١٣٨١ هـ فبراير ١٩٦٤ م

(٦) ثم ما رأى هؤلاء الطاعنين وفيهم من ينتمى إلى بعض الأديان في أنهم لا يتألون من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده ، وإنما يتألون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب أو صحف أو وحى بهما من عند الله سبحانه فهل تطيب نفوس المقرين بالأديان منهم أن يخرجوا ببوتهم قبل أن يخرجوا ببوت غيرهم ؟ !! وما رأيهم فيما جاء في كتب العهد القديم والجديد من إحصاءات ونبوءات ؟ وهل يقولون في وحى نبي الله موسى وعيسى عليهما السلام ما يقولون في وحى نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

اللهم إن هذا الطعن لا يفوه به إلا أحد رجلين : إما رجل مخرف ، وإما رجل مخرب مدمر يريد هدم الأديان .

إن الرسول ﷺ ليس يبدع من الرسل في باب الوحى ، وإنه أوحى إليه كما أوحى إليهم وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا لى نوح ، والنبين من بعده ، وأوحينا لى إبراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، (١) وقال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه على حكيم . وكذلك أوحينا لى روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور ، (٢)

(١) النساء . ١٦٣ - ١٦٤

(٢) الشورى ٥١ - ٥٣

المبحث الثالث

« أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه »

هذا المبحث .. المدار فيه على النقل عن الصحابة والتابعين ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بين ما ظاهره التعارض منها ، ويرتّب على العلم بأول ما نزل ، وآخر ما نزل فوائد منها .

(١) معرفة الناسخ والمنسوخ : فيما إذا وردت آيتان أو أكثر في موضع واحد ، وحكم إحداهما يغيّر الأخرى تغيّراً لا يمكن معه الجمع ، فنعرف أن المتأخر منها ناسخ للمتقدم .

(٢) معرفة تاريخ التشريع الإسلامي : وذلك مثل ما إذا عرفنا : أن الآيات التي نزلت في فرضية الصلاة كانت بمكة ، قبل الهجرة . وأن الآيات التي نزلت في فرض الزكاة (١) والصوم كانت في السنة الثالثة بعد الهجرة . . . وأن الآيات التي نزلت في فرض الحج كانت في السنة السادسة ، على ما هو الراجح ، أمكننا أن نرتبها ترتيباً تشريعياً ، فنقول . إن أول ما فرض الصلاة ، ثم الزكاة والصوم ، ثم الحج .

ومثل ما إذا عرفنا : أن آية : « أذن للذين يقاتلون : بأنهم ظلموا ... » (٢)

(١) بعض العلماء يرى أن الزكاة فرضت بمكة ، وإنما الذي كان بالمدينة بيان مصارفها وأصوبها ، ولكن الأثر أكثر على أنها فرضت بالمدينة في السنة الثانية . وقد اختلف هؤلاء : أ كان فرضها قبل الصوم أم بعده ؟ رأيان . ويرجح الثاني ، حديث « قيس بن سعد بن عبادة ، عند أحمد ، وابن خزيمة ، والذسائي وابن امامة والحاكم قال قيس : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ثم نزلت فريضه الزكاة فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله » قال الحافظ ابن حجر . إسناده صحيح (فتح الباري ج ٣ ص ٢٠٧)

(٢) سورة الحج الآية ٢٨

نزلت بالمدينة في السنة الثانية ، علنا : أن تشريع الجهاد كان بالمدينة ، بالسنة الثانية وهكذا بقية التشريعات .

(٣) معرفة التدرج في التشريع ، فتوصل إلى حكمة الله - سبحانه - العالية في أخذ الشعوب بهذه السياسة الحكيمة في الإسلام ، وذلك مثل ما إذا عرفنا . ترتيب الآيات التي نزلت في شأن تحريم الخمر ، وقد ذكرنا ذلك آنفاً . ومثل ما إذا عرفنا : أن الآيات الداعية إلى أصول العقائد نزلت أولاً ، وأن الآيات التي نزلت في التشريعات التفصيلية ، والأحكام العملية نزلت بعدها ، أدركنا أسرار الله في التريية والتشريع ، فلم تعرف الأصول ، وتطمئن إليها القلوب ، لا يسهل الأخذ بالفروع .

ثم إن أولية النزول وآخريته . . تارة تكون على الإطلاق : أى بالنسبة للقرآن كله . وتارة تكون مفيدة ، إما بالنسبة لموضع معين ، وذلك مثل أول ما نزل في الجهاد . وآخر ما نزل فيه ، وإما بالنسبة لمسكان خاص مثل أول ما نزل بمكة ، وآخر ما نزل بها ، وأول ما نزل بالمدينة وآخر ما نزل بها ، وإما بالنسبة لسورة ما ، مثل أول ما نزل من سورة كذا وآخر ما نزل منها .

أما الأولوية والآخرية المطلقتان ، فسأتناولهما بالتنصيل ، وأما المقيدتان فسأنا كتنفى بضرب بعض الأمثلة ، لأن استيعابها يحتاج إلى مؤلف خاص .

ولنبداً بأول ما نزل . . وآخر ما نزل على الإطلاق .

أول ما نزل من القرآن

اختلف العلماء في هذا على أقوال أربعة :

القول الأول :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق

الإِنسان من علق ، اقرأ ، وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم (۱) ، ويدل لذلك ما يأتى :

(۱) روى عن البخارى ومسلم - واللفظ للبخارى - بسندهما عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها - أنها قالت : « أول ما بدى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيحنت فيه - وهو التعب - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع (۲) إلى أهله ، ويتزود لذلك (۳) ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطى (۴) حتى بلغ منى الجهد (۵) ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، (۶) فرجع بها إلى خديجة يرتجف فؤاده ، فقال : زملونى (۷) ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسى (۸) ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزنك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل (۹) ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف . . . الحديث (۱۰) وقد سقت الحديث بطوله ،

(۱) العلق ۱ - ۵ (۲) يرجع (۳) أى يأخذ معه زاده

(۴) ضمنى وهصرنى حتى كاد يحبس أنفامى

(۵) بفتح الجيم ونصب الدال أى غاية الوسع ، وبضم الجيم ، ورفع الدال

أى المشقه والخرج أى باغت من المشقه غايتها (۶) العلق ۱ - ۵

(۷) لاونى بالثياب وغطونى حتى يذهب عنى الخوف والرهب

(۸) أى المرض أو الهلاك (۹) الضعيف

(۱۰) صحيح البخارى - باب كيف كان بدء الوحي صحيح مسلم -

وشرحه في كتابي « السيرة النبوية » ، في ضوء القرآن والسنة . وعائشة ، وإن لم تعين القصة وتشاهدها ، إلا أنه يحتمل أن تكون سمعتها من النبي بعد ، أو حدثها بها صحابي سمعها من النبي ، وأياً كان الأمر فهو حديث متصل مرفوع .

(ب) وروى الحاكم في « مستدرکه » ، والبيهقي في « دلائل النبوة » ، وصحاحه عن عائشة أنها قالت : « أول سورة نزلت من القرآن « اقرأ باسم ربك » ، ومرادها بالسورة صدرها ، وإلا فباقيها نزل بعد ، كما تدل على ذلك رواية الصحيحين .

(ج) وروى الطبراني في « المعجم الكبير » ، - بسند على شرط الصحيح - عن أبي رجاء العطاردي قال : « كان أبو موسى - يعني الأشعري - يقرئنا فيجلسنا حلقاً ، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، قال . هذه أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم .

(د) وأخرج ابن أشته في كتاب « المصاحف » ، عن عبيد بن عمير قال . « جاء جبريل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بنمط ، فقال . اقرأ ، فقال . ما أنا بقارئ » ، قال . « اقرأ باسم ربك » فيرون أنها أول سورة أنزلت من السماء .

وأخرج أيضاً عن الزهري « أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان بحراء ، إذ أتى ملك بنمط من ديباح (١) فيه مكتوب « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، إلى « ما لم يعلم (٢) ، ولعل هذا - إن صح - يفسر لنا الأمر بالقراءة في رواية الصحيحين أي اقرأ ما في هذا البُط إلى غير ذلك من الآثار التي ذكرها الإمام السيوطي في « الإتقان الصحيح » ، وعليه جمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً .

(١) البُط . الثوب ، الديباج الحرير وهو معرب

(٢) سورة العلق ١ - ٥

القول الثاني :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « يا أيها المدثر » إلى والرجز فاهجر . (١)
وهذا القول مروى عن جابر بن عبد الله ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .
وبدل لهذا ما رواه الشيخان - واللفظ للبخارى - عن يحيى بن أبي
كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن : أى القرآن أنزل أول ؟ فقال :
« يا أيها المدثر » ، فقلت : أنبئت أنه « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، وفى رواية
« يقولون : اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، فقال أبو سلمة . سألت جابر بن
عبد الله . أى القرآن أنزل أول ؟ فقال . « يا أيها المدثر » ، فقلت . نبئت أنه
« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، فقال . « لا أخبرك إلا بما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله : جاورت فى حراء (٢) ، فلما قضيت
جوارى هبطت ، فاستبطنت الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى ، وخلقى ،
وعن يمينى ، وعن شمالى ، فإذا هو (٣) جالس على عرش بين السماء
والأرض ، فأثبت خديجة ، فقلت : « دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً ،
وأنزل على « يا أيها المدثر » ، قم فأنذر ، وربك فسكبر ،

وقد أجاب القائلون بالأول عن هذا بأجوبة أحسنها وأخلقها بالقول :
أن « يا أيها المدثر » ، أول ما نزل بعد فترة الوحي ، أما « اقرأ » ، فهى أول
ما نزل على الإطلاق .

ويؤيد هذا التأويل ويقويه ما رواه الشيخان أيضاً عن طريق الزهرى
- واللفظ للبخارى (٤) - عن ابن سلمة بن عبد الرحمن ، عن جابر بن

(١) المدثر ١ - ٥

(٢) أى أقمت فيه مدة متعبداً ، وكان ذلك قبل النبوة ، وبعدها ، وكان يجاور
خيه فى رمضان غالباً .

(٣) أى الذى رأيت قبل هذا فى حراء ، والمراد به جبريل .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة المدثر .

عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجلست منه رعباً^(١) ، فقلت : زملوني ، زملوني ، فذرني ، فأنزل الله تعالى « يا أيها المدثر ، إلى ، والرجز فاهجر ، قبل أن تفرض الصلاة ، وهي الأوثان^(٢) » فقوله : « وهو يحدث عن فترة الوحي^(٣) » نص على أن ذلك كان بعد فترة الوحي ، فهي أولية مقيدة لا مطلقة .

وكذلك قوله ﷺ - « فإذا الملك الذي جاءني بحراء الخ » يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء ، التي نزل فيها « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

على أننا نلاحظ أن جابراً استنبط ذلك باجتهاده ، على حسب علمه من روايته ، ولذلك لما روجع لم يجد بداً من ذكر ما سمعه ، ولم يقطع برأى ، ثم لما تبين له الأمر ، وأن ذلك كان بعد فترة الوحي ، ذكر ذلك صراحة كما في طريق الزهري بخلاف حديث عائشة فالتيقن أنه من روايتها ، لا من اجتهادها .

ومن الأجوبة التي أجيب بها .

(١) أن أول سورة « المدثر » مقيد بما نزل متعلقاً بالإندثار ، ولذلك دعا النبي بعدها إلى الله ، بخلاف صدر سورة العلق فهو مطلق غير مقيد بشيء خاص .

(١) أي سقطت من الخوف .

(٢) تفسير للرجز .

(٣) وقد اختلف في هذه الفترة فقيل . أربعين يوماً ، وقيل ستة أشهر وقيل الستين ونصف والأول هو ما اخترته ورجعته في كتابي « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة » ج ١ ص ٢٦٧ .

(٢) أن سورة « المدثر » أول سورة نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة « اقرأ » فإنها أول ما نزل منها صدرها (١) .

أقول هذا الجواب غير مسلم ، فقد ذكرت آنفاً رواية الصحيحين عن جابر ، وفيها « فأنزل الله يا أيها المدثر - إلى - والرجز فاهجر » .

فكيف يدعى مدع ، أو يقول قائل : إن المدثر أول سورة نزلت بتامها ؟ ! فالخلق أنه لا يصلح أن يكون جواباً .

ولذلك لما تعرض الحافظ ابن حجر في «الفتح» للتوفيق بين الحديثين : حديث عائشة ، وحديث جابر - لم يذكر هذا الوجه (٢) ، وإنما ذكره صاحب الإتيان .

القول الثالث :

إن أول ما نزل سورة « الفاتحة » ، وقد عزا هذا القول الزمخشري في «كشافه» إلى أكثر المفسرين ، ورد عليه الحافظ بن حجر : بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل ، وإلى هذا الرأي مال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير سورة « الفاتحة » .

وقد استدل الذاهبون إليه بما رواه البيهقي في «دلائل النبوة» والواحدى بسنده عن أبي ميسرة - عمرو بن شرحبيل - أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : «إني إذا خلوت ، وحدي سمعت نداءً ، فقد - والله - خشيت أن يكون هذا أمراً» (٣) فقالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك (٤) ، فوالله : إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له ، وقالت : اذهب مع محمد إلى « ورقة » - يعني ابن نوفل - فانطلقا ، فقصا عليه ، فقال : « إذا خلوت وحدي سمعت

(١) الإتيان ج ١ ص ٣٤ .

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٣) يعني شيئاً أكرهه ، أو يراد به لي الضرر .

(٤) أي شيئاً تكرهه ، أو يلحق به ضرراً ، لأن أخلاقك تبعد عنك أي سوء .

تداه من خلني : يا محمد ، يا محمد ، فأنتلق هارباً في الأفق ، ! ! فقال :
لا تفعل إذا اتاك فائت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتني ، فأخبرني .
فلما خلا ناداه : يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
حتى بلغ « ولا الضالين » الحديث

ويجاب عن هذا القول : بأنه حديث مرسل ، وإن كان رجاله ثقات
فلا يعارض حديث عائشة المرفوع ، فالراجح هو الأول

أقول : وليس فيه التنصيص على أن الفاتحة أول ما نزلت ، فيجوز -
على فرض صحة هذا المرسل - أن تكون من أوائل ما نزل ، وإلى هذا
ذهب البيهقي قال . « وإن كان - أي المرسل - محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً
عن نزولها بعد ما نزلت عليه « اقرأ » والمدثره (١) والظاهر ان الفاتحة من
أوائل السور نزولاً كما يفهم ذلك من صنيع المرتبين للسور ، على حسب نزولها
القول الرابع :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » واستند
القائل بهذا إلى ما أخرجه الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن ، قالا :
أول ما نزل من القرآن « بسم الله الرحمن الرحيم » وأول سورة « اقرأ باسم
ربك » وأخرج ابن جرير ، وغيره عن ابن عباس قال : أول ما نزل جبريل
على النبي ﷺ قال : « يا محمد ، استعد ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم »
وقد اجاب السيوطى عن هذا القول ، فقال : وعندى ان هذا لا يعد قولاً
برأسه ، فإن من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها ، فهى أول آية
نزلت على الإطلاق ، (٢)

أقول : وهذا الجواب غير مسلم فالأحاديث الصحيحة فى بدء الوحي
كحديث عائشة وغيره لم تذكر قط نزول البسملة مع صدرها ، والظاهر انها
نزلت بعد عند نزول تمام السورة

وقد ذكر «ابن عطية» في مقدمة تفسيره عند حكاية هذا القول -
ان في بعض طرق حديث خديجة ، وحملها رسول الله ﷺ إلى « ورقة ابن
نوفل» ان جبريل قال للنبي ﷺ - قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالها ،
فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، (١) فإذا ثبت هذا يكون مؤيداً لما
أجاب به السيوطي

نعم هذه الآثار والأحاديث لا تنهض لمعارضة حديث عائشة المرفوع
الذى اتفق عليه أصحابنا الصحيحين ، فهو في أعلى درجات الصحة
« ازالة إشكال » ، لكن يشكل على الوجه الذى رجحناه ، مارواه
الشيخان عن عائشة قالت : « إن أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر
الجنة والنار ، حتى إذا تاب إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ،
لأنه ليس في صدر سورة اقرأ ذكر الجنة والنار ، بل ولا في
السورة كلها .

والجواب : أن «من» مقدره في الكلام « اى من أول ما نزل ... »
ومرادها - رضى الله عنها - سورة المدثر ، فإنها أول ما نزل بعد فترة الوحي ،
وفي آخرها ذكر الجنة والنار ، فلعل آخرها نزل قبل نزول بقية « اقرأ »
وبهذا يزول هذا الإشكال

آخر ما نزل من القرآن

ليس في هذا الموضوع أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ ، وإنما هي آثار
مروية عن بعض الصحابة ، والتابعين ، استنتجوها بما شاهدوه من نزول
الوحي ، وملابسات الأحوال ، وقد يسمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر ويرى
ما لا يرى الآخر ، فن ثم كثير الاختلاف بين السلف والعلماء ، في آخر ما نزل
وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء ، وإليك تفصيل القول في هذا

القول الاول :

إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى في آخر سورة البقرة « واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (١) »
والدليل على ذلك :

(١) روى النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : « آخر ما نزل من القرآن « واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. » الآية

(٢) وروى ابن مردويه بسنده عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « آخر آية نزلت من القرآن « واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » الآية (٣) وأخرج ابن جرير ، عن طريق عطية ، عن أبي سعيد قال : « آخر آية نزلت « واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. » الآية

(٤) وأخرج ابن أبي حاتم بسنده ، عن سعيد بن جبير قال . « آخر ما نزل من القرآن كله : « واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. » الآية وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات ليلة الإثنين ، لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول

وأخرج ابن جرير في تفسيره مثله عن ابن جريج

(٥) وذكر البخوي في تفسيره عند هذه الآية عن ابن عباس - رضي الله عنها - قال : « هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ ، فقال له جبريل وضعها على رأس مائتين وثمانين ، من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله ﷺ - أحدًا وعشرين يوماً ، وقال ابن جريج : تسع ليال وقال سعيد ابن جبير : سبع ليال

(٦) وذكر الإمام الآلوسي في تفسيره عند هذه الآية . روى أنه قال يعني رسول الله - « اجعلوها بين آية الربا ، وآية الدين » وفي رواية أخرى أنه ﷺ - قال . « جاءني جبريل فقال ، اجعلوها على رأس مائتين وثمانين آية من من البقرة ،

وهذا الرأي هو أرجح الآراء والأقوال ، وهو الذى تركز إليه النفس بعد النظر فى هذه الأحاديث والآثار وذلك لما يأتى :

(١) لم يحظ قول من الأقوال التى سند كرها بمجمله من الآثار ، وأقوال أئمة التفسير مثل ما حظى به هذا القول

«ب» ما تشير إليه هذه الآية فى ثناياها من التذكير باليوم الآخر ، والرجوع إلى الله ليوفى كلا جزاء عمله ، وهو أنسب بالختام .

«ج» ما ظفر به هذا القول من تحديد الوقت بين نزولها ، وبين وفاة النبي ﷺ ولم يظفر قول غيره بمثل هذا التحديد ، ولا يضر الاختلاف فى تحديد المدة ، فالروايات حددت المدة بينها قدر مشترك ، وهو بيان قرب نزول هذه الآية من وفاة النبي ﷺ .

القول الثانى :

ان آخر ما نزل هو قوله تعالى فى سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله . وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » (١) .

ويدل لذلك ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « وآخر آية نزلت آية الربا ، وأخرج البيهقى عن عمر مثله ، والمراد بآية الربا الآية التى ذكرناها .

والحق هو الأول ويحجب عن هذا القول :

اما بأنها آخر آية نزلت فى شأن « الربا » ، واما بأن المراد أنها من أواخر الآيات نزولا .

ويؤيد هذا الجواب الأخير ، وأنها ليست آخر آية على الإطلاق ،

ما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه ، عن عمر نفسه قال : « من آخر ما نزل آية الربا ، وما ذكره ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : « خطبنا عمر

فقال : « إن من آخر القرآن نزولا آية الربا »

والظاهر أن هذا هو مراد ابن عباس أيضاً فى روايته ، وهذا التعبير له نظائر فى اللغة العربية

ويرى بعض العلماء (٢) أن المراد بقول ابن عباس « آية الربا » أى الآية

(١) البقرة الآية ٢٧٨ (٢) شرح المختار من تفسير الوصوك ص ٥٢

التي ختمت بها آيات الربا وهي « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله . . . »
وعلى هذا تكون رواية البخارى مؤيدة لما ذكرناه عن ابن عباس في
القول الاول .

القول الثالث .

إن آخر آية نزلت اية الدين ، وهي قوله تعالى : « يا أيها الذين امنوا
إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه » الآية (١) وهي أطول
اية في القرآن أخرج أبو عبيد في كتاب « فضائل القرآن » عن ابن شهاب
الزهري قال : اخر القرآن عهداً بالعرش اية الربا ، واية الدين ، وأخرج
ابن جرير عن طريق ابن شهاب ، عن سعيد ابن المسبب ، أنه بلغه ان اخر
القران عهداً بالعرش اية الدين ، مرسل ، صحيح الإسناد
ويجاب عن هذا القول : بأن هذه الآية اخر ما نزل في باب « المعاملات ،
فهي آخريه مقيدة ، لا مطلقة كآية الاولى

وقد جمع السيوطى بين هذه الأقوال الثلاثة فقال : « ولا منافاة عندى
بين هذه الروايات في اية الربا ، واية : « واتقوا يوماً . . . » واية الدين
لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها قصة
واحدة ، فأخبر كل عن بعض مانول بأنه اخر ، وذلك صحيح (٢) ، ومقتضى
هذا الجمع من الإمام السيوطى أن اية الدين اخر ما نزل من القرآن على الإطلاق
ولكنى أقول : إن في النفس من هذا التوفيق شيئاً ، وما ذكره غير
مسلم له ، فقد سمعت انفاً قول الفاروق عمر - رضى الله عنه - في أن اية
الربا من أواخر الايات ، لا اخرها ؛ واستدلال السيوطى بأن الايات
الثلاث في قصة واحدة - غير مسلم فالاية الاولى في ترك ما بقى من الربا عند
المدينين بعد نزول اية التحريم ، والثانية في التذكير باليوم الاخر ، وما فيه
من جزاء ، والثالثة في أحكام تتعلق بالدين ، فكيف يقال إذا إنها في
قصة واحدة !!؟

وبما يضعف هذا الطريق في الجمع أيضاً ، أن آية الربا نزلت (١) لما أسلمت
ثقيف وأرادوا أن يستمزوا على رباهم ؛ فاشتكى بنو المغيرة - وكانوا مدينين
لهم - إلى عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية أمرة لهم أن
يتركوها ما بقي لهم من رباهم قبل التحريم ، وإلا فليأذنوا بحرب من الله
ورسوله ، وثقيف إنما كان إسلامهم في رمضان في السنة التاسعة ، والظاهر
أن هذه القصة كانت بعد إسلامهم ، وأين زمن إسلامهم من زمن اختتام
القران قبيل وفاة الرسول ؟ !

وقد ذهب الحافظ ابن حجر في « الفتح » ، إلى نحو ما ذكرت ، ورجح
أن آية « واتقوا يوماً ... » هي الأليق بالختام فقال . طريق الجمع بين هذين
القولين : القول بآية الربا ، والقول بآية « واتقوا يوماً » أن هذه الآية هي
ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن . وأما ما سيأتي في آخر
سورة النساء من حديث البراء : « آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية
نزلت : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ... » الآية .

فيجمع بينه وبين قول ابن عباس ، بأن الآيتين نزلتا جميعاً ، فيصدق أن كلا
منهما آخر بالنسبة للمعادها ، ويحتمل أن تكون الأخيرة في سورة النساء مقيدة
بما يتعلق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة ، ويحتمل عكسه (٢) والأول أرجح
لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لختامه النزول ، وحكى
ابن عبد السلام أن النبي ﷺ - عاش بعد نزول الآية المذكورة - يعني آية
البقرة - أحداً وعشرين يوماً ، وقيل : سبعا (٣)

وبعد هذا التحقيق يتبين لنا أن الصحيح أن آخر ما نزل على الإطلاق
هي آية « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. » لما حف بها من دلائل وقرائن

(١) أسباب النزول للسيوطي على هامش تفسير الجلالين ج ١ ص ٦٩

(٢) أي أن تكون آية البقرة أوليه مقيدة بما نزل في أمور القيامة واليوم الآخر
وآية الكلالة هي آخر ما نزل على الإطلاق ولكنه رجح الاحتمال الأول

(٣) فتح الباري ج ٨ ص ١٦٥ ط البهية

القول الرابع .

إن آخر ما نزل هو قوله تعالى . « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » (١) .
وآخر ما نزل من السور (براءة)
ويدل على هذا ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال .
(آخر سورة نزلت (براءة) وآخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم
في الكلالة ...)

الويجاب عن هذا أن سورة براءة آخر ما نزل في شأن القتال والجهاد ، وأن
في الكلام تقدير آ ، أي من أواخر السور نزولا سورة براءة وأن آية الكلالة
آخر ما نزل في شأن المواثيق ؛ وقد سمعت أنفا قول الحافظ ابن حجر في هذا
القول الخامس .

إن آخر ما نزل قوله تعالى . (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدآ
فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه . وأعد له عذابا عظيما .) (٢)
واستدل صاحب هذا القول بما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس
قال : نزلت هذه الآية ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدآ
فيها ، هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . (٣) .

ويجاب عن هذا القول : بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمدا فهي
أخرية مقيدة ، ويؤيد هذا قوله في الحديث « وما نسخها شيء » فهو يدل على
نزول شيء بعدها ولكن ليس بناسخ لها ، وقوله في حديث النضر . عند
مسلم - عن ابن عباس قال : « إنها لمن آخر ما أنزلت » (٤) ، وفي الحديث
الذي رواه الإمام أحمد النسائي عنه « لقد نزلت في آخر ما نزل ، ما نسخها
شيء » ، (٥) .

(١) سورة النساء ١٧٦ ، والمراد بالكلالة من لا رلده ، أو لم يرثه والد ولا ولد ،
وهو رأى الصديق رضى الله عنه ووافق عليه جمهور الصحابة
(٢) النساء / ٩٣ (٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة النساء - باب -
ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ، (٤) صحيح سلم بشرح النووي ١٨٧ ص ١٥٨ .
(٥) الاتقان ج ١ ص ٢٨ .

القول السادس :

إن آخر ما نزل هو قوله تعالى في خاتمة سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، (١) »

والدليل على ذلك ما رواه الحاكم في المستدرک عن أبي بن كعب قال : « آخر آية نزلت ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . إلى آخر السورة . »

وروى ابن مردويه عن أبي أيضا قال : « آخر القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان . « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . » إلى قوله ، وهو رب العرش العظيم ، . »

ويجاب عنه . بأنها آخر ما نزل من سورة براءة ، أو أنه أخبر بذلك بحسب ظنه واجتهاده .

القول السابع .

إن آخر ما نزل سورة المائدة ، واستند صاحب هذا القول إلى ما رواه الترمذی ، والحاكم عن عائشة - رضی الله عنها - قالت . « آخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرموه . »

ويجاب عن هذا القول . بأنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، ولم ينسخ فيها شيء ، ويشير إلى هذا آخر الحديث .

القول الثامن .

إن آخر سورة نزلت هي . « إذا جاء نصر الله ، والفتح . . . » السورة روى هذا مسلم في صحيحه عن ابن عباس ، ورواه النسائي أيضا عنه

ويجاب عن هذا القول . بانها اخر سورة نزلت بتامها في حجة الوداع ، فلا ينافي نزول اية أو آيات بعدها .

أو أنها اخر ما نزل مشعرا ب وفاة النبي - صلوات الله وسلامه عليه -
ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن ابن عباس حين سأله عمر - رضى الله عنه -
بمحض من الصحابة عنها ، فقال « أجل ، أو مثل ضرب لمحمد - صلى الله
عليه وسلم - نعتت اليه نفسه ، (١) وفي رواية أخرى للبخارى عن ابن عباس
« هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعلمه إياه ، (٢) »
فقال عمر - رضى الله عنه - . ما أعلم منها الا ما تقول ، وروى
أبو يعلى عن ابن عمر « أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع ، في أوسط
أيام التشريق ، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع ،

هذا وقد اوصل السيوطى في الإتقان الأقوال إلى عشر

وقد عرفت ان القول الأول هو الصحيح الراجع . وعرفت الإجابة
عما ورد مخالفاً له ، وان المراد اواخر مقيدة ، لا مطلقة وهذه الطريقة في
التوفيق بين النصوص المتعارضة في هذا الباب هي اعدل الطرق ، وهو المنهج
الذى سلكه المحققون من العلماء ولكن القاضى ابا بكر الباقلانى في كتابه
« الانتصار » يذهب مذهبا آخر في التوفيق فيقول : هذه الأقوال ليس فيها
شئ مرفوع إلى النبى ﷺ ، وكل قال ما قاله بضرب من الاجتهاد ، وغلبة
الظن ؛ ويحتمل ان كلا منهم اخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ في اليوم
الذى مات فيه . او قبل مرضه بقليل . وغيره سمع منه بعد ذلك . وإن لم
يسمعه هو

(١) بضم النون وكسر العين ، وفتح الياء ، وسكون التاء مبنيًا للمجهول ،
من كلام ابن عباس وقد وهم بعض الرواة فزعم أن النبى قال لجبريل لما نزل بها
عليه « نعتت إلى نفسى ، وفتح النون ، والعين ، وسكون الياء ، وفتح التاء خطابا
لجبريل [فتح البارى ج ٨ ص ٥٩٨] .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة إذا جاء نصر الله والفتح .

ويحتمل أيضا : ان تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول - ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك . فيظن انها اخر ما نزل في الترتيب

ومرد هذا التوفيق بين الأقوال إلى غلبة الظن ، والاجتهاد من القائل بناء على ما سمعه أو شاهده من قرائن ، وقد لا يوافق الظن ، والاجتهاد والواقع ونفس الأمر ، وقد تركنا صاحب هذا الرأي بين جملة من الاحتمالات ، من غير أن يقطع برأى .

ويقرب من هذا الرأي في التوفيق ما ذهب إليه البيهقي ، أيضاً حيث قال : « يجمع بين هذه الاختلافات - إن صححت - بأن كل واحد أجاب بما عنده . »

(التنبيه الى خطأ مشهور)

من الأخطاء المشهورة على السنة العامة ، وبعض الخاصة^(١) ما يزعمونه من أن قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً ، »^(٢) هي آخر ما نزل من القرآن ، فإنها تدل على إكمال الدين ، في ذلك اليوم المشهود ، الذي نزلت فيه ، وهو يوم « عرفة ، في حجة الوداع ، وكان يوم الجمعة ، ففهموا منه أن إكمال الدين لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن الكريم .

والحق : أن هذا الزعم غير صحيح ، ولم يقل أحد قط من العلماء : إنها آخر ما نزل من القرآن ، والامام السيوطي ، وهو الباقعة الذي لا يخفى عليه قول ، سرد الأقوال في آخر ما نزل ، ولم ينقل عن أحد مثل هذا القول بل نبه على خطئه ، وزيفه^(٣) .

(١) وقع في هذا الخطأ بعض المؤلفين في تاريخ التشريع الإسلامي كالاستاذ الشيخ الحضري رحمه الله وتابمه بعض المؤلفين في كليات الشريعة ، والحقوق .

(٢) المائدة / ٣ .

(٣) الاتقان - ١ - ص ٢٦ - ٢٨ .

وقد رأيت في الآثار السابقة - التي ذكرناها آنفاً ، أن آية الربا ، وآية
الكلالة من أواخر القرآن نزولا . بل آية «واتقوا يوماً . . .» نزلت بعد
«اليوم أكملت لكم دينكم . . .» بأكثر من شهرين ، فقد حددت رواية
ابن أبي حاتم . أن نزولها كان قبل وفاة النبي ﷺ بتسع ليال بما يجعلنا نقطع
بأن «اليوم أكملت لكم دينكم . . .» ليس آخر القرآن نزولا . وان هذا الزعم
لا نصيب له من الصحة

(بـ م يفسر الإكال في الآية)

وقد يقول لي قائل : «وإذا كان الأمر كما ذكرت . فبم تفسر إذا إكال
الدين . وإتمام النعمة ؟

والجواب أن للعلماء المفسرين في فهم الآية رأيين :

الأول . ان المراد بإكال الدين يومئذ . هو إنجازه . وإقراره . وإظهاره
على الدين كله . ولو كره الكافرون . بفتح مكة . وإتمام حجهم الأكبر .
ولاشك أن الإسلام في حجة الوداع . كان قد ظهرت شوكته وعلت
كلمته ، واذل الشرك وأهله ، وأجلى المشركون عن البلد الحرام ، وانفرد
المسلمون بالحج ، والطواف بالبيت لم يشاركهم فيها مشرك ، فأى كمال بعد
هذا ؟ وأي نعمة بعد تلك النعمة ؟ وإلى هذا الرأي ذهب العلامة
« ابن جرير » الطبري في تفسيره حيث قال . الأولى ان يتأول على انه أكمل
لهم دينهم ، بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حججه
المسلمون ، لا يشاركهم المشركون ، ثم أيده بما رواه بسنده عن ابن عباس
قال : « كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت «براءة» نفي
المشركون من البيت ، وحج المسلمون ، لا يشاركهم في البيت الحرام أحد
من المشركين ، فكان من تمام النعمة ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا الرأي في
تفسير الآية لا يفتي نزول آيات بعدها في الحلال . والحرام . والوعظ والتذكير
الثاني . أن المراد بإكال الدين إكال الأحكام ، والحلال ، والحرام

فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض ، والتحليل والتحريرم روى هذا عن
السدى . وجماعة

وعلى هذا رأى فلا مانع من نزول آيات بعدها ليست منشئة لأحكام
جديدة . بل مقررة لما سبق من الأحكام كآية الربا «يا أيها الذين آمنوا اتقوا
الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين»

وذلك عند من يرى أنها آخر آية نزلت من القرآن (١) فإنها ليست منشئة
لتحرير الربا إذ التحريم مستفاد قبل ذلك من آية آل عمران . «يا أيها الذين
آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» وآية البقرة
التي هي قبله الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه
الشيطان من المس ؛ ذلك بأنهم قالوا . إنما البيع مثل الربا وأحل . .

الله البيع وحرم الربا وإنما جاءت هذه مقررة ومؤكدة للحرمة
وكآيات التذكير بالآخرة والوعظ والترغيب والترهيب وذلك
مثل قوله «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ..» فإنها للتذكير باليوم الآخر
والترغيب والترهيب

ومن ثم يتبين لنا أن الآية كيفما فهمناها وحملناها لا تدل على أنها
آخر القرآن نزولا وهو ما قاله ثقات المفسرين وأجمع عليه علماء
علوم القرآن

﴿ أمثلة لأوائل وأواخر مقيدة ﴾

هذا الذى قدمناه فى البحثين السابقين إنما أريد به الأوائل . والأواخر
المطلقة وإن كان التحقيق العلمى دعانا إلى تنزيل بعضها على أنها أوائل وأواخر
مقيدة . وكما بحث العلماء فى النسوع الأول . بحثوا فى الأوائل والأواخر
المقيدة بمحرم خاص . أو بموضوع خاص . وقد ذكروا لذلك أمثلة
كثيرة منها .

(١) أما عند المحققين فليست آخر آية كما قدمنا

(١) فن ذلك الآيات التي نزلت في الخمر . فأول آية نزلت فيها هي قوله تعالى . « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها(١) » وآخر ما نزل في التحريم قوله تعالى . « يا أيها الذين الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إلى قوله تعالى : « فهل أنتم متنون(٢) » فحرمت الخمر تحريمًا باتًا ، وأراق الناس ما عندهم ، حتى سالت طرق المدينة

(٣) الجهاد: قيل أول ما نزل فيه قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور(٣) »

روى هذا الحاكم في المستدرک عن ابن عباس

وأخرج ابن جرير ، عن أبي العباس قال : أول ما نزل في القتال بالمدينة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين(٤) »

وقيل : إن أول ما نزل في القتال قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل ، والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ،(٥) ذكره الحاكم في « الإكليل ،

والذي تركز إليه النفس هو الأول ، إذ فيه التصريح بمبررات الجهاد

(١) البقرة / ٢١٩ (٢) المائدة / ٩٠

(٣) الحج ٢٩ - ٤١ (٤) البقرة / ١٩٠ (٥) النوبة / ١١١

وبيان حكمته في الإسلام ، وأن الغرض منه رد الظلم الواقع عليهم من المشركين ، ودفعه وتأمين العقيدة حتى تجد سبيلها إلى القلوب ، وتأمين أهلها ، وممتقيها ، وتأمين الدعوة إلى الله حتى لا يطغى الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، والشر على الخير ، وذكر المبررات ، والحكم ، هو الأليق بيده التشريع .

أما الآية الثانية فقد ذكر أنها نزلت عام عمرة القضاء (١) ، لما خاف المسلمون أن يباغتهم المشركون ، فأنزل الله الآية مبينة لهم حل الدفاع عن النفس ، والقتال في هذا الوطن وتشريع الجهاد كان في السنة الثانية ، وبينهما بضع سنوات .

وأما الآية الثالثة فيبعد كونها أول آية : لأن سورة براءة ، من أواخر القرآن نزولاً كما رواه البخاري عن البراء بن عازب ، وهي إلى الترغيب في الجهاد أقرب منها إلى بدء التشريع وآخر آية نزلت في شأن الجهاد قوله تعالى « وقاتلوا المشركون كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) .

(٣) أول ما نزل في شأن القتل آية الاسراء ، وهي قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » (٣) .

رواه ابن جرير عن الضحاك .

وأخر آية نزلت فيه : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٤) .

(١) أسباب النزول للسيوطي على هامش الجلالين ١ ص ٤ ط الحلبي .

(٢) التوبة ٣٦ (٣) الاسراء ٣٣ (٤) سورة النساء ٩٣

(٤) أول آية نزلت في « الأطعمة » بمكة : آية « الأنعام » ، وهى قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير ، ؛ فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به ... الآية » ، (١) .

ثم آية « النحل » : فتكلموا بما رزقكم الله حلالاً طيباً .. الآية ، (٢) .
وبالمدينة : آية البقرة « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » ، (٢) ثم نزلت آية « المائدة » : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق » ، (٣) .

(٥) روى عن مجاهد أنه قال : أول ما نزل من سورة « التوبة » ، قوله تعالى : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذا أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت .. الآية (٤)
وعن مسروق ، عن أبى الضحى : إن أول ما نزل من براءة : « انفروا خفافاً ، وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم .. الآية » ، ثم أنزل الله أولها - أى السورة (٥) - ثم أنزل آخرها .

والآيات الأولى نزلت بعد حنين ، وأما الآية الثانية ، فالظاهر أنها نزلت في « تبوك » ، وحنين متقدمة على تبوك ، فالراجح هو الأول .

(١) سورة الأنعام ١٤٥ (٢) الآية ١٧٣ (٣) الآية ٣ (٤) التوبة ٢٦-٢٨

(٥) وذلك في السنة التاسعة ، فقد أرسل بصدورها علياً - كرم الله وجهه -

ليقرأها على الناس .

وآخر ما نزل من « التوبة » هو قوله تعالى : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم . . الآيتان ، وقد ورد أنهما آخر ما نزل من القرآن وأولنا ذلك : بأنها آخر من نزل براءة .

(٦) أول سورة نزلت بـ « مكة » ، « اقرأ باسم ربك ، أى صدرها لى .. » ما لم يعلم ، وآخر سورة نزلت بها « المؤمنون » ، ويقال « العنكبوت » .

وأول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وقد ذكر الحافظ بن حجر فى « الفتح » : الاتفاق على ذلك ، لكن فى دعوى الاتفاق نظر ، فقد نقل « الواحدى » عن على ابن الحسين : أن أول سورة نزلت بالمدينة : « ويل للطففين »

وآخر سورة نزلت « براءة » ، وقيل . سورة المائدة ، وقيل . سورة النصر أقول ؛ والظاهر أن آخر سورة نزلت بالمدينة بتامها هى سورة « إذا جاء نصر الله والفتح .. » فقد روى أنها نزلت فى حجة الوداع فى أوسط أيام التشريق على النبى صلى الله عليه وسلم ، أما براءة والمائدة فهما من أواخر السور نزولا .

« المبحث الرابع »

أسباب النزول

ينقسم القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه « إلى قسمين » .
(١) ما نزل ابتداء من غير سبق سبب نزول خاص ، وهو كثير في القرآن الكريم ، وذلك مثل الآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب ، التي قصد بها ابتداء : هداية الخلق وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .
(٢) ما نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة ، وهو موضوع بحثنا الآن ، وليس من قصدنا في هذا المبحث استيعاب آيات القرآن ، التي نزلت لأسباب خاصة و ذكر أسبابها ، إنما قصدنا ذكر مباحث كلية تعين على تفسير كتاب الله ، ومعرفة القواعد والاصطلاحات في هذا الباب .

وقد ألفت في أسباب النزول على سبيل التفصيل جماعة . منهم « على ابن المديني » ، شيخ البخاري ، ومنهم . « الواحدي » ، و « ابن حجر » ، و « السيوطي » ، وله في ذلك كتاب حافل ، سماه . « لباب النقول » . في أسباب النزول ، وهو مطبوع على هامش تفسير الجلالين .

« ما هو سبب النزول ؟ »

سبب النزول . هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدة عنه ، أو مهيئة لحكمه أيام وقوعه .

والمعنى . أن حادثة وقعت ، أو سؤال توجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فنزل الوحي بتبيان ما يتصل بهذه الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال ، وذلك مثل . حادثة «خولة بنت ثعلبة» ، التي ظاهر منها زوجها «أوس بن الصامت» فنزلت بسببها آيات الظهار (١) ، ومثل . ما حدث بين الأوس والخزرج من

خصومة ، بسبب تأليب أحد اليهود العداوة بينهما ، فقد نزل عقبها قوله تعالى . « يا أيها الذين آمنوا . إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ... » الآيات (١)

وسواء أكان هذا السؤال يتعلق بأمر مضى مثل قوله تعالى في سورة الكهف . « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل . سأتلو عليكم منه ذكرا ... » الآيات (٢) ، أم يتصل بمحاضر مثل قوله تعالى في سورة الإسراء . « ويسألونك عن الروح ، قل . قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، (٣) ، أم يتصل بمستقبل وذلك مثل قوله تعالى في سورة الأعراف . « يسألونك عن الساعة . أيان مرساها ؟ قل . إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ... » الآية (٤) .

والمراد بإيام وقوعه . أن تنزل بعده مباشرة ، أو بعد ذلك بقليل ، مثل الآيات المتعلقة بقصة « أهل الكهف » و « ذى القرنين » ، فقد نزلت بعد خمسة عشر يوما من سؤالهم النبي - صلى الله عليه وسلم (٥) .

وهذا القيد في التعريف : يخرج الآيات التي تنزل ابتداء ، بينما هي تتحدث عن قصص الأنبياء ، وأحوال الأمم معهم ، أو عن بعض الحوادث الماضية ، كسورة « الفيل » ، مثلا ، أو تتحدث عن مستقبل كاليوم الآخر وما فيه من نعيم أو عقاب ؛ فإن هذه النصوص والأحداث لا تعتبر أسباب نزول .. فتنبه لذلك . ولا تغلط فيه كما غلط بعض العلماء (٦) .

(١) آل عمران ١٠٠ - ١٠٣ (٢) الآية ٨٢ وما بعدها .

(٣) الآية ٨٥ (٤) الأعراف . الآية ١٨٧

(٥) راجع أسباب النزول . للسيوطي على هاشم الجلائين ٢٣ ص ٣

(٦) قال الواحدى في تفسيره : إن سبب نزول سورة الفيل قصة قدوم

الحيثة لهدم البيت ، وهو وهم لاعماله ، انظر الاتقان ١ - ٣١

« طريق معرفة سبب النزول »

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتحصيل والتزجيج ، قال . الواحدى فى كتاب « أسباب النزول » .
« لا يحل القول فى أسباب نزول القرآن إلا بالرواية والسماع ، بمن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحشوا عن عليها ، وجدوا فى الطلاب » .
فالمعول عليه فى أسباب النزول : هم الصحابة ، ومن أخذ عنهم من التابعين ومعرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تختلف بالقضايا . وكثيراً ما يجزم بعضهم بالسبب ، وربما لم يجزم بعضهم ، فقال : أحسب هذه الآية نزلت فى كذا ، كما قال « الزبير » فى قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . . . » الآية روى الشيخان فى صحيحيهما عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير فى شراج الحررة التى يشقون منها النخل فقال الأنصارى : سرح الماء يمر ، فأبى عليه فاختصما عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير : « اسق يا زبير ، ثم أرسل للماء إلى جارك ، فغضب الأنصارى ثم قال : يا رسول الله : أن كان ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال للزبير : « يا زبير احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر فقال الزبير . والله أنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك » فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، زاد البخارى « فاستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزبير رأياً أى أراد سعة له وللأنصارى ، فلما حفظ رسول الله ﷺ استوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير والله ما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك (١)

(١) أسباب النزول للسيوطى ج ٢ ص ٣ ، صحيح البخارى كتاب التفسير - تفسير سورة النساء .

وقول الصحابي في سبب النزول . له حكم المرفوع ، كما نبه على ذلك الحاكم وابن صلاح وغيرهما ، من أئمة علوم الحديث ، لأنه قول فيما لا مجال للرأى فيه ، ويبعد كل البعد أن يقول ذلك من تلقاء نفسه ، فهو محمول على السماع أو المشاهدة .

وقول التابعي في سبب النزول . له حكم المرفوع إلا أنه مرسل ، فقد يقبل إذا صح السند إليه ، وكان من أئمة التفسير ، الآخذين عن الصحابة . كجهاد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ؛ أو اعتضد بمرسل آخر ، ونحو ذلك . ومن كان عالماً بذلك من الصحابة «عبد الله بن مسعود» - رضى الله عنه - روى البخارى في صحيحه عنه قال . « والله .. الذى لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم . أين نزلت ؟ (١) ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم . فيمن نزلت ؟ (٢) - ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله .. تبلغه الإبل ، لركبت إليه . »

وينبغى التثبت في سبب النزول .. وإلا دخل القائل تحت قوله - ﷺ - «واتقوا الحديث على إلا ما علمتم ؛ فان من كذب على معتمه - دأ ، فليتبوأ مقعده من النار . . ومن كذب على القرآن - بغير علم - فليتبوأ مقعده من النار ، رواه أبو داود

وكان السلف الصالح يتخرجون من القول في سبب النزول بغير علم ، قال محمد ابن سيرين . « سألت عبيدة عن آية من القرآن ، فقال . اتق الله ، وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون . فيم أنزل القرآن ؟ ، . »

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة .. منها :-

الفائدة الأولى . الاستعانة على فهم الآية ، وإزالة الإشكال عنها . قال الواحدى - فى كتاب أسباب النزول - . « لا يمكن معرفة الآية دون الوقوف على قصتها ، وبيان نزولها » . وقال ابن دقيق العيد . « معرفة سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » .

وقال ابن تيمية . « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .. ولذلك أمثلة كثيرة منها :

(١) أنه أشكل على « عروة بن الزبير » - رضى الله عنهما - أن يفهم - م فرضية السعى بين الصفا والمروة من قوله تعالى . « إن الصفا والمروة من شعائر الله » ، فن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما الآية (٢) وذلك لأن الآية نعت (الجناح) ونفى الجناح لا يدل على الفرضية ، حتى سأل خالته السيدة (عائشة) - رضى الله عنها - عن ذلك ، فأفهمته . أن نفي الجناح ليس نقيضاً للفرضية ، إنما هو نفي لما وقر فى أذهان المسلمين يومئذ من التخرج والتأثم من السعى بين الصفا والمروة ، لأنه من عمل الجاهلية .

وقد روى فى سبب هذا التخرج . أنه كان على الصفا صنم يقال له . (إساف) وعلى المروة صنم ، يقال له . (نائلة) ، وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما ، فلما ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ؛ فنزات الآية ، لنفى هذا الحرج .

وقيل : السبب أن بعض الأنصار كانوا يهلون له - (مناة) (٣) الطاغية عند

(١) مناة . اسم صنم كان فى الجاهلية . قال ابن السكيت . كانت صخرة نصبها (عمرو بن الحمق) لهديل . وكانوا يعبدونها . والطاغية : صفة لها إسلامية .

والمثلل : - بضم الميم وفتح اللين ، واللام الأولى مفتوحة مشددة - موضع قريب من قديد وقديد . على صيغة المصدر . قرية بين مكة والمدينة كثيرة المياه

قاله أبو عبيد البكري (٢) البقرة / ١٥٨

(المشغل) ، فكان من أهل منهم لمائة : يتخرج أن يطوف بين الصفا
والمروة ، تعظيما لها ، فلما أسلموا سألو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
عن هذا التخرج . فأنزل الله الآية لرفع هذا التخرج .

وقد جاء بهذا وذاك الروايات الصحيحة في الصحيحين عن عائشة رضي
الله عنها - ولا منافاة بين الروايات ، لأن فريقاً منهم كان يطوف بينهما في
الجاهلية فلما جاء الإسلام تخرج من ذلك ، وبعضهم ما كان يطوف بينهما ،
ويتخرج من ذلك في الجاهلية ، تعظيما لهن ، فلما جاء الإسلام
استمروا على تخرجهم واستفهموا عن هذا ، فأنزل الله هذه الآية . . . مزيلة
لخرج الفريقين (١) .

وأياً ما كان الأمر ، فالآية لا تنافي الفرضية ، كما قالت السيدة عائشة
العامة ، ولو أراد الله ذلك لقال : « فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، كما
قالت في ردها على ابن أختها وقد تأكدت فرضية السعي بين الصفا والمروة
بفعله - صلى الله عليه وسلم - وقوله : خذوا عني مناسككم ، . وقالت عائشة
- أيضاً - . قد سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطواف بينهما ، فليس
لاحد أن يترك الطواف بينهما ، . ومعنى « سن ، شرع أو فرض ، بدليل
من السنة ، لا من الكتاب ، فلو لا معرفة سبب النزول لما زال الاشكال ،
ولفهم البعض الآية على غير وجهها .

(ب) ومن ذلك قوله تعالى : « واللائئ يئسن من المحيض من نسائكم -
إن ارتبتم - فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائئ لم يحضن . . . » فقد أشكل معنى
هذا الشرط على بعض الأئمة . حتى زال الظاهرية : بأن الآية لا عدة
عليها إذا لم ترتب ، وقد أزال هذا الاشكال سبب النزول ، ذلك أنه لما
نزلت الآية التي في سورة البقرة ، في عدد النساء ، قالوا : قد بقي عدد

(١) انظر فتح الباري ٣ - ٣ ص ٣٩٢ وما بعدها : ففيه تحقيق الحق في هذا
المقام .

- بفتح العين - من عدد النساء لم يذكرن : الصغار والكبار ، فنزلت الآية .
أخرجه الحاكم ، عن أبي ، فعلم بهذا : أن الآية خطاب لمن لم يعلم : ما حكمهن
في العدة وارتاب : أعلين عدة أم لا ؟ وأعدتهن كاللاني في سورة
البقرة . . . أم لا ؟ ، فظهر بهذا : أن المعنى ، إن ارتبتم - أي إن أشكل
عليكم حكمهن ، وجهلتم . كيف يعتدون - فهذا حكمهن .

(ج) ومن هذا قوله تعالى : والله المشرق والمغرب . . فأينما تولوا فثم
وجه الله^(١) . فلو تركت على ظاهرها لاقتضت : أن المصلي لا يجب عليه
استقبال القبلة . سفرأ ولا حضراً ، وهو خلاف الاجماع ، فلما عرف
سبب نزولها علم أنها في نافلة السفر ، أو في من صلى بالاجتهاد وبأن له الخطأ .
على اختلاف الروايات في ذلك ، فلولا معرفة السبب لبقيت الآية مشكلة .

(د) ما حكى عن قدامة بن مظعون^(٢) وعمر بن معديكرب أنهما كانا
يقولان : الخمر مباحة ، ومحتجان بقوله تعالى : ليس على الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا ، وعملوا الصالحات
ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين ،^(٣) ولو أنهما
علما سبب النزول لما قالوا ذلك ، ولكن خفي عليهما ، فوقعوا في هذا الرأي
الشاذ ، فقد روى أن ناساً قالوا ، لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا في
سبيل الله . وماتوا . وكانوا يشربون الخمر . وهي رجس فنزلت ، فدل

(١) البقرة ١١٥ (٢) هذا هو الصحيح أنه قدامة ، وفي البرهان للزركشي .
ونقله عنه السيوطي في الإتيان أنه د عثمان بن مظعون ، وهو غلط لا محالة . لأنه - رضي
الله عنه - توفي عقب بدر . أما أخوه قدامة فهو الذي طالت به الحياة إلى خلافة
الفاروق - رضي الله عنه - وكان يتأول الآية على هذا . وقد جلدته الفاروق
عمر على شربه الخمر . ثم استرضاه في آخر حياته .

ذلك أن عمر حج . وحج معه قدامة . وهو مغاضب له . فلما قفلا من حجها
نام عمر بالسقيا - مكان - فلما استيقظ قال : عجلوا بقدامة . فو الله لقد

سبب التحريم على أن ذلك كان قبل التحريم . وأن الآية لا تصلح دليلاً لذلك . وأيضاً فكيف يجماع المتقوى شرب الخمر . ولذلك لما حاج سيدنا عمر قدامة . وصاحبه قال : « كيف يجماع شرب الخمر التقوى » ؟

(هـ) ومن ذلك ما روى في الصحيح عن مروان بن الحكم أنه أشكل عليه قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا . ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم به مغارة من العذاب . ولهم عذاب أليم (١) فبعث إلى ابن عباس فسأله . لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي . وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذب أجمعون !! فقال ابن عباس . إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره . وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه . واستحمدوا بذلك إليه رواد الشيخان . ومقتضى جواب ابن عباس أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أنه أريد به خاص .

وقد علق بعض العلماء على جواب ابن عباس - رضى الله عنهما - ما بين موافق . ومخالف قال الزركشى في البرهان : لا يخفى عن ابن عباس

أثاني آت في منامى فقال لي : سالم قدامة . فإنه أخوك . فبني به فكلمه واستغفر له الإصابة . ص ٥ ص ٣٢٣ وكانت وفاة قدامة في خلافة علي سنة ست وثلاثين وهو ابن ثمان وستين سنة . وقد نهينا إلى هذا الغلط أستاذنا الشيخ المحدث محمد حبيب الله الشنقيطى - رحمه الله - ونحن نقرأ عليه كتاب « الإيقان » ومن العجيب أن الذين علقوا على البرهان وزعموا أنهم حققوه قد فات عليهم هذا الغلط

(١) آل عمران / ١٨٨ وقد قرئ قوله تعالى « أتوا » بفتح الهمزة بنهر مد ، وفتح الناء ، وهى القراءة السبعية ، أى بما جاءوا به وفعلوه ، ومنه قوله تعالى « لأنه كان وعده مأثياً » أى جائئاً من إطلاق اسم المفعول ، وإرادة اسم الفاعل ، وقرئ بضم الهمزة والواو ، مبتدئاً للجرول ، من « أتى » بمعنى أعطى ، وهى قراءة السلى ، وسعيد بن جبير ، والأولى هى التى توافق تفسير ابن عباس ، والثانية توافق سؤاله مروان .

رضى الله عنه - أن اللفظ أعم من السبب . لكن بين أن المراد باللفظ خاص ونظيره تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك^(١) في قوله تعالى .
« الذين آمنوا ولم يلبوا لإيمانهم بظلم ... »

وقال بعض العلماء . هذا الجواب مشكل لأن اللفظ أعم من السبب . ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » وإنما الجواب أن الوعيد مرتب على أثر الأمرين المذكورين . وهما الفرح وحب الحمد ، لا عليهما أنفسهما ، إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يعلق بها التكليف أمراً ونهياً وقال الخازن في تفسيره . وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في اليهود أو المنافقين خاصة ، فإن حكمها عام في كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو يسئب إلى العلم وليس هو كذلك^(٢) .

أقول . ولعل القول بالعموم أولى ليشملهم ، وكل من على شاكلتهم إلى يوم القيامة ، وليس من شك في أن من فرح بما فعل من إنكار الحق ، ومحاولته ستره وججوده ، أو بما أعطى فرح بطر وأشر ، وحببه أن يحمد بما لم يفعل وبما ليس فيه من الصفات - ليس بمنجاة من عذاب الله لأنها من الرذائل الخلقية التي لا يرضاها الإسلام .

ومن قال : إن هتين الرذيلتين اللتين تضمنتها الآية لا يسلم منها إنسان !! أنا لا أوافق مروان على هذا ، ولا سيما في العصور الأولى الفاضلة ، فقد كان معظم المسلمين ممن تأبى أخلاقهم هذا . أما ما رآه ابن عباس فهو اجتهاد منه ، وكأنه رأى في سبب النزول صارفاً للفظ عن عموم استقطاعاً لما استفظعه مروان ، ولا حرج في الإسلام على الاجتهاد ، ولكل وجهة هو موليها . نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات ، فيما ذكرته الآية ، وهذا قد يكون من الشافعي أجراه مجرى متاويل ،

(١) البرهان ١ - ١

(٢) تفسير الخازن ١ - ١ ص ٤٠٩ ، وانظر تفسير آلوسي عند هذه الآية .

الفائدة الثانية .

أنه يعين على فهم الحكمة ، التي يشتمل عليها التشريع ، وفي ذلك فائدة للمؤمن ، وغير المؤمن ، أما المؤمن : فيزداد إيماناً وبصيرة بحكمة الله في تشريعه فيدعوه ذلك إلى شدة التمسك بها ، وأما غير المؤمن : فيعلم . أن الشرع قام على رعاية المصلحة ، وجلب المنفعة ، ودفح المضرة . فيدعوه ذلك إن كان منصفاً إلى الدخول في الاسلام ، وذلك مثل ما إذا عرفنا سبب تحريم الخمر ، عرفنا الحكمة في التحريم : إذ أنها ترفع العداوة والبغضاء بين الناس وتصدعن ذكر الله وعن الصلاة ، وتذهب العقل والوقار ، وتضر بالصحة ، وتنفى الأموال في غير طائل .

الفائدة الثالثة :

رفع توهم الحصر : قال الشافعي - ما معناه - في قوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه . . الآية (١) » : إن الكفار لما حرموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة ، والمخادة ، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتتموه . نازلاً منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول له . لا تأكل اليوم إلا حلاوة . والغرض : المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة ، فكأنه قال : لا حرام إلا ما أحللتتموه من الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به .

ولم يقصد حل ماوراهه ، إذ القصد : إثبات التحريم لا إثبات الحل ، قال إمام الحرمين وهذا في غاية الحسن ، ولو لاسبق الشافعي إلى ذلك لما كنا

الفائدة الرابعة .

معرفة اسم من نزلت فيه الآية « وتعيين المهم فيها ، وفي ذلك إسناد

الفضل لأهله ، ونفي التهمة عن البريء الذي ألصق به ماهو براه منه ، وذلك مثل ماروى عن السيدة عائسة - رضى الله عنهما - . أنها ردت على مروان ابن الحكم ، حينما اتهم أخاها د عبد الرحمن بن أبى بكر ، بأنه الذى نزل فيه قوله تعالى . « والذى قال لوالديه . أف لكما ، أتمداننى أن أخرج ، وقد تحلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ، ويهلك آمن . . . » الآية (١) وقالت . « والله ماهو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته . »

ومثل ما إذا عرفنا سبب النزول فى قوله تعالى . « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات ، والله رءوف بالعباد ، » (٢) عرفنا . أن صاحب الفضل هو سيدنا د صهيب بن سنان ، الرومى - رضى الله عنه - . وكذا إذا عرفنا سبب نزول قوله تعالى . « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه . أمسك عليك زوجك ، واتق الله .. » الآية (٣) علنا . أن هذا المنعم عليه هو سيدنا د زيد بن حارثة - رضى الله عنه

الفائدة الخامسة .

معرفة سبب النزول غير خارج من حكم الآية فيما إذا كان لفظ الآية عاماً ، وورد مخصص لها ؛ فمعرفة السبب يكون التخصيص قاصراً على ما عداه لقيام الإجماع على دخول صورة السبب ، ولو لم نعرف السبب لجاز أن يكون مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز

الفائدة السادسة .

تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى . أن العبرة بخصوص السبب ، لا بعموم اللفظ ؛ فعند هؤلاء . ما لا يعرف السبب لا يمكن معرفة المقصود بالحكم ، ولا القياس عليه ، وتبقى الآية معطلة خالية من الفائدة

الفائدة السابعة .

تثبيت الوحي ، وتيسير الحفظ والفهم ، وتأكيده الحكم في ذهن من يسمع الآية ؛ إذ عرف سببها ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ؛ والحوادث بالأشخاص ؛ والأزمته والأمكنة . كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء ؛ وانتقاشها في الذهن ؛ وسهولة استذكارها عند تذكر ما يقارنها وذلك هو فيما يعرف في علم النفس بقانون تداعى المعاني ،

التعبير عن سبب النزول

للعلماء في ذلك طريقتان ، استفيدتا من تتبع عباراتهم في هذا المقام . الأولى . قولهم . سبب نزول هذه الآية كذا ، وهذه العبارة نص في بيان السبب ؛ ولا تحتل غيرها ومثل هذه العبارة أن يذكر الراوى سؤالاً أو حادثة ثم يقول . فأنزل الله كذا ، فهذه نص أيضاً . وقد لا يصرح بالإنزال . ولكن يفهم من خوى القصة . أن هذه الايات أو الآية نزلت بسبب هذا السؤال أو الحادثة . وذلك مثل رواية «ابن مسعود» الآتية في سبب نزول آية الروح .

الثانية . قولهم . نزلت هذه الآية في كذا ، وهذه العبارة ليست نصافي السببية ، بل تحتل السببية ، وتحتل بيان المعنى ، وما تضمنته الآية من الأحكام . والقرائن هي التي تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

قال العلامة «تقى الدين ابن تيمية» . «قولهم . نزلت الآية في كذا ، يراد به تارة ، سبب النزول ، ويراد به تارة ، أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب كما تقول ، عنى بهذه الآية كذا ، وقد تنازع العلماء في قول الصحابي : نزلت هذه الآية في كذا . هل يجرى مجرى المسند كما ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ؟ أو يجرى مجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ؟ فالبخارى : يدخله في المسند . وغيره : لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد

على هذا الاصطلاح كمسند أحد ، وغيره . بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه ، فانهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند .

وهذا الذى ذكره ابن تيمية وغيره من أن الآثار التى ذكر فيها سبب النزول صراحة لها حكم المسند المرفوع هو الذى ذهب أئمة علوم الحديث إليه . قال الحاكم فى « علوم الحديث » : إذا أخبر الصحابى الذى شهد الوحى ، والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا ، فإنه حديث مسند ، ومثى على هذا ابن الصلاح وغيره ، من أئمة الفن ، قال ابن الصلاح فى مقدمته :

وقال « الزركشى » فى البرهان : « قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية فى كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب فى نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية . لا من جنس النقل لما وتبع » .

قول التابعى فى سبب النزول .

قد علمت ما تقدم من أن قول الصحابى فى سبب النزول له حكم المسند المرفوع ، وأما قول التابعى فى أسباب النزول فهو مرفوع أيضا ، لكنه مرسل لحذف الصحابى ، وقد يقبل إذا صح السند إليه ، وكان الراوى من أئمة التفسير الأخذين عن الصحابة كما هو ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير أو اعتقد بمرسل آخر ، أو نحو ذلك .

تفريع على ما تقدم :

وعلى هذا : إذا وردت روايتان أو أكثر ؛ وكانت إحداهما نصا فى بيان سبب النزول ؛ والثانية ليست نصا فيه ، أخذنا فى السببية بما هو نص ، وحملنا الأخرى على بيان المعنى ، مثل ذلك ما أخرجه « مسلم » فى صحيحة عن جابر قال : « كانت اليهود تقول من أنى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله سبحانه . « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى

شتم (١) . . . الآية أى من أى جهة شتم ، أو على أى حال شتم ، فأنى للكيفية ،
والحال ، لا للكان .

ومأخرجه البخارى عن ابن عمر قال . أنزلت « نساؤكم حرث لكم . . . »
في إثبات النساء في أدبارهن . يعنى في تحريم ذلك .

فالتعمد عليه في بيان السبب هى رواية جابر ، لكونها نصا في ذلك ،
أما رواية ابن عمر ، فتحمل على بيان المعنى ، وحكم إثبات النساء في أدبارهن
وهو التحريم ، استنباطا منه .

وأما إن قال - كل من الراويين أو الرواة - . نزلت هذه الآية في كذا ،
فهذه العبارة ليست نصا في السببية كما ذكرنا ، بل تحتمل بيان التفسير والمعنى ،
فإن كان اللفظ يحتمل قول كل حمل على الجميع ، وإلا ترجح ما يقتضيه اللفظ
أو يشهد له السمع ، أو تؤيده الأدلة .

وأما إذا كانت كل من الروايتين أو الروايات نصا في بيان السبب ، فهنا
يكون البحث والنظر ، ولنفرد لذلك عنوانا ، فنقول : -

تعدد الأسباب ، والمنزل واحد

إذا ذكر كل من الراويين أو الرواة عبارة هى نص في السببية ، فلذلك
أحوال أربعة ، لأنها :

- (١) إما أن تكون إحدى الروايتين صحيحة ، والأخرى غير صحيحة .
- (٢) إما أن تكون كل منهما صحيحة ، ولكن يمكن الترجيح . (٣) وإما أن
تكون كل منهما صحيحة ، ولا يمكن الترجيح ، ولكن يمكن نزول الآية
عقبها . (٤) وإما أن تكون كل منهما صحيحة ، ولا يمكن الترجيح ،
ولا نزول الآية عقبها .

واليك حكم كل حالة من هذه الحالات ، وذكر أمثلتها .

(١) البقرة ٢٢٢ .

الحالة الأولى :

أن تكون إحدى الروایتین صحیحة، والأخرى غير صحیحة، فالمتعمد عليه فی السبب : هی الصحیحة وترك الأخرى غير الصحیحة، مثال ذلك : ما أخرجه الشيخان وغيرهما ، عن جندب قال : « اشتكى النبي - ﷺ - فلم يغم ليلة ، أو ليلتين ، فأتته امرأة فقالت : ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله : « والضحي والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ،

ما أخرجه الطبرانی ، وابن أبي شيبة ، عن حفص بن مبصرة ، عن أمه ، عن أمها - وكانت خادماً رسول الله - ﷺ - أن جروا دخل بيت النبي ، فدخل تحت السرير ، فمات فكف النبي - ﷺ - أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي ، فقال : يا خولة ، ما حدث في بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتيني ، فقلت في نفسي . لو هيات البيت وكنته فأهويت بالمكسنة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبي - ﷺ - ترعد لحبته - وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته فأنزل الله . « والضحي .. ، إلى قوله فترضى ، .

فالمتعمد عليه هو الرواية الأولى ، لأنها صحیحة . أما الثانية ففي إسنادها من لا يعرف قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » قصة أبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفي إسناده من لا يعرف فالمتعمد ما في الصحيح ، .

الحالة الثانية

أن تكون كلتا الروایتین صحیحة ، وإلحادهما مرجح ، لتكون إحدى الروایتین أصح من الأخرى ، أو لتكون الراوى حاضر القصة ، أو نحو ذلك من وجوه الترجيح ، فالحكم . أن نأخذ من بالسبب بالرواية الراجحة ، دون المرجوحة . مثال ذلك . ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال . « كنت أمشى مع النبي - ﷺ - بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ،

فر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتهم : فقالوا : حدثنا عن الروح ،
فقام ساعة ، ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحي ، ثم
قال (١) : « قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وأخرج الترمذى ، وصححه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود
أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل - يريدون النبي ﷺ . فقالوا : أسأله عن
الروح ، فسأله . فأنزل الله : ويسألتك عن الروح ... الآية (٢) .

فالأولى تدل على أن السائل اليهود ، وأن نزولها بالمدينة ، والثانية .
تدل على أن السائل الكفار ، وأنها نزلت بمكة . والأولى أرجح لأميرين .
(١) أنها من رواية البخارى ، وهى أصح من رواية الترمذى .

(٢) أن الراوى فى الأولى ، وهو ابن مسعود كان حاضر القصة ،
ومشاهدا لها . أما الثانية فليس فيها أن الراوى لها - وهو ابن عباس -
كان مشاهداً لها ، ولا شك أن للشاهدة قوة فى التحمل (٣) .

الحالة الثالثة :

أن تكون كل من الروايتين أو الروايات صحيحة ولا يمكن الترجيح ،

(١) هذه الرواية وإن لم تصرح بالسبب إلا أن السببية مفهومة من لحوى
القصة ، لأن ذكر الحالة التى يكون عليها النبى عند نزول الوحي ، ثم ذكر الآية
تتبع ذلك ، كالنص على السببية . وهذه الرواية هى ما أردت التمثيل بها لما ذكرته
آنفاً فى التعبير عن سبب النزول .

(٢) الإسراء ٨٥ .

(٣) يرى ابن كثير الجمع بينهما بتسكرر النزول . وكذا قال ابن حجر . وأما
الترجيح : فهو رأى السبوطى فى الاتقان . وأسباب النزول أنظر الاتقان ١ -
ص ٣٣ وأسباب النزول ١٥ ص ٢٣٦ هامش الجلائين .

ولكن يمكن نزول الآية أو الآيات عقب السنين أو الأسباب، لعدم العلم بالتباعد، فيحمل ذلك على تعدد السبب والمنزل واحد.

مثال ذلك ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة، عن ابن عباس: أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماه (١). فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - البينة أوجد في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا، ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينة، أوجد في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبصرى ظهرى من الحد؛ فنزل جبريل، وأنزل الله: «والذين يرمون أزواجهن...» فقرأ حتى بلغ «... إن كان من الصادقين» (٢).

وروى مسلم في صحيحه بسنده، عن أنس بن مالك قال: إن هلال بن أمية، قذف امرأته بشريك بن سحماه، وكان أخا للبراء بن مالك لأمه، وكان أول رجل لاعن في الإسلام.. الحديث.

وهذه الرواية تدل أيضا، لكن لا بطريق التصريح على أن الآية نزلت بسبب «هلال».

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال: «جاء عويمر، إلى عاصم بن عدى: فقال: أسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا... أيقته؟ فنتقلونه؟ أم كيف يصنع به؟ فسأل عاصم رسول الله، فكره رسول الله المسائل، فأخبر عاصم عويمرا، فقال: والله لآتين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا سأله، فأناها فسأله، فقال: إنه قد

(١) - سحماه - بالسين ثم الحاء المهملتين: اسم أمه، ثم اسم أبيه: عبدة بن مغيث بن الجعد بن عجلان البلوى حليف الأنصار (الإصابة ٣ - ٢ ص ١٥٢)

وقد ذكر في الاتقان: ابن سحماه - بتقديم الميم - وهو خطأ مطبعي لا محالة.

(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة النور.

أنزل الله فيك ، وفي صاحبك القرآن ... الحديث .

فهتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لأحدهما ، ويمكن الجمع بينهما بأن أول من سأل هلال بن أمية ، ثم سأل عويمر ، أيضا قبل الإجابة ، فأنزل الله آيات اللعان ، إجابة لهما معا .

وهذا التوفيق بين الروايتين أولى من ردهما ، إذ لا يصار إليه إلا عند تعذر الجمع ، أو الأخذ بأحدهما دون الأخرى ، لما فيه من الترجيح بلا مرجح وهو غير جائز .

وإلى هذا .. جنح الإمام النزوى ، فقال : « ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعاً ، فلهما سألًا في وقتين متقاربين ، فنزلت الآية فيهما » (١) .

وسبقه الخطيب فقال : « لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد ، وهذا ما رجحه السيوطى في الاتقان ، وأسباب النزول .

وإذا انضم إلى هاتين الروايتين ما رواه البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر : لورأيت مع أم رومان رجلا ..

(١) شرح النزوى على مسلم ج ١٠ ص ١٢٠ .

وقال الحافظ في الفتح ما خلاصته . وقد اختلف الأئمة في هذا الموضع منهم من رجح . أنها نزلت في شأن عويمر . ومنهم من رجح . أنها نزلت في شأن هلال . وجاء عويمر ، ولم يكن علم بما وقع لهلال . وما أنزل الله بشأنه فأنخبره النبي بالحكم وبنزول آيات في ذلك . ومنهم من جمع بينهما . بأن أول من وقع له هلال . وصادف مجيء عويمر أيضا فنزلت في شأنهما معا في وقت واحد . ثم ذكر أن القرطبى جنح إلى تجويز تكرار النزول (الفتح ٨٣ ص ٢١٣) ولعل ما ذهب إليه السيوطى في الجمع بينهما هو الأولى والأسلم .

وقال الحافظ في الفتح (٩٣ ص ٢٧١) في شرح أحاديث اللعان . وقد قدمت اختلاف أهل العلم فى الراجح من ذلك . ويثبت كيفية الجمع بينهما فى تفسير سورة الذور . بأن يكون هلال سأل أولا ثم سأل عويمر فنزلت فى =

ما كنت فاعلا ؟ قال : شرأ . قال : فأنت يا عمر ؟ قال : كنت أقول :
لعمرك الله الأعجز ، وإنه لحيث ، فنزلت .

وعلى هذا تكون الآيات نزلت عقب هذه الأسباب كلها . قال الحافظ
« ابن حجر » في الفتح : « لا مانع أن تتعدد القصص ، ويتحد النزول » .
الحالة الرابعة :

استواء الروايتين أو الروايات في الصحة ، ولا مرجح لأحدهما ، ومع
عدم إمكان نزول الآية عقبهما ، لتباعد الزمان ، فالحكم . أن يحمل الأمر
على تكرر النزول ، ولا مانع من تكرر النزول ؛ بل له حكم . قال (ابن
الحصار) . « قد يتكرر نزول الآية تذكيرا أو موعظة » ، وقال (الزركشي)
في البرهان . « قد ينزل الشيء مرتين ؛ تعظيما لشأنه ، وتذكيرا به عند
حدوث سببه ، وخوف نسيانه » .

ومثال ذلك . ما أخرجه البيهقي والبراء عن أبي هريرة « أن النبي - صلى
الله عليه وسلم - وقف على (حمزة) حين استشهد ، وقد مثل به ، فقيل .
لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل - والنبي واقف - بخواتيم سورة
(النحل) « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... » إلى آخر السورة . .
وأخرج الترمذى ، والحاكم ، عن أبي بن كعب قال « لما كان يوم أحد
أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة ، منهم . حمزة ،
فقتلوا بهم ، فقالت الأنصار . لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لئرين عليهم ،
فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله - سبحانه - « وإن عاقبتم فعاقبوا ... » الآية (١)

= شأنهما ، وظهر لى الآن : احتمال أن يكون عاصم سأل قبل النزول ثم جاء هلال
بعده فنزلت عند سؤاله ، فجاء هويمر في المرة الثانية التي قال فيها : إن الذي
سألتك عنه ... قد ابتليت به . فوجد الآية نزلت في شأن هلال . فأعليه
النبي بأنها نزلت فيه . يعنى : أنها نزلت في كل من وقع له ذلك . لأن ذلك
لا يختص بهلال .

فالأولى . تفسيرا . أن الآيات نزلت عقب أحد . والثانية . تفيد أنها نزلت يوم الفتح ، وبين أحد والفتح حوالي خمس سنين ، فيبعد نزول الآيات عقبهما ، مع التباعد في الزمن ، وإذا ، فلا مناص من القول . بتعدد النزول مرة يوم أحد ومرة يوم الفتح .

وهذا على أن سورة النحل ، مكية إلا خواتمها كما روى .

وقد ذهب البعض . إلى أن سورة النحل . كلها مكية بما فيها هذه الآيات . وعلى هذا الرأي . تكون نزلت ثلاث مرات . مرة بمكة ، ومرة ثانية عقب أحد ، ومرة ثالثة يوم الفتح .

وفي هذا التكرار . تذكير الله لعباده بما اشتملت عليه الآيات من الإرشادات والآداب العالية ، وهي . تحرى العدالة والإنصاف عند الاتصاف للنفس ، وكبح جماح شهوة الشقي والإسراف في الانتقام عند النصر والظفر بالأعداء ، وضبط النفس عند الغضب ، والتذرع بالصبر عند وقوع المكروه ، والتحلي بسعة الصدر ، وجمال التقوى في جميع الحالات .

وقد جهل ابن كثير ، و ابن حجر من هذا القسم آية الروح ، وكأنهما لا يريان الجمع بين الروايتين بالترجيح كما بينا ، ويريان الجمع بينهما بتكرار النزول .

وبما ذكر من هذا القبيل . سورة الاخلاص ، فقد روى أنها نزلت جوابا للمشركين ، وروى أنها نزلت جوابا لأهل الكتاب بالمدينة ، فحمل على تكرار النزول .

ومن ذلك سورة الفاتحة ، فقد ذكروا أنها نزلت مرتين . مرة بمكة ومرة بالمدينة .

وقد أنكر بعض العلماء كون شيء من القرآن تكرر نزوله . . وعلة

بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه . وهو مردود بما ذكرنا من الفوائد
والحكم^(١) .

تذييل

قد يكون في إحدى القصتين : « فتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم
- كذا ، فيخط الراوى فيقول : فنزل كذا ، فيظن : أن ذلك سبباً للنزول
وليس كذلك ، فينبغى التنبيه لذلك ، وتحرير لفظ الرواية ، وبذلك يسهل
علينا الوصول إلى الحق والصواب في أسباب النزول .

مثاله : ما أخرجه الترمذى وصححه ؛ عن ابن عباس قال : « مر يهودى
بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تقول يا أبا القاسم ، إذا وضع
الله السموات على ذه ، والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ،
وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله : « وما قدروا الله حق قدره ! والأرض
جميعاً قبضته يوم القيامة . . . الآية^(٢) » وقد وهم الراوى في قوله : « فأنزل ،
والحديث ورد في الصحيح بلفظ « فتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ،
وهو الصواب ؛ وما يؤيد هذا . أن الآية مكية لا مدنية :

ومن أمثله . ما أخرجه البخارى ، عن أنس قال . « سمع عبد الله بن
سلام بمقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتاه ، فقال . إني سأئلك
عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي .

١ - ما أول أشراط الساعة ؟

٢ - وما أول طعام أهل الجنة ؟

٣ - وما ينزع الوالد إلى أبيه ، أو إلى أمه ؟

قال . أخبرني بهن جبريل - عليه السلام - آتفا ، قال جبريل ؟ قال نعم

ذلك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية . « من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزل على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه ... » الآية . قال « ابن حجر » - في شرح البخارى . « ظاهر السياق . أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ الآية ردأ على اليهود ، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ . قال . وهذا هو المعتمد ، فقد صح في سبب نزول الآية قصة غير قصة « ابن سلام » (١) . وهكذا يتبين لنا . أن « فتلا كذا ، أو « فقرأ كذا ، لا تدل على أنها نزلت حينئذ ويكون ذكرها عقب القصة ، للاستشهاد كما في الأولى ، أو للرد كما في الثانية .

« تعدد المنزل ، والسبب واحد »

قد يكون الأمر الواحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة متفرقة ، وذلك عكس ما تقدم . ولا إشكال في ذلك ، ولا بعد ؟ فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى ، تبيانا وإرشادا للخلق ، وإقناعا للسائل . من أمثلة ذلك - السبب الواحد تنزل فيه الايتان - . ما أخرجه البخارى من حديث زيد بن ثابت . « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمل عليه . لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله . . . » ، جاء ابن أم مكتوم وقال . يا رسول الله ؛ لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله . « غير أولى الضرر » (٢)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زيد بن ثابت أيضاً قال . « كنت أكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإني لو اضع القلم على أذني ، إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال . كيف لي يا رسول الله . . . وأنا أعمى ، فأنزل الله . « ليس على الضعفاء . . . » الآية (٣) .

(١) أنظر أسباب النزول للسيوطى ج ١ ص ١٩١ هامش احلالين .

(٢) النساء الآية ٩٥ ، ٩٦

(٣) التوبة . الآية ٩١ .

ومن أمثله أيضاً - السبب الواحد تنزل فيه أكثر من آية - ، أخرجه الترمذى والحاكم ، عن لم صلة أنها قالت . « يارسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء » ، فأنزل الله . « فاستجاب لهم ربهم . انى لا أضييع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى ، بعضهم من بعض . . . الآية (١) » .

وأخرج الحاكم عنها - أيضاً - قالت . « قلت . يارسول الله ، تذكر الرجال ولا تذكر النساء ، فأنزل الله . « إن المسلمين والمسلمات . . . الآية (٢) » ، وأنزلت . « انى لا أضييع عمل عامل منكم . من ذكر وأنثى . . . الآية » وأخرج أيضاً عنها . أنها قالت « تغزو الرجال ، ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله - سبحانه - « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض ، (٣) » وأنزل . « إن المسلمين والمسلمات . . . الآية » .

فالظاهر . أن واقعة السؤال واحدة . وأن الآيات الثلاث نزلت بعد هذا السؤال ؛ ولا يبعد هذا اختلاف صيغة السؤال ؛ لجواز أن يكون سؤالها عاما شاملا لكل ما روى ، ولكن الراوى اقتصر على السؤال دون بعض . أو تذكر بعضه ونسى البعض .

عموم اللفظ وخصوص السبب

هذا الموضوع من الموضوعات التى عنى بها الأصوليون فى كتبهم وذلك لأنهم ينظرون فى حال الأدلة من حيث إفادتها للأحكام من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد ونحو ذلك . وقد يكون الدليل عاما مع خصوص السبب فيحتاج الأصولى إلى بيان حال الدليل من حيث كونه يتخصص بسببه أو يعم باعتبار لفظه . ولا نظر للسبب إلا من حيث أن الأفراد التى يتناولها

(١) آل عمران ١٩٥ .

(٢) الاحزاب الآية ٣٥ .

(٣) النساء : الآية ٣٢ .

الدين العلم تكون من نوع ذلك السبب ، وهو مع كونه مر مباحث علم
الاصول ، فهو بسبب وثيق من مبحث أسباب النزول للذي هو من أنواع
علوم القرآن .

وقبل أن نفصل الخلاف في هذا الموضوع نذكر أحوال كل من السبب
واللفظ النازل عليه من عموم وخصوص فنقول : القسمة العقلية تقتضى
أربع صور وهى :

١ - أن يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه خاصاً .

٢ - أن يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه عاماً .

وهذان القسمان ليسا محل خلاف بين العلماء لأن المطالبة حاصلة بين
السبب الذى هو بمنزلة السؤال وبين اللفظ المنزل عليه الذى هو بمنزلة
الجواب له .

٣ - أن يكون السبب عاماً واللفظ النازل عليه خاصاً وهذا القسم وإن
صح عقلاً لكنه لا يجوز بلاغة لعدم وجود التطابق بين السبب الذى هو
بمنزلة السؤال واللفظ النازل عليه الذى بمنزلة الجواب له فيكون بمنزلة من
يقول هل للسليبي أن يفعلوا كذا فيجاب بأن لفلان أن يفعل كذا ويترك
حال الباقيين ، ومن ثم لم يقع هذا فى الكلام البليغ كالقرآن والسنة .

٤ - أن يكون السبب خاصاً واللفظ النازل عليه عاماً وهذا القسم جائز
عقلاً وواقع فعلاً إذ لا ضير فيه ولا خلل بل هو أتم وأوفى بالمقصد قال
الزمخشري فى تفسيره سورة الهمزة ، يجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد
عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون ذلك جارياً مجرى التعريض .

وهذا القسم هو محط اختلاف العلماء ، فذهب الجمهور من العلماء إلى أن
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فحادثة خويلة بنت ثعلبة التى ظاهر
منها زوجها ، أوس بن الصامت ، كانت سبباً لنزول آيات الظهار وهى قوله

تعالى « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم (١) . فاللفظ النازل عام لأنه اسم موصول وهو من صيغ العموم ويدخل تحت هذا العموم خولة ومن كان على شاكلتها ممن يظاهر منهن ، وحادثة هلال بن أمية الذي رمى امرأته بشريك بن سحماه قد نزل بسببها آيات اللعان وهي ، والذين يرمون أزواجهم ، الآيات (٢) ، فاللفظ النازل عام وهو شامل لمن نزلت فيه الآية ولغيره ممن هو شاكلته ، هذا هو رأى الجمهور .

وذهب غير الجمهور إلى أن العبرة بخصوص السبب يعنى . أن لفظ الآية يكون قاصراً على من نزلت بسببه الآية ، وآيات الظهار مثلاً لفظها خاص بخولة بنت ثعلبة ومظاهرة زوجها منها . وآيات اللعان لفظها خاص بهلال بن أمية . أما حكم غيرهما ممن يشبههما فلا يكون مستفاداً من لفظ الآية . إنما يستفاد بطريق القياس أو بالاجتهاد لدخوله تحت القاعدة المعروفة عند الأصوليين وهي « حكمى على الواحد حكمى على الجماعة (٣) .

تنبيهات :

١ - ينبغى أن يلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم قرينه على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة بإجماع العلماء .

(١) - سورة المجادلة الآية ٢-٤ .

(٢) سورة النور الآية ٦-٩ .

(٣) جرت كتب الأصول على عد هذا الكلام حديثاً وهو هذا اللفظ لا يرمف ولا يثبت على النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو فى معنى حديث رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . والنسائى وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى مبايعة النساء « أنى لا أصافح النساء وما قولى لامرأة واحدة الا كقولى لمائة امرأة ، أنظر . كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس جزء ١ ص ٢٦٤

٢ - لا يتوهم من متوهم أن غير الجمهور يقولون بعدم عموم أحكام الآيات النازلة على أسباب خاصة فالكل من الجمهور وغيرهم متفقون على عموم أحكام هذه الآيات غير أن الجمهور يقولون أن العموم مستفاد من اللفظاً ما غير الجمهور فيقولون أن صورة السبب معلومة من اللفظ قطعاً أما غير صورة السبب فحكمها مستفاد بالقياس أو الاستدلال كما ذكرنا.

قال الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية في «أصول التفسير» (١) ما ملخصه «قد يحىء كثير من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا لاسيما إذا كان المذكور شخصاً لقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس ابن شماس (٢) ، وأن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله ، وأن آية دوأن احكم بينهم بما انزل الله، نزلت في بنى قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكر أن نزل في قوم من المشركين ، أو في قوم من اليهود والنصارى ، أو في قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا ان حكم الآية يختص بأولئك الاعيان دون غيرهم فأن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختص بسببه ؟ فلم يقل احد ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال : انها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية الى لها سبب معين إن كان أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلة ،

مقدمة في أصول التفسير ص ١٢ - ١٣ الإفتان جز ١٠ ص ٣

(٢) المعروف أن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت ، وهذا هو الذى تظاهرت عليه الروايات في كتب التفسير وأسباب النزول . وقيل أنها نزلت بسبب سلمة بن صخر الأنصارى لما ظاهر من زوجته ، والحق هو الأول وأن سلمة قصة أخرى ، وعلى كثرة التحرى والبحث لم أجدهم أحداً روى أنها نزلت في امرأة ثابت بن قيس بل رجعت إلى تواريخ المحابة على أحمد في ترجمة ثابت =

وثمره هذا الخلاف ترجع إلى امرين :-

١ - أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور وذلك النص قطعي الثبوت اتفاقاً وقد يكون مع هذا قطعي الدلالة أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدلولاً عليه بالنص بل بالقياس أو الاستدلال بالكلمة المعروفة عند الأصـوليين وكلاهما غير قطعي .

٢ - أن أفراد غير السبب يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس

أدلة الجمهور

استدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بأدلة نكتفي منها بما يأتي :

الدليل الأول: احتجاج الصحابة وغيرهم من الأئمة المجتهدين في جميع الأعصار في وقائع بموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، وهذا أمر شائع ذائع بينهم ولم يعرف عنهم أنهم لجأوا إلى قياس أو استدلال بغير لفظ الآيات ، فدل ذلك على أن العبرة بموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن ذلك احتجاجهم بآية السرقة في قطع يد كل سارق مع نزولها في حادثة خاصة وهي سرقة المجن أو رداء صفوان واحتجاجهم بآيات حد القذف على حد كل قاذف مع أنها نزلت بسبب الذين رموا السيدة الحسان عائشة رضي الله عنها بالإفك ؛

== ما يدك على ذلك فلم أجد فتناً كدت أن هذا سهو من الإمام - رحمه الله والسهم من طبيعة الإنسان ، ولا سيما والإمام بن تيمية كان جل اعتماده في كتبه على الذكرة والإلقاء على تلاميذه ، ومربديه ، ولم يكن عنده من الاستقرار وفسحة الوقت ما يجعله يراجع ما أملاه ، ويتدارك ما هسى أن يكرن فيه من سهو ونسيان والمصمة لله وحده .

وكذلك آيات اللعان وآيات الظهار مع تزويجها على أسباب خاصة على ما ذكرت لك آنفاً وهكذا .

وبما يدل على اعتبار الصحابة ومن بعدهم للصوم ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن نجدة الحنفي قال . سألت ابن عباس عن قوله تعالى : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، إخصاص هو أم عام ؟ قال عام .

وروى ابن جرير بسنده عن أبي معشر نجيب قال سمعت سعيداً المقبري يذأكر محمد بن كعب القرظي فقال سعيد : أن في بعض كتب الله أن الله عباداً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين يجترون الدنيا بالدين قال الله تعالى : أعلى يجترون وبني يغترون ؟! وعزتي : لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران ، فقال محمد بن كعب القرظي هذا في كتاب الله ، فقال سعيد وأين هو من كتاب الله ؟ قال قول الله عز وجل . « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (١) وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها . . . الآية (٢) »

فقال سعيد : فقد عرفت فيمن أنزلت فقال محمد بن كعب . إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد .

قال ابن كثير (٣) : وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح .

(١) شديد الخصومة والعداوة للسلين .

(٢) البقرة الآية ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٣) تفسير ابن كثير والبغوي جزء ١ ص ٦٤٧ ط المنار ، الإتيان جزء ١ ص ٢٩ وقد جاء نص هذا الاثر في الإتيان مصحفاً محرراً وقد إعتمدت فيما نقلته على تفسير ابن جرير وابن كثير وفي تفسير القرطبي أن هذا الاثر رواه الترمذي أيضاً والمسوك جمع مسك بفتح الحميم وهو الجلد .

الدليل الثاني : قالوا لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ. للزم استعمال العام في الخاص وفي هذا صرف له عما وضع له بغير قرينة مانعة من العموم واللازم باطل فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بعموم اللفظ فإن قال قائل إن خصوص السبب مانع من حمل اللفظ. على العموم فهو قرينة صارفة . قلنا : أن خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من متناول اللفظ فلا يصح إذاً أن يكون صارفاً عن استعمال العام في معناه للموضوع له وهو أفرادها التي منها صورة السبب وغيره .
وبهذا ثبت أن العبرة بعموم اللفظ. لا بخصوص السبب .

ادلة غير الجمهور

استدل غير الجمهور بأدلة نكتفي منها بما يأتي :

الأول . قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لجاز إخراج صورة السبب بالتخصيص لكن التالي باطل فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب .

أما وجه الملازمة فإن اللفظ العام يجوز إخراج أى صورة منه بالتخصيص فتكون صور السبب كغيرها في جواز إخراجها من اللفظ العام، وأما وجه بطلان التالي فلأن الإجماع منعقد على عدم جواز إخراج صورة السبب من اللفظ العام وأجيب عن هذا الدليل بأن عدم جواز إخراج صورة السبب إنما جاء من دليل آخر وهو الإجماع لا من جهة كونه غير عام ودليلهم إنما يتم لهم الاستدلال به لو أن عدم الجواز جاء من جهة كون اللفظ غير عام وليس الأمر كذلك وعلى هذا فالملازمة غير مسلمة وباطلة وثبت أن هذا الدليل لا ينهض للاحتجاج به فلا تثبت به الدعوى .

الثاني . قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ. لا بخصوص السبب لما كان لذكر

السبب فائدة لكن التالى - وهو عدم الفائدة - باطل فبطل ما أدى إليه - وهو ما فرضناه من أن العبرة بعموم اللفظ - وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

وأجيب عن هذا بأننا لا نسلم لسكم انتفاء الفائدة مطلقاً إذ لا يلزم من نفي الفائدة المعينة وهي تخصيص الحكم بالسبب نفي الفائدة المطلقة بل هناك فوائد كثيرة غير هذه وقد تعرضنا للكثير منها فى صدد البحث وبهذا لا يصلح هذا الدليل للاحتجاج فلا تثبت به الدعوى .

الثالث : قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لسكان اللفظ الذى هو بمنزلة الجواب غير مطابق للسبب الذى هو بمنزلة السؤال لكن عدم المطابقة باطلة لأنه يتأفى كون القرآن فى أعلى درجات البلاغة فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ وقد أجيب عن هذا بمنع الملازمة وهي عدم المطابقة إذ المطابقة حاصلة وزيادة الجواب عن السؤال لا تخرجه عن المطابقة لأنه اشتمل على المقصود وزاد عليه ومثل هذا الأسلوب لا ضير فيه ولا يخل بالبلاغة محال من الأحوال وإنما يخل بها لو كان الجواب خاصاً والسؤال عاماً لعدم المطابقة حينئذ ، وعلى هذا فلا يصح هذا الدليل فلا تثبت به دعواكم .

وإذ قد بطلت أدلة غير الجمهور وبقيت أدلة الجمهور قوية سالمة من البطلان كان رأيهم هو المعول عليه

مثال للفظ خاص نزل على سبب خاص

ما ذكرنا من خلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو فى لفظ له عموم ونزل على سبب خاص أما إذا كانت آية نزلت بسبب خاص ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعاً وقد مثل الامام السيوطى فى الاتقان (١) لذلك بقوله تعالى

(١) الاتقان جزء ١ ص ٢٠

« وسيجنبها الاتقى الذى يوتى ماله يتركى ^(١) ، فإنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه - بالاجماع ^(٢) قال : « وقد استدلت بها الامام فخر الدين الرازى مع قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله اتقاكم » ، على أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم من ظن أن الآية فى كل من عمل عمله اجراء له على القاعدة وهذا غلط ، فإن هذه الآية ليست فيها صيغة عموم اذ الالف واللام - يعنى قوله « الاتقى » - انما تفيد العموم اذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع زاد قوم : أو مفرد بشرط أن لا يكون هناك عهد ، واللام فى « الاتقى » ليست موصولة ، لانها لا توصل بأفعل التفصيل اجماعاً ، واللاقى ليست جمعاً بل هو مفرد ، والعهد موجود خصوصاً مع ما يفيد صيغة أفعل من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضى الله عنه

وبعض المفسرين يرى احتمال الآية للعموم مع قولهم ، أنها نزلت فى الصديق رضى الله عنه فتكون له ولغيره ممن هو على شاكلته وفسروا « الاتقى بالتقى كما فسروا « الاشقى » وهو أمية بن الحلف بالشقى فتشمله وتشمل غيره ممن يعمل بمثل عمله ومن هو على صفته وأستدلوا لقولهم هذا بقول طرفه

تمنى رجال أن أموت وأن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
أى واحد ووحد « وتوضع أفعل موضع فاعيل نحو قولهم : الله أكبر
بمعنى كبير ، وهو أهون عليه ، أى هين ^(٣) » ومعنى يحمل الآية على العموم
العلامة ابن كثير فى تفسيره قال ^(٤) « وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن

(١) سورة الليل الآية ١٧ - ١٨

(٢) إلا كثرون من العلماء على هذا وقيل نزلت فى أبى الدرداح - كما قاله عطاء والسدى - ولا يأتى الاجماع إلا إذا استعطننا من الاعتبار رأى المخالف .

(٣) تفسيراً لقرطبى جزء ٢٠ ص ٨٨ .

(٤) تفسير ابن كثير والبيهقى جزء ٩ ص ٢٢٦ .

هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه حتى أن بعضهم (١) حكى الاجماع من المفسرين على ذلك ولا شك أنه داخل فيها وأولى الامة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم وهو قوله «وسيجنبها الاتقى الذى يوثى ماله يتركى وما لاحد عنده من نعمة تجزى ، ولكنه مقدم الامة وسابقهم فى جميع هذه الاوصاف وسائر الاوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذلاً لا مواله فى طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لاحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله واحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل .»

وأما كان المراد من لفظ الاتقى فالآيات نص فى الدلالة على فضل الصديق الأكبر رضى الله عنه وأرضاه ؛ لأن السبب يدخل فى الآية دخولا أولياً

شبيه بالسبب الخاص مع اللفظ العام

قد تنزل بعض الآيات على الأسباب الخاصة او توضع مع ما يناسبها من الآى العامة رعاية لنظم القرآن وحسن السياق وتناسب الآيات فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب فى كونه قطعى الدخول فى العام وقد اختار الإمام ابن السبكي فى «جمع الجوامع» أنه رتبته متوسطة دون السبب وفوق التجرد ومثاله قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » (٢)

فقد نزلت هتان الآيتان فى كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود

(١) لعل مراده الإمام الرازى (٢) النساء الآية ٥١ - ٥٢ .

لما قدموا مكة بعد بدر (١) ليحرضوا قريشا على قتال النبي ﷺ والأخذ
بالتار فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان بن حرب فأحسن مشاوه ونزل
بقية اليهود دور قريش فقال سفيان لكعب : أنك أمرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن
أميون لا نعلم أينأ أهدي طريقا فمن أم محمد ؟ فقال كعب أعرضوا على دينكم
فذكر له أبو سفيان بعض فضائلهم فقال كعب أنتم - والله - أهدي سبيلا
عما عليه محمد وأصحابه !!!

قال هذا مع علمه هو ومن معه من اليهود بما في كتابهم التوراة من نعت
النبي الأسمى العربي المبعوث في آخر الزمان ، وأخذ المواثيق عليهم أن
يؤمنوا به ويصدقوه ولا يكتبوا أوصافه ؛ فكان هذا أمانة لازمة لهم
وعليهم أن يؤدوها ، وكان قول كعب بن الأشرف ومن وافقه خيانة لهذه
الامانة التي اتتمنوا عليها وأمروا بأدائها إذا حان وقتها وقد وبخهم الله
سبحانه على خيانتهم هذه ولعنهم وتوعدهم عليها وقد اقتضى هذا التوعد
واللعن الأمر بمقابل خيانتهم وهو أداء الامانة الخاصة التي هي بيان صفة
النبي صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يجدون نعمته عندهم مكتوباً في التوراة ،
ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم بل أشد ، ثم جاء بعده الأمر بأداء الامانات
عامة في قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا

(١) هذا ما ذكره السيوطي في الاتقان وفي تفسير الجلايين وما ذكره الجلال

المجلى في شرحه على جمع الجوامع .

وفي تفاسير البخري والقرطبي والالوسي أن قدوم كعب وأصحابه كان بعد أحد
والصحيح الأول فقد قتل كعب بن الأشرف قبل أحد على الصحيح (البداية والنهاية
لابن كثير جزء ٤ ص ٥ وما بعدها) نعم قد جاء في رواية أخرى أن الآيتين نزلتا
في الوفد من اليهود الذين خربوا الأحزاب على رسول الله وذلك أنهم لما قدموا
على قريش سألوهم هذا السؤال فأجابوهم بهذا الجواب ولم يكن في هؤلاء كعب قطعا
فعل من ذكر أن الآية نزلت بسبب الوفد الذين قدموا بعد أحد أراد هذه القصة
ولكن وهم في ذكر كعب بن الأشرف في الوافدين .

حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان
سميماً بصيراً، (١)

فكانت المناسبة رائعة حقاً ، والاتصال وثيقاً ، والانتقال في غاية
الحسن والجمال ، إذ أن آية الأمانة عامة في كل أمانة ، وسأ تقدم كان في
أمانة خاصة ، والعام تال للخاص في الرسم مترسخ عنه في النزول ، وهذه
المناسبة تقتضى دخول ما دل عليه الخاص في العام دخولا أولياً ، فهو
كسبب في كونه تطلعي الدخول في اللفظ النازل بسببه ولا يجوز
خروجه بالإجماع .

وقد اعتبر الإمام ابن السبكي هذا النوع مرتبة متوسطة دون السبب
وفوق التجرد أما كونه دون السبب فلأن الأولى ليست سببا في الثانية
اصطلاحاً وأما كونه فوق التجرد فلهذه المناسبة القوية بين الخاص والعام
ودخول الأول في الثاني .

ولا يرد على ما ذكرنا تأخر الآية الثانية عن الأولى بنحو ست سنين
لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول لا في المناسبة لأن المقصود منها
وضع الآية في الموضع الذي يناسبها ، والآيات كانت تنزل على
أسبابها ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في المواضع التي علم من الله
أنها مواضعها ، وهذا الكلام الذي قاله ابن السبكي ونقله عنه السيوطي
في الاتقان من الحسن بمكان ، وقد نبه إلى هذه المناسبة البديعة بين
الآيات الإمام القرطبي في تفسيره (٢) حيث قال « وجه النظم بما تقدم أنه
- تعالى - أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم
لئن المشركين أهدى سبيلاً ، فكان ذلك خيانة منهم فأنجز الكلام إلى ذكر
جميع الأمانات ، .

(١) النساء . ٥٨ .

(٢) تفسير القرطبي جزء ٥ ص ٢٥٧ .

المبحث الخامس

(نزول القرآن على سبعة أحرف)

هذا البحث من المباحث التي تناولها العلماء في تأليفهم . بل وأفردوا بعضهم بالتأليف . وقد اختلفت فيه آراؤهم وأنظارهم اختلافا كثيرا وكثرت فيه الأقوال كثيرة ظاهرة . حتى لقد بلغ بها السيوطي في الاتقان - نقلا عن ابن حبان ، خمسة وثلاثين قولاً .

وليس من شك في أن هذا البحث شائك ، ودحض مزلة ، والمباحث فيه يحتاج إلى شيء غير قليل من البصر بموضع قدمه . ومن الأناة والصبر . ولا تعجب إذا خفي المراد على بعض العلماء فعد الحديث مشكلا ، وتوقف عن بيان المراد منه . وبعضهم جعل حقيقة العدد غير مقصودة ، وأن المراد التأكيد من غير حصر . وأتى بعضهم بآراء ما أنزل بها من سلطان !

ولكي نصل إلى بيان الحق والصواب ، نرى لزماً علينا ذكر الروايات الثابتة في هذا المعنى بشيء من التفصيل كي تكون لنا نبراساً ننتدى على ضوئه لمعرفة المراد .

الحديث متواتر :

ويحسن أن ننبه قبل هذا التفصيل إلى أن حديث إنزال القرآن على سبعة أحرف ، ورد من رواية جمع كثير من الصحابة ، حتى نص الإمام وأبو عبيد القاسم بن سلام ، على تواتره ، فقد رواه من الصحابة : أبي بن كعب ، وأبي بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمره ابن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبدالرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن أبي سلمة ، وعمر بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبو بكر ، وأبو جهم

وأبو سعيد الخدرى ، وأبو طلحة الأنصارى ، وأبو هريرة ، وأم أيوب الأنصارى - امرأة أبي أيوب الأنصارى - رضى الله عنهم أجمعين : فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً (١) .

وأخرج الحافظ ، وأبو يعلى ، فى مسنده : أن عثمان قال على المنبر : (أذكر الله رجلاً سمع النبي - ﷺ - قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، كلها كاف شاف ، لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا ، فشهدوا بذلك فقال : وأنا أشهد معهم) . وهذا يدل على أن الحديث كان معروفاً مشهوراً غاية الشهرة فى زمن الصحابة ولكن هل نقله عنهم فى كل طبقة جماعة كثيرون ممن يثبت بهم التواتر ؟ هذا ما يحتاج إلى إثبات ، وإلا فغاية أمره أنه مشهور

الروايات الواردة

١ - روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال . (أقرأنى جبريل على حرف : فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف) . زاد مسلم فى روايته ، قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف .. إنماهى فى الأمر يكون واحداً ، لا يخلف فى حلال ولا حرام (٢) . يريد أن المعنى واحد ، وأن اختلفت الألفاظ .

٢ - وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن شهاب الزهري قال : أخبرنى عروة بن الزبير . أن المسور بن مخرمة ، وعبدالرحمن ابن عبد القارى أخبراه : أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ؛ فإذا

(١) الاتقان ج ١ ص ٤٥ ، وفى بعض نسخ الاتقان المطبوعة « أبو أيوب ، بدل « أم أيوب ، وأغلب الظن انه من الطباعة ، وفى النشر لابن الجزرى « أم أيوب »

(٢) فتح البارى ٩٢ ص ١٩٠ . صحيح مسلم بشرح النووى ٦٣ ص ١٠١

هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئها رسول الله ؛ فكذبت أساوره (١) في الصلاة فتصبرت حتى سلم ، فلبسته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ قلت : كذبت (٢) ؛ فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت ؛ فانطلقت به ، أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : لاني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ يا هشام ؛ فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر ؛ فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ؛ إن القرآن أنزل على سبعة أحرف . فاقروا ما تيسر منه ، (٣)

٣ - وروى مسلم في صحيحه ، بسنده عن أبي بن كعب : أن النبي ﷺ كان عند أضاة (٤) بنى غفار . قال : فاتاه جبريل عليه السلام - فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ؛ فأبما حرف قرموا عليه فقد أصابوا .

٤ - وروى مسلم بسنده ، عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد ،

- (١) أرائبه وأمسك به .
- (٢) أي أخطأت بلغة الحجاز . أو بنى ذلك على غلبة ظن واعتقاده .
- (٣) فتح الباري ٣ - ٩ ص ٢٠/١٩ . مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ٩٩ وما بعدها
- (٤) أضاة - بفتح الهمزة . وبضاد معجمة - : الماء المستنقع كالغدير ، وجمعه : أضا ، كحصاة وحصا . وإضاة كأكنة راكم . وكانت بوضع من المدينة النبوية ينسب إلى بنى غفار ، لأنهم نزلوا عنده .

فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه؛ ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه؛ فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقرأوا، فحسن النبي - صلى الله عليه وسلم - شأنهما؛ فسقط في نفسي من التكذيب^(١) ولا اذ كنت في الجاهلية فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قد غشيتني ضرب في صدري ففضت عرقاً، وكأنا أُنظر إلى الله - عز وجل - فقال لي: يا أباي، أرسل إلى: أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت عليه: أن هون على أمتي، فرد إلى الثانية: أقرأه على حرفين؛ فرددت إليه: أن هون على أمتي، فرد إلى الثالثة^(٢): أقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتكمها مسألة تسألينها فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي؛ وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - . وقد بين الطبري في روايته: أن المقروء كان من سورة «النحل» .

(١) يعنى أن الشيطان وسوس له من التشكك في النبوة ما أوقعه في حيرة ودهشة، وشوش عليه أمره، وعظم عليه ما ليس عظيماً في الواقع ونفس الأمر. إلا أن هذه الوسوسة لم تعد أن تكون خاطراً من الخواطر التي لا يؤاخذ عليها الإنسان، ونزعة شيطانية غير مستقرة لم تلبث أن زالت حين ضرب النبي في صدره فتبخر في قلبه ما حاك فيه من شك وتردد فالشرح صدره، وثبت قلبه على الحق واليقين، وإنما فاض عرقاً استحياء من ربه لما تمثل هذا الخاطر الذي لا يليق بمثله، ومثل هذه الخواطر والنزعات غير المستقرة لا تتحلل بإيمان أو عقيدة، بل هي إماراة من إمارات قوة الإيمان. وفي صحيح مسلم: أن الصحابة قالوا للنبي: وإنا لنجد في أنفسنا ما يتعاطم أحدنا أن يتكلم به. قال: أوجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذلك صريح الإيمان، .

(٢) المراد بالثالثة الأخيرة، وهي الرابعة فسيأها الثالثة مجازاً، بدليل الرواية السابقة. أو يكون أسقط من هذه الرواية بعض المرات فجاءت الرابعة في العدد الثالثة.

٥ - وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود : « أنه سمع رجلا يقرأ آية ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ خلافها ، فأخذت يده ، فانطلقت به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كلا كما محسن ، فاقراءه . »

قال شعبة - راوى الحديث - : « أكبر علمى قال : « فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكوا . »

وقد روى هذا الحديث بأوسع من هذا اللفظ ابن حبان والحاكم ، وفيه : « وإن هذه الآية من سورة من آل حم . » وفى المهمات للخطيب : أنها « الأحقاق ، (١) . »

٦ - وروى الترمذى ، بسنده عن أنى بن كعب قال : « لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل فقال : يا جبريل ؛ إني بعثت إلى أمة أمية ، منهم العجوز ؛ والشيوخ الكبير ، والغلام والجارية ، والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط ، فقال لى : يا محمد ، « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، قال : هذا حديث صحيح . »

٧ - وروى أحمد ، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص ، عن عمرو : أن رجلا قرأ آية من القرآن ، فقال له عمرو : « إنما هى كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فأى ذلك قرأتم أصبتم ، فلا تماروا فيه (٢) إسناده حسن . »

٨ - وروى الطبرى ، والطبرانى ، عن زيد بن أرقم قال : « جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « أقرأنى ابن مسعود سورة اقرأها زيد ، وأقرأنيها أبى بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ؛ فبقراءة أيهم أخذ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى إلى جنبه ؛ فقال : « ليقرأ كل إنسان منكم كما علم ؛ فإنه حسن جميل . »

(١) فتح البارى ٩ ص ٨٣ - ٨٤ . (٢) فتح البارى ٩ ص ٢١ .

٩ - وروى النسائي، وابن جرير الطبري - واللفظ له - بسندهما عن أبي بن كعب، وفي حديثه: أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل وميكائيل عليهما السلام - أتياني فقعده جبريل عن يميني، وميكائيل عن يساري، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، وقال ميكائيل: استزده حتى يبلغ سبعة أحرف وكل شاف كاف، (١). وفي رواية لأبي بكر: فنظرت إلى ميكائيل فسكت، فعلبت أنه قد انتهت العدة، (٢)»

(١٠) وروى أحمد والطبراني، من حديث أبي بكر قال: يا محمد، اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل: استزده حتى يبلغ سبعة أحرف، قال: كل شاف ما لم تخلط آية عذاب برحة، أو رحة بعذاب، نحو قولك: تعال وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وعجل، .

قال السيوطي: هذا اللفظ رواية أحمد، وإسناده جيد، وأخرج أحمد والطبراني أيضا، عن ابن مسعود نحوه، وروى الطبراني عن أبي بكر نحوه مقتصرأ على قوله: «هلم، وتعال، . وبحسبنا هذا القدر في هذا المقام .

ما يستخلص من الروايات

نستخلص من الروايات السابقة الاصول الآتية:

١ - لو نزل القرآن على حرف واحد لشق ذلك على الأمة العربية؛ فقد كانت متعددة اللغات واللهجات، وما يتسهل النطق به على البعض لايسهل على البعض الآخر، وكانت تغلب عليها الأمية، فلايجب أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الاستزادة من الحروف حتى بلغت سبعة أحرف . يدل على هذا قوله - في حديث أبي - : ثلاث مرات «أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك، . وقوله - في حديث الترمذى - : «إني بعثت إلى أمة أمية .. الحديث .

فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن أنزل القرآن على سبعة أحرف، رفعا للحرَج ، وتيسيراً لقراءته وحفظه ، وفهماً وتدبره .

٢ - أن هذه التوسعة إنما كانت في الالفاظ ، ولم تكن في المعانى والأحكام وأنها كانت في المعنى الواحد يقرأ بالالفاظ مختلفة ؛ بدليل أن النبى ﷺ أقرأ كلا من المختلفين على قراءته ، بل واستحسان قراءة كل بقوله : « كلا كما يحسن ، وليقرأ كل منكم كما علم ، فإنه حسن جميل . »

وعير معقول أن يكون اختلافهم في المعانى والأحكام ، ثم يوافق النبى ﷺ كلا على قراءته ويستحسنها .

٣ - أن هذه التوسعة والإباحة في القراءة بأى حرف من الحروف السبعة إنما كانت في حدود ما نزل به « جبريل » ، وما سمعوه من النبى ﷺ ؛ وذلك بدليل أن كلا من المختلفين كان يقول . « أقرأنيها رسول الله ، » وأن النبى كان يعقب على قراءة كل من المختلفين بقوله : « هكذا أنزلت ، كما في حديث « عمر وهشام ، وما يفيد لفظه الإنزال الذى جاءت به جميع روايات الحديث . وليس ذلك إلا التوقيف بالسماع من الرسول ، وسماع الرسول من جبريل . »

ولا يتوهم من متوهم . أن التوسعة إنما كانت باتباع الهوى والتشهى ؛ فذلك ما لا يليق أن يفهمه مسلم ، فضلاً عن عاقل ؛ إذ الروايات الواردة ترده وتبطله ؛ ولو كان لكل أحد أن يقرأ بما يتسهل له من غير تلق وسماع من النبى ﷺ وأن يبذل ذلك من تلقاء نفسه لذهب إجماز القرآن ، ولكان عرضة أن يبذله كل من أراد حتى يصير غير الذى نزل من عند الله ، ولما تحقق وعد الله سبحانه - بحفظه فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ، » واللوازم كلها باطلة ؛ فبطل ما أدى إليها ، وثبت نقيضه وهو أن التوسعة كانت فى حدود ما أنزل الله .

وكيف يتفق هذا الوهم الباطل ، وقول الحق - تبارك وتعالى - : « وقال الذين

لا يرجون لقاءنا : إئت بقرآن غير هذا أو بدله . قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ؛ إن اتبع إلا ما يوحى الي ؛ إني أخاف أن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ، (١) .

٤ - أن الامة كانت مخيرة في القراءة بأى حرف منها من غير إلزام بواحد منها . وأن من قرأ بأى حرف منها فقد أصاب . بدليل قوله . صلى الله عليه وسلم في حديث « عمر ، : « فاقروا ما تيسر منه » . وقول جبريل - عليه السلام - في حديث المراجعة : « فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا » وأيضاً .. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - قد أقر كلا من المختلفين على قراءته . ولم يرجح قراءة واحد على الآخر . بل استحسّن قراءة كل .

٥ - أن التوسعة على الامة لم تكن في مبدأ الدعوة . بل كانت بعد الهجرة وبعد أن دخل في الإسلام كثير من القبائل غير قريش . فكانت الحاجة ماسة إلى هذا التسهيل . وتلك التوسعة . . يشهد لهذا حديث مسلم : « أن النبي كان عند أضاة بنى غفار . . . الحديث وهي بالمدينة النبوية . كما ذكرنا آنفاً (٢) .

٦ - أن هذه التوسعة مظهر من مظاهر الرحمة والنعمة . فلا ينبغي أن تكون مصدر اختلاف ونقمة : أو أن تكون مثيرة للشك . أو مضغفة لليقين . فقد حذرهم الرسول - صلوات الله عليه - من الاختلاف . كما في حديث « ابن مسعود ، . ومن الشك في القرآن كما في حديث عمرو بن العاص . « فلا تماروا فيه . وفي رواية لابن جرير الطبرى . من حديث أبي جهم : « فلا تماروا في القرآن : فإن المراء فيه كفر ، .

(١) سورة يونس . الآية ١٥ ، ١٦

(٢) فتح البارى ٩٦ ص ٢٣ .

٧ - حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - البالغ على القرآن الكريم، وغاية تحوطهم في المحافظة عليه ، ونفى الريب والتغيير والتبديل عنه ؛ وبحسبك شاهدا على هذا ما كان من الفاروق « عمر » - رضى الله عنه - مع هشام بن حكيم حتى هم أن يأخذ بتلايبه وهو في الصلاة. وما كان من « أنى » وابن مسعود ، وعمرو بن العاص مع غيرهم ؛ وأن الصحابة إنما اختلفوا وتنازعوا في قراءة بعض الألفاظ ، ورفعوا الأمر إلى رسول الله - ﷺ - قبل أن يعلوا : أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فلما علموا بهذه الحقيقة اطمأنوا ، وقطع بينهم دابر الشقاق والمراء .

الاقوال في المراد من الاحرف السبعة

اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة، وقد أوصلها « ابن حبان » ، إلى خمسة وثلاثين قولاً ، ونقلها عنه السيوطى ، في الاتقان . وسند كر أشهر هذه الأقوال وأهمها ، وناقش كل قول مناقشة موضوعية خالية من التعصب لقول ، أو التحيف على آخر ، على ضوء ما قدمنا من روايات ، وما استنتجناه من أصول ، ومن غير نظر إلى كائله ومنزلته ، والحق لا يعرف بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق ، ومن الله نستمد التوفيق والعصمة من الزلل .

القول الأول

إن الحديث من المشكل الذى لا يدرى معناه ؛ لأن الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء ، وعلى الكلمة ، وعلى المعنى ، وعلى الجهة ، فهو مشترك لفظى لا يدرى أى معانيه هو المراد ؟

وهذا القول نسب إلى « أبى جعفر » . محمد بن سعدان النحوى ، ونحو نحوه الحافظ السيوطى فى شرحه (١) على سنن النسائى حيث قال - بعد ذكر

(١) أما فى الاتقان فقد نقل الأقوال وجعل همه السرد ولم يتعرض للتزجيج ولا للاختيار .

الحديث - : « في المراد به أكثر من ثلاثين قولاً ، حكيتها في الإتيان -
والمختار عندى : أنه من المتشابه الذى لا يدرى تأويله ، » .

وهذا رأى بمنزل عن التحقيق ؛ فإن مجرد كون اللفظ مشتركاً لفظياً
لا يلزم منه الإشكال ولا التوقف ، وإنما يكون ذلك لو لم تقم قرينة تعين
بعض المعانى ، أو ترجح بعضها على بعض ، وهنا قامت القرينة التى تعين
المراد ؛ إذ لا يصح إرادة حرف الهجاء ؛ لأنه مركب من جميع حروف
الهجاء ، ولا يصح إرادة الكلمات لأن كلماته تعد بالآلوف ، ولا يصح إرادة
المعنى ، لأن معانيه تزيد عن سبعة فتعين أن يكون المراد : الجهة .

والجهة تأتى بمعنى الوجه (١) ، ويشهد لهذا الاستعمال مجيء الحرف بمعنى
الوجه قول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فقد قال
بعض المفسرين فيه : على ضعف من العبادة ، أو على وجه واحد : وهو أن
يعبده على السراء دون الضراء كما فى تفسير القرطبي ، » .

وإذا كان معنى الحرف غير مشكل فليبحث عن المراد منه فى حدود
المنقول والمقول .

القول الثانى

وهو أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتوسعة ،
ولفظه « السبعة » ، يطلق على إرادة الكثرة فى الآحاد ، كما يطلق السبعون
فى العشرات والسبعمائة فى المئين ، ولا يراد العدد المعين .

وهذا رأى أيضاً بعيد من الصواب ، إذ لا تشهد له رواية من الروايات

(١) قال فى القاموس : « والجهة - بالكسر والضم - : الناحية كالوجه
والوجهة - بالكسر - ، وقال فى المصباح المنير : « والوجهه بالكسر - قيل : مثل
الوجه . وقيل : كل مكان استقبلته ، وتحذف الواو فىقال : جهة مثل عدة . ثم قلده
وقوله تعالى : « فتم وجهه الله ، أى جهته التى أمر كرمها .

التي أسلفناها ، ويرده ما ورد في حديث الصحيحين : « فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، وحديث النسائي ، وفيه : فقال ميكائيل : « استزده حتى بلغ سبعة أحرف ، وفي حديث أبي بكره : فنظرت إلى ميكائيل فسكت ، فعلمت أنه قد انتهت العدة ، ، فهذه الروايات صريحة في أن المراد حقيقة وانحصار الحروف في سبعة .

القول الثالث

أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة ، وإن شئت فقل : سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ، تختلف فيها الألفاظ والمباني مع اتفاق المعاني ، أو تقاربها ، وعدم اختلافها وتناقضها ، وذلك مثل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلى ، ونحوى ، وقصدى ، وقربنى ، فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد ، وهو طلب الإقبال .

وليس معنى هذا : أن كل كلمة كانت تقرأ بسبعة ألفاظ من سبع لغات ، بل المراد : أن غاية ما ينتهي إليه الاختلاف في تأدية المعنى هو سبع ، فالمعنى هو سبع ، فالمعنى الذى تتفق فيه اللغات في التعبير عنه بلفظ واحد يعبر عنه بهذا اللفظ لحسب ، والذى يختلف التعبير عنه بلفظين ، وتدعو الضرورة إلى التوسعة يعبر عنه بلفظين ، وهكذا إلى سبع :

ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله تعالى : إن كانت إلا صيحة واحدة... (١) وقد قرأ ابن مسعود : « إلا زقية واحدة » ، وقوله . فاسعوا إلى ذكر الله ، قد قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : فامضوا إلى ذكر الله ، (٢) ، مثل ما روى ورفاه عن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ،

(١) يس : الآية ٢٩ .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن : ص ٢٢٢ .

عن أبي بن كعب : أنه كان يقرأ « للذين آمنوا انظرونا ، ، « للذين آمنوا
أهلونا ، ، « للذين آمنوا آخرون ، ، « للذين آمنوا أرقبونا ، ؛ وبهذا
الإسناد عن « أبي ، أنه كان يقرأ : « كلما أضاء لهم مشوا فيه ،
« سعوا فيه ، (١) .

ولا يقال أن بعض هذه الحروف لا يقرأ بها اليوم ؛ لانا نقول :
إن هذا هو معنى الأحرف السبعة ، ونحن لا ندعى بقاءها كلها إلى اليوم كما
ستعلم عن قريب .

وهذا الرأي يتفق هو والروايات السابقة الدالة على اختلاف الصحابة
في كلمات من القرآن ، وتنازعهم ، ورفع الأمر إلى رسول الله - صلوات
الله وسلامه عليه - ثم إقرار الرسول كلاً على قراءته ، ويوافق الأصول
التي استنتجناها من هذه الروايات ؛ فالغرض من النزول على سبعة أحرف
التيسير ، ورفع الحرج عن الأمة بالتوسعة في الالفاظ مادام المعنى واحداً ،
فقد كانوا أمة أمية ، وكانت لغاتهم متعددة ، وكان يشق على كل ذى لغة أن
يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتها له إلا بمشقة عظيمة ،
ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وتغيير للعادة ؛
فمن ثم جعل الله لهم متسعاً في اللغات بقراءة المعنى الواحد بالالفاظ مختلفة

وقد استمر الأمر على هذا حتى كثر فيهم من يقرأ ويكتب ، وعادت لغاتهم
إلى لسان رسول الله ﷺ وهو لسان قريش ، ولا سيما بعد أن صارت
لقريش السيادة الدينية والدنيوية معاً ، وقدروا على النطق بلغة قريش ،
التي هي أعذب اللغات وأسهلها وأطوعها للألسنة ؛ فلم يسعهم أن يقرأوا
بخلافها ، ولا سيما وقد زالت الضرورة وأصبحت التوسعة في القراءة بالأحرف
السبعة مثار اختلاف وتنازع ؛ فقد حدث في عهد الخليفة الثالث « عثمان ،
رضي الله تعالى عنه - أن اجتمع أهل الشام مع أهل العراق في غزوة « أرمينية ،

(١) تفسير القرطبي ١٣ ص ٤٢

وكانت قراءاتهم مختلفة ، فصار يخطيء بعضهم بعضاً ، ويقول كل منهم - م :
« حرفي الذي أقرأ به خير من حرفك » ، فجاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان
فقال : يا أمير المؤمنين ، أدرك المسلمين قبل أن يختلفوا في كتابهم اختلاف
اليهود والنصارى ، وحدث أيضاً : أن كان المعلم يعلم قراءة الرجل ، والآخر
يعلم قراءة رجل آخر ، فصار الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع هذا
الخلافاً إلى المعلمين ، وكاد أن يكفر بعضهم بعضاً ، فقال عثمان : « أنتم عندي
تختلفون ، فمن نأى من الأمصار كان أشد اختلافاً » ، فرأى الخليفة الراشد
« عثمان » - ونعم ما رأى - على ملأ من الصحابة ، ومشورة من أهل الرأي
منهم أن يجمع الناس على حرف واحد . . حتى تضيق شقة الخلاف ، ويقل
التنازع فجمع المصحف ، وكتبه على حرف واحد وهو حرف قريش ،
ونسخ منه نسخاً أرسل بها إلى الأمصار ، وحرق ما عدا هذا المصحف الذي
أمر بجمعه ، وعزم على كل من كان عنده مصحف مصحف يغير المصاحف
العثمانية أن يحرقه ، فاستوثقت له الأمة بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من
ذلك الرشد والهداية ، فالتزمت القراءة بحرف قريش ؛ وتوكت القراءة
بالأحرف الستة الباقية ، التي عزم عليها إمامها العادل الراشد أن تتركها
امثالاً لأمر الإسلام ، في طاعة أولى الأمر ، ورعاية منهم - م لمصالحهم
ومصلحة الأمة من يأتي بعدهم حتى درست معرفة هذه الأحرف الستة من الأمة
وتعمت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدورها ، وعفاء
آثارها ، وتتابع المسلمين على رفعن القراءة بها . من غير جحود منهم لصحتها
وصحة شيء منها . فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذي اختاره
لهم إمامهم الشفيق الناصح . دون استبداد من الأحرف الباقية (١)

وإلى هذا الرأي ذهب الجاهل من سلف الأمة وخلفه . فذهب إليه الأئمة
سفيان بن عيينة . وابن جرير الطبري . ودافع عنه دفاعاً حاراً في مقدمة تفسيره

والطحاوى ، وابن وهب ، وخلائق كثيرون ، واختاره القرطبي ، ونسبه
ابن عبد البر لاكثر العلماء ، وهذا الرأى هو الذى اختاره وأميل إليه .
ولكى يخلص لنا هذا الرأى محصا مصفى ، سند كر بعض التوضيحات
له ، والشبه التى أثيرت حوله ، ونجيب عليها . حتى يتبين لنا : أنه الرأى
المروى والمختار (١) .

الشبهة الأولى : قال قائل . فى أى موضع من القرآن نجد حرفاً واحداً
مقروءاً بسبع لغات مختلفات الألفاظ ، متفقات المعانى . حتى يصح لنا أن
نفسر الحروف السبعة بوجوه ولغات سبع ؟ .

والجواب : أننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم ، وإنما قلنا : هذا هو معنى
الحديث . ثم جدت ظروف وضرورات اضطرت الأمة بسببها أن تقتصر
على حرف واحد منها ، وهى حرف قريش .

وإنما لم أقل فى الجواب . إن فى القرآن ما يقرأ على سبعة أوجه مثل :
« وعبد الطاغوت ، ولا تقل لهما : أف ، و « جبريل ، ، لأن الاختلاف
فى هذه اختلاف قراءات : وهو أداء اللفظ الواحد بطرق مختلفة
الأداء ، وليس اختلاف حروف ، أى ألفاظ وكلمات على ما بينا فى المذهب
المختار ، والقراءات الثابتة على اختلافها وتنوعها ترجع إلى حرف واحد ،
وهو حرف قريش ، الذى جمع عثمان عليه المصاحف .

الشبهة الثانية : إن قيل : أين ذهبت الأحرف السبعة الباقية مع أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها ، وأمرهم بقراءتها ، وأنزلهن الله من عنده
على نبيه ؟ أنسخت هذه الأحرف الستة الباقية فرفعت ؟ وإذا كان . . فما
الدليل على نسخها ورفعها ؟ .

(١) اعتمدت فى هذا غالباً على ما ذكره العلامة ابن جرير ، فى تفسيره ، مع

والجواب : أن الأحرف الستة الباقية لم تنسخ ولم ترفع ، ولم تضيعها الأمة وإنما الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت في حفظه وقراءته بأى تلك الأحرف السبعة شامت ، كما أمرت إذا حثت في يمين وهى موسرة : أن تكفر بأى الكفارات الثلاث شامت : إما بعق ، أو إطعام ، أو كسوة ، فلو أجمعت الأمة جميعها على التفسير بواحدة من الكفارات الثلاث ، دون حظر ما عداها كانت مصيبة ؛ مؤدية في ذلك الواجب عليها من حق الله ، ووصفت بأنها مطيعة لاعاصية فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته ، وخيرت في قراءته بأى الأحرف السبعة شامت ، فرأت لعله من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد - قراءته بحرف واحد ، وترك ما عداه .

فإن قيل ، فما العلة ؟ قلنا : هى ما قدمنا من أن الأحرف السبعة ، التى جعلت للتيسير ، ورفع الحرج أضحت سببا للنزاع والاختلاف ، بل والتفكير على نحو ما فعلنا آنفا .

الشبهة الثالثة :

إن قيل : كيف يلثم هذا الرأى الذى اخترتموه فى تأويل الحديث مع ما أثر عن عثمان - رضى الله عنه - أنه قال للرهط القرشيين الذين كانوا مع زيد بن ثابت ، فى نسخ المصاحف : « ما اختلفتم فيه - أتم وزيد - فاكتبوه بلسان قريش ! فإنما نزل بلسانهم » .

قلنا فى الجواب : إن قول عثمان محمول على ابتداء نزوله ، وهو الحرف الأول الذى نزل به جبريل ، وطلب النبى ﷺ الزيادة عليه - ، فقد نزل جبريل بهذا الحرف أولا ، ثم كان يأتى بالحروف فى عرضاته القرآن مع النبى كل عام فى رمضان ، فكان ينزل الله - سبحانه - فى هذه العرضات ما شاء أن ينزل من ألفاظ اللغات الأخرى ، التى تدعو إليها الحاجة ، ثم كان أن استقر الأمر آخر ابعذوال الضرورة على هذا الحرف ، وهو لغة قريش .

أو يكون مراد عثمان : أن معظمه وأكشره نزل بلغة قريش .

نقل الإمام «أبو شامة» عن بعض الشيوخ أنه قال : « أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء . ثم أبيع للعرب أن يقرءوه بلغاتهم ، التي جرت عاداتهم باستعمالها ، على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغة إلى أخرى للشقة . ولما كان فيهم من الحمية واطلاب تسهيل فهم المراد . كل ذلك مع اتفاق المعنى . وعلى هذا .. يتنزل اختلافهم في القراءة كما تقدم ، وتصويب رسول الله كلاً منهم » .

قال الحافظ « ابن حجر » معلقاً : « وتمة ذلك أن يقال : إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي ، أي أن كل واحد يغير الكلمة بمرادها في لغته ، بل المراعى في ذلك السماع من النبي - ﷺ - ويشير إلى ذلك قول كل من عمر وهشام في حديث الباب : « أقر أنى النبي - ﷺ - » (١) .

الشبهة الرابعة :

قالوا : لو كانت الحروف السبعة هي لغات سبع من لغات العرب المشهورة ، فكيف اختلفت قراءة « عمر بن الخطاب » ، وهشام بن حكيم - رضى الله عنهما - وهما قرشيان ، ولغتهما واحدة ؟

والجواب : أن العبرة في القراءة بالحروف هو السماع من النبي - ﷺ - لا أن يقرأ كل واحد بهواه ، على حسب ما يتشبه له من لغته ، وإنكار بعضهم على الآخر لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس من لغته فأنكره ، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقره النبي - ﷺ - وجائز جداً : أن يكون أحدهما سمع من النبي - ﷺ - حرفاً بغير لغة قريش لحفظه ، وسمع الآخر حرفاً بلغة قريش لحفظه ، وثبت كل واحد منهما على ما سمع من النبي ، فنم اختلافهما مع كونهما قرشين . وكون بعض الناس يعرف غير لغته الأصلية ،

ويتسهل له ، وينطلق بها كما ينطق بها أهلها أمر مشاهد معروف ، وهل قال أحد : إن كل واحد من العرب كان يلتزم القرآن بلغته دون غيرها .. حتى يستشكل ذلك ؟؟

ولو كان الأمر كذلك لقال عمر لهشام : لقد قرأت بغير لغة قومك ، ولكنه لم يحدث ، وإنما أنكرك عليه حروفاً لم يقرئه إياها رسول الله - ﷺ -
الشبهة الخامسة :

كيف تقولون : إن الحرف الذي استقر عليه الأمر آخراً هو حرف قريش مع أن في القرآن كثيراً من الكلمات بغير لغة قريش مثل : «الارائك» فقد قيل : لأنها بلغة اليمن . ومثل : « أفلم ييأس الذين آمنوا » أى : أفلم يعلموا بلغة هوازن . و « مرانماً متفسحاً بلغة هذيل .. إلى غير ذلك من الكلمات . وقد ذكر «السيوطي» في الإتيان في النوع السادس والثلاثين الكثير من ذلك (١) ؟
والجواب عن هذا :

(أ) أن ماورد من هذه الألفاظ ، وإن كانت في الأصل من غير لغة قريش لكن قريشاً أخذتها واستعملتها حتى صارت قرشية بالاستعمال . ومعروف أن مركز قريش هيأ لها أن تأخذ من اللغات الأخرى أعنيها وأسلسها .

(ب) أن هذه الكلمات التي ذكرتموها مما توافقت فيه لغة قريش وغيرها إلا أنها عند غير قريش أشهر وأعرف ، وتوافق اللغات في بعض الكلمات أمر غير مستنكر ولا مستغرب . وأياً كان الحال فوجود هذه الكلمات في القرآن لا ينافي كون القرآن بلغة قريش .

ومثل هذه الكلمات التي جاءت في القرآن ، وقيل إنها غير عربية - في الأصل كالشكاة . والفسطاط . واستبرق ونحوها ، فإنها : إذا ما صارت

عربية بالاستعمال أو أنها مما توافقت فيها لغة العرب وغيرهم ، ولم يطلعن وجودها في كون القرآن عربياً مبيناً .

الشبهة السادسة :

إن قيل : ما هي اللغات السبعة التي نزل بها القرآن ؟ ومن أي السن العرب كانت ؟

قلنا : لا حاجة بنا اليوم إلى معرفة الألسن الستة الأخرى ، ولا إلى القراءة بها بعد أن اندرست وعفت آثارها ، وبحسبنا هذا اللسان الباقي وهو لغة قريش وقد قيل : إن خمسة منها بلسان العجم من هوازن ، واثنتين لقريش وخزاعة ، روى ذلك عن ابن عباس ؛ إلا أنه لا يصح عنه (١)

وكل ما قيل في تعيين اللغات السبع لم يثبت بطريق صحيح .
وقد اختلف في تعيينها اختلافاً كثيراً ، ومن أراد معرفة ذلك فليرجع إلى الإتيان (٢) .

والذي نراه : أنه كان نزل على سبع لغات من لغات العرب المشهورة وأفصحها ، وليس في البحث عن تحديدها كبير عناء ، مادام أن الحرف الباقي وهو حرف قريش أفصحها وأعذبها وأسلسها .

(١) تفصير الطبري ١٣ ص ٢٣

(٢) الإتيان ١٣ ص ٤٧/٤٩

منزلة اللغة القرشية بين لغات العرب

ولكى تزداد يقيناً بأن قريشاً أفصح العرب ، ولسانهم أفصح الألسنة وأعذبها ننقل لك بعض مقاله الأئمة في هذا المقام :

قال «ابن فارس» في فقه اللغة ، عن اسماعيل بن أبي عبيد الله . قال (١) :
«أجمع علماءنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم
ومحالمهم : أن قريشاً أفصح العرب السنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى
اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا ، ﷺ فجعل قريشاً
قطان حرمه . وولاه بيته . فكانت وفود العرب من حججها وغـ . يرم
يفدون إلى مكة للحج . ويتحاضرون إلى قريش في أمورهم . وكانت قريش
تعلمهم مناسكهم . وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم
وتسميتها أهل الله ؛ لأنهم الصريح من ولد اسماعيل - عليه السلام - لم
تشبههم شائبة . ولم تنقلهم عن مناسبتهم ناقلة . فضيلة من الله - جل ثناؤه -
لهم وتشريفها . إذ جعلهم رهط بيته الأئمة . وعترته الصالحين .

وكانت قريش - مع فصاحتها . وحسن لغاتها . ورقة السنن - إذا تنهم
الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم . وأصنى كلامهم
فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها . فصاروا بذلك
أفصح العرب . ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم . ولا معجرفة قيس . ولا
كشكشة أسد . ولا كسكسة ربيعة (٢) . ولا الكسرة تسمعه من أسدوقير . مثل
«تعلون» - بكسر التاء - و «نعم» - بكسر النون - ومثل : «شعير وبعير» -
بكسر الأول منها - .

[١] التبيان ص ٥٢ .

[٢] عننة تميم أبدلهم العين من الهمزة ، والمعجرفة جفوة في الكلام والكشكشة
أبدال العين من كاف الخطاب الموث كعلايش في «عليك» . والكسكسة الحاقفم
بكاف الموث سيناً عند الوقف يقولون في بك «بكر» .

وقال الفراء :

كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ؛ وتخرج البيت في الجاهلية
وقريش يسمعون لغات العرب . فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا
أفصح العرب . وخلت لغتهم من مستبشع اللغات . ومستبشع الألفاظ .

وقال أبو نصر الفارابي . في أول كتابه المسمى « الألفاظ والحروف

كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح . وأسهلها على اللسان عند
النطق وأحسنها مسموعا . وأبينها إيانة عما في النفس . والذين عنهم نقلت
العريية . وبهم اقتدى . وعندهم أخذ اللسان من بين قبائل العرب هم : قيس
وتميم . وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم
اتسكل في الغريب . وفي الإعراب والتصريف . ثم هزبل وبعض كنانة .
وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة : فإنه لم يؤخذ عن حصري قط ، ولا عن سكان البراري ممن
كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ
لا من لحم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة
وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية
ولا من تغلب : فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر ،
لمجاورتهم للقيط والفرس ، ولا من عبد قيس ، وأزد عمان ، لأنهم كانوا
بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة
ولا من بني حنيفة ، وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم
تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا
اللغة صادفهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب - قد خالطوا غيرهم من الأمم
وفسدت ألسنتهم .

والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء ، وأثبتها فى كتاب (١)
فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار
العرب .

القول الرابع

إن الأحرف السبعة هى لغات سبع متفرقة فى القرآن كله . وهذه السبع
قيل : إنها من لغات العرب كلها . وقيل . من لغات مصر .

وليس معنى هذا القول : أن يكون فى المعنى الواحد سبع لغات بألفاظ
مختلفة كالرأى السابق ، بل هذه اللغات متفرقة فى القرآن كله ، فبعضه بلغة
وبعضه بلغة أخرى ، وهكذا . . . إلى سبع ، فيكون المنزل لفظا واحدا ،
لمعنى واحد من لغات متفرقة ، وقد استند القائلون بهذا رأى ما يأتى :

١ - وجود ألفاظ فى القرآن المقروه اليوم بغير لغة قريش .

٢ - ما روى عن ابن عباس ، وعمر - رضى الله عنهما - من عدم
فهمهما لبعض الكلمات القرآنية ، فقد خفى على ابن عباس معنى قوله تعالى
« فاطر السموات والأرض » حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال
أحدهما : أنا فطرتها . أى ابتدأتها ، فعلم معناها ، وكذلك خفى عليه معنى :
« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » حتى سمع بنت
ذى يزن تقول : تعالى أفاثحك . تريد أفاضيك وأخاضحك . فعلم معناها .
وكذلك خفى على الفاروق معنى (تخوف) فى قوله تعالى : « أو يأخذهم
على تخوف » . والمراد بـ (الأب) فى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » مع
أنهما قرشيان . فدل ذلك على أن القرآن فيه ألفاظ بغير لغة قريش .

وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام . وثعلب . وأبو حاتم السجستاني واختاره ابن عطية (١) وقال الأزهرى فى (التهذيب) : إنه المختار . وقد ذكر (السيوطى) : أن الزهرى عن قال بهذا : وهو غير صحيح . فظاهر مقالة الزهرى المروية فى صحيح مسلم تشهد لاختياره للقول السابق الذى رجحناه (٢) .

واليك ما قال أبو عبيد فى تحرير هذا القول : « ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات . بل اللغات السبع متفرقة فيه . فبعض بلغة قريش : وبعض بلغة هذيل . وبعض بلغة هوازن . وبعض بلغة اليمن وغيرهم . وبعض اللغات أسعد به من بعض . وأكثر نصيبا » .

وبهذا التحرير يتبين لنا فرق ما بين هذا القول والقول السابق .

وقد اختلف القائلون بهذا فى بيان اللغات السبع . فقيل : أنها متخيرة من لغات أحياء العرب كلها ، وقيل : كانت فى (مضر) خاصة ، وقيل : فى قريش قال الحافظ فى الفتح : « قيل : نزل بلغة مضر خاصة ، لقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر . وعين بعضهم - فيما حكاه ابن عبد البر - : السبع من مضر إنهم : هذيل ، وكنانة . وقيس . وضبة . وتيم الرباب بن خزيمه . وقريش . فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات .

وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش . وهذيل . وتيم الرباب والأزد . وربيعة . وهوازن . وسعد بن بكر .

واستنكره ابن قتيبة واحتج بقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فعلى هذا تكون اللغات السبع فى بطون قريش وبذلك جزم أبو على الأهوازي . .

(١) الفتح ٩ ص ٢٢ (٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ١٠١، ١٠٢

وهكذا نرى أن بعض العلماء يرى : أن اللغات السبع في العرب كلها .
وقيل : في مضر وقيل : في قريش . وأنهم اختلفوا في تعيين السبعة . مما يدل
على أن ليس في هذا نقل صحيح تطمئن إليه النفس وما احتج به (ابن
قتيبة) لقوله غير مسلم . فقومه هم العرب لا قريش خاصة والله قال : إنا
أنزلناه قرآنا عربياً ، ولم يقل . قرشياً .

وهذا القول - الرابع - مرود بما يأتي .

١ - أن هذا القول بعيد غاية البعد عن الروايات التي ذكرناها في صدر
البحث . كما أنه لا يتفق هو والأصول التي استنتجناها منها . لأنه يقتضى أن
القرآن أبعاض . كل بعض بلغة . وهذا لا يتأتى فيه رفع الحرج والمشقة .
والتيسير والتسهيل . إذ كل قبيلة مكلفة شرعاً بقراءة القرآن جميعه . وفهمه
والعمل به . فهو لا يحقق الغرض الذى لأجله نزل القرآن على سبعة
أحرف .

٢ - وأيضاً . فلو كانت الحروف السبعة على ما ذكرها ما تأتى
اختلاف بين الصحابة فى الألفاظ على ما جاءت به الروايات من اختلاف
عمر . وهشام وأبى بن كعب وابن مسعود وعمر بن العاص مع آخرين .
وكيف يتأتى اختلاف إذا كان المنزل لفظاً واحداً . والمقروء واحداً ؟
فهذا القول يلزم منه رد كل الروايات الصحيحة الواردة فى هذا الباب ،
ودون ذلك خرط اللقطة وصعود السماء ؟

٣ - ما استند إليه القائلون به من أن القرآن يشتمل على ألفاظ غير لغة
قريش لا يصلح أن يكون دليلاً . لأننا كما قلنا سابقاً إن هذه الكلمات مما خيرتها
قريش من لغات غيرها . واستعملتها . فصارت بالاستعمال قرشية . أو أن
هذه الألفاظ مما توافقت فيها لغة قريش ولغة غيرهم .

٤ - ما امتندوا إليه من عدم فهم ابن عباس . وعمر لبعض الألفاظ القرآنية لا يصلح دليلاً لهم أيضاً . إذ اللغة واسعة وليس بلازم أن يحيط الإنسان بكل معاني لغته وألفاظها . وقد قال الإمام الشافعي في « الرسالة » ، « لا يحيط باللغة إلا نبي (١) » ،

على أننا قد ذكرنا . أن في القرآن ألفاظاً كانت في الأصل غير قرشية . ثم صارت قرشية بالاستعمال فجاءت جداً أن تكون بعض الألفاظ ليست كثيرة الاستعمال عند قریش . وليست معروفة لبعضهم فمن ثم خفيت على بعضهم دون بعض

القول الخامس

إن المراد بالسبعة الأحرف : الوجوه التي يرجع إليها اختلاف القراءات وقد ورد في هذا آراء متقاربة لأربعة من العلماء . وسنعرض هذه الآراء الأربعة ثم نناقشها مرة ، إذ جميعها تجمعها رابطة قوية ، ووشيجه متشابهة

قال ابن قتيبة في أول تفسير « مشكل القرآن » ، (٢)

« وقد تدبرت وجوه الاختلاف في القراءات فوجدتها سبعة :

الأول : ما تغير حركته . ولا يزول معناه ولا صورته مثل : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » بفتح الراء وضمها (٣)

الثاني : ما يتغير بتغير الفعل مثل قوله تعالى : ربنا بعد بين أسفارنا ،

(١) الاتقان ج ١ ص ٢٦

(٢) الاتقان ج ١ ص ٤٦ فتح الباري ج ٩ ص ٢٣ .

(٣) الأول على أر لا لامية . والثاني على أنها نافية

« وربنا باعد بين أسفارنا ، الأول بصيغة الطلب . والثاني بصيغة الماضي .
الثالث ؛ ما يتغير بنقط بعض الحروف المهملة مثل : « ثم نشرها .. ثم
نشرها ، الأولى بالراء المهملة والثاني بالزاي .

الرابع ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج من الآخر مثل : « طلع
منضود ، و « طلع منضود .

الخامس : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق ،
« وجاءت سكرة الحق بالموت ، ،

السادس : ما يتغير بالزيادة والنقصان مثل : « وما خلق الذكر والأنثى ،
« والذكر والأنثى ،

السابع : ما يتغير بإبدال كلمة بكلمة ترادفها مثل : « كالعهن المنفوش ،
« كالصوف المنفوش ، .

قال ابن قتيبة : وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين
على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال ابن الجزري (١) : وهو حسن إلا أنه قد فاتته - كما فات غيره - أكثر
أصول القراءات كالإدغام والإظهار ، والإخفاء والإمالة والتفخيم ، والمد
والقصر وغير ذلك مما هو من اختلاف القراءات . وتغاير الألفاظ . وقد
اختلف فيه أئمة القراء . وقد كانوا يترافعون بدون ذلك إلى النبي - صلى الله
عليه وسلم - ويرد بعضهم على بعض .

« ولكن يمكن أن يكون هذا من القسم الأول . فيشمل الأوجه السبعة
على ما قررناه ،

القول السادس

ما قاله في بيان وجود الاختلاف الإمام ابو الفضل الرازى في كتاب
« اللوامح » .

قال . « الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف .

الأول . اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع . او تذكير وتأنيث .

الثانى . اختلاف تصريف الأفعال من ماض . ومضارع وأمر .

الثالث . وجوه الإعراب :

الرابع ، النقص والزيادة

الخامس . التقديم والتأخير .

السادس . الإبدال

السابع : اختلاف اللغات كالفتح والإمالة . والترقيق والتفخيم والإدغام
والإظهار ونحو ذلك

قال الحافظ في الفتح . وقد أخذ - الرازى - كلام ابن قتيبة ونقحه .

القول السابع

قول القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى . قال : (١) « تدبرت
الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعة :

الأولى : ما تغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل : « هن
أظهر لكم » - بضم الراء وفتحها - .

الثانى : ما لا تغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل : « ربنا باعد
بين أسفارنا » بإسكان الدال وفتحها .

[١] تفسير القرطبى ج ١ ص ٥٥ . فضائل القرآن لابن كثير ص ٣٦

الثالث : ما تتغير صورته ومعناه باختلاف الحروف مثل قوله «ننشرها»
و «ننشرها» .

الرابع : ما تتغير صورته ويبقى معناه مثل : «العين المنفوش» وكالصوف
المنفوش» (١) .

الخامس : ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وطلح منضود » و « طلع
منضود » (٢) .

السادس : التقديم والتأخير كقوله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق
و جاءت سكرة الحق بالموت » .

السابع : الزيادة والنقصان مثل قوله : « تسع وتسعون نعجة أنثى » و
« تسع وتسعون نعجة » .

القول الثامن

قال ابن الجزرى : قد تتبعت صحيح القراءات ، وشاذها ، وضعيفها
ومنكرها ، فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه . لا يخرج عنها . وذلك
إما باختلاف فى الحركات . بلا تغير فى المعنى والصورة . نحو : « فرح »
بفتح القاف وضمها .

(٢) أو فى الحركات بتغير فى المعنى فقط . نحو : « فتلقى آدم من ربه
كلمات ، برفع كلمات ونصبها . أى على أنها فاعل . أو مفعول .

(٣) أو فى الحروف بتغير فى المعنى لا الصورة نحو : « هنالك تبلوكل
نفس ما أسلفت ، قرىء : « تبلو » و « تلو » وهما سبعيتان .

(٤) أو عكس ذلك : أى يتغير فى الصورة لا المعنى نحو : « الصراط »

(١) القراءة بلفظ الصوف غير مقواترة .

(٢) قراءة مطلع : طلع . غاظة لا يثبت بها القرآن . وتخالف رسم المصحف
ربعض ما مثل به من هذا القبيل .

و « السراط »

(٥) أو بتغييرها : أى المعنى والصورة نحو : « فاسموا إلى ذكر الله »
وقرى « فامضوا » .

(٦) وإما بالتقديم والتأخير نحو : « فيقتلون ويقتلون ، الأولى بمنتهج الياء
على البناء للفاعل . والثانية بضم الياء للمفعول . وبالمكس .

(٧) وإما بالزيادة والنقصان نحو : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ،
وقرى « وأوصى » .

فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها : قال : وأما نحو اختلاف
الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتفخيم والترقيق والنقل ؛ فهذا ليس
من الاختلاف الذى يتنوع فيه فى اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة
فى أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً ، وإئن فرض فيكون
من الوجه الأول الذى لا تتغير فيه الصورة والمعنى ،

وقد رجح هذا القول بعض كبار العلماء ، وأئمة الفتوى ، وهو المخفور
له الشيخ بخت المطيعى ، وسوى بينه وبين مذهب ابن قتيبه . بل حاول
جاهداً أن يجمع معظم الأقوال التى ذكرها « السيوطى » فى الاتقان ،
وذكرناها هنا - إليه (١) وهو تكاف لا نوافقه عليه .

كما رجح هذا القول أيضاً بعض الباحثين ، وأرجع إليه الأقوال الثلاثة
الأخرى (٢) ، وبين أنها جميعها ترجع إلى رأى واحد .

ورجح رأى « الرازى » ، بعض أجلة العلماء (٣) ، وبالغ فى الانتصار له ،
وبين ما بين رأى الرازى وغيره من الآراء الثلاثة من فروق .

(١) الكلمات الحسان ص ٧٧ .

(٢) القراءات واللهجات ص ١٣ وما بعدها .

(٣) مناهل العرفان ص ١٠٢ .

ولكني مع هذا . . . لم أركن إلى واحد من هذه الآراء ، ولا رأى أنها المقصودة بالحديث وأضع بين يدي القارىء هذه النقود .

نقد هذه الآراء

يمكننا إجمال النقد فيما يأتي :

١ - إن القائلين بهذا الرأي - على اختلاف أقوالهم - لم يذكر واحد واحد منهم دليلا ، إلا أنه تتبع وجوه الاختلاف في القراءة فوجدها لا تخرج عن سبع .

وهذا التبع لا يصلح أن يكون دليلا على أن المراد بالأحرف السبعة : الوجوه التي يرجع إليها اختلاف القراءات .

ولا يقال : كيف لا يعتبر التبع - وهو لا يخرج عن كونه استقراراً ؟

لأننا نقول : إنه استقرار ناقص ، بدليل أن طريق تتبع « ابن الجزرى » مخالف لطريق تتبع « ابن قتيبة » ، و « ابن الطيب » ، و « الرازى » . و ليس أدل على ذلك من أن الرازى ذكر الوجه السابع ، ولم يذكره واحد من الثلاثة الآخرين ، بل برره ابن الجزرى ، إهماله ، مما يدل على أنه يمكن الزيادة على سبع ، وأن الوجه الأول عند « الرازى » ؛ والثاني والسادس ترجع ثلاثها إلى الوجه الخامس عند « ابن الجزرى » (١) ، مما يدل على أن هذه الوجوه يمكن أن يتداخل بعضها في بعض ، وأن تعيينها إنما هو بطريق الاتفاق لا الاستقرار الصحيح .

وعلى هذا يكون الحصر في الوجوه السبعة غير مجزوم به ، ولا متعين ، فهو مبنى على الظن والتخمين .

٢ - إن الغرض من الأحرف السبعة إنما هو رفع الحرج والمفارقة عن

(١) القراءات واللهجات ص ١٩ .

الامة ، والتيسير والتسهيل عليها ، والمشقة غير ظاهرة في إبدال الفعل المبني للعلوم بالفعل المبني للجهول ، أو العكس ، ولا في إبدال فتحة بضمة ، أو حرف بآخر ، أو تقديم كلمة وتأخيرها ، أو زيادة كلمة أو نقصانها ، فإن القراءة بأحدهما دون الآخر لا توجب مشقة يسأل النبي - صلى الله عليه - منها المعافاة ، وأن أمته لا تطيق ذلك ، ويراجع جبريل مراراً . ويطلب التيسير فيجاب بإبدال حركة بأخرى . أو تقدم كلمة وتأخيرها . فالحق : أنه مستبعد أن يكون هذا هو المراد بالاحرف السبعة .

٣ - - إن أصحاب هذه الأقوال اشتبه عليهم القراءات بالاحرف ، فالقراءات غير الاحرف لا محالة وان كانت مندرجة تحتها . وراجعة إليها .

القول التاسع

إن المراد بالاحرف السبعة سبع قراءات .

واننا لنناقش هؤلاء .. فنقول لهم : ان أردتم أن كل كلمة تقرأ بقراءات سبع . قلنا لكم : ان ذلك نادر وقليل جداً .

وان أردتم ان بعض الكلمات، تقرأ بوجه . وبعضها بوجهين . وبعضها بثلاث .. وهكذا الى سبع . فذلك مردود أيضاً بما يأتي : -

١ - إن بعض الكلمات تقرأ على أكثر من سبعة أوجه؛ قال في «منار الهدى» في الوقف والابتداء : « قد جاء في القرآن ما قرئ بسبعة أوجه ، وعشرة أوجه . كالك يوم الدين ، . وفي البحر : أن في قوله : « عبد الطاغوت ، اثنتين وعشرين قراءة . وفي «أف» لغات أوصلها الرمانى ، إلى سبع وثلاثين لغة .

وقد أجاب الحافظ ابن حجر : « بأن غالب ذلك ؛ إما لأنه لا يثبت الزيادة ؛ وإما أن يكون من قبيل الاختلاف في كيفية الأداء كما في المد والإمالة ونحوها .

والحق : إنه جواب لا يدفع الإشكال . لأن دعوى : أنه لا يثبت الزيادة على السبع مكابرة بعد ما نقلناه عن أئمة القراء ، وكونه من قبيل الاختلاف في الأداء لا يمنع أنه من القراءات التي تثبت بها الزيادة على سبع ، إذ لا فرق بين ما ذكر وبين الاختلاف في « عبد الطاغوت » . « ولا تقل لهما أف ، فجعل هذا الاختلاف من القراءات دون الاختلاف في الأداء كالمدة والإمالة تحكم ظاهر (١) .

٢ - - إن هذا القول نمى على أن القراءات هي الأحرف . والحق :- كما قلناه آنفاً - أنها ترجع إليها ، وليست ذاتها ، ولا حقيقتها .

الأحرف السبعة ليست القراءات السبع

وأشد من هذا القول بطلانا من يزعم : أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع المشهورة . وهو غاية الجهل . قال أبو شامة . «ظن قوم : أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث . وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل » .

ولذلك لام كثير من العلماء « ابن مجاهد » (٢) على اقتضائه على السبعة . لأنه أوقع من لا يعلم في هذا الوهم . قال أبو العباس بن عمار : لقد فعل مسجع هذه السبعة ما لا ينبغي . فأشكل الأمر على العامة . بإيهامه كل من قل نظره . أن هذه القراءات هي المذكورة في الحديث . وليسته إذا اقتصر نقص عن السبعة . أو زاد ليزيل الشبهة .

وقال أبو بكر بن العربي : ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر . وشيبة . والأعشى ونحوهم . فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم .

(١) الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن ص ٥٢ .

(٢) هو أبو بكر أحمد بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

وكذا قال غير واحد منهم : مكى بن أبى طالب ، وأبو العلاء الهمداني .
وغيرهم من أئمة القراء (١) .

وقال القرطبي فى تفسيره (٢) . قال كثير من علمائنا كالأودى . وابن
أبى صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة
ليست هى الأحرف السبعة . التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها . وإنما
هى راجعة إلى حرف واحد من هذه السبعة . وهو الذى جمع عليه عثمان
المصحف . ذكره ابن النحاس وغيره .

وهكذا يتبين لنا : أن القراءات الثابتة المتواترة ليست منحصرة فى
السبع المشهورة وإنه لا يجوز بحال من الأحوال أن تكون مرادة من الحديث
وكيف يمكن أن تكون القراءات السبع المشهورة هى المرادة من الحديث ..
وهى إنما عرف كونها سبعاً من قبل أن رواها المشهورين سبعة . وهذا
شئ علم بعد زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - بثلاثة فرون تقريباً . على
يد ، ابن مجاهد ، ؟ فغير معقول أن يخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بنزول
القرآن على حروف لم تعرف . ولم تشتهر إلا بعده بقرون .
وقد علمت : أن حصر القراءات الثابتة فى إنما كان أمراً اتفاقياً
فحسب .

القول العاشر

ذهب البعض إلى أن المراد بالأحرف السبعة : سبعة أصناف من
الكلام . وقد اختلف القائلون به فى تعيين هذه السبعة . فقليل . لأنها أمر
ونهى ، وحلال . وحرام . ومحكم . ومتشابه . وأمثال .

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٢٥ .

(٢) ج ١ ص ٤٦ .

واحتجوا بما أخرجه الحاكم ، البيهقي ، عن ابن مسعود ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر وآمر وحلال ، حرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنّا به كل من عند ربنا . »

وهذا الرأى مردود من جهة الرواية والدراية . والعقل بما يأتى .

١ - أن هذا الحديث غير ثابت ، فلا يصح الاحتجاج به . قال الإمام أبو عمر بن البر : « هذا حديث لا يثبت ، لأنه من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ، ولم يلق ابن مسعود . »

وقال الحافظ فى « الفتح » (١) : « وقد صحح الحديث المذكور « ابن حبان ، والحاكم ، وفى تصحيحه نظر ، لانقطاعه بين أبي سلمة وابن مسعود . »
ومعروف : أن المنقطع من قبيل الضعيف ، فلا يحتج به فى مثل هذا .

٢ - لو سلمنا جدلا أن الحديث ثابت ، فليس تأويله كما قال هؤلاء ، وإنما له تأويلات آخر :

(١) وذلك إما أن يكون قوله فى الحديث : زاجر ، وآمر . . الخ استئناف كلام « ولنس بياناً للأحرف . قال أبو العلاء الهمداني ، وأبو على الأخوانى : « إن قوله : زاجر ، وآمر استئناف كلام آخر ، أى هو زاجر - القرآن - « ولم يرد به تفسير الأحرف السبعة . وإنما توهم ذلك من توهمه من جهة الاتفاق فى العدد .

ويؤيده أنه جاء فى بعض لهرقه : زاجراً ، وآمراً - بالنصب - أى نزل على هذه الصفة من الأبواب السبعة . »

(ب) وإما أن تكون بياناً للأبواب السبعة لا للأحرف السبعة . قال العلامة أبو شامة . « يحتمل أن يكون التفسير المذكور للأبواب لا للأحرف السبعة . . أى هى سبعة أبواب من أبواب الكلام وأقسامه ، وأنزله على هذه الأصناف . لم يقتصر منها على صنف واحد كغيره من الكتب . وعلى هذه التأويلات لا يكون الحديث صالحاً للاحتجاج به على ما ذهب إليه هؤلاء .

(ج) وقال البيهقي : « المراد بالسبعة الأحرف هنا : الأنواع التي نزل عليها والمراد بها في تلك الأحاديث : اللغات التي يقرأ بها » . وكذلك قال القاضي « أبو بكر الباقلاني » .

٣ - هذه الأنواع لا تصلح أن تكون تفسيراً للأحرف السبعة لأن الغرض منها كان التوسعة على الأمة والتيسير بالتغيير في القراءة بأى حرف منها . وما ذكره من الأنواع لا يتأتى فيه البتة التوسعة والتيسير لأن التوسعة لم تقع في تحليل حرام ولا في تحريم حلال ولا في إبدال أمر بنهى ولا نهى بأمر ولا بحكم بمتشابهه ولا عكسه . . وهكذا .

فكل هذا مما أجمع العلماء قاطبة على أنه لا يجوز قال ابن عطية (١) : « هذا القول ضعيف لأن هذه لا تسمى أحرفاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال ولا تحليل حرام ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة » .

ولعلك على ذكر من مقالة الإمام الزهري التي ذكرناها في صدر البحث من حديث مسلم .

٤ - هذا القول يلزم منه رد كل الأحاديث الصحيحة التي قدمناها في صدر البحث والتي تدل على اختلاف الصحابة ، ورفع الأمر إلى

الرسول ، وإقرار كل واحد على قراءته وحرفه ، إذ مستحيل أن يقر النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ الأمر نهيًا ، أو النهى أمرًا ، أو قرأ بدل الأمثال أحكامًا ، ومن قرأ بدل الأحكام أمثالا . وهكذا . وهو أمر نزه عنه أى عاقل . فضلا عن أعقل العقلاء .

ورد كل هذه الروايات الصحيحة الموثوق بها لاجل رواية ضعيفة ليس من قواعد البحث العلمى الصحيح فى شيء : ولعل فى حمل هذا الحديث على ما ذهب إليه البيهقى . والقاضى الباقلانى ما يربأ بالقائلين بهذا القول عن هذه السقطة التى لا لعالم منها^(١) وهو ما يليق بحالم كعقلاء . فإذا كان هذا مقصدهم فقد كفىنا الله وإياهم شر الجدال والنزاع .

أقوال أخرى

وهناك أقوال أخرى فى بيان الاصناف السبعة وإليك بعضها (٧) :
وقيل : وعد ووعد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج .
وقيل : محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص
وقيل إظهار الربوبية : وإثبات الوجدانية وتعظيم الألوهية والتعبد
لله ومجانبة الإشراك والترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب .

وقيل لأنها فى أسماء الرب مثل : الغفور الرحيم ، السميع العليم ، العليم الحكيم وهكذا يعنى فى إبدال بعضها ببعض .
وكلها أقوال باطلة وليس عليها إثارة من علم أو برهان ومردودة بما رددنا به القول العاشر .

(١) يقال : لا لعاً لفلان أى لا إقالة لعثرته :

(٢) ومن أراد استقصاء هذه الآراء الزائفة فليرجع إلى الاتقان - ١

وإن لنا لوقفه عند هذا الرأى الأخير ، المجوز لتبديل فواصل الآى بعضها ببعض مما هو من صفات الرب ، فإن هذا خلاف الإجماع ، ويؤدى إلى ذهاب بعض الإعجاز ، فإن من أعجاز القرآن . هذا التناسب والترابط القوى بين الآية وخاتمتها ، فلو جاز إبدال خاتمة بأخرى لعاد بالخلل على إعجاز القرآن .

قال القاضى عياض - نقلا عن المازرى - قال : « وقول من قال . المراد خواتيم الآى فيجعل مكان « غفور رحيم ، سميع بصير ، فاسد أيضا للإجماع على منع تغيير القرآن للناس (١) .

إزالة شبهة في هذا المقام :

فإن قيل : فما تقول فيما ذكره « السيوطى ، فى الإتيان (٢) . حيث قال « وعند أبى داود (٣) عن أبى قلت . سميعا عليا ، عزيزا حكيما مالم تخلط آية عذاب برحمة ، أو رحمة بعذاب .

وعند أحمد من حديث أبى هريرة : « أنزل القرآن على سبعة أحرف . عليا حكيما ، غفورا رحيا ، وعنده أيضا من حديث عمر : « بأن القرآن

(١) شرح الزورى على صحيح مسلم ٦٣ ص ١٠٠

(٢) الاتقان ١٣ ص ٤٧

(٣) فى سنن أبى داود باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، قال : حدثنا أبو الوليد الطيالسى أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن يحيى بن يعمر ، عن سليمان بن صرد الخزاز ، عن أبى بن كعب قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - يا أبى إنى أقرئت القرآن - فقيل لى - . على حرف أو حرفين فقال الملك الذى معنى . قل على حرفين . قلت . على حرفين . فقيل لى . على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذى معنى . على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف . ثم قال . ليس منها إلا شافى كاف . إن قلت . سميعا عليا ، عزيزا حكيما مالم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب . .

كله صواب ، ما لم يجعل مغفرة عذاباً ، وعذاباً مغفرة ، قال ، أسانيدھا جیاد .

قلت : علی فرض ثبوت الروایات قد تناول العلماء هذه الأحادیث علی غیر ظاهرها . لوجود الصارف لها ، وهو ما قدمناه من الإجماع علی عدم جواز ذلك .

قال الإمام ابن عبد البر - فی روایة أنى داود - : إنما أراد ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن علیها . أنها معان متفق مفهوما ، مختلف مسموعاً^(١) ، لا يكون فی شيء منها معنى وضده ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ینفیه ویضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده .

وقال القاضي أبو بكر الباقلانی : وهذه أيضا سبعة غیر السبعة التي هي وجوه وطرائق ، وغیر السبعة التي هي قراءات ووسع فيها ، وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى . وإذا ثبتت هذه الروایة - روایة أنى - حمل علی أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن یبدلوا أسماء الله فی موضع بغيره بما یوافق معناه أو يخالفه^(٢) . وهو تأویل كما ترى .

وشكك فی صحتها بعض العلماء فقال صاحب التبیان^(٣) . وكان بعض الحفاظ ینكر صحة هذه الروایة ، فإنه قال - فی إثبات ما ذهب إليه من عدم جواز الروایة بالمعنى - . وبرهان ذلك : أن النبي - صلى الله علیه وسلم - علم « البراء بن عازب » دعاء ، وفيه . « ونبيك الذي أرسلت » ، فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء علی النبي - صلى الله علیه وسلم - قال . « ورسولك الذي أرسلت » ، فأمره - علیه السلام - أن لا يضع « رسول » فی موضع لفظه « نبي » ، وذلك حق لا یحیل معنى وهو - علیه السلام -

(١) يريد أنها دالة علی ذات واحدة وإن اختلفت ألفاظها .

(٢) مقدمتان فی علوم القرآن ص ٢٦٧ .

(٣) التبیان ص ٥٨ .

رسول ونبي ، فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا . إنه عليه السلام - كان يجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم . وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآناً ، والله يقول - مخبراً عن نبيه - . « ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، ولا تبديل أكثر من وضع كلمة موضع أخرى ، » .

أقول . وما ينبغي أن يعلم أن مخالفة المروى للقرآن أو لما اشتهر من السنة أو لإجماع العلماء بما يقلل الثقة بالرواية ويجعلها في عداد الروايات الواهية التي لا يحتاج بها .

وأما رواية أبي هريرة فليس فيها ما يدل على وضع أحدهما مكان الآخر . والظاهر . أن المراد بالحرف في هذا الحديث غيره في حديث نزول القرآن على سبعة أحرف المشهور ، فالمراد به هنا : سبعة أوجه من أسماء الله تعالى ، وبمثل هذا قال القاضى الباقلاقي في الحديث السابق .

وأما حديث « عمر » ، فليس فيه ما يدل على جواز إبدال فاصلة بأخرى ، ومراد النبي بقوله . إن القرآن كله صواب « يعنى في حدود المنزل من عند الله على نبيه ، وما تلقاه المسلمون عن النبي ، فهو مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - في الرواية الأخرى . فأى حرف قرءوا عليه ، فقد أصابوا . » .

والدليل على أن هذا التأويل هو المتعين في حديث « عمر » ، هى القصة التى ورد بسببها هذا القول . ذلك أن « عمر » (١) اختصم مع آخر بسبب قراءة كلمة من القرآن فذهبوا إلى النبي ، فصوب قراءتهما ، وبين أن السكل من عند الله ، فدخل قلب « عمر » من ذلك شيء ، فضرب النبي في صدره وقال : أبعد شيطاناً . ثم قال . يا عمر ، القرآن كله صواب ما لم يجعل رحمة عذاباً . . الخ ، ويكون المقصود بقوله « ما لم يجعل » الخ ، النهى عن

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٣١ ، تفسير الطبرى ج ١ ص ١٠ .

وضع شيء ما موضع آخر من غير نظير إلى تخصيص ذلك بالرحمة والعذاب.

إزالة شبهة أخرى:

فإن قال قائل : لقد ذكرت في صدر المبحث استنتاجاً من الروايات الحديثة : أن التوسعة في الأحرف إنما كانت في حدود المسموع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .. وأكثر من تثبيت هذا المعنى في تضايف كلامك .. فما تقول فيما ورد من آثار ظاهرها يفيد جواز إبدال اللفظ القرآنى بآخر - وإن لم يسمع - ما دام المعنى واحداً ؟ مثل ما روى عن ابن مسعود : أنه علم رجلاً قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم . فأعاد عليه ابن مسعود الصواب ، وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى « ابن مسعود » أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر قال بلى . قال فافعل . وروى عن أبي الدرداء مثل ذلك وما رواه الأعمش قال : قرأ أنس ابن مالك . « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلاً » فقيل له : إنها « وأقوم قيلاً » فقال : أقوم ، وأصوب ، وأهيا واحداً . وكذلك روى أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ : « فحاسوا خلال الديار » (١) - بالحاء غير المعجمة فقيل له : إنما هي « فجاسوا » فقال : « حاسوا وجاسوا واحداً » .

والجواب : إن هذه الروايات وما شابهها مصروفة عن ظاهرها لا محالة ؛ لوجود الأدلة القطعية من القرآن والسنة الصحيحة على عدم جواز تبديل كلمة بأخرى في معناها ، من غير توقيف وسماع .

وأيضاً فقد أجمع علماء الأمة على هذا ، وإن شذ عن هذا الإجماع مفسر (٢) ، ونحوي (٣) فاعترا بظاهر الروايات ، وهو قول ساقط عن الاعتبار

(١) الإسراء آية ٥ .

(٢) هو الزمخشري أنظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٦٣

(٣) هو ابن جنى أنظر تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٣٣٧ .

إذا قيس بإجماع العلماء المحققين الجامعين بين المعقول والمنقول ، وكانى بك تقول : إذا كانت الروايات مصروفة عن ظاهرها لا محالة . فما المراد منها إذا . . ؟

قلت : لك فى ذلك طريقان . . وإليك البيان .

١ - إما أن نقول : إن هذه كانت أحرفاً يقرأ بها ، وكانت منزلة من عند الله للتوسعة على العرب فى أول الأمر ، ثم نسخت فيها نسخ فى العرصة الأخيرة التى عرضها جبريل على النبى - صلى الله عليه وسلم - .

أو أنها تنوسيت واندرت فيما تنوسى واندر من الأحرف الستة ، غير حرف قریش الذى جمع عليه عثمان المصاحف وعلى هذا يكون ابن مسعود قد سمع القراءتين عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما تعذر على الرجل أحدهما قرأه الأخرى ، وكذلك « أنس » سمع كلا من الالفاظ الثلاثة ، وأبو سوار العنوى سمع كلا من اللفظين .

وقد قرأ « فحاسوا » - بالحاء - أبو السنال ، وطلحة بن مصرف بما يدل على أنها منزلة وليست بالهوى .

٢ - وإما أن يقول : « إن ما جاءت به الروايات تفسير وتوضيح للفظ القرآن ، فإن مسعود لم يرد اقراء الرجل لفظ القرآن ، وإنما أراد توضيح المعنى له ؛ كى يكون ذلك وسيلة إلى النطق بالصواب ، وهو اللفظ القرآنى المتلقى عن الرسول . وذلك أن ابن مسعود بين أمرين ، إما أن يدعه يقرأ لفظ « اليتيم » فىكون فى ذلك إخلال باللفظ . وإفساد للمعنى ، وفى ذلك ضرر إن محققان ، وأمران محظوران ؛ وإما أن يقرئه المعنى بلفظ يستقيم به لسانه ؛ فىستقيم المعنى ، ويبقى الإخلال باللفظ ريثما يتسهل له النطق بالأصل خفيه ضرر واحد . ولا شك أن ارتكاب أخف الضررين ، وأهون

المحظورين - عند الضرورة - أولى من ارتكابهما معاً :

قال القرطبي في تفسيره^(١) - نقلاً عن أبي بكر الانباري - . . . ولاحجة في هذا للجهمال من أهل الزيغ . أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للتعلم ، وتوطئة له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق ، والتسكلم بالحرف على إنزال الله ، وحكاية رسول الله - صلى الله عليه وسلم . .

وقال صاحب الانتصاف تعقيباً على قول الزمخشري : « قال أحمد : لا دليل لذلك وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ، ليكون وضوح المعنى ، ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً على أن يأتي بالقراءة كما أنزل . . . على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب « الانتصار ، وهو الوجه ، .

وكذلك أنس - رضی الله عنه - لم يرد أن هذا قرآن ، وإنما أراد توضيح المعنى ، وتفسير لفظ القرآن . قال الإمام الرازي في تفسيره^(٢) بعد أن ذكر رواية أنس ، واستدلال ابن جنى بها على الجواز : « وأنا أقول : يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر تفسيراً للفظ القرآن ، لا على أنه جعله نفس القرآن ، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جنى لارفع الإعتقاد عن ألفاظ القرآن ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقاً لذلك المعنى ، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد ، وربما أخطأ ، وهذا يجر إلى الطعن في القرآن ، فثبت أنه يجب حمل ذلك على ما ذكرنا ، .

ومثل ذلك يقال في « فحاسوا ، فهي تفسير للفظ القرآن « فحاسوا ، وربما كانوا يفعلون ذلك في القرآن ؛ اعتماداً على أن اللفظ القرآني معروف

(١) ١٦٦ ص ١٢٩ .

(٢) ٨٣ ص ٢٢٧ .

ومتحقق ، ولا يأتي فيه الالتباس والاشتباه . على أن أمر أنس منقطع فلا يحتاج به ولا سيما فيما يتعلق بالقرآن وقراءاته .

وقال ابن الأنباري (١) - بعد أن ذكر رواية الأعمش ، عن أنس - :
« وقد ترامي ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق إذا لم يخالف معنى ، ولم يأت بغير ما أراد الله ، وقصد له . معنى حرف من القرآن ، فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ، ولم يأت بغير ما أراد الله ، وقصد له . واحتجوا بقول أنس . وهو قول لا يرجع عليه ولا يلتفت إلى قائله . . . إلى أن قال : والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة لا يصح عن أحد من أهل العلم لأنه مبني على رواية الأعمش ؛ عن أنس ، فهو مقطوع (٢) ليس بمتصل ، فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ، ولم يسمع منه ، .

ولعلك بعد هذا البيان الشافي ازددت يقينا واطمئنانا إلى أن الإجابة في أحرف القرآن وقراءاته ، إنما كانت في حدود المسموع ، المتلقى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل عن رب العزة - جل وعلا - وأن هذا إجماع من العلماء المحققين المثبتين .

« زعم باطل لبلاشير . . ورده ،

وقد تلقف بعض المستشرقين هذه الرواية الباطلة التي عرضنا لها ، والروايات التي لها محامل صحيحة ، ولكنهم حرفوا معانيها إلى محامل باطلة فزعموا أنها تدل على جواز قراءة القرآن بالمعنى ، وهذه سمة معظم

(١) نف-ير القرطبي ١٩٦ ص ٤٠ .

(٢) مراده منقطع بدليل ما بعده وبعض العلماء يطلق لفظ المقطوع على المنقطع ؛ أنظر مقدمة ابن الصلاح ص ٥١ . والمنقطع من قبيل الضعيف فلا يحتاج به فيما دون هذا ، فكيف يعول عليه في مثل هذا ؟ !

المستشرقين : أنهم يصححون الموضوع ، ويحرفون الصحيح عن معناه كي
تساعدهم على أغراضهم من الطعن في القرآن الكريم .

ومن هؤلاء د بلاشير ، في كتابه د المدخل إلى القرآن ، وفي ترجمته
للقرآن التي أقحم فيها على النص القرآني بعض الآيات الموضوعات (١) ،
وها هو بلاشير يعرض زعمه في موضوع ، القراءة بالمعنى ، قال : « خلال
الفترة التي تبدأ من مبايعة علي عام ٢٥ هـ حتى مبايعة الخليفة الأموي
الخامس د عبد الملك ، عام ٦٥ هـ كانت جميع الاتجاهات تتواجه ، فالمصحف
العثماني قد نشر نفوذه في كل البلاد إذ كان مؤيدا بنفوذ من شاركوا في
عمله ؛ وقد كانوا يشغلون مناصب مهمة في الشام وربما كان هذا هو الوقت
الذي نشأت فيه نظرية معينة ، تدل على أن إصلاح عثمان كان قد أصبح
ضروريا فبالنسبة إلى بعض المؤمنين لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم ،
ولإنما روحه ومن هنا ظل اختيار الوجه (الحرف) في القراءات التي تقوم
على الترادف المحض أمرا لا بأس ولا يثير الإهتمام هذه النظرية التي
يطلق عليها القراءة بالمعنى كانت دون شك من أخطر النظريات إذا
كانت تشكل تحديا للنص إلى ؛ هوى كل إنسان (١) .

ومن الغريب والمؤسف حقا أن يجيء بعد بلاشير رجل مسلم وهو

(١) فقد أدخل في ترجمته لسورة النجم بعد قوله تعالى أفرايتم
اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكرو له الأثنى د هذه
العبارة المختلفة المدسوسة د تلك الغرائب العلاء ، وإن شفاهن لترجيى
اعتمادا على ذكرها في بعض كتب أسباب النزول التي لا يعتبر مؤلفوها
من المحدثين الذين يميزون بين الصحيح وغيره والتي زعموا أنها كانت سببا
في نزول قوله تعالى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى
ألقى الشيطان في أمنيه . . . الآية وقد فندت ذلك من جهة العقل
والنقل في كتابي السيرة النبوية ؛ القسم الأول ص ٣٧٥ - ٣٨٧ ،
فليرجع إليه من يشاء (٢) المدخل ٦٩ - ٧٠ عن تاريخ القرآن للدكتور
عبد الصبور شاهين ص ٨٤ - ٨٥ .

الدكتور مصطفى مندور فيتابع أستاذه بلاشير على رأيه . بل ويزيد الطين بلة بما أضاف من تخرصات أخرى فعمد فصلا في رسالة الشواذ ، - وهي رسالة تكميلية لنيل درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بجامعة باريس - بعنوان « القراءة بحسب المعنى » ، قال فيه : هناك على الأخص نقطة وقع عليها اتفاق كثيرين هي أن القرآن ربما قرىء بأوجه كثيرة ، ولكن الأساس هو أن يحترم المعنى ، وقد أيدت نصوص كثيرة هذه الفكرة فينسب إلى عمر قوله : القرآن كله صواب ما لم يجعل عذاباً ، أو عذاباً مغضرة ثم ذكر نصوصاً لا تشهد لما أدعاه ثم قال : « من هذه الوجوه التفسيرية نشأت فكرة « القراءة بحسب المعنى » وهناك أمثلة ترينا إلى أي حد تبع المؤمنون كلام الله بحرفه . . . ، ثم بسوق أخبار استدل بها على انتشار هذه النظرية في المجتمع الإسلامي فيقول : « وقد علم عمر بن عبد العزيز أن رجلاً كان يقرأ القرآن فيقلب نظام الآيات فلما قوطع في قراءته ادعى أنه لا ذنب في هذا ولا جريرة ما دام يذكر كل النص ، في أي نظام ، كما روى أن مسلماً آخر استبدل بعض الكلمات بمراءفاتهما ، ثم ذكر مرجعاً له كتاب الاغانى (ج ٣ ص ٦١) ، وما هو فيه ، ولعله اعتمد فيما نقله على بعض كتب الادب ككتاب ومحاضرات الادباء ، وأمثاله من الكتب^(١) التي لا اعتداد بها في باب الرواية عند العلماء المحققين الأصلاء في النقد ، والذين إليهم المرجع في معرفة الغث من السمين والصحيح من الضعيف من الموضوع المختلف على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة رضوان الله عليهم .

والرد على هذه المزاعم

وإليك الرد على هذه المزاعم التي زعمها « بلاشير » ، ومتابعة « مندور » لا تثبت أمام النقد العلمي النزبه ومعظمها روايات باطلة المعنى واهية الإسناد والاعتداد على أمثال هذه الروايات التي ليس لها زمام ولا خطام تجن على

(١) رسالة الشواذ للدكتور مندور ص ١١٣ وما بعدها نقل عن كتاب « تاريخ

القرآن ص ٨٦ ، ٨٧ وقد يعقب الدكتور عبدالصبور شاهين بلاشير بتليذه مندور في ما زعمها ، وفند ما ارتأياه ، وأبان عن أن منهجها ليس بمنهج علمي صحيح .

العلم وعلى الحقيقة ، ولولم يكن في نقد هذه الرويات إلا أنها مخالفه للعقول وما صح من المنقول ، وما أجمع عليه المسلمون من عهد الصحابه إلى يومنا هذا ما هو منقول نقلا متواترا ، لا يتطرق إليه الشك والارتباك ، لكفى فإياك وهى معلوله الأسانيد وصدق ابن الجوزى الناقد حيث قال :
« ما أحسن قول القائل :

كل حديث رأيت مخالفه العقول ، وتناقض الأصول ، وتباينه النقول فاعلم أنه موضوع ، وقد عرضنا لهذه الرويات آتفا ، وبيننا أن معظمها لا يصح للاحتجاج به ، وبعضها على تسليم صحته فله مخارج صحيحه

٣ - إن مثل هذه البحوث التي تتعلق بكتاب الله ، الذي توفرت له كل وسائل الثبوت واليقين والتحوط البالغ لسلامه النص من التحريف والتبديل والتغيير لا يجوز ولا يليق بباحث أن يعتمد فيها على روايات تذكر في كتب الأدب أو التاريخ ، أو يتندر بها بعض الناس في مجالسهم من غير أن يكون لها أسانيد ثابتة ، ولكن المستشرقين وأبواقهم في سبيل تحقيق مزاعمهم يصححون الضعيف ، ويعتمدون على المكذوب ، على حين نجدهم يضعفون الصحيح من الأحاديث ولا حامل لهم في هذا وذلك . إلا الهوى والتشبهى والتجنى الأثم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى القرآن الكريم .

٣ - إن هذه التوسعه في الحروف السبعه لم تكن بالهوى والتشبهى وإنما كانت في حدود المنزل من عند الله بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم عقب سماعه قراءة كل من المختلفين « هكذا أنزلت ، وقد نهت على ذلك آتفاً فكن على ذكر منه .

٤ - إن للبحث العلمى الصحيح الذى يكون القصد منه إصابه الحق والصواب يلزم الباحث النزبه فيما إذا وردت روايات متعارضه أن ينقدها

من ناحية السند - النقد الخارجي - ومن ناحية المتن - النقد الداخلي - ولا يزال يمحص الروايات ، ويوازن بينها مع ملاحظه ما يوافق البيته منها ، وما لا يوافق ، حتى يهتدى إلى الحق والرشاد ، أما أن يأخذ ما يشاء على حسب هواه فتلك خيانة للبحث العلمي الصحيح ، ثم إن جاز هذا من باحث متعصب « كبلال شير ، فكيف جاز ذلك من باحث مسلم كمصطفى مندور ؟ !! .

٥ - ان المعول عليه في حفظ القرآن الكريم هو التلقى الشفاهي فعن النبي صلى الله عليه وسلم تلقاه ألوف الصحابة العدول الضابطين ، وعن الصحابة تلقاه ألوف الألوف من التابعين ولم يكن المعول عليه في الحفظ الصحف أو المصاحف وإنما كانت الكتابة في الصحف والمصاحف لزيادة التوثق والاطمئنان ولا يزال الاعتماد في حفظ القرآن على الشيوخ الحافظين المتقين إلى يومنا هذا وهذا القرآن المكتوب في المصاحف ثبت بحفظ الألوف الذين لا يحصيهم العدو وأجمع عليه المسلمون في كل عصر وقطر ، فكل ما جاء من روايات مخالفه مخالفته صريحه أو ضمنية فاضرب بهذه الروايات عرض الحائط ، وارم بهما دبر أذنيك فإنها لا تساوى المداد الذي تكتب به . والروايات الأحادية وإن صحت لا تعارض ما ثبت بالتواتر ، فما بالك إذا كانت الروايات الأحادية ضعيفة .

٦ - في كلام « بلاشير » ومتابعة (مندور) تناقض ودعاوى واقتراضات لم يقيم عليها دليل فمن ذلك ما ذكره بلاشير ، من أن مصحف عثمان قد بسط نفوذه ... فكيف يتفق هذا وقوله (فبالنسبة إلى بعض المؤمنين لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم ؟ ! ثم كيف ضرب عن الروايات الصحيحة المتكاثرة صفحاً وزعم أن نظرية القراءة بالمعنى كانت تكمل تحديد النص إلى (هوى كل إنسان) ؟ ! .

ثم ما قيمة التخمينات والافتراضات في بحث يتصل بكتاب يعتبر عند

المنصفين خير الكتب السماوية وأفضلها بل الأرضية ؟ ثم أين النصوص الكثيرة التي أبدت فرية «قراءة القرآن بالمعنى» ، يادكتور مندور وماذا كرت إلا بضعة نصوص ضعيفة متهالكة متهاقنة ، وقعت عليها في كتب الأدب ونحوها التي لا اعتبار لها في موازين أهل النقد والرواية ؟ ثم من هم الكثيرون الذين زعمت أنهم أتفقوا على جواز القراءة بالمعنى ١١٤ وصدق القائل :
والدعاوى مالم تقيموا عليها بينات أجاؤها أدياء .

جملة الأقوال في الأحرف السبعة

وقد بلغ بها «السيوطي» - نقلا عن ابن حبان - إلى خمسة وثلاثين قولاً ثم قال : قال ابن حبان : فهذه خمسة وثلاثون قولاً لأهل العلم واللغة في معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف . وهي أقاويل يشبه بعضها بعضاً ، وكلها محتملة ويحتمل غيرها .

وقال أبو العباس المرسى : « هذه الوجوه أكثرها متداخلة ، ولا أدرى مستندها ولا عمن نقلت ؟ ولا أدرى لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر ؛ مع أنها كلها موجودة في القرآن ؛ فلا أدرى معنى التخصيص ؛ ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة ، وأكثرها معارضة حديث عمر ، وهشام بن حكيم ، الذي في الصحيح ؛ فإنها لم يختلفا في تفسيره ، ولا أحكامه وإنما اختلفا في قراءة حروفه . وقد ظن كثير من العوام ؛ أن المراد بها القراءات السبع وهو جهل قبيح . »

أما ما استشكله من حديث «عمر ، وهشام ، فقد بينا مفصل الحق فيه بما يزيل الإشكال ويطمئن القلب ، وبجسبتنا ما ذكرنا من الأقوال في هذا المقام فقد أعرضنا عن القشور ، واكتفينا باللباب .

(١) مراده منقطع بدليل ما بعده وبعض العلماء يطلق لفظ المقطوع على المنقطع . انظر مقدمة ابن الصلاح ص ٥١ ، والمنقطع من قبيل الضعيف فلا يحتاج به فيما دون هذا ، فكيف يعول عليه في مثل هذا ؟

موقف الشيعة من حديث الأحرف السبعة

أما موقف الشيعة من حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» ، فكانوا على فريقين فمنهم من يرى صحة الحديث ، ولم يطعن فيه ، وذكر بعض الوجوه في تأويله ، ويمثل هذا الفريق الأستاذ الشيخ أبو عبد الله بن الميرزا نصر الله الزنجاني — رحمه الله — في كتابه «تاريخ القرآن» ، فقد ذكر بعض الأحاديث التي رواها البخاري وغيره في هذا الباب ، ثم قال : «دلت هذه الروايات على أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن بعض عظماء الصحابة ، ويهتم بأن يحفظوه حتى قال لأبي : «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ...» ، ودلت أيضاً على أن الصحابة كانوا يهتمون بحفظ نصوص الآيات بحيث كان زيادة حرف «واو» ، ونقصيتها أمراً مبهتاً به مع أن ذلك لا يغير المعنى كثيراً ، وكذلك عرض لبيان المراد بالأحرف السبعة ، ومال إلى ما رآه الإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبري في تفسيره^(١) وهو ما رجحنا آنفاً .

ويمثل الفريق الثاني — وهم الأكثر — السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي في كتابه «البيان في تفسير القرآن» ،^(٢) فقد عرض لبعض الروايات الثابتة الصحيحة التي ذكرناها في صدر البحث وقد حاول أن يثبت أنها أحاديث مضطربة متناقضة وأنها ضعيفة الأسانيد من غير أن يقيم على ذلك بينة غير أنها واردة من طرق أهل السنة فهي مرفوضة في نظره وهي أيضاً مخالفة لصحيحه زرارة بن أعين عن أبي جعفر قال : «إن القرآن واحد ، نزل من عند واحد ، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة» ، وأن الصادق عليه السلام حكم بكذب الرواية المشهورة بين الناس «نزل القرآن على سبعة أحرف» ، وقال : «ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد» .

(١) تاريخ القرآن الزنجاني من ص ٣٥ - ٢٨

(٢) البيان ج ١ ص ١١٩ وما بعدها عن «تاريخ القرآن» ،

ولأدرى كيف يستسيغ إخواننا الشيعة أن يردوا حديثا متواترا عن
عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية واحد وعشرين صحابيا عدولا ضابطين ،
بروايات مقطوعة^(١) على التابعين ، ومن بعدهم ، وليس مرفوعة إلى النبي
صلى الله عليه وسلم ، ولا موقوفة^(٢) على الصحابي ومهما بلغ شأن التابعي
أوتابع التابعي فلن تبلغ روايته مبلغ الرواية المسندة إلى النبي صلى الله عليه
وسلم ولا تصلح أن تكون معارضة لها بل لو وردت رواية عن بعض الصحابة
وورد عن النبي ما مخالفها أخذنا بالرواية المرفوعة ورفضنا الموقوفة ، وهذا
هو المنهج الصحيح الذي لا ينبغي أن يختلف شيعي أو سني وهذا هو المنهج العلمي
الصحيح الذي وضعه أئمة هذا العلم النبوي في كل عصر ومصر من لدن الصحابة
إلى يومنا هذا .

وماذا نملك للشيعة مادام مذهبهم رفض كل المرويات التي رويت في
كتب أهل السنة مهما بلغت من الصحة ، وثقات روايتها !!؟ إذا عارضت
ماروى عن أهل البيت .

يقول السيد الخوئي : « ولا قيمة للروايات إذا كانت مخالفه لما يصح
عندهم (أى عن أهل البيت) ولذلك لا يهمننا أن تتكلم عن أسانيد هذه
الروايات ، وهذا أول شيء تسقط به الرواية عن الاعتبار والحجية ، (٣) وهذا
المبدأ أبعد ما يكون عن المنطق والصواب فأى راومهما بلغ من العلم أو النسب
غير معصوم ، ومادام الأمر كذلك فلتوزن هذه الروايات وغيرها بالميزان
الذي وضعه دأئمه الجرح والتعديل ، وليتعرف صحيحها من سقيمها من
موضوعها بالقواعد التي وضعها أئمة أصول الحديث ، والتي تعتبر د ميزان
المنقول ، كما اعتبر المنطق د ميزان المعقول والسكى تكون على بينه كما ذكره السيد
الخوئي ومنزلته من الحق والصواب أذكر لك بعض المثل مما إنتقده المرويات

(١) المقطوع : هو ماروى عن التابعين من أقوالهم وأفعالهم

(٢) الموقوفة . هو ماروى عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم

(٣) البيان ١ - ص ١٢٣

يقول : « فن التناقض أن بعض الروايات دل على أن جبريل أقرأ النبي على حرف فاستزاده النبي - فزاده ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، وهذا يدل على أن الزيادة كانت بالتدرج ، وفي بعضها أن الزيادة كانت مرة واحدة في المرة الثالثة ، وفي بعضها أن الله أمره في المرة الثالثة أن يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف ، وكان الأمر بقراءة سبع في المرة الرابعة ، وفي الحق أن هذا لا يعد تناقضا ولا اضطرابا ترد به الروايات لأن إمكان الجمع بينهما سهل يسير لجواز أن لا تكون هذه الأحاديث في قصة واحدة ، بل تكون في أوقات متعددة ، أما كون ذلك وقع في المرة الثالثة أو الرابعة فذلك يرجع إلى أن بعض الرواة قد يقتصرون على بعض المرات ، والبعض يستوفى المرات ، وقد علقنا على الروايات فيما سبق بنحو ذلك على أن الأمور اليسيرة السهلة لا تظعن في صحة الحديث نفسه مادامت الروايات كلها في النهاية تتفق على ذلك . وكل ما ذكره من تناقض أو اختلاف فهو أهون شأننا من هذا .

أما الطعن في الحديث بأن الزيادة على الحرف الواحد إنما جاءت من الرواة ، فلا أدري أنصده فيمنا زعم ، ونرفض ما رواه الأئمة العدول الضابطون ، وما يسكاد تجمع عليه الأمة سلفها وخلفها من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا ؟ ! وفيهم الصحابة الاجلاء ، والأئمة العلماء الذين حكموا بتواتر هذا الحديث ، ومعروف أن الحديث المتواتر يفيد القطع واليقين في نسبتته إلى قائله ! ! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف...؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال ثلاثة :-

١ - مذهب إليه الطبري ، ومن وافقه على رأيه في الأحرف السبعة : إلى أن المصاحف تشتمل على حرف واحد منها ، وهو حرف قریش ، الذي جمع عثمان عليه المصاحف . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : « وهو المعتمد ، وهذا الرأي هو الذي يوافق مذهب إليه الطبري وموافقوه في الأحرف السبعة ، وبسطناه فيما سبق غاية البسط : وهو مذهب المحققين .

٢ - وذهب جماعة من الفقهاء والمتكلمين إلى أنها مشتملة على جميع الأحرف السبعة ، وقالوا : إنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء منها ، وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر ، وكانت بجميع الأحرف السبعة ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك .

وقد أجيب عنه : بما ذكره ابن جرير : من أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة ، وإنما كان جائزاً لهم ، ومرخصاً لهم فيه ، فلما رأى الصحابة أن الأمة قد تفرقت وتختلف إذا لم يجمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً ، وهم معصومون من الضلالة ؛ ولم يكن في ذلك ترك واجب ولا فعل حرام .

٣ - وذهب جماهير من السلف والخلف إلى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي - صلى الله عليه وسلم - على جبريل متضمنه لها ، لم تترك منها حرفاً واحداً . قال ابن الجزيري . « وهذا هو الذي يظهر صوابه ، . قلت لأنه هو الذي يوافق اختياره في الأحرف السبعة .

قال في الفتح - بعد ذكر بعض هذه الأقوال - : « والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله . المقطوع به ، المكتوب بأمر النبي - صلى الله

عليه وسلم - وفيه بعض مما اختلف فيه الاحرف السبعة لا جميعها . كما وقع في المصحف المكي : « تجرى من تحتها الأنهار » في آخر سورة « براءة » . وفي غيره بحذف « من » ، وكذا ما وقع فيه من اختلاف مصاحف الأمصار من عدة « واوات » ، ثابتة في بعضها دون بعض ، وعدة « هاءات » ، وعدة « لامات » ، ونحو ذلك . وهو محمول على أنه نزل بالأميرين معا ، وأمر - النبي صلى الله عليه وسلم - بكتابه لشخصين ، أو أعلم بذلك شخصاً واحداً أو أمر بإثباتهما على الوجهين . وما عدا ذلك مما لا يوافق الرسم ، فهو مما كانت القراءة جوزت به توسعة على الناس وتسيلا ؛ فلما آل الحال إلى ما وقع من الاختلاف في زمن « عثمان » ، وكفر بعضهم بعضا .. اختاروا الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته ، وتركوا الباقي .

وقال البغوي « في شرح السنة » : « المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العروض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمر عثمان بنسخه في المصاحف وجمع الناس عليه ؛ وأذهب ماسوى ذلك . قطعاً للمادة الخلاف : فصار ما يخالف المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع كساتر ما نسخ ورفع ؛ فليس لاحد أن يبدو في اللفظ الى ما هو خارج عن الرسم » .

والتحقيق : أن كون المصاحف مشتملة على الاحرف السبعة أو بعضها متوقفه على معرفة المراد بالاحرف السبعة ، فمن قال ان المراد به سبع لغات في كلمة واحدة . تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني كابن جرير ، ومن وافقه قال . ان ما بقى في المصاحف منها هو حرف قریش

ومن قال : ان المراد بالاحرف السبعة : الوجوه التي يرجع اليها اختلاف على ما ذهب اليه ابن قتيبة ، ومن لف لفه . قال : ان المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتملهم رسم المصحف منها . بمعنى ؛ أنها اشتملت من كل واحد منها على ما وافق رسم المصحف منه ، لم تخل عن وجه منها بالكلية ، وان كان بعض هذه الوجوه قد نسخ بعضه .

وقد تكفل ببيان ذلك تفصيلاً أحد كبار العلماء (١) الكاتبين في هذا الموضوع .

وبما ينبغي أن يعلم . أن غالب ما يمثل به هذا الفريق للأحرف السبعة إنما هو في نظر الفريق الأول فريق الطبرى ، ومن تبعه - قراءات لأحرف فهم يرون : أن القراءات ترجع إلى الحروف ، وهى منها ، وليست عنها ، مما يجعل الباحث غير مطمئن إلى الاحتكام إلى ما هو موجود فى المصاحف العثمانية فى الواقع ، ونفس الأمر اليوم .

يوضح ذلك ما أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف عن أبى الطاهر ابن أبى السرح قال : سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين والعراقيين . هل هى الأحرف السبعة ؟ قال : لا ، وإنما الأحرف السبعة مثل : هلم ، وتعال ، وأقبل . أى ذلك قلت أجزأك : قال لى ابن وهب : مثله (٢) .

وبعد . فلعلنا بعد هذا المطاف الطويل نكون قد وفقنا إلى عرض هذا البحث عرضاً علمياً صحيحاً خالياً من التعصب لآحد ، أو التحيف على آخر إلا ما دل عليه الدليل وقامت الحجة .

ولعلك - أيها القارىء - تكون قد اقتنعت بما اقتنعنا به : من أنه الحق والصواب فى بيان المراد بالأحرف السبعة ، وإلا .. فأنت واختيارك فقد عرضنا الأقوال وذكرنا ما لها وما عليها .

والحمد لله الذى وفقنا إلى ما انتهينا إليه ؛ فى هذا المبحث العويص ، الشائك ، وبيان الحق فى الروايات الموهمة المشكلة ، التى زلت أقلام بعض العلماء بسببها وما توفيق إلا بالله : عليه توكلت وإليه أنيب .

(١) الكلمات الحسان : ص ١٤ - ١٧

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ٢٤

المبحث السادس

المكي والمدني

معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج إليها المفسر لكتاب الله ومن نصب نفسه للاجتهاد والفتيا والقضاء كي يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب قال أبو القاسم الحسن بن بن حبيب النيسابوري في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن ، من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة وما يشبه نزول المكي في المدني ، وما يشبه نزول المدني المكي ، وما نزل بالبحرقة ؛ وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف بالحديبية ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهـاراً ، وما نزل مشيعاً ، وما نزل مفرداً ، والآيات المدنيات في السور المكية ؛ والآيات المكيات في السور المدنية ؛ وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل بجملا ، وما نزل مفسراً وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مكي ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها ، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى ، (١) . قال السيوطي : وقد أشيعت الكلام على هذه الأوجه فمنها ما أفردته بنوع ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع .

وقد أفرد المكي والمدني بعض العلماء ، كمسكي والعز الدريني ، وليس من شأننا في هذا البحث تتبع الجزئيات واستقراء السور والآيات المكية والمدنية فذلك بالتأليف المستقل الصق وإنما قصدنا ذكر أحكام كلية وسمات وخصائص

للمسكى والمدنى ومعارف متصله بهما من شأنها أن تثير الطريق لدراس القرآن ورد الشبه التي أورها على المسكى والمدنى بعض المبشرين والمستشرقين ومتابعيهم من الكتاب المعاصرين .

فرائد العلم بالمسكى والمدنى . ومن فوائد العلم بها :

- ١ - أنه يعرف به الناسخ والمنسوخ فيما لو وردت آيتان متعارضتان وإحداهما مكية والآخرى مدنية فإننا نحكم بنسخ الثانية للأولى لتأخرها عنها ،
 - ٢ - أنه يعين على معرفة تاريخ التشريع والوقوف على سنة الله الحكيمه في تشريعه وهى التدرج فى التمرينات بتقديم الأصول على الفروع والإجمال على التفصيل وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت على الدعوة الإسلاميه بالقبول والإذعان والانتشار .
- الطريق إلى معرفة المسكى والمدنى .

والعمدة فى معرفة المسكى والمدنى النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحى والتنزيل ، والتابعين الآخذين عنهم ولم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك قول ، وقد علل ذلك القاضى أبو بكر الباقلانى ، فى الانتصار ، فقال : ولم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وأن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ؛

ولعل التعليل : بأن المسلمين فى زمانه صلى الله عليه وسلم لم يكونوا فى حاجة إلى هذا البيان لأنهم يشاهدون الوحى والتنزيل ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله - أولى من ذلك التعليل (١) .

وقد اشتهر بمعرفة المسكى والمدنى من الصحابة - رضوان الله عليهم -

عبد الله ابن مسعود - رضی الله تعالى عنه - روى البخارى بسنده عنه أنه قال : والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ؟ ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه ، وقال أيوب : سألت رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت بسفح الجبل وأشار إلى سلع (١) .
أخرجه أبو نعيم فى الحلية .

تعريف المسكى والمدنى

للعلماء فى تعريفهما اصطلاحات ثلاثة :

الأول : ما عليه جمهور العلماء وهو : المسكى ما نزل قيل الهجرة وإن كان نزوله بغير مكة ويدخل فيه ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر الهجرة .

والمدنى : ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينة ويدخل فيه ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد الهجرة كسورة الفتح فقد نزلت على النبي منصرفه من الحديبية .

وهذا الاصطلاح لوحظ فيه الزمان ، وعليه فقوله تعالى . « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، الآية مدنى وإن كانت نزلت بمكة والنبي صلى الله عليه وسلم فى جوف الكعبة عام الفتح ، وقولى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ، مدنى وإن كانت نزلت بمرقة فى حجة الوداع وهذا التقسيم حاصر وضابط ومطرود إذ تنعدم على القول به الوساطة ولا يد عليه ما ينقضه فلذا كان الراجح المقبول .
الاصطلاح الثانى : المسكى ما نزل بمكة ويدخل ضواحيها كالمنزول عليه بمنى وعرفات والحديبية .

(١) بفتح السين وسكون اللام جبل بالمدينة .

والمدني : ما نزل بالمدينة ويدخل في المدينة ضواحيها كالمنزل عليه بيدر وأحد وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المكان ؛ ويرد على هذا التعريف أنه غير حاصر لأنه يثبت الواسطة فما نزل عليه بالأسفار لا يسمى مكيا ولا منديا وذلك مثل ما نزل بقبوك وهو قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، الآية (١) ومثل آية التيمم التي في سورة النساء . فأنها نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره (٢) .

الثالث : المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة ، ويحمل على هذا ما نقل عن ابن مسعود أنه قال : « ما كان في القرآن - يا أيها الذين آمنوا - أنزل بالمدينة ، وما كان يا أيها الناس فبمكة : وما نقل عن ميمون بن مهران أنه قال : ما كان في القرآن يا أيها الناس أو يا بني آدم فإنه مكي ، وما كان يا أيها الذين آمنوا فإنه مدني : وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المخاطب ويرد على هذا الرأي أن التقسيم عليه غير حاصر فهناك آيات كثيرة جدا في القرآن الكريم ليس فيها يا أيها الناس ولا يا أيها الذين آمنوا كما يرد عليه أنه غير مطرد إذ هو منقوض بسورة البقرة المدنية وفيها يا أيها الناس اعبدوا ربكم ، وبسورة النساء المدنية ومفتتحها « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، وبسورة الحج (٣) فإنها مكية عند جماعة من العلماء وفي أواخرها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم . »

(١) التوبة ٤٣ (٢) الإتيان ج ١ ص ١٨ .

(٣) اختلف في هذه السورة فقبل أنها مكية إلا « هذان خصمان اختصموا في ربهم إلى سبع آيات ، وقيل مدنية إلا قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الآية ، وقيل هي مختلطة فيها مكي ومدني وهو قول الجمهور وعلى القائلين بأنها مكية أن يستثنوا أيضا قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الآية ، لأن فيها الاذن بالجهاد وهو لم يشرع إلا بالمدينة قطعا فلا حتراض بهذه السورة ؛ بما يتجه على القول الأول .

قال الإمام الرازى فى تفسيره (١) تعقبا على هذا الاصطلاح الأخير: قال القاضى: أن كان الرجوع فى هذا إلى النقل فسلم وأن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف إذ يجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسم جنسهم ويؤمر من ليس بتؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها والازدياد منها فالخطاب فى الجميع ممكن: فإن قال قائل: أن مراد هؤلاء بمقاتلتهم هذه أن الغالب والكثير كذلك قلنا: أن ذلك لا يفيد فى التقاسيم والتعاريف إذ مبناها على الضبط والانحصار والاضطراب.

« أنواع السور المكية والمدنية »

القرآن الكريم على أربعة أنواع: (١) مكي خالص. (٢) مدنى خالص. (٣) مكي بعضه مدنى. (٤) مدنى بعضه مكي.

أما المكي الخالص فمثل سورة اقرأ والمدثر والقيامة، وأما المدنى الخالص فمثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وأما المكي الذى بعضه مدنى فمثل سورة الأعراف فإنها مكية إلا قوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر، الآية (٢) » إلى خمس آيات أو ثمان بعدها فإنها مدنية ومثل سورة الإسراء فإنها مكية إلا قوله تعالى « ويسألونك عن الروح، الآية (٣) » فإنها مدنية كما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود وقد تقدم فى أسباب النزول ومثل سورة هود فإنها مكية إلى قوله تعالى « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل، الآية (٤) » فقد صح أنها نزلت بالمدينة فى قصة أبى اليسر

وأما المدنى الذى بعضه مكي فمثل سورة الأنفال فإنها مدنية إلا قوله

(١) ج ١ ص ٣٠٢

(٢) الإسراء ٨٥

(٣) الأعراف ١٦٣

(٤) هود ١١٤

تعالى ، وإذ يمكر بك الذين كفروا ، الآية^(١) فقد روى عن مقاتل أنها مكية واستثنى أيضا قوله تعالى ، وإذا تسلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إلى غاية آية (٣٦) فسكيات^(٢) وقد روى عن ابن عباس أن آية ، وإذ يمكر ، نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة تذكيرا له بنعمة الله عليه في مدينة .

ومثل سورة براءة في مدينة إلا قوله تعالى ، وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي ، الآية^(٣) ، فالصحيح أنها نزلت في قول النبي لعنه أبي طالب : لا استغفرن لك ما لم أنه عنك ،^(٤)

والذي يظهر أن اعتمادهم في وصف السورة بكونها مكية أو مدنية إنما يكون تبعاً لما يغلب فيها أو تبعاً لغايتها ، فقد ورد عن ابن عباس : أنه إذا نزلت فاتحه سورة بمكة كتبت مكية ثم يزيد الله فيها ما شاء . وقال البيهقي في الدلائل : ، في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها ، وقال ابن الحصار : كل نوع من المسكى والمدنى منه آيات مستثناة إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل ، وقال ابن حجر في الفتح : قد اعتنى بعض الأئمة ببيان ما نزل من الآيات بالمدينة في السور المكية . . . وأما عكس ذلك وهو نزول شيء من سورة بمكة تأخر نزول تلك السورة إلى المدينة فلم أراه إلا نادراً ، فقد أتفقوا على أن الانتقال مدنية ، لكن قيل : إن قوله ، وإذ يمكر . . . الآية نزلت بمكة ،^(٥)

(١) الأنفال ٣٠

(٢) أسباب النزول للسيوطي ج ١ ص ٧٧ على هامش الجلالين

الانتان ج ١ ص ١٥

(٣) براءة / ١١٣

(٤) أسباب النزول ج ١ ص ٢١٠ هامش (٥) فتح الباري ج ٩ ص ٣٢٣ ، ٣٤٤

وترتيب الآيات القرآنية ليس على حسب نزولها ، وترتيبها الزمني ، وإنما يرجع إلى المناسبات التي تقوم على ارتباط المعاني وتماسكها ، ووحدة الفكرة أو تجاها ، فلا عجب إذاً أن يكون في بعض السور المكية آيات مدنية أو العكس .

وليس أدل على هذا من أن بعض الآيات وضعت بجانب بعض الآيات الأخرى مع وجود فاصل زمني بينهما نحو بضع سنين كما قدمنا في أسباب النزول .

المكي والمدني من السور ،

قد اختلف العلماء في بيان المكي والمدني من السور على أقوال كثيرة ذكرها السيوطي في اتقانه (١) ، ومن السور ما اتفق العلماء على مكيتها أو مديتها ، ومنها ما اختلفوا في كونه مكيا أو مدنيا ، ولا يهولنك تشعب الاختلاف في هذا فمرد معرفة المكي والمدني إلى الأحوال والقرائن والملابسات ، ومثل هذه مما تختلف فيها الأنظار ، وتتنوع الاستنتاجات ، ولعل أوفق هذه الأقوال وأقربها إلى الصواب ما ذكره أبو الحسن ابن الحصار قال : أن المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكي ، وقد نظم ابن الحصار ذلك في منظومة له نقلها السيوطي في الإتقان ، وخلاصة ما تضمنه هذا النظم .

أن السور المدنية باتفاق هي . (١) البقرة (٢) وآل عمران (٣) والنساء (٤) والمائدة (٥) والأنفال (٦) والتوبة (٧) والنور (٨) والأحزاب (٩) ومحمد (١٠) والفتح (١١) والحجرات (١٢) والحديد (١٣) والمجادلة (١٤) والحشر (١٥) والممتحنة (١٦) والجمعة (١٧) والمنافقون (١٨) والطلاق (١٩) والتحریم (٢٠) والنصر .

أما المختلف فيها فهي (١) الفاتحة (٢) والرعد (٣) والرحمن (٤) والصف

(٥) النعنان (٦) والتطيف (٧) والقدر (٨) ولم يكن (٩) وإذا زلزلت (١٠) والإخلاص (١١ : ١٢) والمعوذتان .

وأما المسكى فهو ما عدا ذلك ، وهي اثنتان وثمانون سورة .

أقول : إن بعض ما ذكره ابن الحصار غير مسلم ، لأن على رأيه تكون سورة الحج مكية باتفاق مع أنه روى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها مدنية ، وهو الأرجح ، وليس من المستساغ أن نعتبر أن هذا الخلاف كلا خلاف إلا إذا سرنا على منهجه حيث قال في آخر منظومته :

وليس كل خلاف جاء معتبرا . : . إلا خلاف له حظ من النظر

ولا أدري كيف لا يكون له حظ من النظر؟ وهو الراجح

د المسكى والمدني على ترتيب النزول ،

وكما عنى العلماء ببيان المسكى والمدني من السور عنوا أيضا بترتيب السور المسكية والمدنية على حسب النزول فقد أخرج ابن الضريس في (فضائل القرآن) رواية عن ابن عباس في هذا الترتيب (١) وقد سقط من هذه الرواية فاتحة الكتاب فيما نزل بمكة ، كما أخرج أبو بكر محمد بن الحارث بن أبيص في جزئه المشهور رواية عن جابر بن زيد (٢) وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن ، وقد أعتمد البرهان . الجعبري على هذا الأثر في قصيدته التي سماها (تقريب المأمول في ترتيب النزول) وتسكاد تنفق الروايتان فيما ذكرناه من ترتيب ولم تفترقا إلا في القليل .

ومما يؤخذ على هاتين الروايتين أنهما اتفقتا على أن أول ما نزل ، اقرأ ثم ن والقلم ثم يا أيها المزمل ثم يا أيها المدثر . . وهو يخالف ما حققناه سابقا من أن أول ما نزل بعد صدر سورة اقرأ هو صدر سورة المدثر وكان ذلك بعد فترة الوحي : ولعل النظرة الفاحصة في أوائل ن والمزمل والمدثر تهدينا إلى أن المدثر هي الأنسب بالتقديم . عن أختيها إذ قد اشتمل

(١) انظر الاثنان ج ١١ ، ص ١١٠ . (٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

صدرها على الأمر بالإنذار وهو الأليق بالتقديم . ولعل هذا النقد الذي ذكرته هو ما أشار إليه الإمام السيوطي حيث قال بعد أن ذكر رواية جابر بن زيد (هذا سياق غريب وفي هذا الترتيب نظر) .

« الضوابط التي يعرف بها المسكى والمدني »

لمعرفة المسكى والمدني طريقان (١) سماعي (٢) وقياسي .

أما السماعي فالنقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين بأن سورة كذا أو آية كذا نزلت بمسكة أو بالمدينة أو قبل الهجرة أو بعدها .

وأما القياسي فضوابط كلية لمعرفة كل منها وهذه الضوابط مبناها على التبع والاستقراء المبني على الغالب والكثير .

« ضوابط المسكى »

(١) كل سورة فيها « كلا » مكية . وقد وردت في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير قال الدريني : رحمه الله .

وما نزلت كلا يثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

قال العناني : وحكمة ذلك أن النصف الأخير نزل أكثره بمسكة ، وأكثر أهلها جابرة فتكررت كلا على وجه التهديد والتعنيف لهم والانكار عليهم بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه في اليهود لم يفتح إلى إيرادها فيه لذاتهم وضعفهم (١) .

(٢) كل سورة في أولها حروف المعجم فهي مكية سوى البقرة وآل عمران فانها مدينتان باتفاق ، وفي الرعد خلاف .

(٣) كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .

(٤) كل سورة فيها سجدة مكية . سوى الحج ، عند من يقول أنها مدينية

(٥) كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الماضية مكية سوى البقرة

« ضوابط المدني »

(١) كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض مدنية

(٢) كل سورة فيها ذكر المنافقين وأحوالهم مدنية سوى سورة العنكبوت فإنها مكية إلا إحدى عشرة آية من صدرها فإنها مدنية وهي التي ذكر فيها المنافقون .

(٣) كل سورة فيها الإذن بالجهاد أو الأمر به وأحكامه الصلح والمعاهدات فهي مدنية ، سوى سورة « الحج » عند من يرى أنها مكية

« مميزات المسكى والمدنى »

قد امتاز كل من المسكى والمدنى غير ما تقدم من الضوابط بأمر كثير فيه وسمات بارزة تميزه عن غيره وهذه المميزات ترجع إلى المعنى والموضوع والخصائص البلاغية فهي أدل وأدق وأشمل من الضوابط لأن غالبها يرجع إلى اللفظ والشكل :

« مميزات المسكى »

١ - الدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر والجزاء والإيمان بالرسالة وإقامة الأدلة العقلية والكونية والانفسية على ذلك وهذه الثلاثة وأدلتها هي التي يدور عليها غالباً الحديث في السور المكية ؛ وذلك لأن القوم كانوا منغمسين في حماة الشرك والوثنية وكانوا لا يقرون بالنبوات ولا بالبعث وما بعده ويقولون : إن هي لإحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين : فكان اللائق بحالهم دعوتهم أولاً إلى الإيمان بهذه الأصول فإذا ما آمنوا بها خوطبوا بالفروع والتشريعات التفصيلية .

٢ - محاجة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحججة عليهم في بطلان عبادتهم

الأصنام وبيان أنها بمنزل عن الألوهية واستحقاق العبادة وأنها لا تضر ، ولا تنفع ولا تخلق ، ولا يحس ، ولا تعي أى شيء ودعوتهم إلى استعمال عقولهم ونبد التقليد بغير حجة وعلم ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، الرخرف ٢٢ - ٢٤ وإقامة الأدلة على أن القرآن حق لا شك فيه وأنه من عند الله وقد وقع التحدى بالقرآن في ثلاث سور مكية ولم يقع التحدى به في القسم المدنى إلا في سورة البقرة .

٣ - الدعوة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا سيما ما يتعلق منها بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب وهي الكليات الخمس التي تتفق فيها جميع الشرائع السماوية وذلك كالحث على الثبات على العقيدة والاستهانة بكل شيء في سبيلها والأمر بالصلاة والصدقة ، والصدق ، والعفاف ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والعفو ، والعدل ، والإحسان والتواصي بالحق ، والخير ، والصبر والنهي عن القتل ، وواد البنات ، والظلم ، والزنا وأكل أموال الناس بالباطل وذلك مثل قوله تعالى في أواخر سورة الأنعام « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم الآيتين ، وفي سورة الأعراف « خ - ذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وفي سورة النحل « إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآبة ، وفي سورة ن ، ولا تطع كل حلاف مهين هماغز بنميم ، الآيات

٤ - ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ليكون في قصصهم عبرة وعظة لأولى الألباب ، لبيان أن دعوة الرسل جميعاً واحدة وأنهم جاءوا بالتوحيد الخالص والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن الأنبياء وأتباعهم لا قوا كل أنواع الإيذاء في سبيل عقيدتهم ومع ذلك صبروا وثبتوا

على عقائدهم وكان النصر والعاقة لهم والهزيمة والخذلان لأعدائهم إلى غير ذلك ولقد كان القصص في القسم المسكى من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب قال تعالى : تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (١)

٥ - قصر أكثر آياته وسوره وذلك لنزوله بمكة وأكثر أهلها يومئذ يمتازون بعلو كعبهم في الفصاحة . والبلاغة ، وتملكهم لخاصية القول ، والخطابة ، والشعر وبلوغهم الغاية في لطف الحس ، وذكاء العقل ، والالمام وسرعة الخاطر فكان المناسب لهم النذر القارعة ، والعبارات الموجزة ، والفقر القصيرة ذات اللفظ الجزل ، والجرس القوي ، والمعنى الفحل فتصخ الأذان وتستولى على المشاعر وتعقل ألسنتهم عن المعارضة وتدعهم في حيرة ودهشة مما يسمعون فلا يلبث البليغ منهم بعد سماعها من أن يلتقي عصا العجز ويرسلها قولة صريحة تشهد بالإعجاز كما قال الوليد بن المغيرة القرشي لما سمع القرآن ، والله لقد سمعت كلاماً ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة تقوأن له للحلاوة وإن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر وأنه ليعلو ولا يعلى (٢)

ولما أحزنت المشركين مقالته وأكرهوه على أن يقول في القرآن قولاً ينقض قوله الأولى لم يسعه بعد الصراع النفسى العنيف وتكلف الخروج عن فطرته العربية وملكته الأدبية إلا أن يقول إن هذا لإسحر يؤثر إن هذا لإقول البشر ولكي تتأكد أن الرجل لم يقل ذلك إلا مكرهاً أقر عليك قول الله ، إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا لإسحر يؤثر ... (٣) فانظر كيف صور القرآن حاله النفسية هذا التصوير .

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - ١

(١) هود / ٤٩

(٣) المدثر ١٨ - ٢٥

الدقيق ولقد كان البليغ منهم - على كفره - يسمع القرآن فيخيل إليه أن العذاب كأنه واقع بهم فلا يجد مندوحة عن أن يناشد النبي ﷺ الله والرحم أن يكف عن قراءته ، وكان القرشيون يتواصون فيما بينهم أن لا يستمعوا إليه وأن يضعوا أصابعهم في آذانهم ، ويستغشوا ثيابهم ، حذرا أن ينفذ إلى قلوبهم فإذا هم بعد قليل تغلب عليهم فطرتهم اللغوية فيتناسون الوصية ويلقون إليه بأذانهم وقلوبهم لما يجدون في استماعه من لذته وإرضاء للمساكنة الأدبية (١)

«ميزات القسم المدني»

١ - التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات كأحكام الصلاة ، والصيام ، والزكاة ؛ والقصاص ، والنكاح والطلاق ، والبيع والمداينات ، والربا ، والحدود كحد الزنا ، والسرقه والكفارات ككفارة القتل الخطأ والظهار ، والأيمان إلى غير ذلك مما اشتملت عليه السور المدنية كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور ، وذلك لأن حياة المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان ومن شأن الجماعة التي لها رابطة تربطها أن تكون في ميسر الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه في دينها ودنياها وأيضاً فالتشريعات العملية مرتبطة بسطان الحكم التنفيذي فلا تشريع لمن لا يملك حكم التنفيذ فمن ثم جاءت المدينة على ما ذكرنا .

٢ - حاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم في عقائدهم التي ضاهوا بها أسلافهم من زانعي الأمم السابقة كقولهم بالثلاثية أو الحلول أو الأبنية أو الصلب والإنعاء عليهم باللائمة لتحريفهم كتبهم ولا سيما البشارة بالنبي الأسمى المبعوث في آخر الزمان وتغيير بعض الأحكام التي لا تلائم أهواءهم واتخاذهم هذا التغيير وسيلة لإبتراز أموال الناس بالباطل فاليهود قالوا عزيز ابن الله والنصارى غلوا في عيسى فقال بعضهم : إنه الله وقال بعضهم :

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج ١

ابن الله وقال آخرون : ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وغير اليهود الرجم إلى الجلد أو تسخيم الوجه والتشهير طمعا في المال أو الزنى إلى الإشراف وقد جادلهم القرآن بالحسنى والحجة الدامغة والمنطق السليم ، وذلك كما ترى في سورة المائدة وآل عمران والبقرة والتساء والتوبة .

٣ - بيان ضلال المنافقين وإظهار فضائحهم والكشف عن خبيثة نفوسهم وإظهار ما بهم من سوء الطباع والجن والهلح وأنهم لا يبتغون إلا عرض الحياة الدنيا ولا يهتمهم أمر الإسلام ونصره كما في سورة البقرة والتوبة التي مازالت تقول ومنهم . ومنهم حتى فضحتهم وقد أنزل الله سورة من المفصل في شأنهم وهي المنافقون .

٤ - قواعد التشريع الخاصة بالجهاد، وحكمة تشريعه ، وذكر الاحكام المتعلقة بالحروب ، والغزوات ، من الصلح ، والمعاهدات ، والغنائم ، والفيء وفك الاسارى وذلك كما في سورة البقرة والانفال وبراءة والقتال والفتح والحشر ه - طول أكثر آياته وسوره لاستيائها على الاشياء السابقة وهي تقتضى البسط والاطناب وإطالة النفس كما أن أهل المدينة لم يكونوا في درجة أهل مكة في البلاغة والفصاحة ولا سيما اليهود الذين كانوا يساكنونهم في المدينة فكان الحال باعثةا على الإطالة ، والاطناب في مقام الاطناب لازم والايجاز في مقام الإيجاز واجب ووضع أحدهما مكان الآخر ليس من البلاغة في شيء . وقد سلك القرآن كلتا الطريقتين مع كونه في أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، الشبه التي أثيرت حول المسكى والمدنى ،

اعتاد الملاحدة والمبشرون واعداء الإسلام أن يتلصوا المطاعن في القرآن ، وغرضهم بذلك التشكيك في القرآن وقد استهكمت وصولوا إلى هدم الإسلام واضعاف المسلمين بصرف أنظارهم وقلوبهم عن القرآن الذي هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم ، ولما كانوا يصدرون في هذه الطعون عن هوى متبع وعصبية دينية ممقوتة فقد جافاهم الحق والصواب .

وعما يؤسف له أن بعض الذين تسموا بأسماء المسلمين ، وصنعتهم أوروبا
يديموا وربهم على عينيها ومن على شاكلتهم ممن لم يتعمقوا في الدراسات الإسلامية
قد استهوتهم هذه الأباطيل فصاروا ينشرونها ويذيعونها في دروسهم وقد
حمل كبر هذا الأفك أديب معروف (١) كان يدرس الأدب بالجامعة المصرية
حقبة من الزمان وقد تلقف هذا الأديب هذه الأباطيل مما كتبه المبشرن
والقسس وإن كانوا - والحق يقال - كانوا أعف منه في بعض الأحيان ؟
ومن عجب أن يسوق هذه الطعون على أنها من بنات أفكاره ومبتكراته فكان
كلابس ثوبي زور ، ومن عجب أيضاً أن يعتبر هذا التجنى على القرآن العظيم
حرية في البحث وجرأة في التفكير فيقول : لا شك أن الباحث الناقد ،
والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أى كتاب
آخر (٢) ... الخ ما قال ولمن يلقى هذا الكلام ؟ لطلاب لم يعرفوا من الدين
إلا قشورا ومن اللغة العربية إلا حظاً يسيراً ثم يطلب إليهم أن ينقدوا
كتاب العربية الأكبر الذي خرت لبلاغته جباه البلغاء . وخرست عن
معارضته السنة الفصحاء من كل جنس ، وفي كل عصر ، وكيف يتها لمن
لا يكاد يبين أن ينقد كتاباً عربياً مبيئاً ؟ !

وقد قيض الله لهذه الشبه من علماء الأمة (٣) الذين تذوقوا بلاغة القرآن
ووقفوا على أسرار أعجازه من زيفها على أساس من المنطق السليم ، والحجة
الدامغة والحق الظاهر ، والواقع التاريخي الثابت .

(١) هو الدكتور طه حسين

(٢) انظر نقض مطاعن القرآن من ص ٤ - ٨

(٣) من خير من رد عليه هذه المطاعن في القرآن الكريم الأستاذ الكبير
الشيخ محمد عرفه عضو جماعة كبار العلماء . - مد الله في حياته - وخير من ود عليه
في كتابه في الشعر الجاهلي ، الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله -
شيخ الأزهر السابق في كتاب سماه نقض كتاب . في الشعر الجاهلي ،

وهذه الطعون - فضلا عن كونها كفرا دينيا - هي كفر بقواعد البحث العلمي الصحيح التي طالما تمسحوا بها وأكثروا من ترديدها في كتاباتهم ، ومحاضراتهم وسنقصر ردنا على ما يتعلق بالمسكى والمانى من القرآن .

« الشبهة الأولى »

قال : إن القسم المسكى يمتاز بتقطع الفكره ، واقتضاب المعاني ، وقصر السور وقصر الآيات ، وأما القسم المدني فهو طويل السور طويل الآيات وأفكاره منسجمة متسلسلة ، وعزا ذلك إلى تأثر محمد - صلى الله عليه وسلم بالبيئة فأهل مكة قوم أميون لا يقدرّون على إنشاء العبارات الطويلة أما أهل المدينة فهم أهل كتاب أو متصلون بأهل الكتاب لهم قدرة على إنشاء العبارات الطويلة ، وغرضه التشكيك في أن القرآن من عند الله سبحانه .

والرد على هذه الشبهة نقول :

١ - إن القول بأن القسم المسكى يمتاز بتقطع الفكره واقتضاب المعاني بخلاف القسم المدني قول من لم يتمعن في القرآن ولم يعن بدراسته ومن يرسل القول على عواهنه ، ولم يأخذ من اللغة العربية وأسرارها وآدابها بحظ وافر أما من قرأ القرآن قراءة باحث مستبصر غير ذى هوى وورزق التبحر في اللغة والوقوف على أسرار البلاغة فإنه يصل ولا محالة إلى علم اليقين في هذا وهو أن القرآن كعقد منظم تناسقت جباته ، وتآلفت لآلته ، ونظم في سلك من الذهب الخالص والقرآن كله - مسكيه ومدنيه - معانيه متآلفة وأفكاره منسجمة وآياته متآخية آخذ بعضها بحجز بعض لا تنقطع آية عن سابقتها ولا حقتها ولا ينفر معنى من آخر ولو أن هذا الناقد تناول بعض السور المسكية وبين لنا بطريقة فنية ما فيها من اقتضاب ونفكك لبينا له ما فيها من ترابط وتماسك ولظهر وجه الحق لذى عينين ، أما وقد أرسلها قوله مجردة فهي لا تخرج عن كونها دعوى عارية عن البرهان .

وقد عني العلماء المحققون في القديم والحديث يبحث المناسبات بين الآي والسور وأتوا في ذلك بالعجب العجاب وقد اشتملت بعض كتب التفسير وكتب البلاغة وأسرارها من ذلك على شيء كثير وألف بعضهم في ذلك كتباً مستقلة كما فعل البقاعي في كتابه «لقط الدرر في تناسب الآي والسور» والسيوطي في كتابه «أسرار التنزيل» وبحسبنا هذا الإجمال الآن وعسى أن تكون لنا عودة للبحث التفصيلي في موضعه إن شاء الله .

٢ - أن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذي هو عماد البلاغة العربية ، وليس تابعاً للبيئة ولا الوسط وقد بينت آنفاً السر في سلوك القرآن الكريم العبارات القصيرة حيناً والطويلة حيناً آخر ، فكن على ذكر منه .

٣ - القرآن الكريم قد تحدى العرب قاطبة في بعض السور المدنية كما تحدى في السور المسكية ، وقد جاء التحدى في المدينة بسورة مها قصرت وأما في مكة فقد وقع التحدى بالقرآن كله ثم بعشر سور منه ثم بسورة واحدة أي سورة ، فلو أن أهل المدينة - كما زعم الناقد - كانوا أقدر على إنشاء العبارات الطويلة من أهل مكة وأن القرآن كان متأثراً بهم في الإطالة لكانوا أقدر على معارضة وإتيان ولو بأقصر سورة منه ، ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة ، ورضوا لأنفسهم السكوت وباءوا بالعجز بل عجزهم أشد من عجز أهل مكة ثم أي دارس للأدب تسول له نفسه أن يفضل أهل المدينة على أهل مكة في البلاغة والفصاحة والتصرف في فنون القول والقدرة على إنشاء العبارات ؟

ومعروف أن قريشاً كانت أوسط العرب داراً وأبرعهم في الخطابة والشعر والتفنن في الأساليب ، وإليها كان يحتكم العرب في شعرهم ونثرهم ، وقد ساعدها على هذا اجتماع العرب في مواسم الحج والمجامع الأدبية الحافلة والأسواق السنوية التي كانت تعقد بالقرب من دارهم في عكاظ

ومجته وذى المجاز ، فكانوا يتخيرون من لغتهم ماخف على اللسان ، وحسن
في الأسماع وجاد من الأساليب .

(الشبهة الثانية)

قال : إن القسم المكي يمتاز بمميزات الاوساط المنحطة أما القسم المدني
فتلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة ، فالقسم المكي ينفرد بالعنف والشدة
والقسوة والسباب والوعيد والتهديد مثل : « تبت يدا أبي لهب وتب ،
السورة ، والعصر إن الإنسان لفي خسر » ، « فصب عليهم ربهم سوط
عذاب إن ربك لبالمرصاد » ، « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » ،
أما القسم المدني : « فهادىء لين وديع مسالم يقابل سوء بالحسنى » ، ولورد
على ذلك نقول :

١ - إن القسم المكي فيه ثقافة واستنارة أيضاً وفيه سموورفعة ووقار
وجلال ولين وهو إن قسا فعلى الكافرين والمفسدين وإذا لان فلأخيار
والصالحين وهو في كلا الحالين يدعو لخير الإنسانية جمعاء وعباراته مهذبة
غاية التهذيب ، وكيف لا يكون فيه ثقافة واستنارة وقد تحدث أكثر
ما تحدث عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعن الفضائل
والآداب الإنسانية السامية وبحسبك أن تقرأ أى سورة من السور المسكية
لتعلم ذلك علم اليقين ثم ماذا يريد هذا الطاعن بالسباب ؟؟ إن أراد البذاءة
والفحش من القول فقد كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا
وان أراد ما اشتمل عليه من الوعيد والأندار والتقريع فهذا لا يسمى سبابا
إلا في دماغ قائله وكنا نحب من الناقد المخرب أن يربأ بنفسه وأدبه عن هذا
الإسفاف في التعبير حينما يتحدث عن كتاب كالقرآن العظيم .

٢ - دعواه أن القسم المكي اشتمل على الوعيد والشدة دون القسم
المدني دعوى من لم يطلع على القرآن الكريم أو اطلع ولكن أعتمته

عصيته عن إدراك الحق المبين ، فالقسم المدني اشتمل على الوعيد والإندار كما أن القسم المكي اشتمل على الدعوة إلى اللين والعتو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان .

استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة المدنية الآية ١٧٤ :
« إن الذين يكتفون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم ، ، وقوله في سورة آل عمران المدنية الآية ١٠ : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا وأولئك هم وقود النار ، ، وفي سورة النساء المدنية الآية ٤٦ . « يا أيها الذين آمنوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقًا

لما معكم من قبل أن نطمس وجوهنا فتردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً . وفي سورة المائدة الآية ٧٨ - ٨١ : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم الآيات ، ، إلى غير ذلك من آيات الوعيد في القسم المدني ثم استمع إلى ما جاء في السور المكية حنا على اللين والعتو والتسامح قال تعالى في سورة الأعراف المكية الآية ١٩٩ :
« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ، ، وقال في سورة فصلت المكية الآية ٤٤ ، ٣٥ : « ولا تستوی الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، وفي سورة الشورى المكية الآية ٢٦ - ٤٣ : « فمأ أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يحبون كِبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، ، إلى قوله : « ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، فأى لين وغفو بعد هذا ؟

وهكذا نرى القرآن الكريم يسلك مسلك الوعيد والشدّة متى اقتضى المقام ذلك ويسلك مسلك اللين والعتو والصفح إذا اقتضى الحال ذلك وهذا

هو الأسلوب الحكيم ويرحم الله القائل :
فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم
والقائل :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

٣ - هذه السور والآيات التي ذكرها الطاعن ليس فيها رائحة سباب
ولو علم سبب النزول والمراد بالآيات لما رمى بهذه القولة الجاثرة وإليك ماورد
في سبب نزول سورة أبي لهب أخرج البخارى في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال:
لما نزلت «وانذر عشيرتك الأقربين»، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا
فجعل ينادى يا بنى فهر . يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فاجعل الرجل
إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاه أبو لهب وقريش .
فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم
مصدقى ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقاً قال : «إني نذير لكم بين يدي
عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت تبئ
يدا أبى لهب وتب . . . وأخرج ابن جرير أن امرأة أبى لهب كانت تأتى
بأغصان الشوك فنطرحها في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كانت
تنقل الحديث وتمشى بالنخلة بين الناس فالسورة إذا نزلت ردا على أبى لهب
في دعائه على النبي وإيذائه له وإنذاراً له ولزوجه بأنهما سيصليان النار الشديدة
جزاء لهما على ما صنعوا ولا شك أن في هذا الوعيد ردعا لأبى لهب وزوجه
وأمثالهما ممن يناهضون رسالات الرسل ويسعون في الأرض بالفساد ولأدبى
في أى عرف أو ذوق يعتبر إنذار مثل هذا المعوق عن الخير والحق أمراً
خارجاً عن المألوف وسباباً وشدة ؟ وماذا كان ينتظر هذا الطاعن في الرد
على أبى لهب وزوجه ؟ أكان ينتظر من منزل القرآن الحكيم أن يظهر له
الرضا على مقالته ويقول له يخرج فيزداد بطرا وأشرا ؟ !

وأما سورة «والعصر» ، فليس فيها ما يشتم منه السباب وليس فيها عنف

ولا شدة وكل ما عرضت له السورة أن الناس قسيان :
(١) قسم ناج من الخسران والعذاب فأثر برضوان الله وهم الذين جمعوا
عناصر السعادة الأربعة وهي الإيمان بالله والعمل الصالح ، والتواصي بالحق
والتواصي بالصبر .

(٢) قسم غارق في الخسران مآله إلى الهلاك والعذاب وهم الذين لا يقرون
بإله ولا يدينون بشريعة ولا يعملون صالحا : فهم جرائم شرور ، ولا يتواصون
بحق : فالحق بينهم مضيع ، ولا يتواصون بصبر ؛ فهم في هلع وجرع وبملا يقضى
منه العجب أن يستشهد هذا الناقد بهذه السورة التي أقر بكفائتها وغنائها الأئمة
في القديم والحديث قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - ثم تراها
لم تدع شيئا إلا أحرزته في عباراتها الموجزة حتى قال الإمام الشافعي -
رحمه الله - : لو تدبر الناس هذه السورة لو سعتهم ! أوقال : لو لم ينزل الله
من القرآن سواها لكفت الناس ! ولجلالة ما جمعت روى أنه كان الرجلان
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ
أحدهما على الآخر سورة « والعصر » ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ؛ ذلك
ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه فإذا رأى منه شيئا ينبغي
أن ينبه إليه فعليه أن يذكره له ، (١)

وأما قوله تعالى في سورة الفجر ، فصب عليهم ربك سوط عذاب إن
ربك لبالمرصاد ، فلا سباب فيه ولا عنف وكل ما فيه لإخبار من الحق عز
شاه ، بأن عاداً وثمود وفرعون لما طغوا في البلاد وظلموا العباد وأكثروا
من الفساد أنزل الله بهم العقاب جزاء لهم على ظلمهم وإفسادهم ، فالمراد
بصب السوط إنزال العقوبة الشديدة بهم وهو من المجازات البديعة ، ومعنى
إن ربك لبالمرصاد ، أنه القائم بتدبير الأمور الرقيب على عباده لا يفوته
من شئونهم شيء وهو مجازي كل عامل بعمله فلا يفوته أحد ، فلا يظن أهل

الطغيان الذين يفسدون في الأرض أن يفلتوا من الله وعقابه ، وفي هذا الإخبار تحذير للموجودين والمخاطبين أن يفعلوا مثل ما فعلوا فيما قبلوا مثل ما عوقبوا ، فانظر - أيها القارىء الفطن - كيف اشتملت هاتان الآيتان على وجازتهما على هذه المعاني الثرية والتحذيرات النافعة المفيدة .

وأما سورة دأهاكم التكاثر ، فغاية ما فيها أن يترك الناس التفاخر بالأحساب والأنساب والتكاثر بالأموال والأولاد والتلهى بما لا يفيد وأن يقبلوا على الاشتغال بما يرفع من الإيمان والعمل الصالح ، أما التلهى بالتكاثر والتفاخر فلن يكون من روائه إلا خسران الدنيا والآخرة ، فلا عجب أن يردعهم الله وأن يكرر الردع والزجر فقال دكلا سوف تعلمون ثم كلاسوف تعلمون ، ، ولو علم اللاهون المتكاثرون علم اليقين لأعرضوا عما فيهم ، وأقبلوا على الأعمال الصالحة لأنهم سيرجعون إليه في يوم يحاسبون فيه ويمجازون على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . كلالو تعلمون علم اليقين ، اترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم فالسورة لا تخرج عن كونها وعيداً وتحذيراً وإرشاداً وتعليماً .

الشبهة الثالثة

قال : إن القسم المسكى يمتاز بالهروب من المناقشة وبالخلو من المنطق والبراهين فيقول . دقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، إلى دلكم دينكم ولى دين ، بخلاف القسم المدنى فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين . فيقول دلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ويستدل بهذا على تأثر القرآن بالبيئة والوسط وغرضه التشكيك فى أن القرآن من عند الله

وهذا الكلام منقوض بما يأتى :

١ - أنه لا يجرؤ على هذه المقابلة إلا أحد رجلين إما جاهل أغرق فى

جهله فلا يكاد يميز بين المكى والمدنى وإما زنديق أعمته زندقته عن إدراك الحق الظاهر وقد سقط هذا الباحث الناقد والمفكر الجرىء سقطه لا إقالة له منها ولا يكاد يقع فيها الطلاب المبتدئون فضلاً عن الباحثين ؛ ولو تناول مصحفاً وأمر القارىء له أن يقرأ ما كتب قبل مفتتح سورة الأنبياء لوجد سورة الأنبياء مكية وآياتها ١١٢ : ولو تناول كتاباً من كتب الفن لعلم أن سورة الأنبياء مكية بلا استثناء عند جمهور العلماء وباستثناء آية أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، عند البعض ، ومهما يكن من شىء فالآية التى استدلت بها مكية بالإجماع وكيف تتفق هذه السقطة التى لا تكون من مبتدىء وما أضفاه على نفسه من الصفات الطنانة والعبارات الجوفاء ؟ الحق أنه قدم لنا الخنجر للإجهاز عليه .

وأن نظرة بسيطة فى السور المكية اترينا أنها استفاضت بالأدلة والبراهين القطعية ، اقرأ إن شئت فى إثبات الإله قوله تعالى فى سورة الغاشية ، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت الآيات (١) وقوله تعالى فى سورة الواقعة نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفأرىتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون إلى قوله « فسيح باسم ربك العظيم (٢) »

واقراً أيضاً فى إثبات الوجدانية فى سورة الأنبياء المكية ، لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا (٣) ومهما أسهب الفلاسفة وعلماء الكلام فى إقامة الأدلة والبراهين على الوجدانية فلن يخرجوا عن فلك هذه الآية على وجازتها وقصرها . وفى سورة المؤمنين ، المكية ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، الآية (٤) وفى سورة النحل ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان

(١) الغاشية ١٧ - ٢٠ (٢) الواقعة ٥٧ - ٧٤

(٣) الأنبياء ٢٢ (٤) المؤمنون ٩١

لكم أن تثبتوا شجرها إله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون، إلى قوله دقل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، (١)

واقرا إن شئت في التدليل على إمكان البعث في سورة يس المسكية ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، إلى آخر السورة (٢) وقوله تعالى في سورة الاحقاف المسكية الاية ٣٣ ، أولم يروا أن الذى خلق السموات والارض ولم يعى مخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ، وكذلك يعرض القرآن في السور المسكية لإثبات الرسالة بالمنطق السليم والحجج الدامغة فيقول في جواب المشركين لما قالوا ، وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، ، وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، الفرقان الاية ٢٠ ، ولما قالوا هل هذا إلا بشر مثلكم ، قال في جوابهم : ، وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، (٣)

ولو تتبعنا الأدلة والبراهين التي زخر بها القسم المسكى لطال المقام وبجسبتنا هذا المقدار .

أما ما ذكره الطاعن من سورة ، قل يا أيها الكافرون ، فلا يصلح أن يكون دليلا لان السورة لم تسق مساق الدليل وإنما سيقمت للرد على كفار قريش لما رغبوا إلى النبي أن يعبدوا آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأنزل الله على نبيه هذه السورة تأييساً لهم وقطاً لاطباعهم وليبيان أنهم قوم مخادعون ولن تكون منهم عبادة لله الواحد القهار ، وقد جاءت السورة على هذا النسق البديع ، لا أعبد ما تعبدون ، فنى أن تقع منه عبادة لآلهتهم ثم قال ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، فأتى بالجملة الإسمية لإفادة أن عدم عبادته لآلهتهم ثابت مستمر فقيه قطع لاطباعهم على أبلغ وجه وآ كده ومثل هذه السورة سورة الإخلاص

فقد أجمل الله فيها العقيدة الخالصة من غير إستدلال ، لأنها نزات جواباً للشركين ، أو لليهود لما قالوا للنبي ﷺ : أنسب لنا ربك ، أى بين لنا ذاته وصفته فأنزل الله السورة ، ولا يفرب عن أذهاننا أن السورتين بمنزلة النتيجة لمئات الأدلة والبراهين التى أقامها الله على إثبات الصانع جل وعلا ووحدانته وصفاته واستحقاقه التفرد بالعبادة ، وأعل من اللطائف وقوعها فى الترتيب الكتابى فى آخر القرآن كما تقع النتيجة من مقدماتها فلا عجب أن جاءنا على هذا الوضع .

الشبهة الرابعة

قال : إن القسم المسكى خال من التشريعات التفصيلية والقوانين أه القسم المدنى فينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث ، والوصايا والزواج ، والطلاق ، والبيوع وسائر المعاملات ؛ ولا شك أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن . وغرضه بهذا التشكيك فى أن القرآن من عند الله .

ولرد على هذا نقول :

(١) إن هذا الفرق بين المسكى والمدنى قد عرضنا له لما تحدثنا عن خصائص المسكى والمدنى وقد تنبه العلماء إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين ، ولكن ليس السبب ما ذكره من تأثر القرآن بالبيئة ، وإنما السبب فى هذا أن أهل مكة كانوا يتكرون أصول الإيمان والشرائع ، فكان الملائم لهم دعوتهم إلى هذه الأصول حتى إذا ما استضاءت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه كلفوا بالتشريعات التفصيلية وهذا ما كان .

وأن من خطئ رأى أن نأتى لهم بالفروع والأحكام العمالية قبل أن يؤمنوا بالأصول فكان نهج القرآن ، معهم وهو الملائم للفطر وبدائنه العقول .

(٢) كيف يصح فى العقول أن يكون النبي والمسلمون قد أخذوا عن أهل

الكتاب من اليهود وتثقفوا بثقافتهم مع أن القرآن الكريم نص عليهم في غير ما آية وسورة ، كفرهم ، وفسقهم ، وجرائمهم على الله وسفاهتهم على رسله وبين جحودهم للحق ، وانكارهم له مع معرفتهم وتحريفهم للتوراة ، وكانعى عليهم حسدهم وظلمهم وبغيهم وسوء طويتهم وخبت طباعهم وخيانتهم وتضييعهم للأمانة وعدم تناهيهم عن المنكر إلى غير ذلك مما لا يجمله من قرأ القرآن واطلع عليه ، وقد لعن القرآن الكريم اليهود في غير موضع وأمر النبي ﷺ أن يتحداهم كما في قوله تعالى ، قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، البقرة الآية ٩٤ ، وقوله ، قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، آل عمران الآية ٩٣ .

فلو أن النبي أخذ عن أهل الكتاب وتعلم منهم وتأثر بثقافتهم لأظهروا ذلك دفاعاً عن أنفسهم ولقالوا : كيف نعلمك وتسفهننا وترميننا بالكفر والفسق والكذب ؟ وكيف نثقفك وتلعننا وتتناول علينا ؟

ولكنهم لم يفعلوا بل ألقوا حجراً وباؤا بالخزي والذلة والتشريد ، وهكذا يتبين لنا أن موقف القرآن من اليهود كان موقف المعلم والناقد والناعى والموبخ والمتحدى لا موقف المتعلم والآخذ والمستفيد وهو شيء يقتل هذا الطعن من أساسه ويرمى به في مهامه الضلال والشكوك .

(٣) أن الفرق بين التشريع الإسلامى الذى عرضت له السور المدنية والتشريع الإسرائيلى عظيم جداً فالإسلامى أرقى وأعلى وأشمل من الإسرائيلى من كل وجه ، وناهيك بكونه تشريعاً عاماً لجميع البشر وفى جميع الأزمنة والامكنة ومن أسسه المساواة فى الحق والعدل بين جميع الشعوب والقبائل والأفراد لا تمييز فيه بين ملك وسوقة ولا بين شريف ووضع ، ولا بين قوى وضعيف ولا بين غنى وفقير .

والتشريع الإسرائيلى كان خاصاً بشعب خاص وموقوتاً بوقت خاص

فلا يصلح أن يكون أساساً لتشريع عام خالد وهو تشريع الإسلام الذي انتشل الانسانية من وهبتها وأضاء النفوس بعد ظلمتها وحرر العقول بعد إسارها وملا الأرض هداية وعلماً وعدلاً ورحمة بعد أن ملئت كفرآ وضلالاً وجهلاً وظلماً وقسوة وتجبراً وكيف يجوز في العقول أيضاً أن يستمد السابقون الأولون من المهاجرين ثقافتهم وتشريعاتهم من اليهود وهم الذين أصلحوا جميع الشعوب بهداية القرآن والتأسي بأكمل الخلق على الاطلاق وشهدت لهم أعمالهم وأخلاقهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس وقد أجمع المؤرخون من الأفرنج وغيرهم على أن أعظم أسباب نجاح الإسلام في انتشاره السريع وفتوحاته المظفرة الكثيرة ما كان عليه أهل الملل كلها من فسوق وفساد والدول كلها من ظلم واستبداد وإغراق في المذات .

الشبهة الخامسة

قال : إن القسم المسكى يكثر فيه القسم بالضحى ، والشمس ، والقمر ، والنجوم والفجر ، والعصر ، والليل ، والنهار ، والتين ، والزيتون إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .

أما القسم الثاني فقد خلا من القسم بهذه المحسوسات : وغرضه تأثر القرآن بالبيئة ليصل إلى التشكيك في القرآن وهذا الكلام مردود بما يأتي :

١ - دعوى أن البيئة المسكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ما وراء الحس ، دعوى لم يقم عليها دليل ، ويكذبها الواقع ، والتاريخ الصحيح ، فقد كان أهل مكة أوفى ذوقاً ، وأرهم شعوراً ، وأذكى عقولاً من أهل المدينة . وأن فيما قصة القرآن عنهم من مجالات وخصومات وما اشتدل عليه القسم المسكى من إيجاز وبراهين ما ينقض هذا الاتهام ، وكيف يفهم هذه البراهين ، من لا يسمو نظره عن المحسوسات والتاريخ الصحيح أعدل حاكم وخير شاهد على امتياز قريش عن سائر القبائل في عهد نزول القرآن ، ولكي تكون على

بينه من ذلك سأذكر لك قصة ذلك أنه لما نزل قوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» قال ابن الزبيرى والله لو وجدت محمداً لخصمته قد عبت الشمس والقمر والملائكة وعزيز وحيسى ابن مريم كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا؟ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له «إنهم إنما يعبدون الشيطان، ومن أمرهم بعبادته (فأنزل الله سبحانه) إن الذين سبقتم مننا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وأنزل الله أيضاً (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خير أم هو؟ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون (١) وتأمل فى قوله سبحانه (خصمون) وهل يجيد الجدل الجاهل الساذج؟

٢ — إن الله سبحانه أقسم فى القسم المسمى بالمعقول كما أقسم بالمحسوسات فمن ذلك قسمه بالقرآن فى قوله (يس، والقرآن الحكيم) وأقسم بالملائكة فى قوله (والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً الآيات) وأقسم بالنفس الناطقة فقال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) (٢) وأقسم بحياة الرسول فى قوله (لعمرك إنهم لنى سكرتهم يعمّهون (٣)) وأقسم بذاته تعالى فقال فوربك لنسألنهم أجمعين (٤)، فلا أقسم برب المشارق والمغرب (٥) وأقسم بما لا يقع تحت الحس والمشاهدة فقال (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون (٦)).

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١٧ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) سورة والش ص ٧ . ٨

(٣) سورة الحجر ٧٢ .

(٤) الحجر ٩٢ .

(٥) المعارج ٤٠ .

(٦) الحاقة ٣٨ ، ٣٩ .

وأقسم بالزمن فقال (والعصر) وهكذا يتبين لنا أن الله أقسم في القسم المكي بالمعقولات كما أقسم بالمحسوسات .

٣ - إن القسم بهذه الأشياء لا لتكونها محسوسة ، وإنما هو تنبيه إلى ما تشتمل عليه من إحكام في الخلق والصنعة وما تنطوى عليه من أسرار وعجائب نعم وآلاء فيؤدى النظر فيها إلى الايمان بخالقها وموجدها ، والاذعان لما جاء به الرسول ، كما في القسم بالشمس ، والقمر ، والنجوم والليل والنهار أو إلى استخدامه في النافع وعدم تضديعه كما في القسم بالعصر ، وبعض ما أقسم الله به مما هو محسوس قد يقصد به التذكير بما وراء الحس كما في القسم بالتين والزيتون الخ .

قال الامام الشيخ محمد عبده في تفسير (١) ، والتين والزيتون ، ما خلاصته وقد يرجح أنهما - التين والزيتون - النوعان من الشجر ولكن لافوائدهما كما ذكروا بل لما يذكران من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر قال صاحب هذا القول : أن الله أراد ان يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسانية الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فالتين إشارة إلى عهد الانسان الأول فإنه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين ، والزيتون إشارة إلى عهد نوح فقد ارسل بعض الطيور لعله يأتي بخبر انكشاف الماء عن الأرض فغاب ولم يأت بخير ثم ارسل آخر فجاء إليه يحمل ورقة من الزيتون ، فاستبشر وسر وعرف ان غضب الله قد سكن وقد اذن للأرض ان تعمر وطور سنين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تدهست جوانب الأرض بالوثنية ، ثم لما طال الأمد على البشرية حتى كادت ان تطمس معالم التوحيد والحق والشرايع من الله على البشرية تار يخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من اطوار الانسانية

وبين ما يباحق وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة وإليه الإشارة بذكر البلد الأمين وقد يكون القسم بالشئ لمنزلته وإظهار كرامته عند الله كما في القسم بحياة الرسول والملائكة والقرآن توافق عجيب بين المقسم به والمقسم عليه قد يخفى على غير ذى العقل الذكي والنظر الشفاف والحس الدقيق، الذى يحكم على الأشياء بادية الرأى من غير رؤية وتفكير .

وقد ألف العلماء فى أقسام القرآن كتباً مستقلة ، ولعل أحفلها وأجلها - فيما أعلم - التبيان فى أقسام القرآن ، لابن القيم ، فمن أراد زيادة فى معرفة أسرار الأقسام فليرجع إليه ففيه ما يكفى ويثفى .

الشبهة السادسة

قال : إن القسم المسكى قد افتتح كثير من سوره بالفاظ غير ظاهرة المعنى مثل الموحم ، وطسم ، وكهيعص ، حم عسق والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد ، وهو يتانى كون القرآن هدى وبيانا ، وهذه الكلمات ربما قصد بها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق خيف ، أو هى رموز وضعت لتمييز بين المصاحف المختلفة التى كانت موضوعة عند العرب فمثلاً « كهيعص » رمزاً لمصحف ابن مسعود و « حم عسق » رمزاً لمصحف ابن عمر وهلم جرا ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا .

وأسرف بعض النصارى فى مجاوزة المعقول فقال على سبيل الحدس (١) أنها أحرف وضعها كتاب محمد برأس السورة اختصاراً من قولهم . أوعز إلى محمد ، وذلك على حد ما وضعه بعض كتابه من اليهود « كهيعص » برأس

(١) نقل هذا الهراء عن بعض النصارى « جرجيس سايل » المستشرق الانكليزى فى مقاله عن الاسلام وزعم أنه أدنى إلى الاصابة من أقوال المفسرين فى هذه الفروع وليس هذا بمستغرب منه فانها شئ شئنة تعرفها من أخزم

سورة مريم اختصاراً من قولهم بالعبرانية « كهعيص ، أى هكذا أمر (١) -
وهذا الكلام منقرض بما يأتي :

١ - دعوى أن هذه الألفاظ ليس لها مدلول دعوى من لم يطلع على آراء العلماء فيها ، وقد ذهب الكثيرون إلى أنها أسماء للصور ، وذهب المحققون إلى أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة ، وفائدة ذكرها في فواتح السور : أما إقامة الحججة على إعجاز القرآن من أقصر طريق وأسهله ، ذلك أن هذا القرآن مركب من جنس هذه الحروف الهجائية التي منها يركبون كلامهم ، وبها يخاطبون ، وقد تحداهم المرة تلو المرة أن يأتوا بشئ منه ، فعجزوا وما استطاعوا ، فكان هذا دليلاً ساطعاً على أنه ليس من عند بشر وإنما هو من عند خالق القوى والقدر ، وإما تنبيه السامع إلى ما يتلى بعدها لاستقلالها بنوع من الإغراب فهي كأداة التنبيه لما يتلى بعدها فيفرغ السامع لذلك قلبه وسمعه فتقوم عليه الحججة باستماع القرآن وقد يقع الكلام من نفسه موقع التأثير فيؤدى به إلى الإيمان ، فهي إذا ليست غير مفهومة المعنى والخطاب بهاليس من قبيل الخطاب بها ليس من قبيل الخطاب بما لا معنى له .

ولو سلمنا أنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه فلا تنهض للطعن فى كون القرآن هدى وبيانا ، لأنها ألفاظ قليلة جداً بالنسبة إلى الألف المؤلفة من كلمات القرآن التى تدل معنى معروف عند المخاطبين ، وهى على هذا الوجه جاءت لحكمة سامية وهو الإبتلاء والاختبار ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه وراسخ العلم من عدمه (فأما الذين فى تلويهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (٢) فلم يكن وجودها فى القرآن عبثاً وحاثا لله أن يكون فى القرآن شئ منه .

(١) نقض مطاعن القرآن ص ٨٠ هامش .

(٢) آل عمران ٧ .

٢ -- دعوى أنها ألفاظ قصد بها التعمية ، أو التهويل ، أو أنها رموز لمصاحف ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن دعوى لم يقيم عليها ائارة من علم ، وإنما هو أمر فرضى وتشكيك بين أمرين ثبوت أحدهما ينفي الآخر فكونها قصد بها التهويل الخ يقتضى أنها نطق بها الرسول وكانت فى عهده وكونها رموز الخ يقتضى أن لا تكون نطق بها الرسول ولا كانت فى عهده ، والامور الفرضية والتشكيكات لا تليق بالبحث التنزىة القويم فى كتاب كريم ، تواترت الدلائل على تواتره فى جملته وتفصيله وسلاسته من التبديل والتحريف .

ولو فتحنا باب الفروض والتخمينات التى لاسند لها من عقل ولا نقل لم تثبت حقيقة ولعاد ذلك بالنقض على الكثير من العلوم والمعارف .

ودعوى أنها من وضع بعض الكتبة اليهود الذين كانوا يكتبون الوحى للنبي صلى الله عليه وسلم أشد من تلك بطلانا فى أى كتاب من كتب التواريخ العربى منها وغير العربى أن النبي كان له كتبة من اليهود ؟ وكيف يأتى النبي يهوديا على كتابة الوحى وعنده صفوة من أصحابه المخلصين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة ؟ وفى أى لغة من لغات العالم أن د ألم ، أو د طس ، أو كهيعص ، معناها أو عز إلى محمد أو أمرنى محمد وما ذكره الطاعن النصرانى فى د كهيعص ، لا يخرج عن عبث الصبيان فإن هذه الفاتحة لا تقرأ كما سول له هواه كى يجعل لها نسبا إلى العبرانية وإنما تقرأ على نهج آخر ثبت بالتواتر وتلقاه الخلف عن السلف والقراءة سنة متبعة ليست بالهوى ولا بالتشهى ، ولا يغيب عن ذهننا ان جل هذه الفوائخ -- وبخاصة فاتحة مريم -- إنما نزل بمكة ومن قال أن مكة كان بها يهود ؟ ! الحق أن هذا الكلام لا يصدر الا من تجرد من الحياء وصدق القائل إذا لم تستح فاصنع ما تشاء ! .

٣ -- كيف غاب عن الناقد الباحث أن الصحابة والتابعين بالغوا جداً فى العناية بالقرآن والمحافظة عليه من أى دخيل حتى ولو كان حرفا وانهم حينما كتبوا المصاحف بالغوا فى تجريدتها بما ليس بقرآن حتى أنهم لم يجمعوها

ولم يشكروها ولم يكتبوا أسماء السور وعدد الآيات في مقدمة كل سورة وما يوجد في المصاحف اليوم من النقط والشكل وكتابة أسماء السور فذلك أمر مستحدث في العصر الأموي فكيف يجوز الناقد الباحث أن تكون هذه الألفاظ رموزاً لمصاحف الصحابة ثم لحقت بمرور الزمن بالقرآن؟ وهل هذا يتفق هو وقواعد النقد التحليل الذي كثيراً ما يلجج به؟ وكيف غاب عن ذهن الناقد الباحث أن القرآن لم يكن يتلقى من المصاحف وإنما كان يتلقى بالرواية والسماع، وأنه ثابت بالتواتر الشفاهي يأخذه الخلف عن السلف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كانت كتابة القرآن زيادة في التوثق والاطمئنان وليجتمع للقرآن الحفظ في السطور إلى الحفظ في الصدور، الحق أنه ما كان يليق بباحث ناقد أن يغفل كل هذا.

« وبعد ، فلعلك أيها القارىء أدركت معنى أن هذه الشبه باطلة ، وأنها لا تعدو أن تكون هراء من القول دعا إليه موجدة قديمة ، وسخيمة نفس أبت إلا أن تستعلن فبرزت في هذا الزور من القول ، أو تعصب بغيض وجهل فاضح بالقرآن ومقاصده ، وأن محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم لمحاولة فاشلة « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون^(١) فلا تلق إلى هذه الشبه بالا فهي لا تعدو أن تكون دعاوى من أذعيا ، ويرحم الله القائل :

والدعاوى مالم تقيموا عليها يد نأت أبنائها أذعيا.

وجرد من نفسك مجاهداً ينافح عن كتاب الله بلسانه وقلبه . فإن المناخفة عن الحق أشرف الجهاد وأسماء ، وكتاب الله كله حق وهدى ونور وصدق وعدل ، وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته . (٢) « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، (٣)

(١) التوبة ٢٢ (٢) الأنعام ١١٥

(٣) فصلات ٤١ ، ٤٢

صلات تتعلق بالمسكى والمدنى

وهناك أنواع ذكرها السيوطى فى اتقانه ، وهى بسبب من المسكى والمدنى كالخضرى والسفرى ، والليل والنهارى ، والصيفى والشتائى وما تقدم نزوله على حكمه ، وما تأخر نزوله عن حكمه . وأيضاً ذكر بما يتعلق بالمسكى والمدنى وما حمل من مكة الى المدينة ، وما حمل من المدينة الى مكة أو غيرها ، وقد أفاض الإمام السيوطى فى ضرب الأمثلة ، ولن نفعّل مثل ما فعل ، ولسكنا سنسكتفى بضرب بعض الأمثلة ، ومن أراد استيعاباً فعليه بالرجوع الى الإتيقان (١)

الصلة الأولى

الخضرى والسفرى : أمثلة الخضرى كثيرة ، وجل القرآن نزل فى الخضر ، أما السفرى فله أمثلة منها :

- (١) قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله ، ودليله ما أخرجه ابن أبى حاتم عن صفوان بن أمية قال جاء رجل إلى النبي ﷺ مضمخاً بالزعفران عليه جبة فقال : كيف تأمرنى فى عمرتى ؟ فنزلت ، فقال : أين السائل عن العمرة ؟ ألق عنك ثيابك ثم اغتسل بالحديث (٢) ، وقوله فى هذه الآية « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ، الآية (٣) نزلت بالحديبية ، كما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة الذى نزلت فيه ، والواحدى عن ابن عباس
- (٢) قوله تعالى : وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم

(١) ج ١ ص ١٨ - ٢٢

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره بعد ما ساق هذا الحديث . هذا حديث غريب وسياق عجيب ، ثم بين أن القصة التى فى الصحيحين عن يعلى بن أمية ، وليس فيها ذكر نزول الآية (٣) البقرة ١٩٦

معك ، الآية (١) نزلت بعسفان بين الظهر والعصر ، كما أخرجه أحمد عن أبي عياش الزرقى .

(٢) قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم ... ، ففي الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

(٤) قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » ،

الآيات (٢) نزلت في غزوة تبوك ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

(٥) سورة الفتح ، ففي صحيح البخارى فى قصة عمر مع رسوله رسول

الله ﷺ أن النبي قال : لقد أنزلت على الليلة سورة لهن أحب إلى ما طلعت

عليه الشمس ، ثم قرأ « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، وكان ذلك منصرفه من

الحديبية ، وأخرج الحاكم فى المستدرک عن المسور بن مخرمة ومروان ابن

الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من

من أولها إلى آخرها .

(٦) سورة المنافقين ، أخرج الترمذى عن سفيان أنها نزلت فى غزوة

بنى المصطلق ، وبه جزم ابن اسحاق وغيره .

(٧) سورة المرسلات ، أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : بينها

نحن مع النبي ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت عليه : والمرسلات الحديث .

الصلة الثانية

النهارى والليلى : - أمثلة النهارى كثيرة جدا قال ابن حبيب : نزل

أكثر القرآن نهاراً ، أما الليلى فمن أمثلته .

(١) قوله تعالى : « إن فى خلق السموات الأرض واختلاف الليل

والنهار آيات لأولى الأبصار » (٣) فقد أخرج ابن حبان فى صحيحه وابن

(١) النساء ١٠٢

(٢) التوبة ٤٢ وما بعدها

(٣) آل عمران / ١٩٠

المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير» عن عائشة أن بلالا أتى النبي ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي فقال: يا رسول الله ما يبكيك قال: وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي هذه الليلة - وإن في خلق السموات الآيات - ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر.

٢ - آية الثلاثة الذين خلفوا وهي دو على الثلاثة الذين خلفوا، الآية (١) في الصحيحين من حديث كعب فأنزل الله توبتنا حين بق الثلث الأخير من الليل والثلاثة كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

٣ - سورة مريم روى الطبراني عن أبي مريم الغسالي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية فقال: واللييلة أنزلت على سورة مريم، سمها مريم.

٤ - سورة الفتح في الحديث الصحيح أن ذلك كان ليلا

٥ - آية التيمم التي في المائة في الصحيح عن عائشة وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة، إلى قوله «لعلكم تشكرون» (٢)

٦ - قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء»، الآية (٣) في الصحيح أنها نزلت والنبي في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح حين أراد أن يقنت يدعو على أبي سفيان ومن ذكر معه.

الصلاة الثالثة

الصيف والشتاء (٤): بما لاشك فيه أن القرآن نزلت منه آي كثيرة

(١) التوبة ١١٨ (٢) المائة / ٦

(٣) آل عمران ١٢٨

(٤) الظاهر أن مرادهم بالصيف أيام الحر وما يقرب منها وبالشتاء أيام البرد

في الصيف، وآى كثيرة في الشتاء فمن أمثلة الصيف وقد أحصى أحد العلماء بعضاً من ذلك .

١ - قال الواحدى أنزل الله في الكلاله آيتين إحداهما في الشتاء . وهى التى فى أول النساء ، وإن كان رجل يورث كلاله النخ (١) والأخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها ويستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلاله الآية (٢) وفى صحيح مسلم عن عمر قال : ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء ما راجعته فى الكلاله . وما أغلظ فى شىء ما أغلظ لى فيه حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال يا عمر : ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء ؟ وقد كان ذلك فى سفر حجة الوداع ، فيعد من الصيف ما نزل فيها كأول المائدة و (اليوم أكملت لكم دينكم)

٢ - ومن الصيف الايات النازلة فى غزوة تبوك فقد كانت فى شدة الحر كما دل عليه القرآن والسنة .

وذلك مثل لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك الآية ، ومثل آية « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » (٣) وآية « ومنهم من يقول انذنى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ، الآية (٤) »

ومن أمثلة الشتاء :

١ - قوله تعالى : « إن الذين جاؤا بالإفك ، إلى قوله ، ورزق كريم » فى الصحيح عن عائشة أنها نزلت فى يوم شات .

٢ - الايات التى نزلت فى غزوة الخندق فى سورة الأحزاب فقد كانت فى شدة البرد كما يدل على ذلك القرآن وما ذكر فى المغازى فى حديث حذيفة

وما يدنو منها وبهذا الاعتبار تكون السنة ما بين صيف وشتاء إذ أيام الاعتدالين الربيع والحريف أما قريبة من الصيف أو قريبة من الشتاء

(٢) النساء ١٧٦

(١) النساء / ١٢

(٤) التوبة ٤٩

(٣) التوبة / ٨١

تفرق الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلاً فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم فانطلق إلى معسكر الأحزاب ، قلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قتت لك إلا حياة من البرد ، الحديث وفيه فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ، الخ الايات (١) أخرجه البيهقي قى الدلائل .

الصلة الرابعة

ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه (٢)

فمن أمثلة ما تأخر حكمه عن نزوله .

١ — قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى (٣) » فقد روى البيهقي وغيره عن ابن عمر أنها نزلت فى زكاة الفطر . وقد استشكل ذلك لأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد مشروع ولا زكاة ولا صوم ، وقد أجاب البغوى بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم وهو جواب حسن

٢ — قوله تعالى : سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤) فقد نزلت بمكة قطعاً ولم يكن شرع الجهاد ، وقد استشكل عمر ذلك ثم تبين له أن المراد بالجمع جمع بدر فقد روى عنه أنه قال حين نزلت الآية ، أى جمع فلما كان يوم بدر وانهمزت قريش نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم مصلتا بالسيف يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فكانت ليوم بدر ، فيكون من الإشارات والنبوءات الغيبية التى أظهرت الايام صدقها ، وكانت من دلائل النبوة .

(١) الأحزاب ٩ وما بعدها

(٢) الانشقاق ١٣ - ٢٧ (٣) الاحلى ١٤ / ١٥

(٤) القمر / ٤٥

(٢) — قوله تعالى : «قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»^(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن المراد بالحق السيف يعني الجهاد واستشكل بأن الآية مكية متقدمة على فرض القتال ، والجواب أن هذا مما تقدم نزوله على حكمه ، ويؤيد تفسير ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضا . قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا فجعل يطعنها بهود كان في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وما يبدىء الباطل وما يعيد .

٢ — قوله تعالى : «وآتوا حقه يوم حصاده»^(٢) فالمراد بها الزكاة وقوله تعالى في سورة المزمل « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»^(٣) فهذا مما تأخر حكمه عن نزوله إذ الزكاة إنما شرعت بالمدينة ، أقول ، : وهذا على رأى بعض العلماء ، وعلى أن السورتين كلتيهما مكيتان .

ويرى فريق العلماء أن فرض الزكاة كان بمكة ، أما تفصيل أحكامها وأنصبتها ، وبيان مصارفها فكان بالمدينة ، وعلى هذا فلا تكون الآيتان من هذا القبيل ، وأما الحكمة في تقدم النزول عن الحكم فقد أشار إليها ابن الحصار بقوله : «قد ذكر الله الزكاة في السور المكيات كثيرا تصریحا وتعريضا بأن الله سينجز وعده لرسوله ويقيم دينه ، ويظهره حتى يفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف ، أقول : لعل مراده بالأخذ بالتنفيذ العملي فان ذلك لم يكن إلا بالمدينة قطعا ، أما أصل المشروعية فللعلماء فيها خلاف كما ذكرت ، وأيضا وليكون ذلك من أعلام صدقه ، ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمه :

١ — آية الوضوء في صحيح البخارى عن عائشة قالت سقطت قلادةلى

[١] سبأ / ٤٩ [٢] الأسماء ١٤١ [٣] المزمل ٢

بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونزل
فنتى رأسه في حجرى راقداً وأقبل أبو بكر فلكزنى لسكرة شديدة ، وقال
حبست الناس في قلادة ، ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ وحضرت
الصبح فالتمس الماء فلم يوجد . فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة»
إلى قواه «لعلمكم تشكرون» فالآية مدنية إجماعاً ، وفرض الوضوء كان بمكة
مع فرض الصلاة قال ابن عبد البر . معلوم عند جميع أهل المغازى أنه صلى
الله عليه وسلم لم يصل منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء ولا بدفع ذلك
إلا جاهل أو معاند ، قال . والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل
به ليكون فرضه متلوا بالتنزيل ، وجوز غيره أن يكون أول الآية نزل
مقدماً مع فرض الوضوء ، ثم نزل بقيتها وهو ذكر التيمم في هذه القصة
ويرد هذا الاحتمال أن الآية مدنية بالإجماع .

٢ - آية الجمعة (١) فإنها مدنية والجمعة فرضت بمكة ، وأما مقاله ابن
الغرس : إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط فيرده ما أخرجه ابن ماجه عن
عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، قال : كنت قائد أبي حنين ذهب بصره
فكنت إذا أخرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان يستغفر لأبي أمامة أسعد
ابن زرارة فقلت يا أبتاه أرايت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت
النداء بالجمعة لم هذا ؟ قال : أى بنى كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم
رسول الله ﷺ من مكة .

الصلوة الخامسة

ماحل من مكة إلى المدينة : فمن أمثلة ذلك سورة سبح ، فقد أخرج
البخارى عن البراء بن عازب أنه قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي
ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرءانا القرآن ثم جاء عمار

وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي ﷺ، فمأرايت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولا ئد والصبيا ن يقولون هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت « سبح اسم ربك الأعلى » في سور مثلها من المفصل .

ماحمل من المدينة إلى مكة : من ذلك قوله تعالى ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، الآية (١) وهذا إنما يتجه على أن السائل هم المشركون فقد روى أن وفدا منهم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد سرية عبد الله بن جحش وقتلهم ابن الحضرمي من المشركين وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأرجف المشركون وقالوا ، إنهم قتلوه في الشهر الحرام أى رجب ، فأنزل الله الآية دفاعا عن السرية ، واعتذارا عما بدر منها ، وأنه شئ قليل بجانب ما يصدر عن المشركين من إجرام في حق الله ودينه وبينه والمسلمين فيكون الوفد لما قرئت عليه حملها معه ، أو أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من حملها إليهم في مكة .

ومن ذلك أيضا صدر سورة براءة فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم به عليا ليقرأه على الناس في الموسم سنة تسع كما في الصحيح ، ومن ذلك آية الربا في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » فقد اختلف بنو عمرو بن عمير من ثقيف مع بني المغيرة ابن عبد الله ورفعوا الأمر إلى أمير مكة عتاب بن أسيد فرفع الأمر إلى رسول الله فنزلت فأرسل بها النبي إلى عتاب بن أسيد (٢)

ماحمل من المدينة إلى الحبشة : ومثاله كسورة مريم فقد صح أن جعفر ابن أبي طالب قرأها على النجاشي لما ذهب رسولا قريش إلى النجاشي كي يرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة إلى مكة فأبى حتى يسمع كلامهم فتسكلم

(١) البقرة ٢١٧

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى جزء ٢ ص ٦٤

جعفر بن أبي طالب فأحسن وأجاد فقال له النجاشي هل معك من شيء مما جاء به عن الله تقرؤه علي؟ فقال جعفر نعم وقرأ عليه سورة مريم فلما سمع النجاشي السورة قال: إن هذا والله جاء به موسى ليخرج من مشكاه واحدة وقال البطارقة: هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح.

ما حمل من المدينة إلى الزوم: ومثاله قوله تعالى: قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبها في الكتاب الذي بعث إلى هرقل عظيم الروم (١) والمقوقس عظيم مصر.

الصلة السادسة

ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً:

أما الأول فأمثلته كثيرة لا يحصيها العد لأن غالب القرآن نزل كذلك. فمن ذلك في السور القصار سورة اقرأ فقد نزل صدرها إلى «مالم يعلم»، والمدثر نزل صدرها إلى «والجز فالحجر»، والضحى نزل صدرها إلى «فترضى»، ثم نزلت أواخرها بعد هذا، وفي السور الطوال صدر سورة براءة وصدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية بسبب وفد نجران لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم.

ومثال الثاني في السور القصار الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت ولم يكن والنصر والمعوذتان، وفي السور الطوال من المفصل والمرسلات، وسورة الصف وما ذكروه من السور الطوال سورة الأنعام فقد أخرج أبو عبيد

والطبراني عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمسكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك ، وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت سورة الإنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك ، وهذا الذي ذكره غير مسلم ، فان سورة الأنعام وإن كانت مكية إلا أن منها آيات مدنية قطعاً مثل قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره ، إلى ثلاث آيات فقد نزلت بسبب مالك بن الصيف أحد أخبار اليهود ، كما يدل على ذلك سبب النزول ، واستثنى بعض العلماء غير هذه الآيات الثلاث ، وأما الآثار التي ذكرها فلم تثبت ، قال ابن الصلاح في فتاويه : الحديث الوارد في أنها نزلت جملة واحدة رويناها من طريق أبي كعب ، وفي إسناده ضعف ، ولم تر له إسناداً صحيحاً وقد روى ما يخالفه ، فروى أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها فقتل ثلاث وقيل ست وقبل غير ذلك (١) .

أما نزولها مشبعة فأمر محتمل إذا ثبتت به الرواية ويكون التشيع لجلها وما نزل منها لا يجمعها كما ذكرنا .

المبحث السابع (جمع القرآن وتاريخه)

جمع القرآن يطلق تارة ويراد به حفظه وتقييده في الص - دور ويطلق تارة ويراد به كتابته في الصحف والسطور وجمع القرآن بهذا المعنى الثاني مر بأطوار ثلاثة .

(١) جمعه في عهد النبي ﷺ :

(٢) جمعه في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) جمعه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وستنكلم عن كل جمع منها مبينين خصائصه ومميزاته والأسباب الباعثة عليه

(جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور)

كان النبي ﷺ ينزل عليه القرآن الكريم فيقرؤه على صحابته على تودة وتمهل كي يحفظوا لفظه ويفقهوا معناه ؛ وكان النبي ﷺ سديد العناية بحفظ القرآن وتلقفه حتى بلغ من شدة عنايته به وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه ويعالجه أشد المعالجة حتى كان يجد من ذلك شدة يقصد بذلك استعمال حفظ القرآن خشية أن تفلت منه كلمة أو يضيع منه حرف ، وما زال كذلك حتى طمأنه ربه ووعدده أن يحفظه له في صدره وأن يقرئه لفظه ويفهمه معناه قال تعالى : ولا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه^(١) ، وكان من دواعي حفظ القرآن وتثبيتته في قلب النبي صلوات الله عليه معارضة جبريل عليه السلام إياه بالقرآن في رمضان من كل عام حتى كان العام الذي توفي فيه الرسول فعارضه مرتين ، وفهم النبي من ذلك قرب انتهاء أجله ، وكان القرآن شغل

النبي الشاغل في سره وعلايته ، وفي حضره وسفره ، وفي وحدته وبين صحابته وفي عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، لا يغيب عن قلبه ولا يألوا جهـداً في الاتهام بأوامره ونواهيه والاعتبار بمواعظه وقصصه والتأديب بأذابه وأخلاقه وتبليغه إلى الناس كافة فمن ثم كان النبي صلوات الله وسلامه عليه مرجع المسلمين في حفظ القرآن وفهمه والوقوف على أسراره ومراميه .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم فقد جعلوا القرآن في المحل الأول يتنافسون في حفظ لفظه ويتسابقون في فهم معناه ، وجعلوه مسلاتهم في فراغهم ومتعبدهم في ليلهم حتى لقد كان يسمع لهم بقراءته دوى كدوى النحل ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالألحاح يستغفرون^(١)؛ ولقد وصفهم واصف فقال : كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار ، وكان اعتمادهم في الحفظ على التلقي والسماع من الرسول ، وما كانوا يعتمدون في حفظه على النقل من الصحف والسطور .

ومن خصائص هذه الأمة حفظها لكتاب ربها وهو القرآن في الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « إن ربي قال لي قم في قريش فأندبهم قلت أي ربي إذن يتلفوا رأسي حتى يدهء - وه خبزة فقال : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان ، فابعث جنداً أبعث مثلهم ، وقائل بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك ، فقد أخبر أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء وإنما يحلحله القلوب كما جاء في وصف هذه الأمة : أنا جيلهم في صدورهم ،^(٢) بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرؤنه كله إلا نظر الاعن ظهر قلب

[١] الذاريات ١٧ ، ١٨ [٢] المراد كتابهم المقدس وهو القرآن لأن المسلمين ليس لهم أناجيل ، وإنما ذلك للنصارى .

فلا عجب والحال كما سمعت أن حفظ القرآن جم غفير من الصحابة منهم الخلفاء ، الأربعة وحذيفه ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وابن عباس وابن الزبير ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبوه وغيرهم من المهاجرين ، ومن الأنصار : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد ومهما يكن من شيء فقد حفظ القرآن الكثيرون من الصحابة في عهد النبي ولقد روى أنه قتل في يوم بدر معونه سبعون من القراء .

ولكن يشكك على ما ذكرنا ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال : مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل . وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، وأبو زيد هذا اسمه قيس بن السكن كما رواه ابن أبي داود بإسناد صحيح على شرط البخاري عن أنس ، أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال : وكان رجلا منا من بني عدى بن النجار أحد عمومتى ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه ، (١) قال ابن أبي داود : قد مات قريباً من وفاة النبي ﷺ فذهب عليه ، وكان عقبياً بدرياً .

والحق أن لا إشكال لأن مراد أنس الحصر الإضافي لا الحقيقي حتى يشكك الأمر إذ لا يتم له الحصر الحقيقي إلا إذا كان أنس لقي كل الصحابة وسألهم واحداً واحداً حتى يتم له الاستقراء وهذا أمر مستبعد في العادة ويبدل أيضاً على أن أنس لم يقصد القصر الحقيقي أنه سأله فتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال «أربعة كلهم من الأنصار، أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قلت من أبو زيد؟ قال أحد عمومتى، رواه البخاري فقد ذكر في هذه الرواية «أبي بن كعب» بدل «أبي الدرداء» زد على هذا ما استفاض من أن الذين حفظوا القرآن على عهد

الرسول كثيرون غير هؤلاء منهم الخلفاء الأربعة ؛ وبما لا يرتاب فيه أن الصديق رضى الله عنه كان يحفظ القرآن جميعه في حياة الرسول لسكثرة ملازمته له وحرصه على تلقف كل ما يصدر عنه وفي الصحيح أنه بنى له مسجداً وهو في مكة في فناء داره فكان يقرأ فيه القرآن على ما كان فيه من جهد وبلاء حتى لقد خاف المشركون على نساءهم وأبنائهم أن يفتنوا بقراءته .

وقد أجاب العلماء السابقون - أنابهم الله - على حديث أنس فن قائل : لم يجمع القرآن غير هؤلاء الأربعة تلقينا من الرسول أما غيرهم فأخذوا بعضه بالتلقين وبعضه بالواسطة .

ومن قائل : أن المراد بالجمع الكتابة .

ومن قائل : لم يجمعه بجميع حروفه وقراءاته غير هؤلاء إلى غير ذلك من التأويلات .

والحق ماذهب اليه الحافظ ابن حجر في الفتح من أن ذلك بالنسبة إلى الخزرج دون الأوس فلا ينافى أن الكثيرين غيرهم من المهاجرين قد حفظوه قال الحافظ ، وفي غالب هذه الاحتمالات تكاف ؛ وقد ظهر لي احتمال آخر وهو أن المراد لإثبات ذلك للخزرج دون الأوس فلا ينافى ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين ؛ لأنه قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج كما أخرجه ابن جرير بسنده عن أنس قال ، انتخرا الحيان الأوس والخزرج فقال الأوس : منا أربعة من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمية بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة حنظلة ابن عامر ، ومن حتمه الدبر (١) عاصم بن أبي ثابت فقال الخزرج منا أربعة

(١) الدبر جماعة النحل ، والزنابير

جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم ، فذكروهم (١)

وأما بعد وفاته ﷺ فقد أتم حفظه الألوף المؤلفة من الصحابة وبموجبك أن تعلم أن من قتل من القراء في موقعة اليمامة كانوا سبعائة على ما قيل وعن الصحابة حفظه الألوף المؤلفة من التابعين ، وهكذا دواليك تلمقته طبقة عن طبقة بالحفظ والعناية والصيانة حتى وصل إلينا القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل فكان تصديقا لقول الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

الحافظات من النساء : ولم يكن حفظ القرآن خاصاً بالرجال ، بل قد شارك فيه النساء ممنهن من كانت تحفظ بعضه ، ومنهن من كانت تحفظه كله قال الإمام السيوطي : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن لم يعدها أحد ممن تكلم في ذلك فأخرج ابن سعد في « الطبقات » ، قال : أنبأنا الفضل بن دكين ، حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال حدثني جدي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ، ويسميتها الشهيذة ، وكانت قد جمعت القرآن « أن رسول الله ﷺ حين غزا بدرأ قالت له : أنأذن لي ، فأخرج معك ؟ أداوى جرحاً ثم وأمراض مرضاكم ، لعل الله يهدي لي شهادة » ، قال : « ان الله مهدي لك شهادة » ، وكان رسول الله ﷺ أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن فضمها غلام لها وجارية كانت قد دبرتها ، فقتلها في إمارة عمر رضي الله عنه ، فقال عمر صدق رسول الله ﷺ ، كان يقول : « انطلقوا بنا ، نزور الشهيذة » ، (٢) فأكرم بها من مسلبة حافظة .

جمع القرآن بمعنى كتابته

في عهد النبي ﷺ

لم يكتب النبي ﷺ بحفظ القرآن وإقرائه لأصحابه وحفظهم له . بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده في السطور ، وكان للنبي كتاب يكتبون الوحي منهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأبان ابن سعيد وخالد بن الوليد ومعاوية ابن أبي سفيان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم ، فكان إذا نزل على النبي من الوحي شيء دعى بعض من يكتب فيأمره بكتابة ما نزل وإرشاده إلى موضعه وكيفيته كتابته على حسب ما كان يرشده إليه أمين الوحي جبريل ، روى عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال . ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ،

وعن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ، قال البيهقي : يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن أدوات الكتابة ميسرة في ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه على حسب ما تيسر لهم في الرقاع والعسب والأكتاف واللخاف والأقتاب (١)

(١) الرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو قماش أو ورق ، العسب : جمع حسيب طرف الجريد العويض كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فيه ، والأكتاف جمع كنف وهي العظام العريضة من أكتاف الحيوان كالابل والبقر والغنم ، واللخاف بكسر اللام : جمع لخنه بفتح فسكون وهي الحجارة الرقيقة ، والأقتاب جمع قتب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

ونحوها وقد كان القرآن كله مكتوباً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان مفرقاً ، وكانت كتابته بالأحرف السبعة التي نزل بها .

وأما الصحابة فقد كان بعضهم لا يكتب القرآن اعتماداً على الحفظ وسيلان الأذهان ، كما هو شأن العرب في حفظ شعرها ونثرها وأنسابها ، وبعضهم كان يكتب ولكن كان مفرقاً ؛ وكان بعض الصحابة لا يقتصرون فيما يكتبونه على ما ثبت بالتواتر ، بل كانوا يكتبون الممنوخ تلاوة وبعض تفسيرات وتأويلات لمعانيه ، وذلك كما فعل ابن مسعود وأبي وغيرهما .

وخلاصة القول أن القرآن كله كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كان مفرقاً ، وكذلك كتب بعض الصحابة القرآن أو ما تيسر لهم منه ، وإن لم تبلغ كتابتهم في الوثوق مبلغ ما كتب بين يدي النبي ، وقد أذن النبي لأصحابه في كتابة القرآن دون السنة ، ففي صحيح مسلم : لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وطبعي أن المكتوب في هذا العهد لم يكن مرتب السور والآيات ضرورة التفريق في العسب والاكتاف والرقاع (١) ونحوها ، وليس معنى هذا أنهم كانوا يقرؤنه مرتب الآيات على حسب ما أوقفهم عليه الرسول بإرشاد جبريل عن رب العالمين وعلى ما هو عليه اليوم والسبب الباعث على كتابته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

١ - معاضدة المكتوب للمحفوظ لتتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء ولذا كان المعول عليه عند الجمع الحفظ والكتابة .

٢ - تبليغ الوحي على الوجه الأكمل لأن الاعتماد على حفظ الصحابة بحسب غير كاف لأنهم عرضة للنسيان أو الموت أما الكتابة فباقية لا تزول وإنما لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في مكان واحد لما يأتي :

(١) أما ما كان مكتوباً في القطعة الواحدة فقد كان مرتب الآيات ولا ريب .

١ - ما كان يترقبه النبي من تتابع نزول الوحي ونزول بعض آيات ناسخة لبعض أحكامه وألفاظه .

٢ - ترتيب آيات القرآن وسوره لم يكن على حسب النزول بل كان على حسب تناسب الآي وتربطها وقد تنزل الآية أو السورة بعد الآية أو السورة وتكون في ترتيب الكتابة قبلها .

فلو كتب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كله في مكان واحد - والشأن كما ذكرنا - لكان عرضة للتغيير والإزالة والكشط والحو ، وقد تكون كتابته في موضع واحد متعذرة إن لم تكن مستحيلة في كتاب نزول منجما في بضع وعشرين سنة فلما انقضى الوحي بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وأمن النسخ وعرف الترتيب ألهم الله سبحانه الخلفاء الراشدين فقاموا بجمع القرآن في الصحف كما حدث في عهد الصديق رضي الله عنه وفي المصاحف كما كما حدث في عهد عثمان رضي الله عنه .
وهكذا نرى أن كتابته مفترقا في العهد النبوي ضرورة لا يحصى عنها .

جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة والقضاء على هذه الفتنة وبذلك أقام عمود الإسلام وثبت دعائمها بعد أن كادت تتقوض ، ولما وقعت موقعة الجمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة استحر^(١) القتل في الصحابة ومات من حفاظ القرآن خلق كثير قبل خمسمائة^(٢) وقيل سبعمائة ، فخشى الفاروق عمر رضي الله عنه الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه أن يكثر القتل في القراء في بقية المواطن ، وربما كان عندهم شيء من القرآن فيضيع بموتهم ، فأشار على أبي بكر أن يجمع القرآن في مكان واحد ، وصحف بمجموعة بدل وجوده مفترقا في العصب ،

(٢) انصائر القرآن ص ١٢

(١) أي كثر .

واللخاف ، والرقاع وغيرها ، فتردد أبو بكر أول الأمر ، ولكن لم يزل به
الفاروق حتى وافق وثبت عنده أن جمع القرآن ليس من المحدثات ، وأن
قواعد الدين والشريعة تدعو إليه فأرسل الصديق إلى زيد بن ثابت وندبه
للقيام بهذا العمل الجليل فراجعهما ، ولم يزل به حتى ظهر له الحق واستبان
له الرشيد ، وعلم أن الحق فيما أشارا به فجمعه بعد جهد جيد ، وإليك
ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن زيد بن ثابت (١) قال أرسل إلى
إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر : إن
عمر بن الخطاب أتانى فقال : إن القتل استحر - اشتد - بقراء القرآن
وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ،
وإنى أرى أن يجمع القرآن فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول

(١) هو الصحابى الجليل زيد بن ثابت بن الضحاك يثنبى نسبته إلى مالك بن النجار
الأنصارى ، الخزرجى ، استصفر يوم أحد هو وبدبض شباب الصحابة ، ثم شهد
أحدا وما بعدها وكان من كتاب الوحي المعدودين لرسول الله صلى الله عليه وسلم
والظاهر أن كان أكثر الكتاب نفرا للكتابة . وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم
أن يتعلم كتابة اليهود ، فعملها فى خمسة عشر يوما كما فى صحيح البخارى ، وكان من
علماء الصحابة ، وأئمة الفتوى منهم ، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : أفرضكم
زيد ، رواه أحمد يعنى أكثركم علما بعلم المواريث ، قال فيه ابن سعد : كان زيد
أسا بالمدينة فى القضاء ، والفتوى ، والقراءة ، والفرائض .

وردى البغوى بإسناد صحيح عن خارجة بن زيد قال : كان عمر يستخلف زيد
ابن ثابت إذا سافر ، فقلنا يرجع إلا أنطلمه حديقه من نخل ، وكان من الراشدين
فى العلم ومن خصائصه أنه حضر العرصة الآخرة للقرآن التى عرضها النبي صلى
الله عليه وسلم على جبريل عليه السلام وهذا من أعظم المزهلات التى أهلته لهذا
العمل الكبير . جمع القرآن فى عهد الصديق ، وعهد ذى النورين عثمان وكانت
وفاته سنة اثنتين ، أو ثلاث ، أو خمس وأربعين وقيل غير ذلك فرضى الله
عنه وأرضاه .

الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر . هو والله خير فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر ، قال زيد . قال أبو بكر ، انك رجل شاب عاقل لا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا هو - والله - خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فتتبع القرآن أجمعه من العسب والنخاف وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمه الأنصارى لم أجدهما مع غيره . « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . إلى آخر السورة » فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر فى حياته ثم عند حفصة بنت عمر ، وفى رواية أخرى مع خزيمه أو أبو خزيمه بالشك والأولى هى المعتمدة (١) . وقد أخرج ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد . « أقعدا على باب المسجد فنجاهما بشاهدين على شئ » من كتاب الله فاكتباه ، منقطع رجاله ثقات وقد اختلف فى المراد بالشاهدين ، فقال الحافظ بن حجر . المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة ، وقال السخاوى : المراد بالشاهدين أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان غرضهم أن

(١) أبو خزيمه الذى وجدت عنده آخر سورة التوبة غير خزيمه الذى وجدت عنده آية الاحزاب ، فالأول هو أبو خزيمه بن أوس بن يزيد بن أصرم من بنى النجار شهد بدرا وما بعدها وتوفى فى خلافة عثمان ، وأما الثانى فهو خزيمه بن ثابت بن العنكبوت بن ثعلبة يعرف بذي الشهادتين شهد بدرا وما بعدها وقتل وهو على بصرين (تفسير الخازن ١ ص ٩) (فتح البارى ٨ ص ٢٧٧ ، ٤٢١ ، ٩٣ - ص ١٧ ، ١٢) ،

لا يكتب القرآن إلا من عين ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ : وبهذا تعلم أنهم بالنوا في التوثق في كتابة القرآن فلم يقبلوه إلا من المصدرين معا وهما الحفظ والكتابة وعلى ذلك يعمل قول زيد في الحديث السابق في الآيتين من آخر سورة التوبة : لم أجدهما إلا مع أبي خزيمة الأنصاري أن المراد لم أجدهما مكتوبتين عند غيره ممن كانوا يكتبون الوحي وليس المراد أنه لم يكن يحفظهما غيره بل كان يحفظها الكثيرون^(١) ويتلونهما في الصلاة ومنهم زيد بن ثابت نفسه .

والسبب الباعث على كتابته في عهد أبي بكر خوف ضياع شيء منة يموت الكثير من القراء والحفاظ في الحروب ، وقد يكون عند أحدهم شيء من القرآن المكتوب يضيع بموته ، وقد سمعت آتفا أن الاعتماد في الجمع كان على الحفظ والكتابة ولذلك كانت العناية بالغة بالصحف التي جمعت في عهد أبي بكر فكانت عنده حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصه^(٢) حتى طلبها منها عثمان رضى الله عنه في الجمع الثالث .

ولا يعارض هذا ما أخرجه ابن داود من طريق ابن سيرين قال : قال علي : لما مات رسول الله ﷺ آليت أن لا آخذ على ردائي إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن لجمعت ، فقد قال الحافظ ابن حجر : هذا الأثر ضعيف لانقطاعه وبتقدير صحته فراه بجمعه حفظه في صدره وما تقدم من رواية عبد خير عنه أصح . فهو المعتمد ، ومراد الحافظ برواية عبد خير ما أخرجه

(١) وقد ثبت في الروايات أن عمر كان يحفظها وأن عثمان كان يحفظها أيضا وأن أبي بن كعب كان يحفظها [فتح الباري ص ١٠٠] ولو لم يحفظها إلا هؤلاء الحفاظ الكبار الخمسة لسكني ، فالواحد في معيار العدالة والضبط والشعة يعتبر بألف .

(٢) لأن أباهما الفاروق كان أوصى بذلك ، فهي زوج رسول الله ﷺ ، وأحق من يرعى هذه الأمانة الغالية .

ابن أبي داود بسند حسن عن عبد خير قال سمعت علياً يقول : «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله» .

أقول : وعلى فرض صحة ما روى عن سيدنا علي ، وأن المراد بالجمع الكتابة لا يعارض التابت المشهور من أن أبا بكر هو أول من جمع القرآن ، إذ ليس في رواية ابن سيرين التصريح بالأولية بل الذي صح عن علي خلافها ، وغاية ما تدل عليه أنه سارع إلى كتابة القرآن فهو كثيره من الصحابة الذين عنوا بكتابة مصاحف لأنفسهم خاصة ولم تكن لهذه المصاحف من الثقة بها والإجماع عليها والقبول لها مثل ما لمصحف أبي بكر فجمع الصديق أبي بكر بهذه الاعتبارات يعتبر بحق أول جمع .
وقد امتاز الجمع في عهد أبي بكر بما يأتي :

(١) أنه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته وجرده من كل ما ليس

بقرآن .

(٢) أنه لم يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته ، وأما ما روى عن زيد في آخر سورة براءة فقد علمت المراد منه .

(٣) أنه كان مكتوباً بجميع الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

(٤) أنه كان مرتب الآيات على الوضع الذي نقرؤه اليوم ، ولم يكن مرتب السور فكانت كل سورة مستقلة في الكتابة بنفسها في صحف . ثم جمعت هذه الصحف وشدت بعضها إلى بعض .

وما ينبغي أن يعلم أن الجمع بهذه الدقة الفائقة والتثبت البالغ والاشتمال على هذه المميزات لم يكن غير صحف أبي بكر رضي الله عنه فهي النسخة الأصاية الموثوق بها التي يجب الاعتماد عليها نعم قد كانت هناك صحف ومصاحف لبعض الصحابة كتبوا فيها القرآن إلا أنها لم تحظ بما حظيت به صحف أبي بكر من الدقة والميزات فبعض الصحابة كان يكتب المنسوخ ،

وما ثبت برواية الأحاد ، وبعض تفسيرات وتأويلات لآية وبعض أدعية ،
وما ثورات . فكن على ذكر من هذا فإنه سيفيدنا في إزالة أشكالك بعض
الروايات الواردة عن بعض أصحاب هذه المصاحف والتي اتخذ منها بعض
المارقين وسيلة للطعن في القرآن الكريم .

جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه

لما كان عهد عثمان رضى الله عنه وتفرق الصحابة في البلدان وحمل كل
منهم من القراءات ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون
عند أحدهم من القراءات ما ليس عند غيره ، اختلف
الناس في القراءات ، وصار كل قارىء ينتصر لقراءته ، ويخطئ قراءة
غيره وعظم الأمر ، واشتد الخلاف ، فأفزع ذلك عثمان رضى الله عنه
وخشى عواقب هذا الاختلاف السيئة في التقليل من الثقة بالقرآن
الكريم وقراءاته الثابتة ، وهو أساس عروة المسلمين ، ورمز وحدتهم
السكبرى ؛ أخرج ابن داود في المصاحف من طريق أبي قلابة قال :
لما كان عهد عثمان جعل المعلم يعلم قرءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ،
جعل الغلسان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر
بعضهم بعضا فبلغ ذلك عثمان فقال أنتم عندي تختلفون فمن نأى عنى من
الأمصار أشد اختلافاً ، وقد تحقق ظنه لما جاء حذيفة ابن اليمان وأخبره بما
وقع بين أهل الشام والعراق من الاختلاف في القراءة في غزوة أرمينية
فهاهه الأمر ، وتشاور هو والصحابة فيما ينبغي ، فرأى ورأوا معه أن يجمع
الناس على مصحف واحد ، لا يتأنى فيه اختلاف ، ولا تنازع ، فأرسل
إلى حفصة رضى الله عنها أن ارسلى إلينا بالمصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر
ثم انتقلت بعد موته إلى عمر ثم بعد عمر إلى حفصة ؛ لتكون أساسا فى جمع القرآن جمعا
يقلل من الاختلاف والتنازع ، ثم عهد عثمان إلى زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير (١)

(١) هو الصحابى الجميل عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى ، الاسدى ، أبوه =

ابن العاص (١) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (٢) أن ينسخوا الصحف في مصاحف وقال للرهمط القرشيين إذا اختلفتم أتمم وزيد فاكتبوه بلسان

== الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبن عمته السيدة صفية ، وأمه السيدة أسماء بنت الصديق ، ذات النطاقين كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة ، ولما ولد فرح المسلمون وكبروا . لأن اليهود ، زعموا أنهم سحرروا المهاجرين فلا يولد لهم أحد ، ولما ولد جاءت به أمه إلى النبي لحنكه ، وسماه عبدالله ، ودعا له بخير . وقد جاء إلى النبي وهو ابن سبع أو ثمان سنين ، فبايع النبي وكان أشبه الناس بجده الصديق ، وهو أحد المبادلة الأديبة الذين اشتهروا بالعلم ، ورواية الأحاديث ، وعنوا بحفظ القرآن ، وأحد شجعان العرب وقد دانت له معظم الأقطار الإسلامية بعد موت يزيد بن معاوية ، وولى الخلافة ثم قتل شهيدا أثناء حصار الحجاج له بمكة سنة ثلاث وسبعين . وقد أهلته صفاته الخلقية ، وخصائصه العلية ، ولا سبها بالقرآن أن يكون أحد الأربعة الذين كتبوا المصاحف في عهد سيدنا عثمان ، فرضى الله عنه وأرضاه .

(١) هو الصحابي الجليل سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي أبو عثمان قال ابن أبي حاتم عن أبيه له صحبة وقال الحافظ بن حجر كان له يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم تسع سنين وقتل أبوه يوم بدر ، وكان من فصحاء قريش ولذا ضربه عثمان فيمن ندب لكتابة المصاحف قالوا فيه : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص لأنه كان أشبه الصحابة لهجة برسول الله ، وقد ولي إمارة الكوفة ، وغزا طبرستان ففتحها وغزا سمرجان وكان حليما وقورا مشهورا بالكرم والبر مات بقصره بالعقيق سنة ثلاث وخمسين .

(٢) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي ، قال ابن حبان ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يسمع منه ، ثم ذكره في فتاات التابعين وما قيل من أنه كان ابن عشرين في حياة النبي هو وم ، مات أبوه ==

قريش (١) فإنما نزل بلسانهم فقاموا بمهمتهم خير قيام وكتبوا المصاحف مرتبة بالسور على الوجه المعروف اليوم فلما انتهوا أرسل عثمان إلى كل مصر من الأمصار المشهورة بمصحف ليجمع الناس في القراء عليه تلافياً لما حدث في ذلك الوقت من الاختلاف والتنازع وأمر بما سواها من المصاحف أن يحرق أو يخرق وبذلك وفق الله عثمان والصحابة إلى لهذا العمل الجليل ، ثم رد المصحف إلى حفصة فبقيت عندها إلى أن توفيت ، فأرسل مروان ابن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها أن يرسل إليه هذه المصحف فأرسلها إليه فأمر بها مروان فشققت وفي رواية أنه أمر بها فغسلت ، وفي رواية أخرى أنه حرقها (٢) وقال : إنما فعلت هذا لأنني خشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه المصحف مرتاب ، وكانت وفاتها - رضي الله عنها - عام واحد وأربعين ، وقيل عاشت إلى سنة خمس وأربعين .

يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يغازي أهل

= وهو يجاهد في الشام في طاعون عمرواس ، فتزوج سيدنا عمرامه ، فنشأ في حجره ، وتزوج بنت سيدنا عثمان ، وقد ذكره البغوي والطبراني في الصحابة ، وذكره البخاري وأبو حاتم في الثنايين وكان من أشرف قريش وابنه أبو بكر أحد الفقهاء السبعة مات سنة ثلاث وأربعين (الاصابة ١٣ ص ٦٦)

(١) لا تنافي بين الروايات لجواز أن تكون غسلت أولاً ثم شققت ثانياً ثم حرقت ثالثاً .

(٢) يريد إذا اختلفت في رسم لفظ من الفاظ القرآن فاكتبوه بالرسم الذي يوافق لغة قريش كما يدل على ذلك قصة اختلافهم في كتابة لفظ التابوت .

الشام في فتح أرمينية وأذربيجان (١) مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة
اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة
قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى
حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف فنسخها ثم يردها إليك ، فأرسلت بها
حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص
وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف وقال عثمان
للهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن
أى في كتابته - فاكتبوه بلسان قريش فأبى أنزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا
نسخوا الصحف مما نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى
حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن
في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق وكان ذلك في أواخر سنة أربع وعشرين
وأوائل سنة خمس وعشرين وهو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن
أرمينية فتحت فيه . وقد روى أن زيد بن ثابت قال : فقدت آية من
سورة الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقرأ بها قالتسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصارى ومن
المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلا ، فالحقناها بسورتها في المصحف ، كما روى أنهم
اختلفوا في كتابة التابوت فقال زيد بن ثابت : إنما هو التابوت بالهاء وقال
الرهط القرشيون إنما هو التابوت بالياء فرجعوا إلى عثمان فقال : اكتبوه
بلسان قريش فان القرآن نزل بلغتهم .

« كتابة المصاحف مكرمة لسيدنا عثمان ،

(١) أرمينية بكسر الهمزة - وفتح - وسكون الراء وكسر الميم . وأذربيجان
بفتح الهمزة وسكون الذال وفتح الراء وكسر الباء أو هما إلفان .

وقد اتخذ بعض المغرضين من أمر عثمان بتحريق ما عدا المصاحف التي كتبها ووجه بها الى الآفاق ذريعة للطعن فيه مع أنه لم يفعل ما فعل إلا بموافقة من الصحابة ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب « الرد » عن سويد بن غفلة قال سمعت علي بن أبي طالب يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وأياكم والغلو في عثمان وقولكم حراق المصاحف ، ما حرقها إلا عن ملامنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وروى أيضا عن علي أنه قال . لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان ، وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح ما رواه سويد بن غفلة عن علي وفي آخره قال أي عثمان : ما تقولون فقد بلغني أن بعضهم يقول أن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً قلنا فما ترى ؟ قال أرى أن أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا . فنعم ما رأيت .

هل يجوز حرق كتب العلم ونحوها :

وقد أخذ العلماء من أمر عثمان رضي الله عنه بتحريق الصحف والمصاحف الأخرى حين جمع القرآن في المصاحف المعتمدة جواز تحريق المصاحف البالية والكتب التي يذكر فيها اسم الله تعالى وأن في ذلك إكراها لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وكان طاووس يحرق الصحف إذا اجتمعت عنده وفيها بسم الله الرحمن الرحيم وحرق عروة بن الزبير كتب فقهه كانت عنده يوم الحرة .

السبب الباعث على جمع عثمان :

وقد تبين مما ذكرنا أن السبب الباعث على جمع عثمان هو رفع الاختلاف والتنازع في القرآن وقطع المراء فيه . وذلك بجمع الناس على القراءة بحرف واحد وهو لغة قريش ، وأما قبله فكانت الصحف مكتوبة بالأحرف السبعة

التي نزل بها القرآن وما تجتمه من قراءات وقد وفق الله عثمان لهذا العمل الجليل الذي رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة فرضى الله عنه وأرضاه

ويعجبني في هذا ما قاله الحارث المحاسبي : المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه ، وبين من شهدوا من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق ، والشام في حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات ، على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن ، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق ، وقد قال علي : لو وليت لعلمت بالمصاحف التي عمل بها عثمان^(١)

ما امتاز به الجمع في عهد عثمان :

وقد امتاز الجمع في عهد عثمان بما يأتي :

- (١) الاقتصار فيه على حرف واحد وهو حرف قریش .
- (٢) الاقتصار فيه على ما ثبت بالتواتر وما استقر عليه الأمر في العرصة الأخيرة ولم يكتبوا ما ثبت بطريق الآحاد ولا منسوخ التلاوة .
- (٣) ترتيب آياته وسوره على الوجه المعروف اليوم .
- (٤) تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس بقرآن بخلاف ما كان مكتوباً عند بعض الصحابة فقد كان فيه بعض تأويلات وتفسيرات لبعض ألفاظه .

المصاحف التي وجه بها عثمان إلى الأمصار

المصاحف جمع مصحف بزنة اسم المفعول من أحصفه أي جمع فيه الصحف ، والصحف جمع صحيفة وهي القطعة من الجلد أو الورق يكتب

فيها هذا في اللغة ، وأما في الاصطلاح فقد صار علما على ما جمع فيه القرآن الكريم ؛ والظاهر أن التسمية بالمصحف معروفة من زمن الصديق فتمدروى أن أبا بكر استشار الناس بعد جمع القرآن فقال بعضهم نسميه سفرأ كما يسمى اليهود فكرهوه ، وقال بعضهم نسميه إنجيلا فكرهوه ، فقال بعضهم أن في الحبشة مثله يسمى مصحفاً فارتضى أبو بكر ذلك وسماه مصحفاً (٢) ومقتضى هذه الرواية أن لفظ المصحف كان معروفاً في زمن أبي بكر رضي الله عنه إلا أن ما كتب في عهده اشتهر في الروايات وألسنة العلماء باسم الصحف وما كتب في عهد عثمان رضي الله عنه اشتهر باسم المصحف ، ولعل اشتهار التعبير عن المكتوب في عهد أبي بكر بالصحف - لأن ما كتب فيها كان مرتب الآيات دون السور ، أو لعل اشتهار تسمية المكتوب بالمصحف لم تكن إلا بعد زمن الصديق في عهد عثمان وإن كانت التسمية به معروفة من قبل

عدد المصاحف العثمانية :

وقد اختلف في عدد المصاحف التي كتبت في عهد عثمان ووجه بها إلى الأماصار فقيل ستة ، وقيل أكثر من ذلك وقال القرطبي في تفسيره (٢) : وقيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر ووجه بها إلى الآفاق فوجه للعراق والشام ومصر بأهيات فأتخذها قراء الأماصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم في مصحفه على النحو الذي بلغه وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيد ما بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه إذ كان عثمان كتب هذه المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض أشعاراً بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة ، : والذي ذكره الشاطبي أنها ثمانية خمسة متفق عليها وثلاثة مختلف فيها ومراده بالخمسة الكوفي والبصري . والشامي ، والمدني

العام والمدني الخاص الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام ، وبالثلثه
المسكى ومصحف البحرين والبن ، وقيل إن مصر سير إليها بمصحف أيضاً
والذي تميل إليه النفس أن يكون عثمان أرسل بمصحف إلى كل مصر من
الأمصار الإسلامية المشهورة لتكون مرجعاً يرجع إليه عند الاختلاف

« الاعتماد في القرآن على التلقي الشفاهي لا على المكتوب ،

ولما كان المعول عليه في تلقي القرآن هو الأخذ بالرواية والمشاهدة لا على
المكتوب في المصاحف ، فقد أمر أو أرسل سيدنا عثمان مع هذه المصاحف
من يقرئ المسلمين بما فيها ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني ، وبعث
عبد الله بن السائب مع المسكى ، والمغيرة بن شهاب الخزومي مع الشامي ،
وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفي ، وعامر بن عبد القيس مع البصرى
وهكذا : وقد أجمع أهل كل مصر على ما في مصحفهم ، وترك ما عداه ،
وبذلك زال الخلاف بين القراء ، وتوحدت كلمة الأمة

السبب في تعدد المصاحف :

والسبب في تعدد المصاحف أن عثمان والصحابة تصدوا كتابة المصاحف
على ما وقع عليه الأجماع ونقل متواتراً عن النبي ﷺ من القراءات فعددوا
المصاحف لتكون مشتملة على جميع القراءات المتواترة : واختلاف
المصاحف له حالتان .

١ - أن تحتمل صورة اللفظ خطأ للقراء تين المختلفين أو القراءات وفي
هذه الحالة يكتب اللفظ في جميع المصاحف بصورة واحدة تحتملها ذلك مثل
«نشزها» بالزاي «ونشرها» بالراء ومثل «فتثبتوا» بالثاء والباء «فتثبتوا»
بالتاء والباء و«هيت لك» فإنها كانت تكتب بصورة واحدة تحتمل القراءات
ومن المعروف أن المصاحف كانت مجردة من الشكل والنقط.

٢ - أن لاتكون صوت اللفظ خطأ محتملة للقراءات المختلفة وحينئذ
تكتب في بعض المصاحف بصورة وفي بعضها بصورة أخرى وذلك مثل
«ووصى» و«أوصى» من قوله تعالى «ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب» (١)
فإنها في مصحف أهل المدينة «وأوصى» وفي مصحف أهل العراق «ووصى»
ومثل «تجرى تحتها الأنهار» و«تجرى من تحتها الأنهار» في سورة التوبة (٢)
ومثل «وما عملته أيديهم» (٣) «وما عملت أيديهم» إلى غير ذلك فإنها
كتبت في بعض المصاحف بلفظ وفي بعضها بلفظ آخر .

ولإنما لم تكتب مكررة في مصحف واحد لثلاث يتوهم أنها نزلت هكذا
مكررة ولم تكتب أحدهما في الأصل والأخرى في الحاشية لثلاث يتوهم أنها
تصحیح لها .

ولإنما جردت المصاحف من النقط والشكل :

(١) لما روى عن ابن مسعود «جردوا مصاحفكم» .
(٢) لتحتمل الكلمة التي تكتب بصورة واحدة أكثر من وجه
مما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه القراءات
كما بينا آنفا .

(أين المصاحف العثمانية الآن ؟)

قال صاحب مناهل العرفان (٤) - رحمه الله - «ليس بين أيدينا دليل
قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلا عن تعيين أمكنتها قصارى
ما علمناه عنها أخيراً أن ابن الجزرى رأى في زمانه مصحف أهل الشام
ورأى في مصر مصحفاً أيضاً» .

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر ويقال
عنها أنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيراً في صحة هذه النسبة إلى عثمان

(١) البقرة ١٢٢ (٧) التوبة ١٠٠ (٢) يس ٣٥ (٤) ١٣ ص ٣٦١

رضى الله عنه لأن بهاز كشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور
ولبيان أعشار القرآن ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا
ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم أن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني والمنسوب
إلى عثمان رضى الله عنه مكتوب بالخط الكوفي القديم مع تجويف حروفه
وسعة حجمه جداً ، ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي حيث رسم
فيه كلمة «من يرتد» من سورة المائدة بدالين اثنين مع فك الادغام وهي
فيهما بهذا الرسم ، فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف
العثمانية على رسم بعضها ، وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة ويقال
أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب
بذلك الخط الكوفي القديم بيد أنه اصغر حجماً وخطه أقل تجويفاً من سابقه
ورسمه يوافق غير المدني والشامي من المصاحف العثمانية حيث رسمت فيه
الكلمة السابقة «من يرتد» بدال واحدة مع الادغام وهي في غيرها كذلك
فمن الجائز أن يكون كاتبه علياً ، أو يكون قد أمر بكتابه في الكوفة (١)
ثم أن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئاً مادام المعول عليه
هو النقل والتلقي ثقة عن ثقة ، وأما ما عن إمام إلى النبي ﷺ ، وذلك متواتر
مستفيض على أكمل وجه في القرآن الآن .

وقال ابن كثير في الفضائل (٢) ، وأما المصاحف العثمانية الائمة فأشهرها

(١) وكذلك يقال . إن بخزانة كتب مسجد الإمام علي بالنجف بالعراق
مصحفاً منسوبا إلى سيدنا علي ، وكان بودى وأنا معار بجامعة به - داد أن أطلع
عليه ، وذهبت إلى النجف ولكن لم أتمكن من ذلك ، وقد أخبرني القيم على
المخلفات القيمة أنه مكتوب في أوله «مصحف علي بن أبوطالب» والصحيح أبي ،
ولعل في هذا الخطأ النحوي ما يشكك في صحة النسبة

(٢) فضائل القرآن ص ٢٣ وابن كثير توفي عام ٧٧٤ هـ .

اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرق المقصورة والمعجورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمانى عشرة وخمسةائة وقد رأته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوى بجزء محكم في رق أظنه من جلود الأبل والله أعلم .

وذكر السيد محمد رشيد رضا - رحمه الله - في تعليقاته على كتاب فضائل القرآن (١) : أن صحف الأخبار العامة نقلت أن أحد المصاحف الأئمة العثمانية وهو الذي كان محفوظاً عند قياصرة الروسية وهبه خلفهم الشيوعيين لأمير بخارى بعد أن أخذوا صورة منه بالآلة الشمسية الفوتوغرافية ، ويقال أن الأصل فقد ولم يصل إلى الأمير .

الشبه التي اوردت على جمع القران

لا ينفك أعداء الإسلام عن تلس المطاعن في القران الكريم لانهم يعلمون أنه أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، فالتشكيك فيه لإضعاف للدين وصرف للمسلمين عن الطريق الذي لا عوج فيه ولا أمت .

ومعظم هذه المطاعن مبنية على روايات واهية ومختلفة اشتملت عليها بعض الكتب الاسلامية ، وعلى شبه أوردها بعض الكاتبين في علوم القران وفي أصول الفقه : وأجابوا عنها ، ولم يدريخلدن أنها ذريعة للطنن في القران الكريم .

وبعضها مبنى على روايات صحيحة ولكن لها محامل صحيحة ، ومخارج مقبولة .

ولكن أعداء الإسلام تعاموا عنها ، وصرفوها إلى المحامل التي ترضى أحقادهم وتشقى نفوسهم المريضة .

وقد تلقف هذه الشبه ، وتلك الروايات ، ولا سيما الواهية الباطلة منها المستشرقون والمبشرون فأضافوا إليها ما شاءت لهم نفوسهم الحاقدة على الاسلام والمسلمين أن يضيعوه بما هو من بنات الخيال والأوهام ؛ ومن صنع الأحقاد فزعموا أنه قد ضاع من القرآن بعضه ، ونسى بعضه . بل عنون « نولدكه ، المستشرق الألماني في كتابه « تاريخ القرآن ، فصلاً بعنوان « الروحي الذي أنزل على محمد ولم يحفظ في القرآن » .

وذكر كاتب مادة ، قران « في دائرة المعارف الإسلامية « أنه لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن ضاعت .

وفي دائرة المعارف البريطانية في مادة « قران » ، يذكر الكاتب المادة ان القرآن غير كامل الأجزاء ، والذي سهل لهم هذا التجنى بعض علمائنا - غفر الله لهم - بما ذكروه في كتبهم بحسن نية ، وأوردوه في رواياتهم ، مع إمكان تأويلها تأويلاً .

قريباً صحيحاً ، ولكن المستشرقين يأخذون الضعيف ، ويتركون القوي ، وينقلون المشكوك فيه ، ويسكتون عن الصحيح الصريح لأنها الخطة التي تلائم أغراضهم ، وتنفق ومراميمها .
وما هي الشبه التي أوردت قديماً وحديثاً والرد عليها بما يقنع العقل ويطمئن فأقول وبالله التوفيق !

الشبهة الأولى : قالوا كيف يكون جمع القرآن عن إجماع من الصحابة مع أن عبد الله بن مسعود وهو ذو السابقة في الاسلام فذكره ان يتولى زيد جمع المصحف .

وقال : يا معشر المسلمين كيف أعزل عن جمع المصحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وأنه لني صلب رجل كافر وقال أيضاً : أعزل عن المصاحف وقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد ابن ثابت ذو ذؤابتين يلعب مع الصبيان .

والجواب : أن قول بن مسعود هذا لا يدل على عدم جواز جمع القرآن في المصحف ولا على أنه كان مخالفاً في الجمع وكل ما يدل عليه أنه يرى أنه أحق من زيد بجمع القرآن لسوابقه في الاسلام ، على أنه قال هذا في وقت غضبه فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد بن ثابت وقد ندم على ما قال واستحيا منه فقد روى أبو وائل هذه القصة ثم قال عقبها .

أن عبد الله استحيا بما قال فقال : ما أنا بخيرهم ثم نزل عن المنبر (١) ولم يكن اختيار أبي بكر وعثمان لزيد إلا لما له من المزايا التي تؤهل له هذه المهمة الجليلة وقد أفصح عن هذه المزايا الصديق بقوله : أنك رجل ، شاب ، عاقل ، ولا تنهك كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وصفه بأربع صفات لا بد منها لمن يقوم بهذا العمل وهي الشباب المقتضى للقوة والصبر والجلد ، والعقل وهو جماع الفضائل ، والأمانة وعدم التهمة وهي الصفة التي لا بد منها لمن يقوم بهذا العمل ، وكتابة الوحي ، وبها يتم التوثق والاطمئنان ومع ذلك فقد ضم عثمان إليه ثلاثة من أوثق الصحابة وأعلمهم (٢) وهذه الخصائص لا تقتضى أفضليته على عبد الله بن مسعود ولا على أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى وإنما تقتضى أهليته لما عهد إليه به (٣) .

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٥

(٢) قد حلت بما علقناه أن اثنين منهم وهما عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص متفق على صحبتهما ، وأن ثالثهما وهو عبد الله بن الحارث مختلف فيه، وأدنى أمره أنه من كبار التابعين

(٣) وأيضا فقد كان ما أهله لكتابته القرآن في الصحف ، ثم في المصاحف أنه كان شهد المرضة الأخيرة التي مرضها النبي ﷺ على جبريل

الشبهه الثانية : قالوا : كيف يكون القران كله متواتراً مع أن زيد بن ثابت قال في أثناء ذكره لحديث الجمع في عهد أبي بكره فقمت ففتبعت القران أجمعه من الرقاع والأكتاف حتى وجدت اخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره ، وقال في أثناء ذكره لحديث الجمع في عهد عثمان ، فقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادة بشهادة رجلين ، فهاتان الروايتان تدلان على أنه اعتمد في جمع القران على بعض الروايات الأحادية وهو يخالف ما هو مقرر عندكم من أن القرآن - في جملته وتفصيله ثابت بالتواتر المفيد للقطع .

والجواب : أن هذا الذى نقل لا ينافى تواتر القرآن فقد ذكرنا لك فيما سبق أن الاعتماد في جمع القرآن كان على الحفظ والكتابة وكان غرضهم من ذلك زيادة التوثق والأطمئنان وأن ما كتبوه إنما هو من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ فقول زيد : لم أجدها أى لم أجدها مكتوبتين وهذا لا ينافى أنهما كانا محفوظتين عند جمع يثبت بهم التواتر إنما هو في الحفظ لا في الكتابة يدل على ذلك قول زيد في الرواية الثانية : فقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرأ بها ، فهو إذاً كان حافظاً لها ومتيقناً لقرآنتها ، ولكن كان يبحث عن أصلها المكتوب .

فإن قيل أن انجحه هذا الجواب . واستقيم في الرواية الأولى فكيف يتجه في الرواية الثانية ، فقد كانت آية الأحزاب مكتوبة في الصحف التى كتبت في عهد الصديق ؟ قلت : لعلها انمحت وتطارت مداها فلم يبق ما يدل عليها أو لعل الأرضة أكلت موضعها من الصحيفة فاضطر أن يبحث عن أصلها المكتوب فوجده مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ، على أن المعول عليه في القرآن التواتر الحفظى لا الكتابى :

الشبهه الثالثة : قالوا : إن القرآن قد زيد فيه ما ليس منه بدليل ما ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، وفي رواية كان

يحك المعوذتين من مصحفه ويقول : إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما ويقول أنهما ليستا من كتاب الله .

والجواب : أن هذه الروايات غير صحيحة وأغلب الظن أنها مدسوسة على ابن مسعود وإليك ما قاله الأئمة فيها قال الإمام النووي في شرح المهذب : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئاً كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم في كتاب « القدر المعلى » تتميم المجلى : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر عنه وفيها المعوذتان والفاتحة ، وقال القاضي أبو بكر : « لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه ، إنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها ، لا جحداً لكونهما قرآناً لأنه كانت السنة عنده ، أن لا يكتب في المصحف إلا ما أمر النبي ﷺ فيه ولم يجده كتب ذلك ولا أمر به » .

وذهب الحافظ ابن حجر إلى صحة ما روى عن ابن مسعود وقال : « قول من قال أنه كذب عليه مردود والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل بل الروايات صحيحة والتأويل محتمل وقد أوله القاضي وغيره على إنكار الكتابة كما سبق » . وعلى فرض صحة الرواية يجاب بما يأتي :

١ - عدم كتابتهما أو حكمها لا يستلزم أنكار كونهما من القرآن لجواز أنه كان لا يكتبهما اعتماداً على حفظ الناس لهما لا أنكار لقرآنتيهما فالفاتحة يقرؤها كل مسلم في الصلاة ، المعوذتان يعوذ بهما المسلمون أولادهم ، وأهلهم ويحمل قوله : « كتاب الله » على المصحف قال ابن قتيبة في مشكل القرآن ، وأما إسقاط الفاتحة من مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن معاذ الله ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين

حفاة الشك والنسيان والزيادة والنقصان ، ومعنى ذلك أنه يرى أن الشك والنسيان والزيادة والنقصان مأمونة في سورة الحمد لقصرها ووجوب تعلبها على كل أحد لأجل الصلاة .

٢ - أنها رواية آحادية فهي لا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ، والعبرة فى التواتر أن يروى عن جمع يحيل العقل تواطأم على الكذب لا أن لا يخالف فيه مخالف ، فظن ابن مسعود أنها ليستا من القرآن لا يطعن فى قرانتهما قال ابن قتيبة فى مشكل القرآن « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن لأنه رأى النبى بعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ولا نقول أنه أصاب فى ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار ، ٣ - على فرض صحة الرواية فيحمل ذلك على أنه كان قبل أن يستيقن ذلك فلما علم ذلك وتيقنه رجع إلى رأى الجماعة وليس أدل على ذلك من أن الذين تعزى قراءتهم إلى ابن مسعود متفقين على أن هذه السور الثلاث من القرآن . قال ابن الصباغ « أنه لم يستقر عنده القطع بذلك ثم حصل الاتفاق بعد ذلك ، (١) . وهذا الجواب هو الذى تستريح إليه النفس .

الشبهة الرابعة : قالوا أن القرآن نقص منه ما كان بدض الصحابة يكتبه فى مصحفه يدل على ذلك ماروى عن أبى بن كعب أنه كان يكتب فى مصحفه سورتي (٢) الخلع والحقد ، وهو دعاء القنوت : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك . . . ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد ويؤلىك نسعى ونحقد . . .

والجواب على ذلك : لا نسلم أنهما من القرآن وكتابة أبى بن كعب

(١) الإتقان ج ١ ص ٨٠

(٢) يجعل نهاية الأولى لفظ يفجرك ، وجعل بده الثانية اللهم إياك نعبد وليس أدل على تهافت الرواية من هذا الخلط بجعل الشىء الواحد شيتين .

لهذا الدعاء في مصحفه لا يدل على القرآنية ونحن نعلم أن مصاحف الصحابة لم تكن قاصرة على المتواتر بل كان بعضها مشتملا على الأحادي؛ والمنسوخ تلاوة ، وعلى بعض تفسيرات ، وتأويلات ، وأدعية ، ومأثورات ، ومن ذلك هذا الدعاء الذي يقنت به بعض الأئمة في الوتر ووجوده في مصحف لا يدل على أنه قرآن كما أن القنوت به في الصلاة لا يدل على القرآنية ، ولا يشك ذو نظر فاحص وذوق أدبي أن هذا الدعاء عليه مسحة من سحر القرآن وبلاغته وإعجازه وإشراقه مما يلقى بهذه الشبهة في غيابة الإهمال .

(٢) على فرض أن أيما أثبتها في المصحف على أنها قرآن فهي رواية أحادية ظنية لا تعارض القطعي الثابت بالتواتر كما أنها لا تكفي في إثبات كونها من القرآن لأن المعول عليه في ثبوت القرآن التواتر .

وهنا قاعدتان ينبغى التنبيه اليهما في رد كل رواية تفيد زيادة شيء في القرآن أو نقص شيء منه وهما :

- ١ - كل رواية أحادية لا تقبل في إثبات شيء من القرآن .
- ٢ - كل رواية أحادية تخالف المتواتر من القرآن لا تقبل ، ويضرب بها عرض الحائط .

الشبهة الخامسة : ما نقله العلامة الألوسي عن بعض الشيعة والملاحدة وخلاصته أن عثمان بل وأبا بكر حرفا القرآن وأسقطا كثيراً من آياته وسوره وقالوا : أن القرآن الذي نزل به جبريل كان سبع عشرة ألف آية وأن سورة الأحزاب كانت مثل سورة الأنعام أسقطوا منها فضائل أهل البيت وأن سورة الولاية أسقطت بتامها إلى غير ذلك من الأباطيل والخرافات .

والجواب : أن هذه دعاوى لم يقم عليها شبه دليل ولو أن كل دعوى تقبل من غير استدلال لما ثبتت حقيقة ولما توصل الناس إلى علم ومعرفة

وهذا الكلام من غلو الشيعة في آرائهم الجائرة ولهذا نجد العقلاء منهم يتبرأون من مثل هذه الخرافات ، قال الطبرسي في « جمع البيان » وهو من علمائهم « أما الزيادة في القرآن فجمع على بطلانها وأما نقصان فيه فروى عن قوم من أصحابنا وقوم من حشوية العامة والصحيح خلافه ، ثم ماذا تقولون أيها المنتسبون ، لقد صار الأمر إلى على كرم الله وجهه ودانت له الأقطار كلها ماعدا مصر والشام . والمصاحف التي كتبها عثمان تتلى وقد ظلت دولة أهل البيت ما يقرب من خمس سنين فكيف يسكتون على ذلك وهو منكر شنيع يجب على الإمام أن يسارع إلى إزالته ، ولو أن شيئاً من ذلك وقع لنقله المؤرخون الأثبات ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

الشبهة السادسة : ما زعمه صاحب ذيل مقالة في الإسلام من أن القرآن قد أسقط منه ما هو منه وزيد فيه ما ليس منه وأيد زعمه بما يأتي :

١ - ما ورد في الحديث أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قال : رحم الله فلانا لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا ، وفي رواية « أنسيتها ، فهذا فيه اعتراف من النبي بأن أسقط بعض الآيات أو أنسيتها .

٢ - ما جاء في سورة الأعلى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » وزعم هذا المفترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنسى آيات لم يتفق له من يذكره إياها .

٣ - قال : أن الصحابة قد حذفوا من القرآن ما رآوا المصلحة في حذفه فمن ذلك آية المتعة أسقطها علي بن أبي طالب وكان يضرب من يقرؤها ، وهذا ما شنت عائشة به عليه فقالت : أنه يجلد على القرآن وينهى عنه وقد حرفه وبذله ، وما روى أن أياً كان يكتب في مصحفه « اللهم إنا نستعينك الخ ، الدعاء ولا يوجد اليوم في المصحف .

٤ - قال : أن كثيراً من آياته لم يكن لها من قيد سوى تحفظ الصحابة وكان بعضهم قد قتلوا في الغزوات وحروب خلفائه الأولين وذهب معهم ما كان يتحفظونه من قبل أن يوعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه فذلك لم يستطع زيد أن يجمع سوى ما كان يتفحظه الأحياء ، أما ما كان مكتوباً على العظام وغير فإنه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط وقد ضاع بعضها ، وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آيات نسخت لفظاً لا حكماً وهو من غريب المزاعم وحقيقة الأمر أنها قد سقطت بضياغ العظم ولم يبق منه سوى المعنى محفوظاً في صدورهم .

٥ - زعم أن الحجاج لما قام بنصرة بني أمية لم يبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة قد نزلت فيهم وزاد فيه أشياء ليست منه وكتب ستة مصاحف وجه بها إلى الأمصار وهي القرآن المتداول اليوم وأعدم المصاحف المتقدمة التي كتبها عثمان ، وإنما رام بفعله التزلف إلى بني أمية .

٦ - زعم أنه آية ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية ، من كلام أبي بكر قالها يوم السقيفة . وكذا آية « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » من كلام عمر ثم لما جمع القرآن ضم إليه هذا الكلام .

وبالنظر في هذه الدعاوى نجد أنها عارية عن الدليل وأنها أما ادعاءات واقتراعات أو تحريفات وتأويلات لبعض الآيات والأحاديث بغير حجة ، وسناقشه فيما قال كي يتبين للنصفين أنه لا يعدو أن يكون هراء من القول وإليك تفنيد هذه المزاعم .

١ - أما ما ذكره من الحديث فهو ثابت (١) ولكن حمله مالا يتحمل وفيه على غير وجهه ، فالرواية الثانية تفسر الأولى وتدل على أن الإسقاط

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن - باب نسيان القرآن - أنظر

عن طريق النسيان لا العمد، ولا يضر نسيان النبي صلى الله عليه وسلم مادام يحصل له التذكر أما من نفسه أو من ذكر كما في هذا الحديث، وزيادة في التوضيح نقول النسيان من النبي لشيء من القرآن على قسمين .

أحدهما : نسيان الشيء الذي يتذكره عن قرب وذلك قائم بالطباع البشرية وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون » .

والثاني : أن يرفعه عن قلبه على إرادة فسخ تلاوته وهو المشار إليه بقوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » .

أما الأول : فعارض سريع الزوال يدل عليه قوله تعالى : « أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » .

وأما الثاني : فداخل في قوله تعالى . « ما ننسخ من آية أو ننسها » بضم النون وبغير همز ، فالنسيان عارض بشري يجوز على الأنبياء فيما ليس طريقه البلاغ من أمور الدين والشريعة، أما ما كان من الدين والشريعة مما هو واجب البلاغ فيجوز لكن بشرطين .

(١) أن يكون بعد تبليغه كما هنا .

(٢) أن لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكره أما بنفسه وأما بغيره وأما قبل التبليغ فلا يجوز أصلاً وهذا ما قام عليه الدليل العقلي إذ لو جاز النسيان قبل التبليغ أو بعده بدون أن يتذكر أو يذكره الغير لأدى إلى الطعن في عصمة الأنبياء ولجاز ضياع بعض الشرائع والأديان .

٣ — أن ما استدل به من قوله . « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » فهو تحريف للكلم عن مواضعه ، وزعم من لم يعرف سبب نزول الآية ، ولا المراد من الاستثناء ، ولا الغرض الذي سيقت له الآية أما سببها فهو

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى ، فأزال الله خوفه بهذه الآية وأما الاستثناء فالمحققون من العلماء على أنه ليس بحقيقى وإنما هو صورى يراد منه تأكيد عدم النسيان بتعليق الشيء على ما هو مستحيل وقوعه وليدل على استحالة البرهان ، وقد ضمن الله لنبيه تحقيقه له فكيف يشاء إنساؤه له ؟ قال تعالى : « لا تحرك به لسانك ، الآيات (١) » ومثل هذا الاستثناء قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا » (٢) . ونحن نقطع أنه سبحانه ما شاء ذلك والغرض من هذا الاستثناء على هذا :

(١) تعريفه صلى الله عليه وسلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى عليه فيديم له الشكر والعبادة والذكر في كل وقت .

(٢) تعريف أمته ذلك حتى لا يخرجوه صلى الله عليه وسلم من مقام العبودية ويرفعوه إلى مقام الألوهية كما فعل اليهود والنصارى بأنبيائهم .

وهناك رأى آخر فى الآية وهو أن المراد بإشياء الله أن ينساؤه هو ما أراد الله نسخه فيذهب من قلبه وأيا كان المراد فليس فى الآية ما يشهد لما زعمه هذا الطاعن .

٣ ما زعمه من أن الصحابة أسقطوا ما رأوا المصلحة فى إسقاطه تجن على الصحابة وعلى الحق والواقع وإنما يزعم هذا من يحمل ما كانوا عليه من عنايتهم بالقرآن وامتزاجه بلحمهم ، ودمهم ، وحبيهم له حيا يفوق الأهل والولد ، ومراقبتهم لمنزل القرآن حق المراقبة ، وهل يعقل أن تنفق جماعة تعد بالآلوف على باطل من غير أن يقوم بينهم من ينكر ذلك ويجهر به ؟ وبحسبك أن تقرأ ما كتبناه فى جمع القرآن لئرى كيف أحاط الصحابة بالقرآن بسياج قوى من الحفظ والعناية فلم يزدوا فيه حرفا أو ينقصوا منه حرفا

أما ما يذكره عن علي أنه أسقط آية المتعة الخ فكذب وافتراء عليه ولا أدري ما يريد الطاعن بالمتعة فإن أراد نكاح المتعة فالآية التي يستدل بها بعض القائلين بأباحته موجودة في سورة النساء لم تحذف وهي قوله تعالى «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن» فريضة (١) ونكاح المتعة أحل للضرورة ثم حرم إلى يوم القيامة .

وأما ما ذكره عن مصحف أبي فقد بينت أنه دعاء وليس بقرآن قطعاً .

٤ - أما ما زعمه من أن القرآن لم يكن له من قيد سوى تحفظ الصحابة الخ فردود بأن من بقى من حفاظ الصحابة كان أكثر ممن مات بدليل قول عمر رضی الله عنه للصدیق « وإنی أخاف أن يستحرق القتل بالقراء في المواطن وكذلك زعمه أن كتابته مفترقا في العظام وغيرها كانت سبباً في ضياع بعضه زعم باطل ، ولو أن الاعتماد في حفظ القرآن على الأخذ من الصحف لجاز هذا الفرض ، وليس الأمر كذلك فالمعول عليه في القرآن هو التلقى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن سماع منه والحفظ في الصدور ، وأما الكتابة فإنما كانت لتأكيد المحفوظ في الصدور والوقوف على مرسوم الخط الذي هو توفيقى ، ولا شك أن الشيء إذا توارد عليه الأمران الحفظ والكتابة يكون هذا أدعى إلى اليقين ، والثوق به والاطمئنان إليه وما دام أن المعول عليه في القرآن الحفظ . فاحتمال ضياع معظم المكتوب فيه لا يضيرنا في شيء ، وإن كان هذا الاحتمال بعيداً جداً إذ كانوا يحافظون على المكتوب غاية الحفظ

٥ - أما دعوى أن الحجاج زاد في القرآن وأنقص منه فدعوى لا وجود لها إلا في خيال قائلها إذ لم ينقل ذلك في أى تاريخ من التواريخ

على كثرتها وذكرها ماصح وما لم يصح ، وكيف يفعل الحجاج أمراً إذا
كهدا له خطره ، ويكثر المعارضون له ولا يرتفع صوت في معارضته ؟
ومهما قيل في قسوة الحجاج فقد كان هناك من السلف الصالح من لا يخافون
في الحق لومة لائم ويرون موتهم في هذا السبيل استشهاداً ، ولو فرضنا
أن للحجاج قوة أسكتت المؤمنين المخلصين في حياته أفلا يرجعون إلى
كتابهم ويرجعونه إلى حالته الأولى بعد وفاته ١٤ ومثل هذا العمل من أوجب
الواجبات وأعظم الفرائض على الأمة ١٤

٦ - ما زعم من أن آية ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل
الآية ، من كلام أبي بكر أغراق في الجهل وإسراف في الوهم والآية قد
نزلت بعد أحد وحفظها كثير من الصحابة أن ذلك المسلمين لما أصبوا في
أحد وأشيع بأن الرسول قد قتل اختل نظام الجيش وفر الكثيرون ، وقال
بعضهم لبيت لنا رسولاً إلى عبد الله ابن أبي فياخذ لنا أماناً من أبي سفيان ،
وبعضهم جلسوا وألقوا ما بأيديهم من السلاح ، وقال أناس من أهل النفاق
إن كان محمد قتل فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضير عم أنس بن
مالك يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات
عليه ، ثم ألقى بنفسه في القتال حتى لقي ربه شهيداً فأنزل الله هذه الآية
ليبين لهم خطأهم فيما فعلوا وقالوا حينما علموا أن الرسول قد قتل ، وأن النبوة
لا تقتضى الخلود وأنه كثيره من الأنبياء . يجوز عليه ما جاز عليهم ، وكان
هذا الحادث الجاهل قد التبس عليه الأمر بما جرى بعد وفاة الرسول فقد
أنكر عمر - في سورة الغضب وغمرة الحزن - موت الرسول وتوعد
من يقول ذلك وغفل عن هذه الآية ، وما إن جاء الصديق ودخل على
رسول الله وقبلة وقال : « طبت حيا وميتاً ، حتى قال على رسلك يا عمر ثم
حمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا الآية « وما محمد النخ ، قال عمر فوالله ما أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ماتحملني قدماي ، إذ قد تحقق ما غاب عنه من أن موت الرسول حق لا شك فيه .

وأما آية « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » ، فليست من كلام عمر . وإنما المروى أن عمر قال : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى بصيغة التثنية ، فنزلت الآية أمرة بالانحياز فأين أسلوب التثنية من الأمر ؟ وكون القرآن يوافق عمر في أشياء كان له فيها رأى واجتهاد لا يدل على أنه من كلام عمر وليس بعد الحق إلا الضلال فأنى يؤفكون .

الشبهة السابعة

روى مسلم^(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من ثم نسختن بخمس معلومات فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن .

وروى بعضهم أنها كانت في صحيفة وفي رواية في جليل ، وأنهم اشتغلوا بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل الداجن^(٢) فأكلها . قالوا : والقرآن اليوم ليس فيه ما يدل على خمس رضعات فتكون الآية الدالة على هذا الحكم قد سقطت من القرآن .

والجواب :

إن هذه الرواية مهما صحت فهي آحادية لا يثبت بها قرآن لأن القرآن

(١) مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٢٩ - ٣٠

(٢) في القاموس (ودجن بالمد كان دجونا أقام والحمام والشاة وغيرهما ألفت البيوت وهي داجن)

لا يثبت إلا بالتواتر ثم هي أيضا لا تعارض القطعي الثابت بالتواتر وهو القرآن الذي بين أيدينا اليوم وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١) في معرض ذكر ما يقوى مذهب الجمهور القائلين بتحريم قليل الرضاع وكثيرة ، وأيضا فقبول عائشة عشر رضعات معلومات ثم نسخت بخمس معلومات ، فمات النبي صلى الله عليه وسلم ، وهن مما يقرأ لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قول الأصوليين لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والراوى روى هذا على أنه قرآن لا خبر فلم يثبت كونه قرآنا ، ولا ذكر الراوى أنه خبر ليقبل قوله فيه والله أعلم وما يدل على أنه ليس قرآنا ، وأنه كان تشريعاً ثابتاً بالسنة ثم نسخ بالسنة اختلاف الرواية عنها في القدر المحرم ففي رواية الموطأ عنها عشر رضعات وعنها أيضا سبع رضعات ، أخرجه ، ابن أبي خزيمة باسناد صحيح عنها ، وعبد الرزاق أيضا ، وجاء عنها أيضا خمس رضعات ، وهي ما يدل عليها رواية مسلم التي معنا فاختلاف الرواية عنها يدل على أنه كان باجتهاد منها استندت فيه على ما ظهر لها من السنة ولو كان قرآنا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف (٢)

وقال الإمام النووي في شرحه على مسلم (٣) « واعترض أصحاب مالك على الشافعية - يعنى القائلين بأن لحرمة إلا بالخمس - بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم ، وعند محققى الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد ، وإذ لم يثبت بخبر الواحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن خبر

(٢) المرجع السابق

(١) ج ٩ ص ١٢٠

(٣) ج ١٠ ص ٣٠

الواحد إذا توجه إليه قادح يوقف عن العمل به وهذا إذا لم يجيء إلا بأحد مع أن العادة مجيئه متواترا توجب ريبه والله أعلم ، وهكذا يتبين لنا أن الأئمة على أنه ليس بقرآن قط وأقصى درجاته أن يكون خبرا صحيحا ، وأما رواية أكل الداجن فهي مردودة ومتهافة وليس أدل على هذا من أن القرآن كان محفوظا في الصدور فضياع صحيفة منه - فرضا - لا يؤثر في ثبوت قرآنيته مادامت تحفظه الكثرة الكاثرة من المسلمين ثم أن القرآن كان مكتوبا في العصب ، والرقاب ، والعظام ، وصحائف الحجارة ؛ ومثل هذه الأشياء مما لا يتيسر في العادة الداجن أن تأكله ولا سيما والرواية لم تعين لنا نوع هذا الداجن أهو شاة أم حمام أم غيرها .

فإن قال قائل فكيف يتفق ماذهب إليه من تأويل وما ثبت في الرواية
« كان فيما أنزل من القرآن ، ؟

قلت : المراد كان فيما أنزل من شرح القرآن وبيانه ولاشك أن السنة شارحة للقرآن ومبينة له قال الله تعالى ، « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، وأيضا فإن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ويكون الأمر من نسخ السنة بالسنة ، ويكون قولها في الحديث (فتوفى رسول الله وهن عما يقرأ من القرآن) أي من حكم القرآن على أنه سنة لا قرآن ولاشك أنهم كان يعنون بحفظ السنة أيضا أو يكون المراد وهن فيما يعلم من أحكام القرآن .

٢ - وللعديث تأويل آخر وهو أنه يحمل على أنه كان قرآنا ثم نسخ لفظه وبقي حكمه وبعد النسخ لم يعد يسمى قرآنا ولا له حكمه ، فإن قيل هذا تأويل مقبول لولا ما يعارض من قولها (فتوفى رسول الله وهن فيما يقرأ من القرآن) قلت أن غرضها الأخبار بأن هذا النسخ لم يقع إلا قبيل

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فعلم بالنسخ الكثيرون وتركوا القراءة به ولم يعلم البعض ، فبقى هذا البعض على القراءة حتى تيقنوا فيما بعد نسخه فتركوا القراءة به قال ؛ الإمام النووي في شرح هذا الحديث (ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه صلى الله عليه وسلم توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآناً متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده ، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى (١)

وهذا الجواب إنما يتم على مذهب من يرى أن من أقسام النسخ ما نسخت تلاوته وبقي حكمه ، وهذا النوع قد أنكره بعض العلماء قال الإمام السيوطي في الاتقان (٢) دحكي القاضي أبو بكر في الانتصار عن قوم أنكروا هذا الضرب لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها .

هذا ولعل الوجه الأول في الجواب أولى وأسلم .

الشبهة الثامنة :

مارواه البخارى في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لو كان لابن آدم واديان من مال لا يتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وفي رواية أخرى له أيضاً نحو هذا وفي آخرها (قال ابن عباس فلا أدري من القرآن هو أم لا ؟) قال : وسمعت ابن الزبير يقول ذلك على المنبر (وروى

عن أنس عن أبي قال . (كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت المصاحم
التكاثر (١) .

ورواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس وفي آخره (فلا أدري أمن القرآن
هو أم لا؟) وفي رواية أخرى له عن أنس مثله وفي آخره (فلا أدري أشيء منزل
أم شيء كان يقوله) وروى عن أبي موسى الأشعري قصة وفيها (وأنا كنا نقرأ
سورة كنا نشبهها في الطول والشدة براءة فأنسيتها غير أني حفظت منها لو كان
لابن آدم واديان خ ، (٢) كما روى في غيري الصحيحين فظاهر هذه الروايات
أنها كانت قرآنا ، ولكن أني هي في المصاحف المقرورة اليوم ؟

والجواب :

١ - إن هذه الروايات كلها لا تدل على أن هذا قرآن ؛ إذ القرآن
لا يثبت إلا بالتواتر ؛ وغاية ما تدل عليه أنها من كلام النبي ﷺ ، وهما أنت
قد رأيت أن بعض الروايات قد جاءت مصرحة بأن ذلك من كلام النبي ﷺ
فحسب ، وأما الروايات التي فيها إيهام أن ذلك قرآن فإنما جاءت على صيغة
الشك كما سمعت ، وإذا كان الجزم في هذا لا يثبت القرآنية فما بالك بالشك
والتردد ؟ وليس من ريب في أنه إذا تعارض اليقين والشك فالرجحان لليقين
وعليه فتكون الروايات التي نسبت ذلك إلى النبي ﷺ على أنه من كلامه
هي المعول عليها وهذا الذي ذهبنا إليه هو ما سبق إليه أئمة العلم .

قال الحافظ- ابن حجر في الفتح (٣) تعليقا على قول أبي و كنا نرى (٤)
هذا من القرآن حتى نزلت المصاحم التكاثر ، ووجه ظنهم أن الحديث المذكور
من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال والتقرير

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٢١٢ ومسلم بشرح النووي ج ٧ ص ١٣٩

(٢) الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٥

(٣) ج ١١ ص ٢١٥ (٤) نرى بضم النون بمعنى نظن .

بالموت الذى يقطع ذلك ولا بد لكل أحد منه فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ

٢ - إن هذا كان قرآنا ثم نسخت تلاوته لما أنزل الله ، الهاكم ، ثم بقى حكم ذلك مقررأ قال الحافظ ابن حجر ، وقد شرحه بعضهم على أن ذلك كان قرآنا ونسخت تلاوته لما نزلت ، الهاكم التكاثر ، فاستمرت تلاوتها ، فكانت ناسخة لتلاوة ذلك ، فأما الحكم والمعنى فيه فلم ينسخ ؛ إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ كنسخ الحكم والأول أولى وليس ذلك من النسخ فى شيء . ومراد الحافظ بالأول أى أنه من كلام النبوة لا قرآن ولعل مما يشهد لهذا التأويل الثانى ماورد فى حديث أن موسى الأشعرى فى صحيح مسلم وهو ما ذكرناه آنفا ، وهذا الوجه لا يثبت إلا بتسليم كونه قرآنا فى أول الأمر ، ودون إثبات ذلك خرط القتاد إذ القرآن لا يثبت بالأحاديث هورأى المحققين .

٣ - إن هذا من قبيل الأحاديث القدسية التى هى من الله وقد ورد فى بعض الروايات التصريح بنسبته إلى الله بلفظ « أن الله يقول ، ويشهد لذلك أن أسلوبه ومعناه شبيهان بأساليب ومعانى الأحاديث القدسية إذهى كثيراً ما تدور حول الزهد والفضائل ، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح فى أثناء شرحه لهذا الحديث ، ومنه ما وقع عند أحمد وأبى عبيد فى فضائل القرآن من حديث أبى واقد الليثى قال : كنا نأتى النبي ﷺ إذا نزل عليه فيحدثنا فقال لنا ذات يوم « أن الله قال أنى أنزلت المال لأقام الصلاة ، وأتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم الحديث ، وهذا يحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية والله أعلم وعلى الأول فهو مما نسخت تلاوته جزماً وأن كان حكمه مستمراً ،

والذى يرجح عندى أن يكون هذا من الأحاديث النبوية أو القدسية

اذ ليس فيه شيء من اعجاز القرآن وسحره وجلاله .

الشبهة التاسعة :

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابن عباس حديثا طويلا وفيه أن عمر قال على المنبر « أن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها ، ووعيناها ، رجم رسول الله ﷺ ورجننا بعده فأخشى أن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فضلوا بترك فریضة أنزلها الله والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحسن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف » وفى الموطأ عن سعيد بن المسيب لما صدر عمر من الحج وقدم المدينة خطب الناس فكان مما قال « أياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل لا نجد حدین فى كتاب الله فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجننا والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لسكتبته أيدي ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، » .

وروى أبو عبیدة وغيره عن زرين حبیش قال قال لى أبى بن كعب كأن تعد سورة الأحزاب ؟ قال اثنتين وسبعين آية أو ثلاثاً وسبعين آية قال . أن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال . إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ، (١) قالوا . فهذه الروايات تدل على أن القرآن سقطت منه هذه الآية .

والجواب على ذلك نقول .

أن رواية أبى بن كعب التى هى أصرح الروايات فى القرآنية غير صحيحه

(١) أنظر فتح البارى ج ١٢ ص ١١٩ ، ١٢٣ صحيح مسلم بشرح

النوى ج ١١ ص ١٩١ ، الإتقان ج ٢ ص ٢٥

لإذ في سندها عاصم بن أبي النجود وهو مضعف في الحديث وإن كان إماماً
في القراءة (١) .

وأما الروايات عن عمر فهي صحيحة ولا شك ، وليس من الصواب
ولا البحث العلمي الصحيح رد روايات صحيحة بمجرد الهوى ، ولكن
الواجب أن نعملها على محاملها الصحيحة من غير تعسف ، ولا تكلف ، وأحب
أن أنبه إلى أن رواية الصحيحين ليس فيها التصريح بقوله الشيخ والشيخة الخ ،
ولا أنها كانت قرانا ، قال الحافظ في الفتح ، وقد أخرجه الإسماعيلي من رواية
جعفر الفريابي عن علي بن عبد الله شيخ البخاري فيه فقال بعد قوله ، أو
الاعتراف ، وقد قرأناها ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، فسقط
من رواية البخاري من قوله ، وقرأناها ، إلى قوله ، البتة ، ولعل البخاري هو
الذي حذف ذلك عمداً فقد أخرجه النسائي عن محمد بن منصور عن سفيان
كرواية جعفر ثم قال ، لا أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة غير
سفيان وينبغي أن يكون وهم في ذلك ، قلت ، أي الحافظ ابن حجر - وقد
أخرج الأئمة هذا الحديث من رواية مالك ويونس ومعمرو صالح بن كيسان
وعقيل وغيرهم من الحفاظ عن الزهري فلم يذكروها وقد وقعت هذه الزيادة
في هذا الحديث من رواية الموطأ عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب الخ
ما قال ، وهي الرواية التي اشرت إليها آنفاً .

ومهما يكن من شيء فقد وردت آثار كثيرة في هذا المعنى واستشهد
الأصوليون بآية الشيخ والشيخة الخ ، لما نسخ لفظه وبقى حكمه وقد روى
حديثها البخاري ومسلم ومالك وأحمد وأبو داود والنسائي والترمذي ولئن
كانت روايات الصحيحين خلت من ذكر الآية فقد جاءت في رواية غيرهما
وإذا كان الحال على ما سمعت فما هي المحامل الصحيحة لهذا الحديث ؟ .

(١) إن هذه الروايات آحادية فهي لا يثبت بها قرآن ولا تعارض القطعي الثابت بالتواتر وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله وسنة من سنته ، ولا ينافي هذا قول عمر رضى الله عنه « وكان فيما أنزل عليه ، فان جبريل كما ذكرت - كان ينزل ببعض السنة كما ينزل بالقران ، وتسميتها اية بالمعنى اللغوى لا الاصطلاحى وكذلك قوله « فقرأناها ووعيناها ، فالمراد به نروها عن رسول الله فعبّر عن الرواية بالقراءة ومنه يقال . فلان يقرأ الحديث والسنن على فلان ويكون قوله « والرجم في كتاب الله حق ، أى في شرع الله وحكمه وتقديره أو يكون المراد به الاشياء إلى قوله تعالى (أو يجعل الله لمن سبيلا) فقد بينت السنة أن المراد جلد البكر ، ورجم الثيب ، ويؤيد هذا التأويل قول الفاروق رضى الله عنه (نولاً أن يقال زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في المصحف إذ لا يقال زاد لما عرف أنه منه لكنه لما كانت عنده سنة مؤكدة وحكماً لازماً حث على حفظها وقراءتها ودراستها حتى لا يغفل الناس عنها ، كما حث على حفظ آى القرآن ، والذي يؤكد هذا التأويل مارواه بن حمدويه بسنده عن الحسن أن عمر قال هممت أن أدعو بنفر من المهاجرين والأنصار معروفة أسماءهم وأسابهم ، واكتب شهادتهم في ناحية المصحف أى حاشيته . هذا ما شهد عليه عمر بن الخطاب وفلان وفلان يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم في الزنا وأنى خفت أن يحى قوم من بعد يرون أن لا يجدونها في كتاب الله فيكتبون بها ، وعمر رضى الله عنه ما كان يخشى في الحق لومة لائم فلو أنها كانت من القرآن لأثبتها ، ولما خاف مقالة الناس ، وكونه هم أن يكتبها في الحاشية لافى الصلب دليل على أنها ليست قرآناً قال العلامة الألوسى عند تفسير قوله تعالى (الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) (إن الجلد نسخ في حق المحصن قطعاً لأن الحكم في حقه للرجم واختلاف في النسخ هل هى السنة القطعية أو مارواه عمر رضى الله عنه من الآية المنسوخة (الشيخ والشيخة) قال العلامة ابن الهمام . إن كون السنة القطعية أولى من

(م ٢٠ - المدخل)

كون ما ذكر من الآية . لعدم القطع بثبوتها قرآنا ثم نسخ تلاوتها ، وإن ذكرها عمر وسكت الناس ، فإن كون الإجماع السكوتي حجة مختلف فيه وبتقدير حجيته لا نقطع بأن المجتهدين من الصحابة رضی الله عنهم كانوا إذ ذاك حضورا ثم لاشك في أن الطريق في ذلك إلى عمر ظني ولهذا - والله أعلم - قال على كرم الله وجهه حين جلد شراحه ثم رجمها (جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ) .

ويؤيد هذا التاويل أيضا ما أخرجه النسائي أن مروان بن الحكم قال لزيد بن ثابت ؛ ألا تسكتبها في المصحف ؟ قال لا . ألا ترى بأن الشابين الثيبين يرجمان ولقد ذكرنا ذلك فقال عمر : أنا أكفيكم فقال يا رسول الله أكتبت آية الرجم ؟ قال « لا أستطيع » .

وإن نظرة فاحصة في « الشيخ والشيخة الخ » ، لترينا أنها ليس عليها نور القرآن ومسحته ولا فيها حكمته وإعجازه ، وأن قول زيد رضي الله عنه « ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان » ما يشير إلى عدم بلوغها الغاية في الدقة والأحكام كما هو الشأن في القرآن ، وهذا يدل على فرق ما بين كلام الله وكلام الإنسان .

٢ - إن هذه الآية كانت قرآنا ثم نسخ لفظها وبقي حكمها . قال الإمام النووي رحمه الله ، أراد بآية الرجم ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، وهذا مما نسخ لفظه ليس له حكم القرآن في تحريمه على الجنب ونحو ذلك ، وفي ترك الصحابة كتابة هذه الآية دلالة ظاهرة على أن المنسوخ لا يكتب في المصحف وبنحو ذلك قال ابن كثير في تفسيره^(١) والحافظ ابن حجر في الفتح^(٢) ولعل السر في نسخ لفظها عدم أحكام معناها ، وأن العمل

(١) ٦٣ ص ٥١ .

(٢) ١٢٣ ص ١٢٣ .

على غير الظاهر من عمومها فقد روى الحاكم عن عمر أنه قال : لما نزلت
أُميت النبي ﷺ فقلت اكتبها فسكاته كره ذلك . فقال عمر : ألا ترى أن
الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحسن رجم ، هذا
إلى ما في ظاهرها من تجرئة الشباب على الوقوع في الزنا ؛ إذ الشأن في الكبير
والكبيرة البعد عن مواطن الإثم والفجور فاتضح حكمة الله تنزيهه الأسماع
عن سماعها ، وهذا الجواب الثاني إنما يتم بعد تسليم قرآنيتهما وقد خالف في
هذا كثير من العلماء .

الشبهة العاشرة :

ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب قال : أن رسول الله ﷺ
قال لي : أن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن قال فقرأ ولم يكن الذين كفروا
من أهل الكتاب ، قال فقرأ فيها ولو أن ابن آدم سأل وأديا من مال فأعطيه
لسأل ثانيا ، ولو سأل ثانيا فأعطيه لسأل ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا
التراب ويتوب الله على من تاب ، وأن ذات الدين عند الله الحنيفة السمحة
غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيرا فلن يكفره
و رواه الترمذي أيضا وكذلك روى هذا الأثر بزيادات أكثر من هذه (١) .

وللجواب على ذلك نقول :

١ - إن هذا الحديث وأمثاله أحاديث لم تشتهر بين نقلة الحديث وإنما
يرغب فيه من يكتبها طلباً للغريب ، وما كان كذلك فليس لاحد أن يعترض
به على الكتاب الذي حفظ عن رسول الله بالتواتر ؛ إذ هو على تسليم صحته
أحاد فلا يعارض القطعي الثابت بالتواتر ، ولا يثبت به أيضاً قرآن .

٢ - إن هذا الحديث طعن فيه بعض أهل العلم بأنه باطل ولعل بما يدل

على بطلانه أن سورة «لم يكن» بلفظها الذي ورد في المصاحف ثبتت متواترة عن أبي بن كعب ، وقد قدمنا أن قوله «لو كان لابن آدم وادمن مال الخ» ليس بقرآن وإنما هو حديث نبوي أو قدسي وكذلك ما زيد في هذه السورة من ألفاظ هو بالبيان والتفسير أشبه منه بالقرآن إذ ليس عليه شيء من نور القرآن، ولا له أعجازه ، ولا ينبغي أن يغرب عن البنا أن بعض الصحابة كان يقرأ بعض آيات القرآن على سبيل التفسير والبيان كما كان بعضهم - كأبي وابن مسعود - يكتب في مصحفه بعض تفسيرات ، وتأويلات ، وأدعية ، ومأثورات فيظن من يسمعها أو يقف عليها أنها من القرآن ، والحق خلاف ذلك قال أبو بكر الأنباري بعد أن ذكر ما روى أن عكرمة قرأ على عاصم «لم يكن» ثلاثين آية هذا فيها قال : «هذا باطل عند أهل العلم لأن قراءة ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب لا يقرأ فيها هذا المذكور في «لم يكن» بما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من كلام الرسول عليه السلام لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن وما رواه اثنان معها الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة» (١).

وقال بعض العلماء «والذي يؤكد ما قلناه اتصال قراءة أبي جعفر بابن عباس وأبي هريرة وابن مسعود وغيرهم وهم قرأوا على أبي بن كعب؛ واتصال قراءة ابن كثير بمجاهد وقرأ مجاهد على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبي واتصال قراءة أبي عمرو بمجاهد وسعيد بن جبير وهما قرءا على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبي فهؤلاء الأئمة وأعلام الدين الذين رووا عنهم وحفظوا عليهم نبره ومدته وتشديده ، فلو كان من قراءة أبي ذلك لقرأه عليهم ، ولرووا عنه ، وحفظوا عليه أطول تلك الألفاظ» (٢)

(١) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ١٣٩

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٢

وأيضاً فقد اضطرب النقل في هذا الأثر فمن قائل أنه آية من سورة لم يكن ومن قائل آية من سورة تشبه سورة براءة والباطل دائماً للجلج والحق دائماً أبلج ، وقد وردت هذه القصة في الصحيحين (١) بدون هذه الزيادات ولا شك أن روايات الصحيحين أوثق من غيرها وأولى بالقبول مما يؤيد أن هذا التخطيط المروى باطل .

٣ - أن ذلك كان قرآنًا ثم نسخ ويكون من حمل ذلك عن أبي إماما هو قبل أن ينسخ ثم لما نسخ رجع أبي عنه ، وبقوا هم على قراءته لعدم علمهم بالنسخ أما جمهور المسلمين العارفين بأنه نسخ فلم يقرأوا به ولم ينقلوه .

الشبهة الحادية عشرة :

روايات (٢) يوم ظاهرها سقوط شيء من القرآن .

(أ) ماروى أن أياً كان يقرأ ، إذ جعل للذين كفروا في قلوبهم الحية حمية الجاهلية - ولو حميم كما حمو افسد المسجد الحرام ، الفتح الآية ٢٦
(ب) ماروى أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل الله علينا أن ، جاهدوا كما جاهدتم أول مرة ، ؟ فإننا لانجدها ، قال أسقطت فيما أسقط من القرآن .

(ج) ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : كنا نقرأ سورة نشبهها يا حدى المسجات مانسيناها ، غير انى حفظت منها : وبأيا الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، فتكتب شهادة في أعناقكم - فتسألون عنها يوم القيامة ،

(١) أنظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٨٩ وما بعدها صحيح مسلم بشرح النووي

ج ١٦ ص ٢٠

(٢) الإتيقان ج ٢ ص ٢٥ مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٩

(د) ما روى في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا غدرا ، قال أنس : ونزلت فيهم قرآن قرأناه حتى رفع ، أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ، .

(هـ) ما روى عن عمرو بن دينار قال سمعت ابن الزبير يقرأ « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم ، ال عمران ١٠٤ .

(و) ما روى عن ابن عباس وأبي أنهما قرءا « أن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي فكيف أطلعكم عليها ، .

(ز) ما روى عن علي أنه قرأ « والعصر - ونواب الدهر - إن الإنسان لفي خسر ، .

والجواب :

١ - أن هذه الروايات أغلبها باطلة لم يصح منها شيء وإنما هي غرائب ومناكير رواها الذين أولعوا بهما ، وليس ادل على بطلانها من رواية « اكاد أخفيها من نفسي ، وهل يعقل ان يخفي الله شيئا من نفسه ؟ ومن رواية ، والعصر ونواب الدهر فقد تواتر عن علي رضي الله عنه انه كان يقرأ بقراءة الجماعة ، وهل يعقل ان يدع علي شيئا يرى انه من القرآن ثم لا يثبتته ولا سيما انه قد قد آلت إليه الخلافة ، وصار صاحب الكلمة النافذة بين المسلمين ! إن هذا إلا بهتان مبين .

٢ - إن هذه الروايات ، على فرض صحتها تحمل على ان ذلك كان قرآنا ، ثم نسح لفظه وبقي معناه كما تدل على ذلك رواية الصحيحين في اصحاب بئر معونة .

٣ - ان بعض هذه الروايات محمول على التفسير والتوضيح ويكون الراوى سمع من يقرأها مفرقا ومبيناً لمعناها فظن أن الكل قرآن . ولعل

هذا يظهر في وضوح في الرواية المتعلقة بقوله تعالى . ولتكن منكم امة الية
والرواية المتعلقة بقوله تعالى ولم تقولون ما لا تفعلون .

رد عام

وإليك ردا عاما يرد به على هذه الشبه وعلى غيرها مما اورد على جمع
القرآن .

وهو ان المسلمين اجمعوا على أن هذا الذي كتب في المصاحف وحفظه
الألوف عن الألوف هو القرآن الذي انزله رب العالمين على نبيه محمد صلى
الله عليه وسلم لا زيادة فيه ، ولا نقصان ، فمن ادعى زيادة عليه ، او نقصانا
فقد ابطال الاجماع وبهت جمهور الناس ، ورد ما قد صح عن الرسول صلى
الله عليه وسلم ، وغير معقول ان يبطل ما جمع عليه المسلمون بروايات جلها
باطل موضوع . وما صح منها فله محامل صحيحة ، وليس نصا على ما يزعم
الزاعمون ، وان من يزعم ان القرآن نقص منه شيء او زيد فيه شيء . كمن زعم
ان الصلوات المفروضة كانت عشرةا فأنقصها المسلمون إلى خمس او انها
كانت ثلاثا فصيروها خمسا - سواء بسواء - فاذا صح في العقول شيء من هذا
صح ما تقولوه على القرآن

والله سبحانه - وقد وعد بحفظ كتابه - قد هيا لآمة من الأسباب الداعية
إلى حفظه وصيانتة من التحريف والتبديل ما لم يتهبأ لكتاب غيره في الدنيا ،
وعلى كثرة ما صوبه اعداء الاسلام إلى القرآن من سهام غير صائبة ، وتلفيقات
مزورة فقد بقى القرآن كالطود الشامخ الذي لا تزحزحه عن مكانه الرياح ،
والاعاصير ، مهما اشتدت وقد تكسرت على صخرته العانية كل ماراشوا
من سهام وبيتوا من كيد وسيبقى هكذا صلدا قويا حتى يرث الله الأرض
وما عليها وصدق الله حيث يقول إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . ولانه
لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

المبحث الثامن

ترتيب آيات القرآن وسوره

الآية لغة : وردت بمعنى العلامة ومنه قوله تعالى : « إن آية ملسكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ريبكم الآية، أى علامة ملسكه ، وبمعنى الدليل . ومنه قوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، أى دلائل قدرته ، وبمعنى العبرة ومنه قوله تعالى « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، أى عبرة لمن بعدهم ، وبمعنى المعجزة ومنه قوله تعالى « سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، أى من معجزة واضحة إلى غير ذلك من المعاني .

وفى الاصلاح : جزء من السورة لها مبدأ ونهاية وآخرها يسمى فاصله (١) وقيل : طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها وهذا التعريف غير مانع لدخول السورة فيه إلا إذا راعينا فى التعريف اندراجها فى السورة والمناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى ظاهرة لأنها علامة على نفسها بانفصالها عما قبلها وما بعدها ، أو لأن فيها عبرا ودلائل لمن أراد أن يتذكر أو لأنها بانضمامها إلى غيرها تكون معجزة دالة على صدق الرسول .

(١) الفاصلة هى الكلمة التى تكون آخر الآية وهى كسافية الشمر وقربنة السجع . وقال بعض القراء الفاصلة هى الكلمة التى تكون آخر الجملة فى أعم من رؤس الآى فكل رأس آية فاصلة ولا عكس واستدل على ذلك بأن سيبويه ذكر فى التمثيل للفواصل « يوم يأت ، وما كنا نبتغ ، وليس رأس آية بإجماع ، مع « إذا يسره . مع أنه رأس آية باتفاق . ورد قوله بأنه مخالف لاصطلاح القراء . وما ذكره سيبويه مشى فيه على مصطلح النحويين لا القراء .

وأيات القرآن تختلف طولا وقصرا وأكثر الآيات الطوال في السور الطوال وأكثر الآيات القصار في السور القصار وأطول آية هي آية الدين (١)، وأقصر آية طه ويس عند من عددهما وقد تكون الآية مكونة من كلمة واحدة كدهامتان، (٢) وقد تكون مؤلفة من كلمتين مثل والضحي وقد تكون من أكثر من ذلك وهو غالب آيات القرآن وقال بعض العلماء: ليس في القرآن كلمة واحدة آية إلا ددهامتان، ومراده مما اتفق على كونه آية بخلاف ما سواها مما هو كلمة واحدة أو أقصر منها في التلفظ. فإنه ليس بمتفق عليه مثل طه ويس، والحاقة والقارعة (٣).

وقد يطلق اسم الآية ويراد بعضها مجازا وذلك مثل قول ابن عباس: أرجى آية في القرآن، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، فإنه جزء آية باتفاق ووقع إطلاق اسم الآية على أكثر من آية وذلك مثل قول ابن مسعود: أحكم آية، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، وهتان آيتان باتفاق، ومثل ذلك يرد كثيرا في كلام السلف والخلف، وفي باب المجاز ما يصحح كل ذلك.

فوائد معرفة الآيات: ولمعرفة الآيات وعددها وفواصلها فوائد (٤) منها:

١ - معرفة الوصف، والوقف على روس الآي سنة كما يدل عليه بعض الأحاديث الواردة.

٢ - أنه يعين على صحة الصلاة فإن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية وقال جمع من العلماء تجزى بآية وآخرون بثلاث آيات

(١) البقرة/ ٢٨٢.

(٢) الرحمن الآية ٦٤.

(٣) عددا آيات الكوفي.

(٤) الاتقان ج ١ ص ٦٩.

وآخرون لا بد من سبع ، وكذلك اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب بدلها سبع آيات . عند من أوجبها ومنها اعتبارها في الخطبة فإنه تجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويله ، وكذا الطويلة على ما عليه الجمهور .

٣ - أن الأعجاز لا يقع بأقل من ثلاث آيات قصار أو آية طويلة تعادلها فما لم تعرف الآية لا يمكنها أن تقف على القدر المعجز من القرآن .
(٤) ومنها اعتبارها في قراءة قيام الليل ، ففي أحاديث : « من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين » ، ومن قرأ بخمسين آية في ليلة كتب من الحافظين ، « ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين » ، ومن قرأ بمائتي آية كتب من الفائزين ، « ومن قرأ بثلاثمائة آية كتب له قطار من الأجر » ، « ومن قرأ بخمسمائة ، وسبعمائة ، وألف آية ... » أخرجهما الدارمي في مسنده مفرقة .
عدد آيات القرآن :

وأما عدد آيات القرآن فقد قال فيه الداني : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف ومائتا آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك فمنهم من لم يزد ومنهم من قال ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل وأربع عشرة آية ، وقيل وخمس وعشرون آية ، وقيل وست وثلاثون آية .

وذلك يرجع إلى اختلاف القراء البصريين والكوفيين والشاميين والمكيين والمدنيين في العدد . قال أبو عبد الله الموصلي في شرح قصيدته ذات الرشد في العدد اختلف في عدد الآي أهل المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة ، ولأهل المدينة عددان : عدد أول وهو عدد أبي جعفر بن يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح وعدد آخر هو عدد إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري^(١) ، وأما عدد أهل مكة فهو مروى عن عبد الله بن كثير عن

(١) قال صاحب التبيان ص ١٧٠ (أن عدد المدنى الأول غير منسوب =

مجاهد عن ابن عباس عن أبي ابن كعب ، وأما عدد أهل الشام فرواه هرون بن موسى الأخفش وغيره عن عبد الله بن ذكوان وأحمد بن يزيد الحلواني وغيره عن هشام بن عمار ، ورواه ابن ذكوان وهشام عن أيوب بن تميم الدماري عن يحيى بن الحارث الدماري قال : هذا العدد الذي نعدده عدد أهل الشام مما رواه المشيخة لنا عن الصحابة ورواه عبد الله بن عامر اليحصبي لنا وغيره عن أبي الدرداء ، وأما عدد أهل البصرة فداره على عاصم بن العجاج الجحدري ، وأما عدد أهل الكوفة فهو المضاف إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبي الحسن الكسائي وخلف بن هشام ، قال حمزة أخبرنا بهذا العدد ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب ، (١) .

والسبب في الاختلاف في عدد الآي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رموس الآي للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة فنظر إلى الوقف قال أنها رأس آية ، ومن نظر إلى الوصل لم يقل أنها آية ، وآخر كلمة في الآية تسمى فاصلة وتجمع على فواصل ، ومعرفة الفواصل هو العمدة فيما نحن فيه ولمعرفة طريقان توفيقى وقياسى .

أما التوقيف فما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف عليه بتحققنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً بتحققنا أنه ليس بفاصله ، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة ، أو لتعريف الوقف التام

إلى أحد بعينه ، وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مرسلًا ولم يسموا في ذلك أحداً . وعدد المدني الأخير منسوب إلى أبي جعفر بن يزيد وشيبة بن نصاح . . وقد وهم من نسب عدد المدني الأول إلى أبي جعفر وشيبة وعدد المدني الأخير إلى إسماعيل بن جعفر الخ ما قال .

أو للاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة وصلها لتقدم تعريفها
وأه القياسي فهو ما ألحق من غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمراً
يقضى ذلك ، ولا محذور في ذلك ؛ لأنه لازيادة فيه ولا نقصان ، وإنما
غايته أنه محل فصل أو وصل ، والوقف على كل كلمة جائز .

معرفة الآيات توقيفية :

وآيات القرآن كلها توقيفية لا تعلم إلا من الشارع قال الزمخشري في
تفسيره « فإن قلت ما بالهم عدواً بعض الفواتح آية دون بعض ؟ قلت :
هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كعرفة السور أما « ألم ، فأية حيث وقعت
من السور المفتحة بها وهي ست ، وكذلك ، ألمص ، آية ، و « ألمر ، لم تعد
آية ، و (ألر ، ليست بأية في سورها الخمس ؛ و « طسم ، آية في سورتيها ،
و « طه ، و « ديس ، آيتان ، و « طس ، ليست بأية ، و « حم ، آية في
سورها كلها ، و « حم ، عسق ، آيتان ، و « كهيعص ، آية واحدة و « ص ،
و « دق ، و « ن ، ثلاثهما لم تعد آية ، هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم لم
يعدوا شيئاً منها .

فإن قلت فكيف عد ما هو في حكم كلمة واحدة آية ؟ قلت . كما عد

« الرحمن ، وحده و « مدهامتان ، وحدهما آيتين على طريق التوقيف -
وقال ابن العربي « ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة سبع آيات ،
وسورة الملك ثلاثون آية وقد صح أنه قال . من قرأ الآيتين من آخر سورة
البقرة في ليلة كفتاه .

كلمات القرآن وحروفه .

وكما عدوا آيات القرآن عدوا كلماته فقيل سبعة وسبعون ألف كلمة وتسعمائة
وأربع وثلاثون كلمة ، وقيل : وأربعمائة وسبع وثلاثون ، وقيل : ومائتان

وسبع وسبعون وسبب الاختلاف أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كل منها جاز وكل من العلماء اعتبر أحد الجوانب .

وكذلك عنوا بعد حروفه وبيان أنصافه بالكلمات والحروف وأثلاثه وأرباعه وأخماسه ... وكذا عدوا ما في القرآن من ألفات ، وباءات إلى آخر حروف الهجاء ، وليس من قصدى التعرض لمثل ذلك فإن الاشتغال به - كما قال السيوطى - مما لا طائل تيمته وقد استوعبه ابن الجوزى فى فنون الألفان وأوسع القول فيه فمن أراد استيعابا فليرجع إليه ، أو إلى «مقدمتان فى علوم القرآن» (١) فقد فصل القول فى ذلك

ترتيب الآيات

ترتيب الآيات فى سورها توقيفى ، فقد كان جبريل عليه السلام يوقف النبى صلى الله عليه وسلم على مواضع الآيات من سورها ، وكان رسول الله عليه وسلم يقول ضعوا آية كذا روى أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشئ يدعو بعض من يكتب فيقول وضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا ، الحديث وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف وقد أجمع العلماء أن ترتيب الآيات توقيفى وتواردت النصوص الصحيحة على ذلك .

أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر ابن الزبير فى مناسباته ، ونص عبارته «ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره بلا خلاف فى هذا بين المسلمين» .

وقال ابن الحصار : ترتيب السور ، ووضع الايات إنما كان بالوحى ،
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا ،
وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وسلم ، وما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصنف .
وأما النصوص فكثيرة منها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال :
قلت لعثمان ، والذين يتوفرن منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم
متاعاً إلى الحول غير أخراج ،^(١) قد نسختها الآية الأخرى^(٢) فلم تكتبها أو
تدعها - أى لم تكتبها وهى منسوخة أو لم تدعها مكتوبة وقد نسخت فأو ،
لشك من الراوى أى اللفظين قال ، قال : يا ابن أخى لا أغير شيئاً منه
من مكانه ، وكان ابن الزبير فهم أن ما ينسخ حكمه لا يكتب فأفهمه سيدنا
عثمان أن الأمر فى إثبات الايات فى مواضعها إنما هو بالتوقيف وليس لأحد
أن يغير شيئاً من مكانه .

ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم
عن شيء أكثر مما سألته عن السكالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال :
« أما تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء » ومنها الأحاديث الصحيحة فى
خواتيم سورة البقرة . من قرأ الايتين من خواتيم سورة البقرة فى ليلة
كفتاه ،^(٣) رواه البخارى وغيره .

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال :
كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببعصره ثم صوبه
ثم قال . أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية فى هذا الموضع من هذه
السورة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، الآية .

(١) البقرة ٢٤٠ .

(٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) هما من قوله تعالى « آمن الرسول ... » إلى قوله . « فانصرنا على

القوم الكافرين » .

وروى أبو يعلى في مسنده عن المسور بن مخرمة قال . قلت لعبد الرحمن ابن عوف يا خال ، أخبرني عن قصتكم يوم أحد قال . إقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران ، تجد قصتنا وإذ غدوت من أهلك تبوى المؤمنين مقاعد للقتال ... ، الآية وهو من أقوى الأدلة على أن الترتيب اليوم . هو الذي كان في عهدى النبي والصحابة فإذن هذه الآية رقمها المائة وواحد وعشرين من المصحف .

ومن النصوص الإجمالية الدالة على ذلك ما ثبت من قراءة صلى الله عليه وسلم لسور عديدة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، و د الم تنزيل ، و د هل أتى على الإنسان ، في صبح الجمعة . و دق ، و د اقتربت ، في العيد وغير ذلك من السور ، وكان يقرؤها على ترتيبها المعروف وبمشهد من الصحابة الذين أخذوا عنه ونقل ذلك عنهم نقلا متواترا فدل ذلك على أن الترتيب توفيقى .

وإليك بعض ما قاله العلماء في هذا . أخرج ابن وهب قال . سمعت مالكا يقول . إنما أُلّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مكى ابن أبى طالب القيسى وغيره د ترتيب الايات في السور بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يأمر بذلك في اول برائة تركت بلاسمة ، وقال القاضى ابوبكر د ترتيب الايات أمر بذلك واجب وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول د ضعوا آية كذا في موضع كذا ، . وقال ايضا . الذى نذهب إليه ان جميع القرآن الذى انزله الله وامر بإثبات رسمه ولم ينسخه ، ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذى بين الدفتين ، والذى حواه مصحف عثمان ، وانه لم ينقص منه شئ . ولازيد فيه ، وان ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله ، ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا اخر منه مقدم ، وان الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة ، وانه يمكن أن يكون الرسول قد رتب سورته وان يكون قد وكل ذلك

إلى الأمة بعده ولم يتول ذلك بنفسه قال : وهذا الثاني اقرب ، .

ومن المجمع عليه أن ترتيب الآيات ليس بحسب نزولها وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية ، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنين وتكون في ترتيب الكتابة قبلها . وليس أدل على هذا من تقدم بعض الآيات الناسخة على الآيات المنسوخة مع أن الناسخ متأخر عن المنسوخ في النزول قطعاً ، وذلك مثل آية : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإنها ناسخة لآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن متاعاً إلى الحول غير إخراج ، فالأولى متقدمة في الترتيب متأخرة في النزول .

وفي الأثر عن محمد بن سيرين قال : قلت لعكرمة . ألفوه - أي القرآن - كما أنزل الأول ، فالأول ؟ قال : لو اجتمعت الإنس ، والجن ، على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا وصدق عكرمة فإن ترتيبه على حسب النزول غير مستطاع لأحد من البشر ، لأن الله لم يرد أن يكون تأليف كتابه المعجز على حسب النزول ، وإنما اقتضت حكمته أن يكون على حسب المناسبات البلاغية ، وأسرار الإعجاز .

(السور و ترتيبها)

السورة في إصلاح العلماء طائفة من آيات القرآن جمعت وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت في الطول المقدار الذي أراده الله سبحانه وتعالى - لها وكل سور القرآن بدئت بالبسملة إلا براءة (١) .

(١) الصحيح أن التسمية لم تكن فيها لأن جبريل لم ينزل بها ويفصح عن السر في ترك البسملة في صدرها ما رواه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب لم لم تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف .

وقد اختلف في أصل مأخذها فقيل هي مأخوذة من سور المدينة ، لإحاطتها بآياتها لإحاطة السور بالبنيان ، وقيل : لأنها ضمت آياتها بعضها إلى بعض كما أن السور توضع لبناته بعضها فوق بعض حتى يصل إلى الارتفاع الذي يراد ، وقيل : مأخوذة من السورة وهي الرتبة والمنزلة قال النابغة الذبياني .

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
وسور القرآن مراتب ومنازل يترقى فيها القارىء من منزلة إلى أخرى .
وقيل مأخوذة من السور وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة
من القرآن وبقيته منه وهي على هذا مهموزة وحذفت همزتها تخفيفا .
معرفة السور توقيفي .

ومعرفة سور القرآن كلها توقيفي كعرفة آياته وسور القرآن تختلف طولاً
وقصراً فأطول سورة هي البقرة وأقصر سورة هي الكوثر . .

هل يقال سورة كذا؟ والصحيح جواز أن يقال سورة البقرة : وآل
عمران والنساء ، والأعراف ، وهكذا بدون كراهة ولا يشترط أن يقال
السورة التي يدكر فيها البقرة وهكذا سائر السور ، وفي الصحيح عن ابن
مسعود أنه قال : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة . وأما ما رواه
الطبراني والبيهقي عن أنس مرفوعاً : لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل
عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ، فإسناده ضعيف بل قال ابن
الجوزي . إنه موضوع ، وقال البيهقي إنما يعرف موقوفاً عن ابن عمر ثم
أخرجه عنه بسند صحيح وعلى هذا فيكون رأياً له واجتهاداً منه .

الحكمة في تسوير القرآن

ولتسوير القرآن سوراً فوائد منها .

(١) حسن الترتيب والتنويع والتبويب فالجنس إذا انطوت تحته أنواع

وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا ونوعا واحدا ولا يزال المؤلفون من قديم الزمان إلى يومنا هذا يعملون كتبهم أبوابا وفصولا حتى أصبح تبويب الكتب وتنسيقها فنا مستقلا برأسه .

(٢) تسهيل الحفظ وبعث الهمة والنشاط ألا ترى أن القارىء إذا أكل سورة ثم أخذ في حفظ غيرها كان ذلك أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثل ذلك المسافر إذا قطع رحلة ثم شرع في غيرها ازداد قوة ونشاطا ولا يزال يتجدد نشاطه كلما قطع مرحلة حتى يصل إلى غايته .

(٣) أن الحافظ إذا حفظ سورة وحذفها أعتقد أنه أخذ من كتاب الله حقا ونصيحا ، فيعظم عنده ما حفظه ، ويعظم هو في نفوس الناس . يشير إلى هذا المعنى حديث أنس : « كان الرجل إذا حفظ البقرة وال عمران جد في أعيننا ، أى عظم .

(٤) أن في التسيير والتفصيل تلاحق الأشكال ، والنظائر ، وملاءمة بعضها لبعض ، ولذلك نجد أغلب سور القرآن يدور الحديث فيها حول موضوع بارز ولها نمط خاص تستقل به فسورة يوسف تتحدث عن قصته وسور إبراهيم تتحدث عنه ، وسورة النساء تتحدث عن ما هن ، وما عليهن وسورة آل عمران تتحدث عن قصصهم وهكذا .

وما ذكره الزمخشري في تفسيره من أن الله أنزل التوراة والإنجيل والزيور وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة هو الصحيح فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال كنا نتحدث أن الزيور مائة وخمسون سورة كلها مواضع وثناء ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وذكروا أن في الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال^(١) .

(١) الاتقان ج ١ ص ٦٦ . لكن ينبغي أن يعلم أن السورة ، والاية =

والحكمة في كون سوره طوالا وقصارا .

١ - التنبيه على أن الطول ليس شرطا للاعجاز فهذه سورة السكوتر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة ، وفي هذا إثبات اعجاز القرآن ، على أبلغ وجه .

٢ - التدرج في تعليم القرآن من السور القصار إلى ما فوقها وفي ذلك تيسير من الله على عباده لحفظ كتابه إلى غير ذلك من الحكم .

عدد السور : وسور القرآن - في المصاحف العثمانية - مائة وأربع عشرة سورة ياجامع من يعتد به ، ونقل عن مجاهد أنها مائة وثلاث عشرة سورة يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة . والأول هو الذي عليه المعول . وعدم ذكر البسمة في أول براءة . لا يمنع أن تكون سورة مستقلة ، وقد بينت السر في عدم بدئها بالبسمة انقاً .

وأما عدد السور في مصحف ابن مسعود فهي مائة واثنان عشرة سورة لأنه كما قيل لم يكن يكتب المعوذتين في مصحفه .

وأما في مصحف أبي قحافة وست عشرة لأنه كتب في آخر دعاء القنوت وجعله في صورة سورتين سماهما « سورتي الخلع والحفد » ، وقال بعضهم مائة وخمس عشرة سورة « لإيلاف قريش » ، سورة واحدة .

والمعول عليه هو ما في المصاحف العثمانية التي أجمع عليها الصحابة ، ولا نلتفت إلى غيرها .

== قد صارتا علما بالغلبة على سور القرآن وآياته وأن اليهود والنصارى لا يطلقون عليها اسم السورة . ولكن يسمونها « إصحاحا » ، وهي تشتمل على فقرات ، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسمى الإصحاح سورة ولا الفقرة آية كما يفعل بعض المسلمين ، ولينبئ إطلاق السورة والآية على القرآن الكريم فحسب .

(أسامي السور)

وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير مثل النساء ، والأعراف ، والأنعام ومريم ، وطه ، والشورى ، والمدثر ، وقد يكون لها أكثر من اسم فمن ذلك الفاتحة ، تسمى فاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، وأم القران والسبع الثاني ، والشافية والكافية . والأساس وقد أنهى الامام السيوطي (١) أسماءها إلى خمس وعشرين وبراءة ، تسمى أيضا التوبة ، والفاضحة ؛ والبحوث (٢) بفتح الباء ، والمنقرة وقد أنهاها السيوطي إلى عشرة أسماء ، والاسراء ، وتسمى أيضا سبحان ، وسورة بني إسرائيل وسورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمى أيضا القتال ، وسورة «سأل» وتسمى أيضا المعارج ، وسورة «عم» ، وتسمى أيضا النبأ ، والتساؤل ، والمعصرات ، وسورة «أرأيت» ، وتسمى أيضا الدين ، والمعاون ، وسورة «الإخلاص» ، وتسمى أيضا الأساس ، وسورة «العلق» ، و«الناس» وتسميان أيضا المعوذتين بكسر الواو المشددة وقد استوعب السيوطي السور ذات الأسماء المتعددة في الإتيان (٣) .

وكما سميت السورة الواحدة بعدة أسماء سميت سور عدة باسم واحد ، وذلك كالسور المسماة بآلم وحم ؛ وذلك على القول بأن فواتح السور أسماء لها ، وتكون هذه الأسماء من قبيل المشترك اللفظي والتمييز بين السور بقريظة ضيمة إليها ، فيقال «الم البقرة» ، «الم آل عمران» ، ويقال «حم غافر» و«حم فصلت» ، وهكذا .

(١) الإتيان ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ (٢) الإتيان ج ١ ص ٥٢ - ٥٥ .

(٢) البحوث والمنقرة لأنها نقرت وبمشت عن صفات المنافين ومحاربههم

مبلغت في ذلك .

التسمية: توقيفية أم اجتهادية؟

قيل أنها توقيفية وعليه فنقف عند حد الوارد منها ، وقيل أنها اجتهادية وعلى هذا فلا يعدم الناظر أن يستنتج للسورة الواحدة أسماء أخرى غير الواردة ؛ والظاهر الأول ، قال السيوطي : وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك ، وعلى هذا يكون التوقيف أعم من أن يكون عن النبي صلى الله عليه وسلم . أو عن الصحابة الذين شهدوا الوحي والتنزيل .

وللزر كشي في هذا المقام كلام حسن قال : في البرهان ، ينبغي البحث عن تعداد الاسامى هل هو توفيقى أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثانى فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معانى كثيرة تقتضى اشتقاق أسماء لها وهو بعيد ، قال : وينبغي النظر فى اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعى فى كثير من التسميات أخذ أسماؤها من نادر أو مستغرب يكون فى الشئ من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم . أو أكثر . أو أسبق لأدراك الرأى للتسمي . ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها . وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن كتسمية سورة البقرة بهذا الإسم لقريظة قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها شيء كثير من أحكام النساء . وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها . وإن كان ورد لفظ الأنعام فى غيرها إلا أن التفصيل الوارد فى قوله تعالى : « ومن الأنعام حمولة وفرشا » إلى قوله : « أم كنتم شهداء الاية » لم يرد فى غيرها كما ورد ذكر النساء فى سور . إلا أن ما تكرر . وبسط من أحكامها لم يرد فى غير سور النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة فى غيرها فسميت بما يخصها .

قال : فإن قيل قد ورد في سورة هود ذكر نوح . وضال . وإبراهيم ولوط وشعيب . وموسى فلم خصت باسم هو وحده ؟ مع أن قصة نوح فيها أوعب وأطول ؟ (١) قيل : تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها . ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود كتكرره في سورتها فإنه تكرر فيها في أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا .

قال . فإن قيل فقد تكرر اسم نوح فيها في ستة مواضع ؟ قيل . لما أفردت لذكر نوح ، وقصته مع قومه سورة برأسها . فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه من سورة تضمنت قصته وقصة غيره .

قال السيوطي تعقيبا وبحذاء ، ولك أن تسأل فنقول . قد سمت سور جرت فيها قصص أنبياء بأسمائهم كسورة نوح ، سورة هود وسورة إبراهيم وسورة يونس وسورة آل عمران . وسورة طس سليمان (٢) وسورة يوسف . وسورة محمد صلى الله عليه وسلم : وسورة مريم ، وسورة لقمان وسورة المؤمن ، وقصة أقوام كذلك كسورة بنى إسرائيل وسورة أصحاب الكهف وسورة الحجر ، وسورة سبأ ، وسورة الملائكة ، وسورة الجن ؛ وسورة المنافقين ، وسورة المطففين ، ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن حتى قال بعضهم : كاد القرآن أن يكون كله لموسى وكان أولى سورة أن تسمى به سورة طه أو سورة القصص أو الأعراف ؛

(١) من آية ٢٥ إلى ٤٨ وقصة هود من آية ٥٠ إلى ٦٠ .

(٢) هي سورة النمل ، ولم تبسط قصة سليمان في سورة مثل ما بسطت في هذه السورة . من آية ١٦ - ٤٤ على ما ذكر في قصته هنا من العجائب كقصة الهدد ، وقصة نقل عرشها ، وقصة السرح الذي بناه بلقيس ملكة سبأ

تبسط قصته في الثلاثة ما لم يسط في غيرها ؛ (١) وكذلك قصة ادم ذكرت في عدة سور ولم تسم به سورة كأنه اكتفاء بسورة الإنسان وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص . ولم تسم به سورة الصافات ، وقصة داود ذكرت في سورة ص ولم تسم به فانظر في حكمة ذلك على أني رأيت في جمال القراء للسخاوى ، أن سورة طه تسمى « سورة السكيم » وسماها الهذلى في كامله « سورة موسى » وأن سورة ص تسمى « سورة داود » ورأيت في كلام الجعبرى أن سورة الصافات تسمى « سورة الذبيح » وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر .

وهذا الفصل الذى ذكره الزركشى من النفاسة بمكان ، وما عقب به الإمام السيوطى يحتاج إلى بحث ونظر في حكمة ذلك .

والذى يظهر لى - والله أعلم - أن قصة موسى تكررت في هذه السور أكثر من غيرها وهى متقاربة فى الهمك كما بينت بالهامش ، فلم تكن أحد السورتين الاخرين أولى من الاخرى ، بقيت السور طه ، وهى وإن كانت أطول إلا أنها لم تعرض لنشأة موسى الأولى كما عرضت سورة القصص ، فلم تكن أولى منها من هذه الحيثية ، ولو صح وثبت ما ذكره السخاوى لكان لتسمية طه بسورة السكيم وجه وجيه ، ولكن لا مستند له من الأثر كما قال السيوطى .

تقسيم السور باعتبار الطول والقصر

قد قسم العلماء السور إلى أربعة أقسام .

(١) الطوال : وهى سبع البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،

(١) ذكرت في سورة طه من آية ٩ - ٩٩ وفى القصص من ٣ - ٤٦ معظمها طوال وفى الأعراف من ١٠٣ - ١٥٥ معظمها قصار ، والأولى استغرقت فى المصحف نحو ست صفحات ، والثانية ، والثالثة استغرقت كل منهما خمس صفحات .

والأنعام والأعراف ، والسابعة قيل الأنفال وبراءة لعدم الفصل بينهما بالبسمة ، وقيل يونس .

(٢) المثون : ماولى الطوال وهى ما تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها .

(٣) المثانى : ماولى المثين وهى السور التى آياتها تقارب المئة وسميت

مثنى لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطوال والمثون .

(٤) المفصل : ماولى المثانى من قصر السور سمي بذلك لكثرة الفواصل

التى بين السور بالبسمة ، وقيل لقلة المنسوخ فيه ، وقد اختلف فى أوله على أقوال

فقيه : أوله (ق) ، وقيل الحجرات وهو الذى صححه النووى ، وللفصل

طوال وأوساط وقصار ، فالطوال من الحجرات إلى سورة البروج ، والأوساط

من سورة (الطارق) إلى سورة (لم يكن) ، والقصار من سورة الزلزلة

إلى آخر القرآن .

« تقسيم السور من حيث عدد الآيات إتفاقا واختلافا ،

تنقسم سور القرآن من هذه الحثية إلى ثلاثة أقسام .

(١) قسم لم يختلف فيه لافى إجمال ولا تفصيل .

(٢) قسم اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا .

(٣) قسم اختلف فيه إجمالا وتفصيلا .

فالأول أربعون سورة يوسف ، الحجر ، النحل ، الفرقان ، الأحزاب

الفتح الحجرات ، ق ، الذاريات ، القمر ، الحشر ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة

المنافقون التغابن ، التحريم ، ن ، الإنسان ، المرسلات ، التكويد ، الانفطار

التطهيف ، البروج ، سبح ، العاشية ، البلد ، الليل ، والضحى ، ألم نشرح ،

التين ، العاديات ، الهاكم ، الهمزة ، الفيل ، الكوثر ، السكافرون ، النصر

تبت ، الفلق .

والثانى أربع سور : (١) القصص ثمان وثمانون ، عد أهل الكوفة

طسم اية والباقون بدلها، ولما ورد ماء مدين وجد عليها أمة من الناس يشفون، (١)
(٢) والعنكبوت تسع وتسعون، عد أهل الكوفة ألم والبصرة بدلها فإذا
ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، والشام، وتقطعون السبيل (٢)
(٣) والجن ثمان وعشرون عد المكي، لن يغيرني من الله أحد، والباقون
بدلها، ولن أجد من دونه ملتحداً، (٤) والعصر ثلاث عد المدني الأخير
« وتواصوا بالحق، دون « والعصر، وعكس الباقيون. فعدوا « والعصر،
وجعلوا، إلا الذين امنوا...، إلى آخر السورة اية وأما الأولون فقد
جعلوها آيتين.

والقسم الثالث سبعون سورة، وهي ما عدا ما سبق من السور منها البقرة
وهي مائتان وخمس وثمانون في عدد المكي والمدني والشامي، وست وثمانون
في عدد الكوفي، وسبع وثمانون في عدد البصري وقد اختلفوا في أحد عشر
موضعا منها « ألم، عده الكوفي، « ولهم عذاب أليم، عده الشامي، إنما
نحن مصلحون، عده غير الشامي، ... أولئك ما كان لهم أن يدخلوها
إلا خائفين، عده البصري ... الخ

ومن أراد استيعابا في هذا فليرجع إلى كتاب التبيان (٣) فقد فصل ما أجمله
السيوطي في الاتقان.

ترتيب سور القرآن

اختلف في ترتيب السور على أقوال ثلاثة:
الأول: ما ذهب إليه جماعة من العلماء، وهو أن ترتيب السور بتوقيف
من النبي صلى الله عليه وسلم فلم توضع سورة في موضعها من المصحف
إلا بناء على أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه أو برمزه وإشارته على
حسب ما فهموه من تلاوته صلى الله عليه وسلم، ومن ذهب إلى هذا أبو جعفر.
ابن النحاس والكرماني (٤)، وأبو بكر

(٢) العنكبوت ٢٨، ٦٥

(٤) الإتيان ج ١ ص ٦٢

(١) القصص ٢٢

(٣) التبيان

الانباري، قال أبو بكر الانباري، أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة فأتساق السورة كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فن قدم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم القرن .

وأخرج ابن اسننه في كتاب المصاحف عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزلت قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلنا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا وألف القرآن على علم من ألف به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه .

استدل هؤلاء :

١ - بأن الصحابة أجمعوا على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف في ذلك أحد حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على ترتيب آخر فلو لم يكن الأمر توقيفياً لحصل من أصحاب المصاحف الأخرى المخالفة في الترتيب التمسك بترتيب مصاحفهم ، لكن عدو لهم عنها وعن ترتيبها بل وإحراقها دليل على أن الأمر ليس للرأى فيه مجال ولا يشترط أن يكون التوقيف بنص صريح بل قد يكفي فيه الفعل أو الرمز والإشارة .

٢ - بالآثار الواردة التي تدل على التوقيف منها : ما أخرجه أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي قال : كنت في الوفد الذين أسلبوا من ثقيف الحديث وفيه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طراً على حزب فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه فسالنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور ، وحزب المفصل من ق (١) حتى نختم : فهذا يدل على أن ترتيب سور الفصل على ما هو في المصحف الآن كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) جمهور العلماء على خلاف في هذا وأنه من الحجرات إلى آخر المصحف .

ويمكن أن يناقش هذا الدليل بأن غاية ما يدل عليه هو ترتيب الفصل
أما ما عداه فلا ، لأنه عرض للتخريب ، لا للترتيب .

٣- مما يدل على التوقيف كون الحواميم رتبت ولاء أى متابعه ولم ترتب
المسبجات ولاء بل فصل بين سورها بالمجادلة والمنتحنة والمنافقون ، كما
فصل بين طسم الشعراء . وطسم القصص ، بطس النمل مع أنها أقصر منها فلو
كان الترتيب اجتهاديا لما حصل الفرق بين المتماثلات من السور في القوائم
مع التناسب في الطول والقصر (١) .

الرأى الثانى : أن الترتيب كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم
ونسب هذا القول السيوطى إلى الجمهور ومن قال بهذا الإمام مالك وأبو بكر
الطيب فى أرجح قوله ، واستدل القائلون بهذا باختلاف ترتيب مصاحف
الصحابة قبل الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه فلو كان الترتيب توقيفيا لما
اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور لكنها اختلفت فمنهم من رتب على
النزول كصحف على رضى الله عنه كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم ثم المزمّل الخ .
وأما مصحف ابن مسعود فكان مبدؤا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم
الأعراف ، ومصحف أبى كان مبدؤا بالحمد ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران
ثم الأنعام الخ . وأجيب عن هذا بأن الاختلاف لا يصلح أن يكون دليلا
على أنه ليس توقيفيا وذلك لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف عامة بل كانت
مصاحف خاصة جمعت إلى القرآن بعض مسائل العلم والتأويل وبعض
المأثورات فهى إلى كتب العلم والتأويل أقرب منها إلى المصاحف المجردة ،
لذلك لم يعتمد عليها عند جمع المصاحف فى عهد عثمان فى زيادة أو نقص
وكذلك لم يعول عليها فى الترتيب ؛ أو يقال أن اختلافهم كان قبل العلم بالتوقيف
فلما علموا تركوا ترتيب مصاحفهم واتبعوا ترتيب المصاحف العثمانية .

محاولة التوفيق بين الرايين : وقد حاول الزركشى فى البرهان أن يجعل الخلاف
بين الفريقين لفظيا لأن القائل بالثانى - الاجتهاد - يقول أنه رمز إليهم ذلك
لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ولهذا قال مالك : إنما ألفوا القرآن على

(١) سورة الشعراء ، والقصص كل منهما نحو تسع صفحات .

ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ، مع قوله أن ترتيب السور
باجتهاد فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي أو بمجرد إسناد فعلي
بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر وسبقه إلى ذلك أبو جعفر بن الزبير .

الرأى الثالث . أن الكثير من السور علم ترتيبها بالتوقيف والبعض
كان ترتيبها باجتهاد من الصحابة ، وإلى هذا ذهب بعض فطاحل العلماء
كالقاضي أبي محمد ابن عطية حيث قال (ظاهر الآثار أن السبع الطوال
والحواميم والمفصل كان مرتبا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان في
السور ما لم يرتب فهذا هو الذى رتب وقت الكتب (١)

وقال البيهقى فى المدخل (كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم
مرتبا سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة) فقد حصر البعض
الذى هو باجتهاد فى هاتين السورتين فقط ، وقال الحافظ ابن حجر (ترتيب
بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيا) وقد اختار
السيوطى ما ذهب إليه البيهقى حيث قال ، والذى ينشرح له الصدر ما ذهب
إليه البيهقى وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال ولا ينبغى
أن يستدل بقراءته صلى الله عليه وسلم سوراً ولاء على ترتيبها كذلك ،
وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران لأن ترتيب السور فى
القراءة لابس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجوار ، .

ويشهد لما ذكره البيهقى ما رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن ابن عباس
قال . قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من الثانى وإلى
براءة وهى من المثين فقرتم بينهما ولم تكتبوا سطر ، بسم الله الرحمن الرحيم ،
ووضعتموهما فى السبع الطوال فقال عثمان رضى الله تعالى عنه كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذوات العدد فكان إذا نزل عليه

شيء دعا بعض من يكتب فيقول . ضعوا هذه الايات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من أواخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال وأجيب عن هذا الدليل .

١ - بأن هذا الحديث غير صحيح (١) لأن الترمذى الذى هو أحد من خرجه قال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد القاضى عن ابن عباس ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب سور القرآن .

٢ - على تسليم صحته فيجوز أن يكون عثمان حين إخباره لابن عباس لم يكن عنده شيء مسموع بشأن الترتيب بين السورتين فلا ينافى أنه علم بعد ذلك .

وسواء أكان الترتيب توقيفيا أم اجتهاديا فإنه ينبغي احترامه والأخذ به فى كتابة المصاحف لأنه عن إجماع من الصحابة ولأن مخالفته نجر إلى الفتنة . ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

وأما ترتيب السور فى التلاوة فليس بواجب إنما هو مندوب قال الإمام النووى فى التبيان ، قال العلماء الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ، ثم آل عمران . ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ فى الصلاة ، أم فى غيرها ثم قال : قال بعض أصحابنا ويستحب إذا قرأ سورة

(١) قال الحافظ فى الفتح ج٩ ص ٢٤ ، وقد أخرج أحد ، وأصحاب السنن ، وصححه ابن حبان ، والحاكم من حديث ابن عباس قال . قلت لعثمان . الحديث ولم ينازع فى تصحيحه وهو من هو فى العلم بالتصحيح والتضعيف ونقد الرجال

أن يقرأ بعدها التي تليها ودليل ذلك أن ترتيب المصحف إنما جعل لحكمة
فينبغي أن يحافظ عليه إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم
الجمعة يقرأ في الأولى ، ألم السجدة) وفي الثانية (هل أتى) ولو خالف
الموالاته فقرأ سورة لانتلي الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز
فقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في
الركعة الأولى من الصبح بالكهف . وفي الثانية يوسف . وقد كره جماعة
مخالفة ترتيب المصحف روى عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على
تأليفه في المصحف قال . وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمنوع
منها مؤكداً لأنه يذهب ببعض الأعجاز ويزيل حكمة ترتيب الأي وقد
روى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قيل له . إن فلانا يقرأ القرآن
منكوساً فقال . ذلك منكوس القلب ، وأما تعليم الصبيان القرآن من آخر
المصحف إلى أوله فحسن وليس من هذا الباب فإن ذلك قراءة منفصلة في
أيام متعددة على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم .

المبحث التاسع (كتابه القرآن ورسمه)

الكتابة عند العرب : يحسن بنا قبل البحث في كتابة القرآن ورسمه أن نبين كيف كان حال الكتابة في مكة والمدينة قبل البعثة المحمدية فنقول . يكاد يجمع المؤرخون على أن الخط دخل إلى مكة بوساطة حرب بن أمية بن عبد شمس وإن كانوا اختلفوا في المصدر الذي تعلم منه حرب بن أمية الكتابة ، ففي رواية ابن الكلبي أن حربا تعلمها من بشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، ذلك أن حربا تعرف به في أسفاره إلى العراق فتعلم منه الكتابة ثم قدم معه بشر إلى مكة وتزوج ، الصبياء بنت حرب ، أخت أنس بن سفيان وبذلك تيسر لجماعة من قريش أن يتعلموا الكتابة والقراءة ، وقد أخذ أهل العراق الكتابة عن أهل الأنبار ، وأهل الأنبار تعلموا الخط من جماعة من عرب طيء أخذوا الكتابة عن كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام .

وفي رواية أنس بن سفيان عن يزيد بن أنعم عن بن عباس أن حربا تعلم الخط من عبد الله بن جدعان ، وعبد الله تعلم من أهل الأنبار ، وأهل الأنبار تعلموا من طارئة طرا عليهم من اليمن ، وهذا الطارئة تعلم من الخلاجان بن موهم وكان كاتب الوحي لهود نبي الله بالوحي عن الله عز وجل ، وبذلك وجد من يكتب بمكة قبل البعثة .

وأما الخط في المدينة المنورة فقد ذكر أصحاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم دخلها وكان فيها يهودى يعلم الصبيان القراءة والكتابة ، وكان فيها بضعة عشر رجلا يعرفون الكتابة منهم زيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بعد الهجرة بأمر النبي صلى الله عليه ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن وهب ، وعمرو بن سعيد وغيرهم .

ومن ثم نرى أن الكتابة وجدت في العرب قبل الإسلام وكان الذين يحذقونها

قليلين جدا ، أما الغالبية العظمى فكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ولهذا سميت
الامة العربية بالامة الامية .

وقد كان وجود الكتابة في العرب قبيل الإسلام ، إرهاباً (١) لبعثة خاتم
الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليجمع للقرآن الكتابة في الصحف والتقييد
في السطور إلى الحفظ في الصدور ، وبذلك يتيسر للقرآن من دواعي الحفظ ما لم
يتيسر لغيره ويتحقق وعد الحق جل وعلا ، إننا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون وأيضاً
بعد صلح الحديبية .

فقد كانت الكتابة من أسباب تبليغ الرسالة المحمدية إلى الملوك والأمراء ، فقد
كانهم النبي صلى الله عليه وسلم داعياً إلى عبادة الله وحده ، والأضواء تحت لواء
الإسلام وبذلك الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك تعدت الرسالة حدود الجزيرة
العربية ، إلى العالم المعروف آنئذ ، وقد عثر على كتاب من هذه الكتب
وهو كتاب رسول الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط ، وهو أثر من
الأثار النبوية القيمة (٢) .

الإسلام والكتابة .

ولما جاء الإسلام رفع من شأن الكتابة وتعلّمها ، وشأن العلم والمعرفة
وليس أدل على ذلك من أول سورة نزلت منه أشادت بالقلم وأنه أداة العلم
والمعرفة الكسبيين وهي قوله تعالى . (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان
من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فقوله
(علم بالقلم) إشارة إلى العلم الكسبي ، وقوله (علم الإنسان ما لم يعلم) إشارة
إلى العلم الوهي

[١] مقدمة بين يدي البعثة

[٢] انظر صوره الكتاب ، في كتاب « الوسيط في الأدب العربي وتاريخه » ،

وهذا هو الله سبحانه وتعالى يقسم بالقلم فيقول . (ن والقلم وما يسطرون)
وفي القسم به من ذى الجلال لإشادة به، وتنبية الناس إلى ما فيه من القوائد والمزايا

وفي الحديث الصحيح المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . (أول
ما خلق الله القلم ، ثم قال . اكتب . فخرى بما هو كائن إلى يوم القيامة)
رواه أحمد والترمذى وصححه .

وبن دينا يشيد بالقلم هذه الأشادة لهُو دين العلم والمدنية الصحيحة .
وهذا هو النبي صلوات الله وسلامه عليه تواتبه اول فرصة لنشر القراءة
والكتابة فيتهنهما كي يتعلمها أكبر عدد من أبناء المسلمين وصبيانهم . فقد روى
الرواة الإثبات إن المسلمين اسروا في غزوة بدر الكبرى سبعين رجلا من
المشركين فقبل النبي بمن عنده مال الفداء ، وكان ذلك أربعة آلاف درهم من
الموسرين ، أما من كان يحسن القراءة والكتابة فقد جعل فداه أن يعلم
عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة (١) وقد فعل النبي هذا في
وقت كان المسلمون أحوج إلى درهم لينيلوا به خصاصتهم ويتقوا به على
أعدائهم ، ولكن ذا المواهب أدرك أن تعليم الأمة الكتابة خير من المال وأنهم من
عوامل تقدم الأمة وورقيها وهذه السياسة الحكيمة كان النبي صلى الله عليه وسلم
أول من وضع لبنه في إزالة الأمية من الأمم والشعوب ؛ وأن الاسلام سبق
إلى محاربه الأمية والجهل من قرابة أربعة عشر قرنا ، على حين كان غير ممن يبدعهم
مقابلد الأمور يجرصون على أن تبقى شعورهم منغمسة في حماة الجهل والخرافات
ولقد كان لهذه السياسة الرشيدة أثرها فقد انتشرت الكتابة بين المسلمين وانتشر العلم
والمعرفة وصارت تنتشر في كل فطر فتحة المسلمون ، ولا يخالف هذا ما روى من
قوله صلى الله عليه وسلم «إن أمة أمية لأنك كتب ولا تحسب ، إذ هو أخبار عما كانت
عليه غالبية الأمة وصار العلم ، والثقافة الأصيلة من أخص خصائص الأمة
الاسلامية .

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لتبوك - ٢ - ص ١٢٨

كتابة القرآن الكريم

لقد كتب القرآن جميعه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم غير أنه كان مفترقا في العسب ، واللخاف والأكتاف ، والرقاع ، ونحوها وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه شيء من القرآن دعا بعض كتّاب الوحي فيامرهم بكتابة ما نزل ويرشده إلى موضعه من سورته والكيفية التي تكتب عليها الكتابة ، ولم يجاور الرسول الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله مكتوب مسطور .

ثم كتب في عهد الصديق ورضي الله عنه في صحف مجموعة ، وكانت كتابته من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كتب في عهد عثمان رضي الله عنه في المصاحف على ما هو عليه ، وكانت كتابته من عين ما كتب في عهد الصديق رضي الله تعالى عنه ؛ ألا أنه اقتصر في رسمه على ما يوافق حرف قريش وقد بينا آنفا في مبحث جمع القرآن الأطوار التي مرت بها كتابة القرآن وتدوينه ولعلك على ذكر منها .

كتاب الوحي

لقد كان لكتابة القرآن بين يدي النبي كتاب من الصحابة معروفون بالدين الكامل والأمانة الفاتحة والعقل الراجح ، والتثبت البالغ ، كما كانوا معروفين بالحذق في الهجاء والكتابة ، وقد اشتهر منهم بكتابته أبو بكر ، عمر ، عثمان ، وعلي وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وهو أول من كتب له بمكة ، والزيير بن العوام ومعاوية ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية ، وأبي بن كعب ، وهو أول من كتب له بالمدينة وزيد ابن ثابت ، وهو أكثرهم كتابة بالمدينة وشرحيل بن حسنة . وعبد الله بن رواحه ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وثابت بن قيس وعبد الله بن الأرقم

الزهرى ، وحفظه بن الربيع الاسدى فى آخرين (١) ، وقد كان هؤلاء يكتبون ما يمليه عليهم الرسول ويرشدهم الى كتابته من غير أن يزيدوا فيه حرفاً أو ينقصوا منه حرفاً ، فقد روى أحمد ، وأصحاب السنن الثلاثة ، وصححه ابن حبان ، والحاكم حديث عبد الله بن عباس عن عثمان قال .
(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ يدعو بعض من يكتب عنده فيقول (ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا) ويدل على كتابة القرآن فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم عدا هذا أدلة كثيرة منها .

١ - ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى قال .
قال رسول الله صلى الله عليه (لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليسعه) .

٢ - ما روى فى صحيح البخارى من قول الصديق أبى بكر لزيد بن ثابت (أنك رجل شاب عاقل لا تهملك كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ - ما رواه الترمذى أنه لما نزل قوله تعالى . (لا يستوى القاصدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) الآية قال عبد الله بن أم مكتوم (وعبد الله) ابن جحش (٢) يا رسول الله إنا أعميان ، فهل لنا رخصة فأنزل

(١) فتح البارى ج ٩ ص ١٨ الاستيعاب ج ١ ص ٥١ على هامش الإصابة تهذيب الأسماء واللغات > ١ ص ٢٩

(٣) الظاهر أن عبد الله بن جحش الاسدى ابن عمه النبى ، وشهيد أحد لأنه لم يكن أعمى ، أما الذى نزلت بسببه الكلمة فكان أعمى ، وقد ذكر هذه الرواية النكائى فى تفسيره ، ونقلها عنه الثعلبى ، وقد نبه على أنه ليس الاسدى (الإصابة > ٢ ص ٢٨٧) والذى ذكره الحافظ فى الفتح غير هذا

أقه (غير أولى الضرر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوني بالكف
والدواة وأمر زيد أن يكتبها فكتبها فقال زيد فكأنى أنظر إلى موضعها عند
صدع في الكف) .

رسم المصحف

(ما هو رسم المصحف ؟) .

رسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه ،
ومن كان معه من الصحابة في كتابة كلمات القرآن وسم حروفه ، في المصاحف
التي وجه بها إلى الافاق ، والمصحف الإمام الذي احتفظ به لنفسه ، وقد
كان علما مستقلا وعنى بالتأليف فيه علماء من المتقدمين والمتأخرين ، منهم
الشيخ الإمام أبو عمرو الداني في كتابه (المقنع) ومنهم الشيخ العلامة أبو عباس
المراكشي (١) فقد ألف في توجيه ما خالف قواعد الخط منه كتاباً سماه
(عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل) بين فيه أن هذه الأحرف إنما
اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها ، وأن فيها
فوائد بلاغية ، ولغوية ونحوية ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولي

فقد قال . إن الصواب أنه أبو أحمد عبد بن جحش من غير إضافة عبد إلى
شيء ، وهو أخو عبد الله ، وقد خرج الطبري على الصواب ، وليس في
رواية البخاري ذكر ابن جحش ، والخلاصة أنه إما عبد بن جحش كما
صوبه الحافظ وإما عبد الله بن جحش آخر كما قال الثعلبي (فتح الباري
٨ - ٢١١) والحمد لله الذي هداني لهذا .

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأسدي المراكشي المعروف
بإبن البناء المتوفى سنة إحدى وعشرين وسبعماية .

لذنظم فى ذلك أرجوزة ، ثم جاء المرحوم العلامة الشيخ محمد على خلف الحسينى شيخ المقارىء المصرية ، فشرح تلك المنظومة وذيّل الشرح له بكتاب له سماه (مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب أتباعه فى رسم القرآن) وألف فيه أيضاً أستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى كتبها صغيراً سماه (أيقاظ الأعلام إلى أتباع رسم المصحف الأمام)

قواعد رسم المصحف .

الأصل فى المكتوب أن يكون موافقاً للنطوق من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل مع مراعاة الإبتداء به والوقف عليه ، والفصل والوصل وقد مهد له العلماء أصولاً وقواعد ، وقد خالفها فى بعض الحروف خط المصحف الأمام ، وينحصر أمر الرسم فى ستة قواعد (١) الحذف (٢) الزيادة (٣) الهمز (٤) البدل (٥) الوصل والفصل (٦) ما فيه قراءتان متواترتان وكتب على أحدهما ولتذكر لذلك أمثلة بقدر الإيضاح من غير استقراء وحصر لجميع ما ورد .

١ - الحذف . وذلك مثل حذف الألف من ياء النداء فى (يا أيها الناس) ومن هاء التنبيه مثل (هأنتم هؤلاء) ومن (نا) إذا وليها ضمير نحو (أنجيتكم) و (وآتيته) ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو مؤنث مثل (سمعون للكذب) (المؤمنت) (المسلمات) (القانتات) إلى آخره ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو (مسجد) (والنصرى) إلا ما استثنى .

وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعا وجراً مثل (غير باغ ولا عاد والمضاف إلى الياء إذا نودى مثل (يا عباد فاتقون) إلا (قل يعبادى الذين أسرفوا) فى الزمر (يعبادى الذين آمنوا) فى المتكوت ومن مثل (أطيعون) (واتقون) (فارهبون) (فأرسلون) (أعبدون) ألا فى يس (وأخشون) إلا فى البقرة و (كيدون) إلا (فكيدونى جميعاً)

وتحذف الواو إذا وقعت مع واو أخرى نحو «لايستون» ، فأو إلى الكهف ، وكذلك حذف من هذه الأفعال الأربعة ، ويدع الإنسان بالشر دعاه بالخير ، بالاسراء ، ويمحو الله الباطل ، في الشورى (يوم يدع الداعى إلى شئ نكر) في القمر (سندع الزبانية) في اقرأوسياتى توجيه ذلك .

٢ - الزيادة : وذلك مثل زيادة الألف بعد آخر اسم مجرور أو مافى حكمه مثل « يلاقوا ربهم » ، بنوا اسرائيل ، « أولو الألباب » ، وفي «مائة» و «ماتين» ، و «الظنونا» ، و «الزسولا» ، و «السديلا» ، « لا أذبحنه » ، في النمل « ولا أوضعوا خلالكم » ، في التوبة وفي نحو «تفتيوا» ، «أتوكؤ» ، «تفتوا» ، «ولا تظمؤا» ، و «بين الجيم والياء فى «جىء» ، في الزمر والفجر فقد كتبت في المصحف هكذا «وجاىء» ، فى السورتين .

وتزاد الياء فى نحو «نباى المرسلين» ، «ملايهم» ، «وملايه» ، «ومن آفاهى الليل» ، «وايتاهى ذى القربى» ، فى النحل «بأييكم المغنون» ، والسما بنيناها بأيدى ، وتزاد الواو فى نحو «أولوا» ، «أولئك» ، «أولاء» ، «أولات» ، «ساوريكم» ، وقد علل ذلك الكرماني فقال فى كتاب العجائب «كانت صورة الفتحة فى المخطوط قبل الخط العربى ألفاً وصورة الضمة واواً وصورة الكسرة ياء فكتبت» ، «لا اوضعوا» ونحوه بالآلاف مكان الفتحة ، وايتاهى ذى القربى» ، بالياء مكان الكسرة و «أولئك» ، ونحوه بالواو مكان الضمة لقرب عهدهم بالخط الأول .

وقال الزمخشري فى تفسيره . (فإن قلت كيف خط فى المصحف (ولا اوضعوا) بزيادة ألف ؟ قلت ؛ كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربى ، والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من ذلك الألف - بكسر الهمزة وسكون اللام - أثر فى الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحها ألف أخرى ونحوه (أو لا اذبحنه) (١) وهذا يشعر أنه

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٥ ط بولاق .

يرى ما يراه الكرماني ، وأنهما يريان أن خط المصحف بالاجتهاد .
أقول . ولو كان الأمر كما يقولان فلم طبق ذلك في هذه الآيات ، وفي
القرآن ألوف الفتحات ، والكسرات ، والضمات ؟

٣ - قاعدة الهمزة . أما الهمزة الساكنة فالأصل فيها أن تكتب بحرف
حركة ما قبلها أولاً ، أو وسطاً ، أو آخراً نحو « أئذني لي » ، « أو تمني » ،
« البأساء » ، « اقراء » ، « جنناك » ، « هيء » ، إلا ما استثنى مثل (فأداره تم) (وره يا)
فحذف الحرف فيهما ، وكتبت الهمزة مفردة .

أما الهمزة المتحركة فإن كانت في أول الكلمة أو اتصل بها حرف زائد
كتبت بالألف مطلقاً أي سواء كان فتحاً ، أو ضمّاً ، أو كسراً نحو (أيوب)
(إذا) (أولوا) (سأصرف) (فأي) إلا في مواضع مثل (قل أنتم لتكفرون)
في (فصلت) (أننا لم نخرجون) في النمل (أننا لتأركوا آل هنتا) (أن لنا) في
الشعراء . فكتبت فيها بالياء و (قل أو نبتكم) و (هؤلاء) فكتبت بالواو .

وإن كانت الهمزة وسطاً فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها نحو
(سأل) (سئل) (نقرؤه) إلا ما استثنى ؛ وأن كانت طرفاً فإنها تكتب بحرف
حركة ما قبلها مثل (سبأ) (شاطىء) (لؤلؤ) وقد وردت في مواضع من القرآن
مخالفة لهذا الأصل مثل (تفتشوا) (تفيشوا) (أتوكؤا) (ولا تظمنوا)
(ما يعشوا) (يدروا) (ينشوا) فإنها رسمت في المصحف بالواو ، وزيدت
بعدها ألف ، فإن سكن ما قبل الهمزة حذف الحرف مثل (ملء الأرض)
(دفء) (شيء) (الخبء) .

(٤) قاعدة البدل .

كتبت في الرسم الألف واوا للتفخيم أو التهويل والتقطيع في مثل
(الصلواة) (الزكوات) (الحيوانات) (الربوا) غير مضافات (كشكوة)
(ومنوة) إلا قوله تعالى ، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)

(الأنفال ٣٥) وقوله تعالى . إن صلاتي ونسكي (الأنعام ١٦٢) وقوله
(إن هي إلا حياتنا الدنيا) (الأنعام ٢٩) وقوله وما آتيتم من رب ليريوا في
أموال الناس فلا يريوا عند الله (الروم ٣٩) فقد كتبت بالالف .

وكتبت ياء في كل ألف منقلبة عنها نحو (يتوفىكم) في اسم أو فعل
اتصل به ضمير ، أم لا ، بقى ساكنا ، أم لا ، ومنه (يا حسرتي) (يا أسنى على
يوسف) إلا ما استثنى مثل (ترا) (كلنا) (هداني) (ومن عصاني) وتكتب
ألفاً نون التوكيد الخفيفة ونون (إذا) ويكتب بالنون نحو (كأين من نبي) (١٠)
وكتبت هاء التأنيث على خلاف الأصل تا . في مواضع من القرآن وذلك مثل
(رحمت) في البقرة وآل عمران وغيرهما و (نعمت) في البقرة وال عمران
والمائدة وغيرها و (سنت) في الأنفال وفاطر (وامرات مع زوجها)
و (لعنت) في قوله تعالى (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) في آل عمران
(والخامسة أن لعنت الله عليه) في النور و (ممهيت) في (قد سمع) و (شجرت)
في إن (شجرت الزقوم طعام الأثيم) و (قرت عين لي ولك) و (بقيت) في
قوله تعالى (بقيت الله) و (جنت) في قوله (وجنت نعيم) إلى غير ذلك .

[٥] قاعدة الفصل والوصل

وردت بعض الألفاظ في رسم المصحف تارة موصولة ، وتارة مفصولة
وورد بعضها في الرسم على حالة واحدة وذلك مثل وصل ، ألا ، بفتح

(١) أقول : يمكن أن يعلل ذلك بأن صلاتهم غير شرعية وغير معتد
بها فلا يستأهل التضخيم ، وأن قوله « بأن صلاتي .. » مقام تذلل واستسلام
لله ، فليس المقام بلائق بالتضخيم ، وقوله : « إن هي إلا حياتنا الدنيا ،
بأن الدهر بين حياتهم ضائعة ، فليست جديرة بالتضخيم ، وقوله « وما
آتيتم من ربا ، بأن الربا ليس بمعناه الشرعي ، فلم يكن ثمت داع التهويل ،
والتفطع .

وتشديد اللام وفصلها في عشرة مواضع منها ، أن لا تقولوا ، في الاعراف
، أن لا تعبوا ، في هود ، ويس ، وأن لا تعملوا على الله ، في الدخان
ووصل بما إلا ، من مملكتم أيمانكم ، في النساء ، والروم ، ومن مارزقناكم
في المناقير ووصل

(من) مطلقا ووصل (عما) إلا (عن ما نهوا عنه) ووصل عنم إلا قوله
(ويصرفه عن من يشاء) في النور و (عن من تولى) في النجم ، ووصل
كلما إلا (كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) و (من كل ما سألتموه) ووصل
(أمن) إلا (أمن من يكون عليهم وكيلا) في النساء (أمن من أسس) في
التوبة (أمن من خلقنا) في الصافات (أمن من يأتي أمنا) و (إما) بكسر الهمزة
والتشديد (إلا) وإن ما نرينك (في الرعد و) أما (بفتح الهمزة مطلقا، إلى
غير ذلك مما جاء في الرسم تارة موصولا وتارة مفصولا مثل (أما) و (أن
لم بالفتح والكسر و أن لن و أين ما و لكي لا و في ما .

٦ - ما فيه قراءتان وكتب على إحداهما ومرادنا غير القراءات الشاذة
ومن ذلك ملك يوم الدين ويخضعون ووعدنا تفدوهم تظهرون وأولا دفع الله
الناس ، فرهن عقدت إيمانكم أو لمستم النساء وحرم على قرية سكرى وماهم
بسكرى إلى غير ذلك فقد كتبت كلها في المصاحف العثمانية بلا ألف وقد قرئت
بالألف وبجذفها ، ومثل (غيب الجب (في يوسف الآية ١٥ ثمرت من أكامها في)
فصلت (وهم في الغرفات امنون) فقد كتبت كلها بالتاء المفتوحة بلا ألف
وقد قرئت بالجمع : والإفراد ، ومثل (فكمون) فقد كتبت بلا ألف وقرئت

بالالف وبعدها ومثل (الصراط) كيف وقع (وبصطة) في الأعراف (١) و (المصيطرون) ومصيطر (فقد كتبت بالصاد لاغير وقد قرئت بالصاد والسين (١) .

وأما القراءات المختلفة المتواترة بزيادة لا يحتملها الرسم نحو (أوصى) ووصى في البقرة وتجري تحتها الأنهار و (من تحتها في التوبة) وما عملت أيديهم (وما عملته أيديهم في ليس وقوله سيقولون لله ويقولون الله في المؤمن (٢) .

فقد كانت تكتب في بعض المصاحف دون بعض كما أسلفنا وبحسبنا ما ذكرنا في التثليل لهذه القواعد ومن أراد استيفاء فليرجع إلى الاتقان (٣) أو كتب القراءات .

« رسم المصحف توقيفي أم اصطلاحى »

ذهب جمهور العلماء إلى أن رسم المصحف العثماني توقيفي لا يجوز مخالفته واستدلوا بما يأتى

(١) وقد عللوا ذلك بأن الأصل في هذه الألفاظ كتابتها بالسين على ما هى اللغة الغالبة ولكنها كتبت في المصاحف العثمانية بالصاد لتعادل القراءتان القراءة التي يشهد لها الرسم والقراءة التي يشهد لها الأصل . ولو كتبت هذه الكلمات بالسين لغات ذلك، ولاعتبرت الصاد مخالفه للأصل والرسم، ولهذا اختلفت القراء في (بصطة) في الأعراف فقد قرئ بالصاد، والسين ولم يقع اختلاف في (بسطة) في البقرة لكونها كتبت بالسين . فانظر كيف بلغ الصحابة في رسم المصاحف إلى هذا الحد من الدقة وتحقيق العلم ؟

(٢) المؤمنون ٨٦ - ٨٩ فقد كتبنا في مصاحف أهل البصرة بلنظ (الله) بدون اللام جوابا للاستفهام وكتبنا باللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام على المعنى ، لأن من رب كذا؟ لمن هو؟ فى معنى واحد ، ولذلك جاء جواب الآية الأولى باللام حسب قال تعالى (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون) بخلاف الآيتين اللتين تليها

(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٦٧ - ١٧٠

- إن القرآن الكريم كتب كله بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يمل على كتاب الوحي ويرشدهم في كتابته بوحي من جبريل عليه السلام فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمعاوية (١) ألق الدواه وحرف القلم وانصب الباء، و فرق السين، ولا تعور الميم وحسن الله، ومد الرحمن. وجود الرحيم، وضع قلبك على أذنك اليسرى فإنه أذكرك هذا إلى قراره صلى الله عليه وسلم الكتاب على جميع ما كتبوه وتقريره صلى الله عليه وسلم أحد وجوه السنن المعروفة .

٢ - إطباق القراء على إثبات الياء في (واخشوني) في البقرة الآية ١٥٠ وحذفها في الموضعين في المائدة (٢) وغير ذلك مما خولف فيه بين نظائر مختلفة بالحذف والإثبات والزيادة والنقصان كما ذكرنا آنفاً فلو كان الرسم بالاجتهاد لما خولف فيه بين هذه النظائر والمتشابهات .

ولعل قائلاً يقول : لعل هذا من تعدد كتاب الوحي . فإنهم لم يكونوا سواء في الحذف بالهجاء . فمن نشأ هذا الاختلاف .

والجواب . لو كان الأمر على ما يزعم هذا القائل لناقش بعضهم بعضاً في هذا . ولا سيما الأمر يتعلق بالأصل الأول للإسلام . ونزف الدواعى لحرية الرأي في هذا العصر . ولكن لم ينقل إلينا أنهم تناوشوا في هذا أوعاب بعضهم بعضاً كتابته على أن هذا الاحتمال يبعد غاية البعد في مثل قوله تعالى هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أن ملاق حسابية

(١) في القاموس المحيط لاق الدواه يليقها لقيه وليقاو ألقها جعل لها ليقة أو اصلح مدادها فلاقت الدواة لصق المداد بصوفها أي اصلح مدادها بوضع ليقة فيها وهو صوفة أو نحوها .

(الحاقة ١٩ - ٢٠ فقد كتبت كتيبه بمير ألفا . وكتبت حسايه بألف
والكلمتان سواء ؟ .

٣ - لما جاور الرسول الرفيق الاعلى وجمع القرآن في الصحف والمصاحف
أجمع الصحابة على رسمه ولا سيما الخلفاء الراشدون ولم يخالف في ذلك أحد
وإجماعهم حجة وقد حدث الرسول على الاقتداء بالخليفتين من بعده فقال
واقعدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر ، أخرجه الإمام أحمد والترمذى وابن
ماجه وفى حديث العرباض بن ساريه فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين
من بعدى عضوا عليها بالنواجذ ، رواه أبو داود والترمذى وقال . حديث
حسن صحيح وقد أقر هذا الرسم الخلفاء الراشدون ومن ورائهم الصحابة
فكان لزاما على الأمة الإسلامية من بعدهم أن يقتدوا بهم ويتمسكوا برسم
المصحف ولا يحدوا عنه وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه من كان منكم
متأسياً فليتناس بأصحاب رسل الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبرهذه
الأمة قلوبا ، وأعقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ،
اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإقامة دينه فاعرفوا
لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم ، فمن ذهب جمهور الأئمة إلى التزام
هذا الرسم .

أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني :

قال أشهب . سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من
الهجاء ؟ فقال . لا إلا على الكتابة الأولى رواه الدانى في المقنع ، قال .
ولا يخالف له من علماء الأئمة وقال فى موضع آخر . سأل مالك عن الحروف
فى القرآن من الواو والألف أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك
قال لا قال أبو عمرو . يعنى الواو والألف المزيديتين فى الرسم المدومتين فى
اللفظ نحو أولوا ، ود أولات ، .

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو نحو ذلك .

وفي حواشي المنهج في فقه الشافعية مانعه ، إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني ، وقال البيهقي في « شعب الإيمان » ، « من كتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم ، إلى غير ذلك من أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني .

ويسلنا هذا الرأي إلى معرفه هل تعلم النبي صلى الله عليه وسلم القراءة والكتابة بعد أن لم يكن يعلمها ؟ أو أنه استمر على أميته وإليك بيان وجه الحق في هذا .

« هل صار النبي قارئاً كاتباً ،

اتفق العلماء قاطبة على أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث إلى الناس قاطبة ، لم يكن قارئاً ولا كاتباً وذلك كي تقوم عليهم الحجة وتنفي الشبهة في ثبوت معجزته الكبرى ، وهو القرآن ، إذ لو كان قارئاً كاتباً لراجت شبهتهم وقوى ارتيابهم في أن ماجاء به نتيجة قراءة واطلاع ، ونظر في الكتب السابقة ، وقد أشار إلى هذا الحق تبارك وتعالى فقال ، وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك ، إذ الارتاب المطلوب ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ، (١) .

أما بعد أن قامت حجته وعلت كلمته وعجزت العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة منه ولم يعد للريب والظنون موضع فقد كان محل بحث ونظر فن العلماء

من قال : إنه تعلم القراءة والكتابة ومنهم من منع وقال : إنه استمر على أميته وقد بسط القول في هذا الامام الألوسى فقد قال عقب تفسيره الآية السابقة مانصه :

« واختلف في انه صلى الله عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة واختاره البغوى فى التهذيب وقال إنه الأصح ، وادعى بعضهم انه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد ان كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياح (١) تعرف الكتابة حينئذ وروى ابن أنى شيبه وغيره « ما مات - صلى الله عليه وسلم - حتى كتب وقرأ ، ونقل هذا للشعبى فصدقة وقال : سمعت أخوا ما يقولونه وليس فى الآية ما ينافيه وروى ابن ماجه عن أنس قال قال صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، ثم قال :

ويشهد للكتابة أحاديث فى صحيح البخارى وغيره كما ورد فى صلح الحديبية « فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، الحديث (٢) وعن ذهاب إلى ذلك أبو ذر عبد الله ابن أحمد الهروى ، وأبو الفتح النيسابورى ، وأبو الوليد الباجى من المغاربة وحكاه عن السنائى وصنف فيه كتابا وسبقه إليه ابن منية

(١) لعل مراده ظهور فساد الارتياح وانه لم يعد له مسوغ ، وفى فتح البارى ج ٧ ص ٤٠٥ « وامن الارتياح »

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب عمرة القضاء ورواه أيضاً النسائى فى سنته ، واحمد فى مسنده ، واما مسلم فرواه بدون ، وليس يحسن بكتب ، ولكن فى روايته اثبات الكتابة كما هنا ، والحديث نص فى أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة وانه لم يحسنها .

ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا ينافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لسكونها من غير تعليم . وقد رد بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح « إنا أمة أمية » لا نكتب ولا ولا نحسب ، وقال ، كل ما ورد في الحديث من قوله « كتب » فعناه أمر بالكتابة كما يقال . كتب السلطان بكذا لفلان ، وتقديم قوله تعالى . « من قبله ، على قوله سبحانه » ولا تخطه ، كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا ، وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطرد ، وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده فقال . يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادرا على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة ، وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الاستفادة إلا إذا قيل بحجية المفهوم ، والظان بمن لا يقول بحجتيه (ثم قال الألويسي في تفنيد هذه الردود ما نصه .

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام ، إنا أمة لا نكتب ولا نحسب ، ليس نصافي استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو أكثر من بعث إليهم ، وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون . لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد ، وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فنخلاف الظاهر ، وفي شرح صحيح مسلم للنووي عليه الرحمة نقلا عن القاضي عياض . أن قوله في الرواية التي ذكرناها . ولا يحسن يكتب فكتب . كالنص في أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ، ثم قال . وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة ؛ وشنت كل فرقة على الأخرى في هذا فإله تعالى أعلم (١) .

(١) تفسير الألويسي ج ٢١ ص ٤٤ ، ط منير ، وفتح الباري ج ٧ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦

والذى يترجح عندى أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة بعد أن لم
يمكن تعلمها وكفى فى هذا دليلاً حديث البخارى ، ومستبعد جداً من مثل
رسول الله - فى ذكائه وفطنته ولقائه - أن لا يتعلم الكتابة بعد طول
إملاء القرآن على السكاتبين ورؤيته لهم وهم يكتبون ، على أنه من
الممكن جداً أن يكون الله سبحانه وتعالى علم نبوة القراءة والكتابة كما علمه
غيرهما - مما لم يكن يعلم بطريق وهمي من غير ضرورة إلى تعلم أو كسب ،
وأيا كان الأمر فلا تنافى بين كونه صلى الله عليه وسلم بهت وهو أمى ،
وكون رسم القرآن توقيفياً ، لأنه إن كان تعلم الكتابة فالأمر ظاهر وإن
لم يكن تعلمها فيكون تلقينه ، وإرشاده السكاتبين إلى طريقة كتابته بتلقين
من جبريل ووحى منه .

« فوائد الرسم العثماني »

لاتباع رسم رسم المصحف العثماني فوائدها منها .

١ - اتصال السند بالقرآن الكريم فلا يجوز لأحد أن يقرأه أو يقرئه
غيره إلا بروايته بسند متصل ؛ فن علم القواعد العربية ، ولكن لا يأخذ
القرآن عن غيره لا بعرف قراءته على وجهها الصحيح ، فإن بعض ألفاظه
كتبت على غير النطق بها كما أسلفنا ، فواتح بعض سورة كتبت برسم الحروف
لا بهيئات النطق بها وإلا فقل لى - بربك - كيف يتوصل القارىء إلى
قراءة ، ودم عسق ، وطمس ، ودم المص ، (١) وغيرها فالذى يعلم

(١) إنما قطعت (حم عسق) الشورى فى الرسم دون أخواتها
المذكورات معها طرداً للأولى بأخواتها الستة وهى الحواميم غافر وفصلت ،
الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف

العربية والهجاء ولكنه لا يتلقى عن غيره كيفية القراءة والآداء قد يقرؤها على غير وجهها الصحيح ، إذ النطق بها صحيحة يتوقف على التلقى والسماع من قراء القرآن وحفاظه المشتغلين به ، واتصال السند من خصائص القرآن الكريم بالنسبة لغيره من الكتب السماوية وبه ظل محفوظا كما وعد الله سبحانه وتعالى بقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وليس من شك في أن الرسم المخصوص له أعظم الأثر في اتصال السند إذ لو كانت جميع ألفاظه مكتوبة طبق النطق بها لتجرأ الكثيرون على قراءته بغير رواية عن غيره ، وحينئذ يفوتهم معرفة ما فيه من طرق الآداء من مد وتخفيف وإمالة وإظهار وإدغام وإخفاء إلى غير ذلك من طرق الآداء .

٢ - الدلالة على أصل الحركة ككتابة الكسرة باء والضمة واوا نحو « وإيتاى ذى القربى ، و « ساوريمكم ، أو الدلالة على أصل الحرف ككتابة الصلاة والزكاة والحياة والربا بالواو بدل الألف .

٣ - الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث تاء في لغة طىء ومثل حذف آخر المضارع المعتل لغير جازم مثل « يوم يأت ، في لغة هذيل :

٤ - الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في قوله « والسماء بينناها بأييد ، بيايين وذلك للإيما. إلى قدرة الخالق جل وعلا - التي بنى بها السماء وأنها لا تشبها قوة على حد القاعدة المشهورة زيادة المينى تدل على زيادة المعنى ، وكزيادة الألف في « وجاىء بالنبيين ، في الزمر وجاىء يومئذ بجهنم ، في الفجر ، للتهويل والتفخيم والوعيد والتهديد .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال بغير واو « ويدع الإنسان باشر ، (١)

« ويمح الله الباطل »، (١) « يوم يدع الداعي »، (٢) « سندع الزبانية »، (٢) « فإنها كتبت في المصاحف العثمانية بغير واو ولذلك سر دقيق لمن أمعن النظر فالسر في حذفها - كما قال المراكشي - التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود، أما الحذف في الأولى فللإشارة إلى أن الإنسان يسارع إلى الدعاء بالشر، كما يسارع إلى الخير، بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير، ولا سيما عند الغضب، وأما السر في حذفها في الثانية فللإشارة إلى سرعة ذهاب الباطل واضمحلاله وأما السر في حذفها في الثالثة فللإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين، وأما السر في حذفها في الرابعة فللإشارة إلى سرعة الفعل، وإجابة الزبانية (٤) .

أقول : وفيه - أيضاً - تطابق بين المتجاورين في اللفظ إذ قبلها « فليدع نادية »، وإشارة إلى أن إجابة الزبانية أسرع من إجابة أهل نادية .

وعلل الشيخ العلامة المراكشي لزيادة الواو في قوله تعالى « سأوريكم دار الفاسقين »، (٥) وقوله : « سأوريكم آياتي »، للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود، في أعظم رتبة للعيان قال : ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا بالتهديد والوعيد ، أقول : فيكون فيه تطابق بين اللفظ والمعنى .

أقول : وعلى هذا اللون من الاجتهاد في التعليل للرسم يمكن أن نقول (٦) في زيادة الألف في قوله تعالى : « ولا اوضعوا خلالكم » (٧)، السر فيه الايماء

(٢) القمر / ٦

(١) الشورى ٢٤

(٤) الإنفان ج ٢ ص ١٠٨ .

(٣) لافراً / ٦

(٥، ٦) قد استغدت في كثير من هذا بما ذكره العلامة الشيخ المراكشي

ولكني زدته توضيحاً وبعضها بما اجتهدت فيه كما اجتهد العلماء من قبل

(٧) براءة ٤٧ .

للى أن هؤلاء المعتدلين المتخلفين من المنافقين لو خرجوا معكم لا كثروا من
الايضاع فى الفتنة ، والإفساد - والايضاع هو الاسراع - ولجاوزوا الحد
فى هذا ، فتوافق الرسم والمعنى .

وفى زيادة الباء فى قوله تعالى . « بايكم المفتون ، (١) أى المجنون : الإشارة
إلى أن جنون المشركين بلغ الغاية ، وتجاوز الحد ، وأهم المجانين لا أنت ،
لأن مثلك يا محمد فى رجاحة عقلك ، وعظم اخلاقك ، وسمو فضائك لا يصح
أن يرمى بالجنون فمن رماك به فقد رجح على نفسه بالجنون ، وبذلك يتوافق
الرسم ، والمعنى والكلام فى ظاهره ترديد بين أمرين ، وهو فى الحقيقة
يراد به ما ذكرت ، وهو لون من ألوان الحجاج فى القرآن يدل على غاية
التصفة مع الخصوم ، ومثله قوله سبحانه :

« وإنا أو إياكم لعلى هدى . أو فى ضلال مبين ، مع اليقين أن النبى وأتباعه
على الهدى . وهم الذين فى ضلال بين ظاهر .

وأن نقول فى زيادة الألف آخرافى قوله تعالى « تالله تفتوا تذكر
يوسف (٢) .

الدلالة على كثرة ذلك . وأن سيدنا يعقوب ما كان ينفك عن ذكر يوسف
عليه السلام .

وفى قوله تعالى . « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء . ينفيثوا ظلاله عن
الييمين والشمال .

سجد الله . وهم داخرون (٣) الدلالة على كثرة نفيء الظلال وعمومها
لكل ذى جرم .

وقوله تعالى : « وأنك لا تظلموا فيها . ولا تضحى (٤) الدلالة على
دوام عدم الظلم ، واستمرار الرى لمن كان فى الجنة .

وقوله تعالى : « قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم (١) أى عبادتكم .
أو تضرعكم بالدعاء المبالغة فى عدم اعتناء الله بمن لا يعبده . ولا يتضرع إليه .
وكذلك زيادة الألف فى لفظ « الربوا » ايتوافق الرسم والمعنى . فالربا
زيادة بلا مقابل ، وهذه الألف زيادة بلا مقابل فى التلفظ .

وكذلك نقول فى زيادة الألف بعد الفعل المضارع المعلى الآخر فى
قوله تعالى :

وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير (٢) فيها
الإشارة إلى كثرة عفو الله . واستمراره وإلا فلو أخذنا الله بمصابتنا وآثامنا
لما ترك على ظهر الأرض من دابة

فإن قيل : إن بعد هذه الآية آيات قوله تعالى : « أو يؤمنون بما كسبوا
ويعفو عن كثير ، قلت أما على قراءة « ويعفو عطفاً على المجزوم قبله (٢) »
مخذف الواو ظاهر ؛ زاما على قراءة « ويعفو » بالرفع على الاستئناف بغير
ألف فذلك لأنه لما كانت حالة الإهلاك بسبب تسليط الأعاصير على السفن
قليلة كان ما يترتب على ذلك من العفو ليس كثيراً أيضاً فلذلك لم يوث فيها
بالألف بعد الواو على أن يجيئها بغير ألف هو الأصل فلا يسأل عنه

وكذلك زيادة الألف فى قوله تعالى « ويدروا عنها العذاب (٤) » أى يدفع
للإشارة إلى قوة واستمرار درء الحد عنها ما دامت شهدت هذه الشهادات
الخمس .

وكذلك زيدت الألف بعد الهمزة فى قوله تعالى « إنى أريد أن تبوء
يا عمى . وإيمك . (٥) »

(٢) الشورى ٣٠ .

(١) الفرقان ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى « إن يشأ يسكن الريح ، فيظلمن روا كد على ظهره . . . »

(٥) المائدة ٢٩ .

(٤) التور ٨ .

وقوله لتنوء بالعصبة أوى القوة (١) للإشارة فى الأولى إلى أنه يئوه مأثمن بسبب فعل واحد ؛ وفى الثانية إلى كثرة مفاتيح قارون كثرة بها ثقلت وأثقلتهم . فكانها ثقلان لجاء الرسم موحيا بهذا المعنى .

وأما حذف الألف من سعو فى قوله تعالى : والذين سعو فى آياتنا معاجزين (٢) .

فللإشارة إلى أنه سعى بالباطل لا يصح أن يكون له ثبات فى الوجود وانهم لن يحصلوا منه على طائل .

ومثل ذلك « وجاء وبسحر عظيم » (٣) وقوله « وجاء وظلما وزورا » (٤) « وجاءو أباهم عشاء يبكون » (٥) « وجاء و على قبيصه بدم كذب » (٦) فهو لبيان أن مجيئهم ليس على وجه صحيح ، ويغلب عليه التصنع . والزور ، والتمويه فن هنا جاء رسم الكلمات على غير المعمود المعروف .

وكذلك حذف الألف من قوله : « وعتو عتوا كبيرا ، للإشارة إلى أنه باطل ولا أثر له يذكر فى الوجود .

وقالوا : حذفت الألف من معظم الألفاظ الأعجمية فى الأصل كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهارون ونحوها لكثرة الاستعمال ، فقد رسمت فى المصاحف بدون ألف وإنما لم تحذف من داود لأنه حذفت منه الواو ، فلم يحذفوا بحذف ألف أخرى .

وأما زيادة الياء فى قوله تعالى وإيتاء ذى القربى (٧) فللإشارة إلى الإيتاء ينبغى أن يكون بمدوداً موصولا غير منقطع ، فيكون فيه تطابق بين اللفظ

(١) القصص ٧٦ . (٢) سبأ آية ٥٥ . (٣) الاعراف ١١٦ .

(٤) الفرقان ٤ . (٥) يوسف ١٦ ، ١٨ . (٧) النحل ٩٠ .

والمعنى وفى قوله تعالى ولقد جاءك من نبأ المرسلين (١) للإشارة إلى كثرة ما جاء فى القرآن من أخبار الانبياء وتحملهم الاذى البالغ والصبر الصابر حتى جاء نصر الله .

وفى قوله ومن آتاهى الليل فسيح وأطراف النهار لعلمك ترضى ٢ للإشارة إلى أنه ينبغى أن يشغل معظم ساعات الليل بالقيام والتسبيح فجاءت هيئة رسم اللفظ موجهة بهذا المعنى وفى قوله د أو من وراءى حجاب ، (٣) . للإشارة إلى كلام من وراء وراء ، فهو وراء فسيح بمدود لاحذله . وهكذا لا يعدم التأمل فى رسم القرآن بعقل فسيح وقلب مستنير من أن يجد فى الرسم من أسرار القرآن الشئ الكثير فلله در القرآن ما أعظم تركاته وما أكثر أسرارها معنى ولفظا ورسما

(٥) إفادة بعض المعانى المختلفة بطريقة لاختفاء فيها وذلك نحو قطع كلمة أم فى قوله تعالى دام من يكون عليهم وكيلا د ووصلها فى قوله تعالى ، أمن يمشى سويا على سراط مستقيم ، فقطع الأولى فى الكتابة للدلالة على أنها د أم ، المنقطعة بمعنى بل ، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست المنقطعة ، وإنما هى المتصلة .

(الرأى الثانى)

إن رسم المصحف اصطلاحى لا توقيفى ومن ذهب إلى هذا ابن خلدون فى مقدمته (٤) والقاضى أبو بكر الباقلانى فى الانتصار حيث قال إن رسم

(١) الانعام ٣٤

(٢) طه ١٣٠

(٣) الشورى ٥١

(٤) المقدمة ص ٣٥١ ، فقد قال : إن الكتابة من الصناعات التى تتبع الحضارة تقدما وتأخرا فكلما كانت الحضارة قوية كانت الكتابة أحكم وأجود وكلما كانت

المصحف كان باصطلاح من الصحابة لأنهم كانوا حديثي عهد بالكتابة وإليك ما قاله القاضي أبو بكر ، وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذا لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجه عليهم وترك ما عداه ؛ إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف . وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه . ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية . بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجهاً معيناً . ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف . فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ . ومنهم من كان يزيد وينقص . لعلمة بأن ذلك اصطلاح وان الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولاجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تعوج الألفات وأن يكتب على غير هذه الوجوه وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء الحديثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وأن الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأنيب ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان ،

== البدانة مستحكمة كانت الامية أغلب وأعم . وأن الصحابة لم يكونوا على درجة من إتقان الخط ، فن ثم خالفت خطوط المصاحف ما هو معروف من القراء — هـ الخطية في بعض الآيات القرآنية ، وأن من جاء بعدهم . اقتدى برسمهم . اتباعاً لهم وتبركاً بهم إلى آخر ما قال ...

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والمعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها يجب صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنى له ذلك ؟) وقد نوقش هذا المذهب بما أتى .
١ - بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد القول بالتوقيف وقدمت بك عن كذب .

٢ - ما ادعاه من أنه ليس في نصوص السنة الخ مردور بما روى من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية (ألق الدواة ، وحرف القلم) الحديث .
وبما ذكرناه من أن النبي أقر الكاتبين على ما كتبوا والتقرير أحد أنواع السنة .

٣ - ما ذكره من قوله (ولذلك اختلفت خطوط المصاحف الخ) غير مسلم لقيام الاجماع على الرسم العثماني وعدم وجود المخالف وتتابع الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم على ما جاء في هذه المصاحف من غير تكبير له .
٤ - أما ما ذكره ابن خلدون من أن العرب كانوا مفرقين في البداوه .

فنقول : إنهم بعد الإسلام قد خطوا في الحضارة العلمية ، والكتابية خطوط ملبوسة ، وذلك لما بينا من أن الإسلام دين العلم ، والمعرفة ؛ وأنه دعا إلى إزالة الأمية من أول يوم ، وأما متابعة من جاء بعد الصحابة لهم في رسم المصحف تبركاهم . فلم يكن التبرك هو المعول عليه في هذا العصر ، وإنما كان ديدنهم ما وافق الحق والصواب قبلوه ، وما خالف الحق والصواب نبذوه وأما أن الصحابة لم يكونوا على درجة من اتقان الخط فردود ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم اختار كتاب القرآن من الخذاق بالكتابة ، ومنهم من كان يعرفها في الجاهلية ، ثم جاء الإسلام ، فزاده حذقا ومعرفة بها ، وقد مرت مثل مما التزموه في الكتابة يدل دلالة أكيدة على أن هذا أمر كان

مقصودا لهم وأنهم كانوا على درجة من الخلق بالهجاء والكتابة..

(رأى صاحب الذهب الأبريز)

ولعل بما يستحسن ذكره في هذا المقام لنفاسته وكفايته في الرد على القائلين بالاجتهاد ما ذكره العلامة ابن المبارك نقلًا عن شيخه العارف بالله الشيخ عبد العزيز الدباغ إذ يقول في كتابه (الذهب الأبريز) مانصه :

(رسم القرآن سر من أسرار الله المشاهدة ، وكمال الرفعة ، قال ابن المبارك فقلت له . هل رسم الواو في سؤريكم وأولئك ، وأولاء . وأولات ، وكالياء في نحو (هدايهم) ، (ملايه) و (بأبيكم) هذا كله صادر من النبي صلى عليه وسلم أم من الصحابة ؟ فقال : هو صادر من النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة . فأنقصوا . ولا زادوا على ما سمعوه من النبي .

فقلت له أن جماعة من العلماء ترخصوا في أمر الرسم وقالوا . إنما هو اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قريش تكتب عليه في الحاهلية وإنما صدر ذلك من الصحابة لأن قريشا تعلوا الكتابة من أهل الحيرة وأهل الحيرة ينطقون بالواو في الربا فسكتبوا على وفق منطقتهم ينطقون فيه بالآلاف وكتابتهم له بالواو على منطقتهم وغيرهم وتقليد لهم حتى قال القاضي أبو بكر الباقلاني . كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحججة على دعواه فإنه ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع ما يدل على ذلك فقال :

(ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة وإنما هو توقيف من النبي وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الآلاف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول . وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظام القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز . وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الآلاف في

(مائة) دون (فئة) ؟ وإلى سر زيادة الياء في (بأييد) (وبأيكم) ؟ أم كيف تتوصل إلى زيادة الألف في (سعوا) بالحج ونقصانها من (سعو) بسبباً ؟ وإلى سر زيادتها في (عتوا) حيث كان ونقصانها من (عتون) في الفرقان وإلى سر زيادتها في (آمنوا) وإسقاطها من (بأمو) و«فاء» بالبقرة، و«جاء» في سورتى يوسف والنمل و«تبوء» في سورة الحشر وإلى سر زيادتها في «أو يعفوا» الذى، ونقصانها من «أن يعفو عنهم» في النساء ؟ أم كيف تبلغ القول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض كحذف الألف من «قرءناه» يوسف والزخرف وإثباتها في سائر المواضع ؟ وإثبات الألف بعد «واو» (سموات) في فصلت وحذفها من غيرها ؟ وإثبات الألف في «المعاد» مطلقاً وحذفها من الموضع الذى في الانفصال ؟ وإثبات الألف في «سراجا» حينما وقع وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها في بعض ؟ فكل ذلك لأسرار إلهية ، وأغراض نبوية ، وإنما خفيت عن الناس لأنها أسرار باطنية

لا تدرك إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطعة التي في أوائل السور ، فإن لها أسرار عظيمة ، ومعاني كثيرة وأكثر الناس لا يهتمون إلى أسرارها ، ولا يدركون شيئاً من المعاني التي أشير إليها ، فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً حرفاً .

وأما قول من قال . إن الصحابة اصطاحوا على أمر الرسم المذكور فلا يخفى ما في كلامه من البطلان ، لأن القرآن كتب في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبين يديه ، وحينئذ فلا يخلو ما اصطاح عليه الصحابة ، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها ، فإن كان عينها بطل الإصلاح ، لأن سببية النبي صلى الله عليه وسلم تنافي ذلك وتوجب الاتباع ، وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسي مثلاً والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لو جهين . أحدهما

نسبة الصحابة إلى المخالفة وذلك محال . ثانيهما . أن سائر الأمة من الصحابة ، وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن ولا نقصان حرف منه وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلاً ، ولم يزد الألف في (مائة) ولا في (ولا اوضعوا) ولا اليا في (باييد) ونحو ذلك والصحابة عا كسوه في ذلك وخالفوه لزم أنهم - وحاشاهم من ذلك - تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان ، ووقعوا فيما أجمعواهم وغيرهم على ما لا يحل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين ، لآنا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ما عنده . وأنها ليست بوحي ولا من عند الله ولا نعلها بعينها ، شككنا في الجميع ولئن جوزنا للصحابي أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحي ، لزمنا أن نجوز لصحابي آخر نقصان حرف من الوحي ، إذ لا فرق بينهما ، . وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالسكينة ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له ؛ فإن كان الرسم توقيفياً بوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كالألفاظ القرآن ، فلم لم ينقل تواتراً حتى ترتفع عنه الريبة وتطسئن به القلوب كما لفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب ، وأما الرسم فإنه إنما نقل بالأحاد كما يعلم من الكتب الموضوععة فيه ، وما نقل بالأحاد وقع الاضطراب بين النقلة في كثير منه . وكيف تضيع الأمة شيئاً من الوحي ؟ فقال « ما ضيعت الأمة شيئاً من الوحي والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسماً ؛ فأهل العرفان والشهود والعيان حفظوا ألفاظه ورسمه ولم يضيعوا منها شعرة واحدة ، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذي هو فوق التواتر ، وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم في بعض الحروف في الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضية كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه . .

الرأى الثالث

وهو أنه يجوز كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة ، ليكون أبعده عن اللبس ، والخلط في القرآن ، ولكن يجب في الوقت ذاته المحافظة على الرسم العثماني كما أثر من الآثار الإسلامية النفيسة الموروثة عن السلف الصالح ، فلا يهمل مراعاة للجاهلين بل يجب أن يبقى في أيدي العلماء العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض ، وإلى هذا الرأي ذهب الإمام ابن عبد السلام وتابعه صاحب البرهان .

قال صاحب التبيان ، وأما كتابته - أي المصحف - على ما أحدث الناس من الهجاء فقد جرى عليها أهل المشرق بناء على كونها أبعده من اللبس ، وتعاماها أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك - وقد سئل : هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتابة الأولى ، قال في البرهان قلت : وهذا كان في الصدر الأول والعلم حتى غض ، وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام . لا تجوز كتابة المصحف الآن على المرسوم الأول باصطلاح الأئمة لثلا يوقع في تغيير من الجهال ، ولكن لا ينبغي لإجراء هذا على إطلاقه لثلا يؤدي إلى درس العلم وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة (١) وهذا الرأي وسط بين المذهبين السالفين ، ويقوم على رعاية الاحتياط للقرآن وتنزيه ساحته عن التغيير والتبديل بالإبقاء على الرسم العثماني الذي هو الأصل ، وعلى رعاية التسهيل والتخفيف على العامة والناشئة بكتابه على حسب ما يتيسر لهم ويتسهل عليهم ، ولعله الأولى بالقبول .

(١) التبيان ص ١٧٨ ، البرهان في علوم القرآن ج ١ .

(رأى جديد جدير بالبحث والنظر)

ومع أنى مقتنع بالتزام الترفيف فى المصاحف العثمانية ، وأنه لا بد من الإبقاء عليه عند كتابة المصاحف وطبعها ولكنى أضع بين يدي القارىء . هذا التساؤل :

أأخيراً فى الإبقاء على هذا الرسم فى المصاحف ، والأجزاء ، والكتب المؤلفة لطلبة المدارس ، والمعاهد ، والجامعات غير الدينية وفى الصحف . والمجلات ونحوها على ما فى ذلك من التعسير على القراء ولا سيما هؤلاء الطلاب ، وعدم التيسير عليهم فى قراءة القرآن ؟ !

أم أخيراً فى التزام الرسم العثمانى ، فى المصاحف الكاملة ، التى كتب فيها القرآن جميعه ، والتى هى الحججة والمرجع عند الاختلاف ، والاحتكام وكتابة القرآن فيما عدا هذه المصاحف من الكتب العلمية والأجزاء القرآنية ، والمجلات ، والصحف ونحوها على الرسم المعروف ، الآن ، وقبل الآن والذى يتلقاه الطلاب والتلاميذ فى مدارسهم ومعاهدهم ؟ !

الذى يترجم عندى وأرى فيه الخير ، والمصلحة هو الثانى ، وبذلك يتيسر على قارىء القرآن الذى لم يتلق القراءة عن شيخ ومعلم ، قراءته ، وحفظه ، ونكون قد جذبنا طلاب المدارس إلى القرآن ، الذى هو مصدر الإيمان ، والهدى والحق ، والخير وفى الوقت نفسه حافظنا على الرسم العثمانى فى ملايين المصاحف المبثوثة فى العالمين الإسلامى والعربى .

ويمكن زيادة فى التحوط عند كتابة القرآن فى كتب العلم ، والدين . والأجزاء ، والمجلات ونحوها أن ننبه فى الهامش على الكلمات التى كتبت على حسب القواعد الإملائية وأنها كتبت فى المصاحف على رسم كذا ، حتى يكون التلاميذ ، والطلاب على بينة من الأمر ، ولا يقعوا فى بلبلة وشكوك وبذلك نكون جمعنا بين الحسينيين ، وحققنا المصلحتين .

وهذا الرأي أشد توثيقاً للمصاحف العثمانية ، وأرعى لحاجات المسلمين ، ومصالحهم ، وأخص من رأى الإمام العز بن عبد السلام لأنه أجاز ذلك فى المصاحف وغيرها ، وأما أنا فقصرت جواز ذلك على غير المصاحف ، واحتفظت للمصاحف بقدسيته ، وجلالها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية)

« الشبه التى أثرت حول كتابة القرآن ورسمه ،

من دأب القسس (١) والمبشرين والمستشرقين أن يتلسوا المطاعن فى القرآن الكريم وكتابته ورسمه المجمع عليه فى المصاحف العثمانية ، وقد مر به ما أورده على جمع القرآن من شبه وترهات ، وكذلك صنعوا حول كتابة القرآن ورسمه وكل ما استندوا إليه يرجع إما إلى روايات باطلة نسبت إلى السلف الصالح كذبا وزورا ، وقد تنبه العلماء إليها من قديم الزمان ، وإما إلى اعتراضات (٢) أوردها المؤلفون فى تفسير القرآن وعلومه وأجابوا عنها بما يقنع ويشقى ، فجاء هؤلاء القسس الذين تستروا تحت اسم « المستشرقين » فاطلعوا على هذه الروايات والاعتراضات فطاروا بها فرحا ،

(١) حمل لواء هذا الافك قس يدعى « فندر » فألف كتاباً سماه « ميزان الحق » وأولى به أن يسمى ميزان الباطل وقس آخر مجهول تستر تحت اسم هاشم العربى فى « تذييل مقال فى الإسلام » وقس ثالث يدعى « تسدل » أنظر كتاب « أدلة اليقين » ص ٨ ، ٩ للبعفور له أستاذنا الشيخ عبد الرحمن الجزيرى .

(٢) أنظر مقدمان فى علوم القرآن ص ١٠٤ وما بعدها .

وهولوا ما شاء لهم هو أهم أن يهولوا وظنوا أنهم وصلوا إلى ما يريدون من تشكيك المسلمين في أقدس مقدساتهم وهو القرآن الكريم .

وقد قبض الله لهذه الشبه من علماء المسلمين من زيفها وبين بطلانها واسترى بعد إرادنا هذه الشبه والرد عليها أنها سراب لاحقيقة له ، وأنهم طعنوا في في غير مطعن ، وطاروا في غير مطار .

الشبهة الأولى :

قالوا روى عن عثمان - رضى الله عنه - أنه حين عرض عليه المصحف قال أحسنتم وأجملتم إن في القرآن لحنا ستقيمه العرب بالسنتها وروى عن عكرمة أنه قال . لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال . لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بالسنتها ، لو السكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف ، قالوا : فكيف تكون المصاحف العثمانية مع هذا . وضع إجماع من الصحابة وثقة من المسلمين ؟ بل كيف يكون رسم المصحف توقيفياً وهذا هو عثمان يقول إن فيه لحنا ؟

والجواب :

(١) إن هاتين الروايتين ضعيفتا الإسناد وإن فيهما اضطراباً وانقطاعاً يذهب بالثقة بهما كما قال الإمام السخاوى في الرواية الثانية ونقله الإمام الألوسى في تفسيره (١) وعكرمة لم يسمع من عثمان أصلاً وقد روى

الأثر الثاني عن يحيى بن يعمر عن عثمان وهو أيضاً يسمع من عثمان وقدر الرواية الأولى جماعة من العلماء كالإمام أبي بكر الباقلاني والحافظ أبي عمرو الداني وأبي القاسم الشاطبي والجمبري وغيرهم وغير خفي على المتأمل ما في الروايتين من اضطراب وتناقض فإن قوله: أحسنتم وأجملتم مدح وثناء وقوله: أن فيه لحنًا يشعر بالتقصير والتفريط فكيف يصح في العقول أن يمدحهم على التقصير والتفريط .

وأيضاً فالغرض من كتابة المصاحف في عهد عثمان رضى الله عنه - على حرف قريش أن تكون مرجعاً عاماً يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف في حروف القرآن وقراءاته ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكل تصحيحها إليهم ، إن هذا إن صح فسيصل بنا إلى الدور المحال ؛ إذ تكون صحة قراءتهم متوقفة على القراءة وفق المصاحف التي كتبها لهم عثمان ، وصحة المصاحف وسلامتها من اللحن متوقفة على صحة قراءتهم ، وهذا ما نزه عنه أى عاقل فضلاً عن عثمان رضى الله عنه .

٢ - إن هذين الأثرين يخالفان ما كان عليه عثمان رضى الله عنه من حفظه القرآن ، وملازمة قراءته ، ومدارسته حتى صار في ذلك ممن يؤخذ عنهم القرآن وقد حرص غاية الحرص على إحاطة كتابة المصاحف بسياج قوى من المحافظة على القرآن أن يتطرق إليه لحن أو تحريف أو تبديل وجعل من نفسه حارساً أميناً على كتاب المصاحف في عهده ، والمرجع عند أى ختلاف في كيفية الرسم فقد قال لارسط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، وقد اختلفوا في التابوت ، أ يكتبونه بالتاء أم بالهاء ؟ ورفعوا الأمر إليه . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء . فإذا كان هذا شأنه وشأنهم في حرف لا يتغير به المعنى ولا يعتبر تحريفاً ولا تبديلاً لاستناده إلى الحروف التي نزل بها القرآن فكيف يعقل منه أن يرى في المصاحف لحناً ثم يقرم عليه؟ وإليك رواية أخرى تدل على مبلغ عنايته بالقرآن عند الكتابة .

أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانيء مولى قال : كنت عند عثمان وهم يمرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها «لم يتسن» وفيها «لا تبديل للخلق» وفيها «فأمهل الكافرين» فدعا بالدواة فحبا لإحدى اللامين وكتب «لخلق الله» و«حا» فأمهل» و«كتب» فمهل» و«كتب» ولم يتسنه» فألحق فيها الهاء فهل يصح في العقول من هذا شأنه أن يرى لحنًا في المصاحف ثم يفرم عليه ويدعه للعرب تصلحه؟ ومن أحق بإصلاح اللحن والخطأ منه وهو من هو في حفظ القرآن والحفاظ عليه؟

ولو جوزنا فرضاً أن عثمان تساهل في إصلاح هذا أفيدعه جمهور المسلمين من المهاجرين والأنصار دون أن يصححوه؟ وهم الذين لا يخشون في الحق لومة لائم ولا يقرون على باطل» ولو صححت هذه المقالة عن عثمان لأنكروا عليه غاية الإنكار ولو أنكروا لاستفاض ونقل إلينا وأنى هو؟ ولقد كانوا يعترضون عليه وعلى غيره فيها دون هذا فما بالك بأمر يتعلق بالقرآن الكريم؟ الحق أن هذا لا يصدقه إلا من ألقى عقله.

٣ - على فرض صحة هذين الأثرين فيمكن أن تؤولهما بما يتفق هو والصحيح المعروف عن عثمان في جمع القرآن ونسخ المصاحف» وذلك بأن يحمل لفظ «لحنًا» على معنى اللغة ويكون المعنى أن في رسم القرآن وكتابته في المصاحف وجهاً في القراءة لا تباين به السنة العرب جميعاً الآن» ولكنها لا تلبث أن تلبث به ألسنتهم جميعاً بالمرانة» وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه.

الشبهة الثانية :

قالوا : إن سعيد بن جبیر كان يقرأ «والمقيمین الصلاة» (١) ويقول هو من لحن الكتاب .

(١) هي من آية في سورة النساء (١٦٢) ونصها «ولكن الراسخون في العلم»

والجواب . إن هذه الرواية أن صحت فإن جدير لم يرد باللحن الخطأ وإنما أراد اللغة وهو احد معاني اللحن كما في القاموس وغيره من كتب اللغة ولو كان يريد باللحن الخطأ لما قرأه وكيف يقرأ بحرف يرى انه خطأ؟ وقد قرئت هذه الكلمة بقراءتين سبعيتين قرأ الجمهور بالنصب وقرأ غير الجمهور بالرفع ، والمقيمون الصلاة ، اما الرفع فظاهر إذ هو معطوف على ما قبله ، واما النصب فوجهه النصب على المدح لبيان فضل الصلاة وميزلتها من شرائع الدين ولهذا الأسلوب شواهد كثيرة في لغة العرب وقد عقد له سيويه في الكتاب بابا فقال . « هذا باب ما ينتصب على التعظيم ، وما انشده .

لا يبعدون قومي الذين هم سم العفاة وآفة الجزر
النازلي بكل معترك والطيبون معاقد الأرز

وإليك ما قاله إمام من أئمة العربية قال الزمخشري في تفسيره ج ١ ص ٣٩٧ عند تفسير هذه الآية « ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنافي خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في « الكتاب » (١) ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان وغبي (٢) عليه ان السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعدهم في الغيرة على الإسلام وذبح المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها من بعدهم ، وخرقا يرفوه من يلحق بهم ، .

الشبهة الثالثة :

قالوا ؛ روى عن ابن عباس في قوله تعالى « لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم

= منهم . والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك . وما أنزل من قبلك . والمقيمون الصلاة والمؤثرون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أو أئمتك سنؤتيهم أجراً عظيماً ، (١) مراده كتاب سيويه . وهو علم بالغلبة عند انحرابين . (٢) أى خفي عليه . ولم يفتن له

حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، إن الكاتب أخطأ إنما هو «تستأذنوا»
فهذا يدل على أن القرآن دخله بعض التحريف والتبديل بسبب الكتابة .

والجواب :

١ — أن هذا القول غير صحيح في نسبته إلى ابن عباس وهو مدسوس
عليه دسه الملاحدة والزنادقة قال أبو حيان مانصه «أن من روى عن ابن عباس
أنه قال ذلك فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين وابن عباس يرى من ذلك القول»
وقال الزنجشري في تفسيره : «وعن ابن عباس وسعيد بن جبير إنما هو : حتى
تستأذنوا فأخطأ الكاتب ولا يعول على هذه الرواية» وقال القرطبي في تفسيره (١)
بعد ذكر هذا عن ابن عباس أو سعيد بن جبير (وهذا غير صحيح عن ابن عباس
وغيره فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها (حتى تستأذنوا) . وصح
الاجماع فيها من لدن مدة عثمان . فهي التي لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ
والوم على الكاتب في نطق أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس :
وقد قال عز وجل . (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد) . وقال تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ، وقد روى
هذا الخبر عن ابن عباس ابن جرير ، ولا يخلو إسناده من مدلس أو
مضعف (٢) وراوه الحاكم وصححه ، وتصحيح الحاكم غير معتبر عند أئمة
الحديث ، وقد تعقبه الامام الذهبي في نحو مائة حديث موضوع ذكرها في
كتابه (المستدرک) فضلا عن الضعيف والواهي .

٢ — يؤيد رد هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ورد
عنه تفسير (تستأنسوا) بقوله . تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها ، فثبوت
هذا التفسير عنه يرد ما ألصق به ، وقد روى هذا التفسير عنه ابن أبي حاتم وابن
الأنباري في المصاحف وابن جرير وابن مردويه (٣) ولعل الراوي عن ابن عباس

(١) ج ١٢ ص ٢١٤ (٢) تفسير ابن كثير والبغوي ج ٦ ص ٩١ هامش

(٣) تفسير الألوسي ج ١٨ ص ١٢٣ .

وهم حيث فهم من تفسير الاستثناس بالاستئذان أنه الصواب فروى الخبر على ما ظن وهو وهم .

ويردها أيضا إجماع القراء السبعة على لفظ (تستأنسوا) ومن المستبعد جداً أن يقرأ ابن عباس بقراءة يكون الإجماع على خلافها ، ولا سيما وهو ممن أخذ القراءة عن زيد بن ثابت وهو عمدة الذين جمعوا القرآن في المصاحف بأمر عثمان رضى الله عنه ، وما نقل عن ابن عباس وأبى أنهما كانا يقرءان (تستأذنوا) فمحذوف على أنها قراءة تفسير وتوضيح : وأيضا فالقراءة المتواترة الثابتة (تستأنسوا) متمكنة في باب الإعجاز من القراءة المزعومة (تستأذنوا) . فلا استئذان ينصرف إلى الاستئذان بالقول ، وأما الاستثناس فيشمل القول وغيره من الأفعال التي تؤذن بالقدوم كالسبيح والتحميد والتحنج وما شابه ذلك ، هذا إلى ما تشير إليه القراءة المتواترة من أن يكون الاستئذان يقصد به الأناشيد وإزالة الوحشة وعدم إيلاام المستأذن عليه ، ولا هكذا لفظ (تستأذنوا) فقد يكون الاستئذان مصحوبا بالخشونة ، أو الإيجاش . أو الأيلاام إلى غير ذلك من الأسرار والمعاني النبيلة التي تظهر لمن يمعن النظر في القرآن .

٣ — إن صحت الرواية فيمكن أن تحمل على الخطأ في الاختيار من السكاتب ويكون ذلك على حسب ظن ابن عباس لا بحسب الواقع ونفس الأمر قال ابن أشته في كتاب (المصاحف) (مراد ابن عباس الخطأ في الاختيار وترك ما هو أولى القراءتين بحسب ظنه) وتكون قراءة ابن عباس مما ترك بسبب جمع الناس على حرف واحد ، وهو حرف قريش ، فإنهم التزموا جمع ما ثبت بالتواتر دون ما روى آحادا وما ثبت نسخه .

٤ - إن هذه الرواية على فرض صحتها رواية آحادية والاحادى لا يعارض القطعى الثابت بالتواتر ولا يثبت بها قرآن ولا سيما وقد خالفت رسم المصحف فبالكوهى ضعيفة ومعارضه بروايات أخرى عن ابن عباس كما بينا ؟ ؟

الشبهة الرابعة :

قالوا : روى عن ابن عباس أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ، فقليل له أنها فى المصحف « أفلم يا ئس الذين آمنواه الاية (١) فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس وهذا القول يقلل الثقة بكتابة القرآن ورسمه ويعود على القرآن ورسمه ويعود على القرآن بالتحريف .

والجواب :

١ - أن هذا القول لم يصح عن ابن عباس وأنه مخلق عليه قال الإمام الجليل أبو حيان فى تفسيره « بل هو قول ملحد زنديق ، وقال الآلوسى فى تفسيره بعد نقل كلام أبى حيان « وعليه فرواية ذلك - كما فى الدر المنثور - عن ابن عباس رضى الله عنهما غير صحيحة (وقال الزخشرى فى تفسيره (ج ١ ص ٦٥٥) بعد حكاية هذا الزعم (وهذا ونحوه مما لا يصدق فى كتاب الله الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتى الإمام (٢) وكان متقلباً فى أيدى أولئك الأعلام المحتاطين فى دين الله ، المهتمين عليه ، لا يغفلون عن جلاله ودقائمه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع . والقاعدة التى عليها البناء هذه والله فرية ما فيها مربة .

(١) سورة الرعد الاية ٣١ وكتابتها هكذا فى الرسم العثمانى بزيادة ألف بعد الياء الاولى .
(٢) يريد بالإمام مصحف عثمان .

٢ - مما يرد هذه الرواية أن القراءة الصحيحة المتواترة صحت عن ابن عباس فلو كان ما نسب إليه صحيحاً لما قرأها قال أبو بكر الأنباري (٢) : روى عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا) وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة وهو باطل عن ابن عباس لأن مجاهداً وسعيد بن جبير حكياً الحرف عن ابن عباس (على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو ، وروايته عن مجاهد وسعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، وأيضاً لقد أخذ ابن عباس القرآن عن زيد بن ثابت فيمن أخذ عنهم ، وزيد كان كاتب الوحي ، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد عثمان ، فغير معقول أن يقرأ ابن عباس على خلاف قراءة زيد بن ثابت وما كتبه في المصاحف العثمانية .

وفى مسائل نافع ابن الأزرق لابن عباس أنه سأله عن قوله تعالى (أفلم يأس الذين آمنوا) فقال ابن عباس : أفلم يعلم بلغة بنى مالك قال - أى نافع - وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت مالك بن عوف يقول :

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه وأن كنت عن أرض العشيرة نائياً (٢)
فلو كانت غير ثابتة - كما افترى عليه - لما فسرهما ولبن للسائل أنها خطأ ولما استشهد لها بكلام العرب .

٣ - على فرض صحة هذه الرواية فهي احادية فلا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ، ولا يثبت بها قرآن ولا سيما وهي مخالفة لرسم المصحف

الشبهة الخامسة :

قالوا . روى عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى (وقضى ربك

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٢٠ .

(٢) الإتيقان ج ١ ص ١٢١ .

ألا تعبدوا إلا إياه) إنما هي (ووصى ربك) التزقت الواو بالصاد وقد ورد هذا الأثر بروايات مختلفة وفي بعضها (ولو كان قضاء من الرب لم يستطع أحد رد قضاء الرب ولكنها وصية أوصى بها العباد) قالوا : وهذا يدل على وقوع تحريف القرآن والجواب على ذلك نقول .

١ - إن هذه الروايات ضعيفة ، ومدحوسة على ابن عباس ونقلها من نقلها بدون تثبت وتحريقال ابن الأنباري ، إن هذه الروايات ضعيفة ، والضعيف لا يحتاج ولا يؤخذ به في دون هذا فما بالك في شيء يتعلق بالقرآن الكريم .

٢ - إن ابن عباس رضي الله عنهما قد استفاض عنه أنه قرأ (وقضى) وذلك دليل على أن ما نسب إليه غير صحيح قال الإمام أبو حيان في البحر المحيط : والمتواتر هو «وقضى» وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقناعة بمعنى أمر وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى وصى ، وأما ما روى عن ابن مسعود من أنه كان في مصحفه «ووصى» وأنه كان يقرأ به فحمول على التفسير ، ولم يكن مصحفه مصحف قرآن فحسب ، وإنما مزجه بالتفسير والتأويل لبعض آياته ، وذكر بعض الأدعية والمأثورات .

٣ - ما استندوا إليه من أن اللفظ القرآني لو كان «وقضى» لما أشرك أحد غير لازم لمن تدبر وتأمل ؛ لأن هذا الاعتراض إنما يتجه لو حملنا القضاء على التقدير الأزلي ، فأما لو أريد به معناه اللغوي الذي هو البت والقطع فلا يتجه ولا يرد ، ولذلك فسر الجمهور قضى بامر ، وهذا التفسير نفسه ثابت عن ابن عباس كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال أمر وهذا يرد ما نسب زورا إلى ابن عباس .

٤ - إن هذه الروايات معارضة للتواتر القطعي وكل ما عارض القطعي فهو ساقط عن الاعتبار .

الشبهة السادسة :

قالوا إن ابن عباس كان يقرأه ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء
وذكر للمتقين (١) ، بدون الواو قبل ضياء ، ويقول ؛ خذوا هذه الواو
واجعلوها في ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، وروى عنه
أنه قال : انزعوا هذه الواو واجعلوها في ، الذين يحملون العرش ومن
حوله ، ونجيب على هذه الشبهة بما يأتي :

(١) إن ماري عن ابن عباس ضعيف فلا يؤخذ به ، ثم هو مخالف
للقطعي الثابت بالتواتر ، فهو مردود لاحالة .

(٢) إن ذكر الواو في الآية هو الذي تقضى به البلاغة الفائقة لا حذفها
سواء أفسر الفرقان بالتوراة أم فسر بالنصرو وقد روى هذا الثاني عن ابن عباس
 وغيره ويشهد له قوله تعالى ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ،
 فالمراد به يوم بدر ؛ وبيان ذلك أما على الأول فيكون المراد بالفرقان التقى الجمعان ،
 والذكر التوراة وهي فرقان لأنها تفرق بين الحق والباطل وضياء لأنها تنير
 الطريق للسالكين ، وهي ذكر لما فيها من التذكير والمواعظ ، ومثل هذا الأسلوب
 يجوز أن يأتي بدون الواو على أنه حال ويجوز أن يأتي بالواو وكل يليغ ولكن
 الإتيان بها أبلغ تنزيلا لتغاير الصفة - والحال صفة في المعنى - ممزلة تغاير
 الذات ولذلك سر بلاغى . وهو الإشارة إلى بلوغها درجة عالية في كونها
 ضياء حتى أضحى كأنها جنسا مستقلا برأسه عن سابقه ، وهذا السر
 لا يتم على حذف الواو ومثل هذا من كلام العرب .

إلى المسلك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم
وأما على الثانى وهو تفسير الفرقان بالنصر فتكون الواو لازمة البتة لتغاير

المعطوف والمعطوف عليه ويكون المراد بالضياء التوراة أو الشريعة .

الشبهة السابعة . —

قالوا : روى عن ابن عباس في قوله تعالى «مثل نوره كشكاة فيها مصباح»
النور الآية ٣٥ انه قال : هي خطأ من الكاتب ، هو اعظم من أن يكون
نوره مثل نور المشكاة ، إنما هي مثل نور المؤمن كشكاة .

وللجواب غلى ذلك نقول : —

(١) إن هذه الرواية معارضة للقطعي الثابت بالتواتر ، فهي مردودة
وباطلة ولا يثبت بها قرآن قط .

(٢) إن هذه الرواية ضعيفة ، وأغلب الظن أنها مختلقة عليه ، وليس
أدل على هذا من أنه قرأ بهذه القراءة المتواترة المعروفة ، ولم ينقل عنه أنه
قرأ «مثل نور المؤمن» وأن المأثور عنه في تفسيرها لا يتفق هو وما نقل
عنه فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء
والصفات عن ابن عباس أنه قال : مثل نوره : مثل هداه في قلب المؤمن
وهذا التفسير لا يتأتى إلا إذا عاد الضمير في «نوره» على لفظ الجلالة وهو
أرجح الروايتين عنه في مرجع الضمير ولو سلطنا مارواه الحاكم عنه من
أن مرجع الضمير هو المؤمن فلا يلزم منه رد القراءة المتواترة ، بل هو
تفسير لمرجع الضمير فيها ، وأياً كان المروي عنه فلا يشهد لهذا الدس
والاختلاس ، ويضعف هذه الرواية التي رواها الحاكم عنه أن رجوع
الضمير الى مذكور في الكلام إذا لم يكن في الكلام ما يدل عليه ، أو كان
ولكن دلالة عليه خفية خلاف الظاهر جداً ، ولا سيما إذا فات المقصود
من الكلام على ذلك^(١) وإنما تم الروعة في التمثيل في الآية لورجع الضمير

(١) أنظر تفسير الألوسي ج ١٨ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

إلى المذكور ، وهو لفظ الجلالة على أن يكون المراد بالنور الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ، وصلاح به أمر الناس ، أو الهدى الذي غرسه الله في قلب المؤمن ، وأما على الوجه الآخر ففيه تفكيك للقرآن وتقويت لروعة التمثيل .

ولو أن هذا الدس نقل عن أبي بن كعب لكان الأمر أهون إذ هو الذي نقل عنه أنه قرأ « مثل نور المؤمن » ، وفي رواية « مثل نور المؤمنين » ، وفي رواية « مثل نور من آمن » ، (١) وهي قراءات شاذة لا يعتد بها ولا يقرأ بها لمخالفتها لرسم المصحف وعدم تواترها ولكن شاء الله أن تتم الحبكة في نسج هذه الرواية المكذوبة على ابن عباس ، وهكذا الباطل يكون في طيه ما يلقي أضواء على بطلانه .

الشبهة الثامنة :

قالوا : روى عن ابن عباس أنه قال : لا تقولوا « فإن آمنوا بمثل ما آمنتكم به فقد اهتدوا » (٢) ، فإن الله تعالى ليس له مثل ، ولكن قولوا « بالذي آمنتكم به ، وأنه كان يقرأ » ، فإن آمنوا بما آمنتكم به ، قالوا : فهذا ينفي القراءة المشهورة التي كتب بها المصحف ويدل على أن المصحف قد حصل فيه تغيير

والجواب :

١ - أن هذه الرواية أحادية مخالفة للقطعي الثابت بالتواتر ؛ والذي

(١) في هذا الاختلاف دلالة قوية على أن ما روى عن أبي أنه قرأه إنما مراده به التفسير ، وإلا فيبعد أن تكون هذه كلها قراءات ثابتة بالتلقي والسماع ، وهذه القراءات التفسيرية كثيرا ما ترد عن بعض الصحابة ، والتابعين ، فيظن من لا يعرف أنها قراءات تلاوة والحق ما ذكرنا لك .

(٢) البقرة الآية ١٣٧

أجمع عليه المسلمون من لدن الصحابة إلى وقتنا هذا ، ومخالف القطعى مردود
ثم هى لا يثبت بها قرآن قط

٢ - على فرض ثبوت هذه الرواية ، فتحمل على التفسير ، وبيان المعنى
 للقراءة المتواترة قال ابن عطية الامام المفسر : هذا من ابن عباس على جهة
التفسير أى هكذا فليتأول .

٣ - إن القراءة المتواترة التى عليها عامة القراء لها وجوه صحيحة ومحامل
تحمل عليها فمنها .

(١) إن مثل زائدة للتأكيد والمعنى فإن آمنوا بما أمتهم به وذلك كما قيل
فى قوله تعالى « ليس كمثلهم شئ » ،

(ب) إن معنى آمنوا صدقوا والباء زائدة للتوكيد كما زيدت فى قوله
تعالى « وهزى إليك بجدع النخلة » والمعنى فإن صدقوا تصديقاً مثل
تصديقكم فقد اهتدوا وزيادة بعض الحروف والكلمات للتوكيد مستفيض
فى لغة العرب .

الشبهة التاسعة :

قالوا : روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها سئلت
عن قوله تعالى : إن هذان لساحران ، طه الآية ٦٣ ، وعن قوله تعالى :
« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية ، المائدة الآية
٦٩ ، وعن قوله تعالى : « والمقيمى الصلاة والمؤتون الزكاة ، النساء الآية
١٦٢ : فقالت : يا ابن أختى هذا خطأ من الكاتبات ، والجواب .

١ - إن هذه الرواية غير صحيحة عن عائشة ، وعلى فرض صحتها
فهى رواية آحادية لا يثبت بها قرآن « وهى معارضة القطعى الثابت بالتواتر
فهى باطلة ومردودة ولا التفات إلى تصحيح من صحح هذه الرواية وأمثالها
فإن من قواعد المحدثين أن مما يدرك به وضع الخبر ما يؤخذ من حال المروى

كان يكون مناقضاً لنص القرآن ، أو السنة ، أو الإجماع القطعي ، أو صريح العقل حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل ؛ أو لم يحتمل سقوط شيء منه يزول به المحذور ، وهذه الروايات مخالفة للتواتر القطعي الذي تلقته الأمة بالقبول فهي باطلة لا محالة .

٢ - وأما آية « إن هذان لساحران » فالذي نص عليه أئمة الرسم والقراءة أن « هذان » لم تكتب في المصحف العثماني بالألف ولا بالياء ، وذلك ليحتمل وجوه القراءات المتواترة كلها ؛ وهذا من أسرار الرسم العثماني ، فنسبة الخطأ إلى السكاتب غير معقول ، وإنما المعقول أن تخطيء السيدة عائشة رضي الله عنها من يقرأ إن بتشديد النون ، وهذان بالألف ، وأما من يقرأ بتشديد النون في « إن » والياء في « هذين » أو بتخفيف النون في « إن » والألف في « هذان » فلا وجه في تخطئته ، وهذا مما يلقي ضوءاً على اختلاف هذه الروايات على عائشة وغيرها ، وأنها من وضع الملاحدة . كي يشككوا المسلمين في كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد قرئ هذا الجزء من الآية القرآنية بقراءات سبعة متواترة ، وهاك بيانها .

(أ) قرأ أبو عمرو . « إن هذين لساحران » بتشديد النون في « إن » والياء في « هذين » ، وهذه القراءة الثابتة قد سلت من مخالفة المصحف وجارية في الإعراب على المهيع المعروف الظاهر فلا إشكال فيها أصلاً .

(ب) وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه « إن هذان » بتخفيف النون في « إن » وبالألف في « هذان » ، غير أن ابن كثير يشدد نون « هذان » وهذه القراءة أيضاً سلت من مخالفة الرسم العثماني ومن مخالفة العربية وتخرج على أن « إن » هي المخففة وهي مهملة وهذان مبتدأ وساحران خبره واللام هي الفارقة بين أن النافية والمخففة من الثقلية وقبل أن « ان » نافية ، واللام بمعنى إلا ، والتقدير ما هذان إلا ساحران ، ويشهد له قراءة أبي

« إن ذان لإسحاران ، وهي قراءة تفسير وتوضيح .

(ج) وقرأ الباقون « إن هذان لساحران ، بتشديد نون إن وبالألف في هذان وهي موافقة للرسم ولكنها مشكلة في الأعراب وهذه القراءة هي التي زعم الزاعمون أنها خطأ ونسبوا ذلك زورا إلى السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها وهذه القراءة لها وجوه صحيحة في العربية وقد أفاض في بيانها العلماء وأحسن هذه الوجوه وأجودها (١) أنها جارية على لغة بعض العرب في الزام المثني الألف في جميع حالاته وهي لغة لسكنانة ، ولبنى الحارث بن كعب ، ولخثعم ، وزبيد . ومراد وغيرهم ولذلك شواهد كثيرة من مثل قول الشاعر العربي .

واها لسلى ثم واها واها يا ليت عيناها لنا وفاها
وموضع الخللخال من رجلاها بضمن نرضى به أباه
إن أباه وأبا أباهـا قد بلغنا في المجد غاياتها

وقد اعتبر العلامة ابن هشام النحوي هذه القراءة أقيس إذ الأصل في المثني أن لا تختلف صيغة مع أن فيها مناسبة لألف « ساحران » .

٣ - وأما عن آية « والمقيم الصلاة » ، فلا يصح ذلك عنها قال الإمام أبو حيان في البحر المحيط ما نصه « وذكر عن عائشة رضي الله عنها ، وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ السكاتب ، ولا يصح ذلك عنهما ، لانهما عربيان فصيحان وقطع النعوت أشهر في لسان العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيويه وغيره وعلى القطع خرج سيويه ذلك ، ولعلك

(١) من أراد استيعابا لما قاله العلماء في توجيه هذه القراءة من الآراء وشواهد في العربية فليرجع إلى تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢١٦ وما بعدها وتفسير الألوسي ج ١٦ ص ٢٢٢ وما بعدها ، ومقدمتان في علوم القرآن ص ١٠٩ وما بعدها .

على ذكر ما ذكرته آنفا عن الزمخشري في كشفه في الرد على من طعن في هذه القراءة المتواترة .

٤ - وأما قوله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فله وجوه ومحامل صحيحة في العربية وأحسن هذه الوجوه أن يكون « والصابئون » مقدم من تأخير وخبر أن قوله « من آمن إلى الخ » ، ويكون خبر والصابئون محذوف لدلالة خبر أن عليه والتقدير والصابئون والنصارى كذلك ولعل السر في التقديم وذكورهم بين طوائف أهل الأديان الدلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم وزينهم عن الأديان كلها تقبل توبتهم أن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فغيرهم من أهل الأديان أخرى وأولى ومثل هذا الاستعمال العربي قول الشاعر :

فن يك أمسى بالمدينة رحله فأنى - وقيارها (١) - لغريب

أو يكون قوله والصابئون وما عطف عليه استئناف آخر والخبر من آمن الخ . وقد أغنى هذا الخبر عن خبر إن ، ومثل هذا الاستعمال قول الشاعر العربي .

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

فقد حذف الخبر من الأول لدلالة الثاني عليه ، أى نحن بما عندنا راضون .

الشبهة العاشرة .

قالوا . كيف اعتمدتم المصحف وفيه من الخطأ الظاهر واللعن والاختلاط مالا يكاد يخفى على من له علم بالعريية ومثلوا لذلك بما يأتى .

(١) قيار . اسم حماره .

(أ) قوله تعالى . « والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وخين الناس (والظاهر) والصابرون) ،

(ب) قوله تعالى . (وأسرروا النجوى الذين ظلموا) (ثم عموا وسموا كثير منهم) والظاهر أن يقول (وأسر عمي) (صم) .

(ج) قوله تعالى . (لو لا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) وكان الظاهر أن يقول (وأكون) .

والجواب : - أن هذه مزاعم باطلة منشؤها الجهل بلغات العرب ومذاهبهم في الخطاب وأساليبهم في البيان ، وقد شاء الله سبحانه - وله الحكمة البالغة - أن يحيى القرآن الكريم - عدا اللغة القرشية السائدة فيه - مشتملا على بعض لغات العرب واستعمالاتهم سواء في ذلك الفصحح والأفصح ولذلك سر ذلك أن القرآن هو كتاب العربية الأكبر ، وجامعة العرب الكبرى ، ومرجعهم الأوثق في معرفة أساليب العرب في البيان ، ومذاهبهم في التعبير ، فكان الأليق والأوفق أن يأتي مشتملا على المقبول السهل منها غير المستهجن والمستثقل ، أيجد العرب فيه ما يرضى أذواقهم وملسكاتهم ، وإليك بيان وجه الحق فيما ذكر .

(أ) أما قوله : « والصابرين » ، فهو منصوب على المدح يعنى وأمدح الصابرين وإنما غاير في الأسلوب ، ولم يأت على نسق ما سبقه ، تبيانا لفضيلة الصبر وبيان منزلته من البر ، فكان الله سبحانه يبين لنا أنه وأن جاء في الذكر آخرأ فهو بمكان من الفضيلة والثوبة الحسنة ، وقد قدمت عن أئمة اللغة والنحو ما للعرب من التفنن في النصب على الاختصاص ، وغير خفي ما لتغير الأسلوب ، والتفنن في الخطاب من أثر جليل من الناحية النفسية ، لأنه يجذب الانتباه ، ويوظف الشعور ، ويحمل العقول على التساؤل والبحث ، فتمسك المعاني في النفس فضل تمكن فله در التنزيل فكلم له من أسرار ولطائف .

(ب) وأما قوله (وأسروا) (ثم عموا و صموا) فهو وارد على بعض لغات العرب وهى لغة (أكلوني البراغيث) ولها شواهد كثيرة فى العربية وهذه اللغة تخرج على أن اللواحق بالأفعال ليست ضمائر وإنما هى علامات على التثنية أو الجمع وما بعدها هو الفاعل أو أن تكون اللواحق هى الفاعل والظواهر بعدها بدل منها أو فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور والتقدير فى الآية مثلاً (وأسروا النجوى أسرها الذين ظلموا) .

(ج) وأما قوله تعالى (فأصدق وأكن من الصالحين) ففيها قرأتان سبعيتان الأولى (واكن) بالنصب وبها قرأ أبو عمرو ووجهها ظاهر ، الثانية (وأكن) بالجزم وتخرج على أنها عطف على المعنى فإن الكلام فى معنى الشرط فكأنه سبحانه قال . « أن أخرجنى إلى أجل قريب أصدق وأكن » وهذا النوع يسميه التحويون العطف على التوهم وهو باب معروف فى العربية

الشبهة الحادية عشرة .

مارواه الإمام أحمد بسنده عن إسماعيل المكي قال . حدثنا أبو خلف مولى بنى جمع أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت (مرحباً بأبي عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا ؟ فقال أخشى أن أملل فقالت . ما كنت لتفعل قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ؟ قالت آية آية ؟ قال . الذين (يؤتون ما أتوا) أو (الذين يأتون ما أتوا) فقالت أيتهما أحب إليك ؟ فقلت والذي نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ؟ فقلت (الذين يأتون ما أتوا) فقالت . « أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف ، فهى توهم أن القراءة الأخرى غير ثابتة وأن الرسم ليس بمجمع عليه .

والجواب :

١ - أن هذه الرواية في سندها لإسماعيل المسكي وهو ضعيف (١) فلا تعارض القطعي الثابت بالتواتر ولا يثبت بها قرآن حتى ولو كانت صحيحة .

٢ - هذه الرواية على فرض صحتها لا تفيد إنكار القراءة الثابتة التي أجمع عليها السبعة وهي (يؤتون ما آتوا) (٢) وقولها . أن رسول الله كان يقرأ بها وكذلك أنزلت ، لا ينال أن تكون القراءة المتواترة منزلة وقرأ بها النبي ولا سيما وهي المتواترة التي أجمع عليها القراء السبعة . وأما القراءة الأخرى التي وافقت السيدة عائشة السائل على استحسانها فهي غير متواترة ولا يثبت بها قرآن ، وقد ذكرت في بعض كتب الحديث ولكن لم يروها القراء من طرقهم (٣) ولعلها بما نسخ من القراءات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو بما ترك عند جمع القرآن لعدم ثبوتها وتواترها ، وأما قولها . أن الهجاء حرف فالمراد بالحرف اللغة أي القراءة الثابتة لغة ، ووجه من وجوه الأداء للقرآن ، ولا يصح أن تريد من الحرف الخطأ والتحريف إذ اللغة لا تشهد له .

الشبهة الثانية عشرة :

قالوا : روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال : قالوا لزيد يا أبا سعيد أوهمت إنما هي : ثمانية أزواج من الضأن اثنين اثنين ، ومن المعز اثنين اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين اثنين ، فقال لا إن الله تعالى يقول . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، فهما زوجان كل واحد منهما زوج الذكر زوج والأنثى زوج .

(١) تفسير ابن كثير والبغوي ج ٦ ص ٢٦ (٢) القراءة المتواترة من الإتيان وهو الإعطاء أي يعطون ما أعطوا ، وأما الثافية فن الإتيان بمعنى الفعل أي يفعلون ما يفعلون . (٣) تفسير الألوسي ح ١٧ ص ٤٤ .
(٢٥٢ - للدخل)

قالوا : فهذه تدل على تصرف النساخ في المصحف ، واختيارهم ماشاؤا
في كتابة القرآن

والجواب : - إن هذه الرواية - على تسليم صحتها - لا تدل على ما زعموا
وأما هي بيان وتوجيه لما كتبه ، وقرأه ، وثبت عنده سماعا من النبي صلى
الله عليه وسلم لا تصرفا من تلقاء نفسه وقد فهم المستشكل أن الزوج لا يطلق
إلا على الإثنين المتزوجين فبين له سيدنا زيد رضى الله تعالى عنه وأرضاه
أن الزوج كما يطلق على الإثنين المتزوجين يطلق على كل واحد منهما أنه
زوج واستدل له بالقرآن الكريم الذى هو الحججة البالغة ، وقد اقتنع السائل
وسكت . والصحابة الذين كتبوا القرآن ، والذين حملوه ، بلغوه لمن بعدهم
كانوا الغاية فى الضبط ، والتثبت والأمانة الفائقة ، وفى الذروة منهم زيد
ابن ثابت الذى كان كاتب الرضى بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم والذى
حمل العباء الأكبر فى جمع القرآن فى عهد الصديق وعهد عثمان رضى الله
تعالى عنهما .

رد عام ، وهنا رد عام يرد به على كل ما سبق من شبه وهو أن العمدة
فى القرآن وحفظه هو التلقى ، والسماع من النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من
سمع منه أو سمع من سمع منه ، وهكذا حتى وصل إلينا القرآن غضا كما أنزل
ولم يكن يؤخذ القرآن من المصحف ، أو المصاحف المكتوبة ، وإنما كان
القصد من المكتوب معاضدة المحفوظ ، والرجوع إليه عند الاختلاف .
فى القراءة ، أو الرسم ، وأن الذين عزيت إليهم هذه الروايات ، ولاسيما
ابن عباس ، وتلامذته ، قد قرؤوا بالقراءات الثابتة المتواترة على خلاف
ما نقل عنهم من الطعن فيها بما يدل على بطلان هذه الطعون .

وبعبده ، فلعلك رأيت معنى أن هذه الشبه وأمثالها أو هى من بيت
العنكبوت فلا تلق إليها بالا ولعلك إزدددت يقيناً بأن القرآن كما هو فى
المصاحف اليوم ، هو ما أنزل على نبينا محمد ، وأن كل ما يخالف هذا

المتواتر القطعي فهو مردود باطل ، وأن القرآن لا يثبت برواية آحادية ، ولو بلغت أعلى درجات الصحة فكن على ذكر من كل ذلك ، ثبتنا الله وإياك بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

(شكل القرآن)

الشكل هو ما يدل على عوارض الحرف من حركة وسكون سواء أكان ذلك في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها قال في القاموس مادة شكل « والكتاب أعجمه كأشكله كأنه أزال عنه الأشكال ، أى وشكل الكتاب ، ولا شك أن ما يميز الحرف من جهة كونه متحركاً أو ساكناً يزيل إبهامه ، وإشكاله ، فينبغي المعنى اللغوي والاصطلاحى مناسبة ظاهرة .

وقد اتفق المؤرخون على أن العرب في عهدهم الأول لم يكونوا يعرفون الشكل بمعناه الاصطلاحى بل كانوا ينطقون بالألفاظ مضبوطة مشكولة بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من غير لحن ، ولا غلط ، لما كان متأصلاً في نفوسهم من الفصاحة والبلاغة ، واستقامة ألسنتهم على النطق بالألفاظ المؤلفة على حسب الوضع الصحيح من غير حاجة إلى معرفة القواعد ، ولذا لما كتبت المصاحف في العهد الأول جردت من الشكل والنقط اعتماداً على هذه السليقة وعلى أن المعول عليه في القرآن هو التلقى والراوية فلم يكن بهم حاجة إلى الشكل ، فلما اتسعت رقعة الاسلام واختلط العرب بالعجم فسدت الفطرة العربية ، ودخل اللحن في الكلام ، وحدثت حوادث نهبت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذى هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم من أن يطرق إليه اللحن والخطأ ، وكان قد ظهر في المسلمين من عرف أصول النحو وقواعده ، وبرع في حفظ القرآن وقراءاته ، أمثال أبي الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر العدوانى قاضى خراسان ، ونصر بن عاصم الليثى ، وقد حدث أن سمع أبو الأسود الدؤلى قارئاً يقرأ « أن الله يرى المشركين ورسوله ،

بجر رسوله ، فأفوه ذلك وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله : وذهب إلى زياد وإلى البصرة وقال له ، قد أجبته إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يضع للناس علامات تدل على الحركات والسكنات لجعل للفتحة نقطة فوق الحرف وللكسرة نقطة أسفله وللضمة نقطة بين الحرف والفتحة نقطتين ، وسار الناس على هذا النهج مدة ثم بدأوا يزيدون ويبتكرون فجعلوا علامة للحرف المشدد كالقوس ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة ، أو كسرة ، أو ضمة حتى كان عبيد الله بن مروان ، واضطروا إلى وضع التقط الذي هو الأعجام للباء والتاء والثاء ، فالتبس النقط بالشكل ، فجعلوا لكل منهما مدادا مخالفا للآخر ، ثم وضعوا للشكل علامات أخرى وهي العلامات المعروفة اليوم للفتحة والكسرة والضمة والشدة ونحوها فجعلوا الفتحة ألفا أفقية من فوق الحرف ، والكسرة ألفا من تحت الحرف والضمة على هيئة رأس الواو وبذلك صار القرآن مشكولا .

(إعجام القرآن)

الإعجام هو ما يدل على ذوات الحروف ، وتمييز الحروف المتماثلة في الرسم بعضها عن بعض قال في القاموس وشرحه «تأج العروس ، مادة أعجم ، وأعجم فلان الكلام أى ذهب به إلى العجمة بالضم وكل من لم يفصح بشيء فقد أعجمه وأعجم الكتاب خلاف أعربه . كما في الصحاح - أى قطعه ، وفي النهاية أزال عجمته كمجمه عجمها وعجمه تعجيبا . . . وقال ابن جنى أعجمت الكتاب أزلت أستعجمه قال ابن سيده وهو عن سدي على السلب . . . وقالوا أعجمت الكتاب فجاءت فعلت للسلب أيضا كما جاء أفعلت وله نظائر ، وقد تقدم في مادة «شكل» أن الشكل هو الإعجام فشكل منهما يرادف الآخر لئلا يغير أن الاصطلاح فرق بينهما كما علمت فحصر الشكل بالحركات ، والأعجام بالنقط .

ولم تكن المصاحف منقوطة في مبدأ الامر لان الاعتماد لم يكن على القراءة من المصحف بل كان على التلقي والسماع ولتبقى صورة الكلمة الواحدة في الخط صالحة لكل ماصع وثبت من وجوه القراءات ، ولما روى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء ، أخرجه أبو عبيد وغيره .

وقد اختلف المؤرخون في النقط ، فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفا قبل الإسلام لتمييز الحروف المتشابهة ، غير أنه ترك عند كتابة المصاحف لما ذكرنا ومنهم من يرى أن الإعجام لم يعرف إلا من طريق أبي الأسود الدؤلي ، ثم اشتهر ووضع في القرآن في عهد عبد الملك بن مروان والظاهر الأول لأنه يبعد جداً أن لا يكون للحروف علامات تميز المتشابهات بعضها عن بعض ، ومهما يكن من شيء فقد اشتدت الحاجة إليه حينما اتسعت رقعة الإسلام ، واختلط العرب بالمعجم وبدأ اللبس والأشكال في قراءة المصاحف ، حتى لبثت على الكثير منهم أن يميزوا بين حروف القرآن وقراءاته في مثل قوله تعالى ، نشرها ، ونشرها ، وقوله «فتبينوا» «فتبينوا» فاهتم عبد الملك بن مروان بذلك وأمر الحاجاج أن يعنى بهذا الأمر الجليل ، فاختر الحاجاج له رجلين من خيرة المسلمين نصر بن عاصم الليثي ، ويحيى بن يعمر العدواني ، تليئذى أبي الأسود الدؤلي ، وكانا من الورع والصلاح ؛ وبلوغ الغاية في العربية ، والقراءات بمكان ، فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة ، وكان في هذا توفيق عظيم للأمة إلى هذا العمل الذي يتوقف عليه حفظ القرآن الكريم وقيل أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي وأن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر ، ويمكن التوفيق بين هذا وما تقدم بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف بصفة شخصية وتبعه في ذلك ابن سيرين ، وأما عبد الملك فأول من أمر بنقط المصحف بصفة عامة رسمية شاعت وذاعت بين الناس قاطبة .

ما استحدث في كتابة المصاحف :

وأما ما استحدث في كتابة المصاحف من التحزيب والتجزئة والتخميس والتعشير^(١) وكتابة فواتح السور وخواتمها ونحو ذلك فكل ذلك مما زيد لغرض التيسير على القارىء ولكن ليس له من الأهمية ما للشكل والنقط قال قتادة . بدأوا فنقطوا ثم خمسوا وعشروا وقال غيره : أول ما أحدثوا النقط عند آخر الآية ثم الفواتح والخواتم .

وقد جزء العلماء القرآن تجزئات شتى : منها التجزئة إلى ثلاثين جزءاً وأطلقوا على كل واحد منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره . فإذا قال قائل قرأت جزءاً من القرآن تبادر للذهن أنه قرأ جزءاً من الأجزاء الثلاثين ثم جزوا كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثين إلى جزئين ، وقد أطلقوا على كل واحد منها اسم الحزب ؛ فصارت الأحزاب ستين حزبا ، فثلا من أول الفاتحة إلى قوله تعالى « سيقول السفهاء » جزء ، ومن « سيقول السفهاء » إلى تلك الرسل « جزء وهكذا ، ومن أول الفاتحة إلى قوله « وما الله بغافل عما تعملون » حزب ، ومن « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » إلى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » حزب وهكذا ، وجعلوا الجزء ثمانية أرباع ، والحزب أربعة أرباع ؛ وقد جرت عادة كثير من نساخ المصاحف أن يذكروا اسم الأجزاء ، والأحزاب ، والأرباع في حاشية المصحف غير أنهم يكتبون ذلك بخط مخالف لخطه ومداد مخالف لمداده تحوطا من أن يظن أنه من القرآن .

حكم نقط المصحف وشكله وما شابه ذلك :

كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله ونحوهما

(١) التخميس كتابة لفظ خمس عند رأس كل خمس آيات ، والتعشير كتابة لفظ عشر عند رأس كل عشر آيات ومنهم من يكتب في كتابة حرفي (خ) و(ع) .

مبالغة منهم في المحافظة على القرآن من التزويد وكتابته في المصاحف على هيئة ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخرج أبو عبيد عن النخعي أنه كره نقط المصاحف وأخرج ابن أبي داود عنه أنه كان يكره العواشر ، والفواتح ، وتصغير المصحف وأن يكتب فيه سورة كذا وكذا ، ولما أتى بمصحف مكتوب فيه سورة كذا . كذا آية قال . امح هذا ، فإن ابن مسعود كان يكرهه ، وعن الإمام مالك أنه كره العشور التي تكون في المصحف بالحرمة وغيرها ، وعنه أنه قال : لا بأس بالنقط في المصاحف التي يتعلم فيها الغلمان ، أما الأمهات فلا .

ولكن الحال قد تغيرت عما كان في العهد الأول ؛ فاضطر المسلمون إلى نقطه وشكله للمحافظة على القرآن من اللحن والتغيير والتصحيف ، وللتيسير على الحفاظ والقارئ ، وبعد أن كانوا يكرهون ذلك صار واجباً أو مستحباً لما هو مقرر في علم الأصول من أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ، قال الإمام النووي في التبيان مانصه : « قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه ، وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كرها ذلك في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه ، وقد أمن ذلك اليوم ، فلا منع ، ولا يمنع من ذلك لكونه محدثاً ، فإنه من المحدثات الحسنة فلا يمنع منه كنظائره ، مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات ، وغير ذلك والله أعلم ، والخطب في هذا ونحوه مثل التنبيه على الوقوف والسكبات سهل مادام الغرض هو التيسير والتسهيل على القارئ . ، ومادام الأمر بعيداً عن اللبس والتزويد والاختلاق ومادام الأمن متوفراً .

احترام المصحف :

لا يكاد التاريخ للصادق يعرف كتاباً أحيط بهالة من التقديس والتسكريم مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا عجب فقد وصفه الحق جل وعلا

بأنه كتاب مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك
مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك حيث يقول ،
« فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم - لو تعلمون - عظيم ، إنه لقرآن
كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين ، (١)
ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن السفر به إلى أرض العدو إذا
خيف وتوعد المصحف في أيديهم ، كما روى في الصحيحين ، وقد ألقى العلماء
بكفر من مزقه أو أهانه أو رمى به في قاذورة ، وبجرمة من باعه لسكافر ولو
ذمياً ، وأوجبوا الطهارة لمسه وحمله . بل قالوا : لكل ما يتصل به من
خريطة (٢) وغلاف ؛ وصندوق على الصحيح ، واستحبوا تحسين كتابته
وإيضاحها ، وتحقيق حروفها ، وتعظيمها ، وعدم تصغيرها ، كما استحبوا
تعظيمه والقيام له ، قال الإمام النووي : « ويستحب أن يقوم للمصحف
إذا قدم به عليه ، لأن القيام يستحب للعلماء والآخرين للمصحف أولى ،
« ويجب على من عنده مصاحف أو أوراق منها غير صالحة للقراءة أن يصونها
عن مواطن الأقدام وعن عبث الصبيان ، وعليه أن يحرقها أو يدفنها في
الأرض بعيداً عن مواطن الأقدام والقاذورات ، رزقنا الله سبحانه التآدب
معه ومع كتابه .

(١) الواقعة الآية ٧٥ - ٨٠

(٢) الكيس من الجلد الذي يوضع فيه .

ثبوت النص القرآني بالتواتر

المفيد للقطع واليقين

لم يعرف التاريخ في عمره الطويل كتابا أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتابا ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتابا أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن الكريم ، ولا كتابا سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم .

وقد احتاط النبي صلوات الله وسلامه عليه ، والصحابة رضوان الله عليهم لهذا الكتاب غاية الاحتياط ، فلم يكنفوا بحفظه في الصدور ، وعلى صفحات القلوب ، وإنما جمعوا إلى الحفظ الكتابة في الرقاع ، والعصب ، والأكتاف ، واللخاف ونحوها ، ثم في الصحف ، ثم في المصاحف كما بينت ذلك فيما سبق من الفصول ، وبذلك اجتمع للقرآن الوجودان : الوجود في الأذهان والصدور ، والوجود في الكتابة والصدور .

ولم يكن المعول عليه في حفظ القرآن وتلقيه الأخذ من الرقاع ، والصحف ، والمصاحف ، وإنما كان المعول عليه الأول التلقي الشفاهي ، والأخذ بالسماع فالنبي صلى الله عليه وسلم أخذ عن أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وعن النبي أخذ الكثير من الصحابة النجباء ، العدول ، الضابطين الأمانة ، وعن الصحابة أخذ الألوف من التابعين الفضلاء ، وهكذا نقله العدد الكثير ، عن العدد الكثير ، حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير زيادة ، ولا نقصان ، ولا تغيير ، ولا تحريف مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقد كان من أسباب توثيق

النصر القرآنى ، حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وحفظ الصحابة له .

« حفظ النبي للقرآن »

قلنا فيما سبق أن أول آيات نزلت عن النبي صلى الله عليه وسلم هي صدر سورة « اقرأ » إلى قوله تعالى « علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم قرأ الوحي مدة كي يشتاق إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة الوحي نزل القرآن ، وتتابع ، وكان أول آيات نزلت بعد هذه الفترة صدر سورة « المدثر » ، إلى قوله تعالى « والرجز فاهجر (١) » .

ثم حمى الوحي وتتابع حتى نزول القرآن كله قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بواحد وعشرين يوماً وقيل بأحد عشر يوماً ، وقيل بتسع ليال ، وكان آخر ما نزل على الصحيح هو قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون (٢) » .

« حرص النبي على القرآن » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد العناية بحفظ القرآن ، وحرصاً على تلقفه من جبريل عليه السلام حتى بلغ من شدة عنايته به ، وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه أكثر من المعتاد عند قراءته ، ويعالجه أشد المعالجة حتى كان يجد من ذلك شدة ، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تفلت منه كلمة ، أو يعزب عنه حرف حتىطمأنه ربه ، ووعدته أن يحفظه له في صده ، وأن يقرئه لفظه ، وأن يفهم معناه فأنزل عز شأنه قوائمه : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرءآنه فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ، ثم إن علينا بيانه » (٣) أى جمعه لك في صدرك . وإقراءه لك

(٢) البقرة / ٢٨١ .

(١) المدثر / ١ - ٥ .

(٣) القيامة / ١٦ - ١٩ .

بوساطة أمين الوحي جبريل ، فإذا قرأه جبريل فأنصت ، حتى إذا فرغ ، فاقراً عليه ما سمعت منه ، ثم إنا سذتكفل لك أيضا ببيان تفسيره ، وتوضيح ما أجمل منه ، وإزالة إشكال ما عسى أن يشتككه منه ، وهو ضمان من الله عز وجل — بأنه لن يخشى النسيان ، أن تفلت منه كلمة أو حرف ، وقد ورد تفسير هذه الآيات عن ابن عباس (١) رضی الله عنهما .

« معارضة جبريل النبي بالقرآن ،

وكان من الدواعى القوية لحفظ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وتثبيته في قلبه الشريف معارضة جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في رمضان من كل عام روى البخارى في صحيحه بسند من ابن عباس قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسله ، (٢) فكان جبريل عليه السلام يقرأ والنبي يسمع حيناً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وجبريل يسمع ، حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فعارضه جبريل بالقرآن مرتين ، وقد شهد العرضة الأخيرة أحد مشاهير كتاب الوحي لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو زيد بن ثابت الأنصارى رضی الله تعالى عنه .

روى الإمام البخارى في صحيحه بسنده عن عائشة رضی الله عنها قالت « أقبلت فاطمة تمشى ، وكانت مشيتها (٣) مشى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : النبي صلى الله عليه وسلم « مرحبا يا بنتي ، ثم أجلسها عن يمينه ، أو (٤) عن

(٢٠١) صحيح البخارى — باب كيف كان بدء الوحي إلى النبي صلى

الله عليه وسلم .

(٣) مشيتها - بكر الميم - أى هيئة مشيتها .

(٤) أو للشك من الراوى .

شماله ، ثم أسر إليها حديثا فسكت ، فقلت لها . لم تبكين ؟! ثم أسر إليها حديثا فضحكت ، فقلت ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن ، فسألتها عما قال ، فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألتها ، فقالت . أسر إلى أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه^(١) إلا حضور أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحاقا بي فبكيت ، فقال : أما ترضى أن تكون سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين ، فضحكت^(٢) .

وكان القرآن شغل النبي الشاغل في صلاته ، وتمجده ، وفي سره ، وعلايته وفي حضره ، وسفره ، وفي وحدته ، وبين صحابته ، وفي عسره ويسره ومنشطه ، ومكرمه ، ولا يغيب عن قلبه ، ولا يألوا جهدا في تعبه وتكراره والانتباه بأوامره ، والانتباه عن نواهيه ، والاعتبار بمواعظه ، وقصصه ، والتأثر بأمثاله ، وحكمه ، والتأدب بأدابه ، وأخلاقه ، وتبليغه إلى الناس كافة .

كما كان أعلم الناس بأسباب نزوله ، ومواقع تنزلاته ، ومدلول خطاباته وأحكامه وآدابه ، وحدوده ، ومعالجه ، وظاهره ، وباطنه ، فمن ثم كان أشد الناس حفظا له ، وإجادة لقرآته ، ومعرفة لحروفه ، وقراءاته ، وكان المرجع الأول للمسلمين في حفظ القرآن ، وفهمه ، والوقوف على معانيه ، وأسراره ومراميه والتثبت من نصوصه ، وحروفه . وقراءاته .

« الحفظ عن ظهر قلب خصيصة للقرآن » .

ومن خصائص هذا الكتاب السماوي الكريم أن الله عز وجل كلف الأمة الإسلامية بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين على هذا الوضع ، وبهذا الترتيب الذي وجد ، ويوجد في

(١) بضم الهمزة بمعنى أظنه .

(٢) صحيح البخارى - باب علامات النبوة .

المصاحف العثمانية من لدن الصحابة إلى اليوم ، فإن لم يحفظه عدد يثبت بهم التواتر أئمت الأمة كلها .

بخلاف التوراه والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم ، وموسى وغيرهما بما أنزله الله تبارك وتعالى ، فلم تكلف أممها بحفظها عن ظهر قلب ، بل ترك ذلك لاختيار من يريد ، فمن شاء حفظ ، ومن شاء اعتمد في القراءة على المكتوب ، وهذا الأخير هو الأعم الأغلب من شأن بني إسرائيل وغيرهم ولم تتوفر الدواعي لحفظ هذه الكتب والصحف كما توفرت للقرآن الكريم .

فن ثم لم يكن لها من ثبوت النص القطعي الموثوق به مثل ما للقرآن العظيم ، ومن هنا سهل التحريف ، والتبديل في التوراه والإنجيل من الأحبار والرهبان والقسس ، وبعضها كالصحف ضاع من الزمن ، ولم يبق له وجود .

والحكمة في تكليف الأمة بحفظ القرآن .

والسر في أن الله سبحانه وتعالى كلف الأمة المحمدية بحفظ القرآن العظيم ، ولم يكلف الأمم السابقة بحفظ كتبها ، وصحفها - أن هذه الكتب لم تكن معجزة بالفاظها ولم يشأ الله ذلك لحكمة يعلمها ، بخلاف القرآن الكريم ، فقد شاء الله سبحانه - وله الحكمة البالغة - أن يكون معجزة بلفظه فضلا عن معانيه ، فكان من الضروري المحافظة على النص بالطريق المتبيده للقطع واليهتين ، وليس ذلك إلا بأن يحفظه العدد الكثير في كل جيل وعصر الذين لا يجوز عليهم التكذيب ، ولا الغلط ، ولا السهو ، وهو ما يعرف في علم الرواية بالتواتر ، وقد وفر الله له من الدواعي إلى حفظه ما لم يتوفر لغيره من الكتب السماوية ، بله (١) الأرضية وأيضا من الحكم

(١) بله اسم فعل بمعنى دع أي دع الكتب غير السماوية فأمرها حفرغ منه .

أن القرآن هو الأصل الأصيل للدين العام الخالد الباقي ما بقي لإنسان على وجه هذه الأرض ، وهو سلام ، فكان لا بد من المحافظة على كتابه ، ليخلد خلود هذا الدين الذي يعتبر القرآن أصلا له .

بخلاف التوراة ، والإنجيل ، فقد كانتا كتباً لدينيين يمثلان طورين خاصين محدودين بحدود الزمان والمكان ، من الأطوار التي مرت بها الأديان السبأوية حتى وصلت إلى الأكتمال ، في «دين الإسلام» ، قال صلى الله عليه وسلم ، وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة . رواه البخاري .

«الأدلة على وجوب حفظ القرآن على الأمة» .

(١) ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن ربي قال لي : قم في قریش فأندرمهم ، قلت : «أى ربي إذن يتلغوا رأسي ، حتى يدعوه خبزة» ، (١) فقال : «إني مبتليك ، ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما» (٢) ، ويقظان ، فأبعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق ينفق عليك ، فقد أخبر سبحانه وتعالى أن القرآن لا يكتب في ثبوتة وحفظه بصحيفة أو لوح يغسل بالماء ، وإنما محله القلوب ، والصدور وذلك بالحفظ عن ظهر قلب ، فإذا انضم إلى الحفظ في الصدور ، الكتاب في الصحف فقد ازداد التوثق ، والاطمئنان ، وقوله «لا يغسله الماء» صيغة نفي ولكن النفي قد يأتي للنهي والنهي عن غسله بالماء يستلزم عادة الأمر بحفظه فهو مثل قوله : «لا يمسه إلا المطهرون» ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج .

(٢) ما ورد في وصف الأمة الإسلامية «أناجيلهم في صدورهم» ، أي

(١) أي مهشما كالمقطعة من الخير .

(٢) أي مستلقيا أو مضطجعا كهيئة النائم .

كتابهم المقدس ، المعول عليه في بقائه وسلامته من التحريف والتبديل ،
الحفظ في الصدور بخلاف أهل الكتاب ، فإنهم لا يحفظون كتابهم إلا
من الصحف ، ولا يقرؤنه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب ، كما هو الشأن
في جمهرة المسلمين ، وذكر هذا الوصف في معرض المفاضلة بينهم وبين غيرهم
يدل على أن هذا أمر مختص بهم .

(٣) ما رواه البخارى في صحيحه في قصة الرجل الذى أراد أن يتزوج
المرأة التى عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له بها حاجة
ولم يكن يملك شيئا ليكون مهرًا لها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « فما
معك من القرآن ، قال : سورة كذا ، وكذا ، قال : اتقروهن عن ظهر
قلب ، قال نعم قال : فاذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن ، (١) وهذا
الحديث وإن لم يدل على الوجوب ولكنه يدل على أن الحفظ عن ظهر
قلب أمر مرغوب فيه ، ومستحب ، وفضيلة من الفضائل التى يختص
بها المسلمون .

« حفظ الصحابة للقرآن الكريم »

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه الآية ، أو الآيتان ،
أو الخمس أو العشر ، أو السورة ، يقرأها على أصحابه ، ويحفظهم إياها ،
ويفقههم بها ويبين لهم طريقة أدائها ، وآداب تلاوتها ، كي يحفظوا اللفظ ،
ويفقهوا المعنى ، ويلتزموا ما نزل عملا ، وسلوكا ؛ ويستقيموا عليه .

وقد أحل الصحابة - رضوان الله عليهم - القرآن في المحل الأول من
نفوسهم ، وأنزلوه المنزلة اللائقة به يتنافسون في حفظ لفظه ، ويتسابقون
في فقه معناه ، وجعلوه متمبدهم في ليلهم ، ومسلاتهم في فراغهم ، وصاحبهم

(١) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - باب القراءة عن
ظهر قلب .

في أسفارهم ، وأنيسهم في وحدتهم . وصديقهم الصدوق ، في منشطهم . ومكرهم . ومستشارهم الأمين في شؤون دينهم . ودينام وما ظنك بكتاب يعتقدون - وحق لهم ذلك - أن تلاوته عبادة ، والاستغلال به من أعظم القربات إلى الله : وأن عزمهم لن يكون إلا به ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة لن تتحقق إلا بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتأدب بأدابه ، والتخلق بأخلاقه ، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن ، وإذا بعث بعثاً جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم أخذاً للقرآن ، بل إذا جمع بين اثنين ، أو أكثر في قبر لضرورة - كما حدث في شهداء أحد - سأل . « أيهم أخذاً للقرآن ، ؟ فإذا أشير إليه قدميه في اللحد (١) .

ولم يكن مهمهم من القراءة مجرد الحفظ من غير تدبر وفهم كما هو الشأن في كثير من الحفاظ اليوم ، وإنما المراد الحفظ ، والفهم ، فالعمل بما حفظوا وعلوا ، روى عن أبي عبد الرحمن السلمي (٢) قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا عن النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم ، والعمل جميعاً ، فالقراء في الصدر الأول كانوا فقهاء فاهمين ، وعلماء عاملين « اعتمادهم في الحفظ على التلقي الشفاهي ، .

وكان اعتمادهم - رضون الله عليهم - في الحفظ على التلقي والسماع من

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٢) هو عبد الله بن حبيب السلمي ، من خيار التابعين ، وثقاهم أخذ القراءة عن عثمان بن عفان ، وغيره من القراء المعروفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه من النبي من الصحابة ، ولا سيما
القارئ المجيد منهم كعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله
ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأمثالهم .

وما كانوا يعتمدون في حفظه على المكتوب في عهد النبي ، ولا على
النقل من الصحف ، والمصاحف بعد كتابتها في عهد ذي النورين عثمان
رضي الله عنه .

وكذلك من جاء بعد الصحابة من التابعين ، وتابع التابعين ومن بعدهم ،
كان اعتمادهم على التلقي الشفاهي من الشيوخ أو العرض ، والقراءة عليهم ،
وهذا هو الغالب من شأنهم ، ولا تزال هذه السنة في حفظ القرآن متبعة ،
وملتزمة لدى القراء المجيد إلى عصرنا هذا ، وبذلك بقيت سلسلة الإسناد
متصلة بالقرآن ، وسبقي بإذن الله حتى يرث الله الأرض وما عليها .

د تفاوت الصحابة في الحفظ .

وقد كان الصحابة متفاوتين في الحفظ قلة ، وكثرة ، وإتقاناً وتجويداً ،
فمنهم من كان يحفظه كله ، ومنهم من كان يحفظ جله ، ومنهم من كان يحفظ
بعضه ، ومنهم من كان يحفظ السورة ، ومنهم من كان يحفظ السورتين ،
والثلاث ، والخمس ، والعشر ، والأكثر ولكن بما لا ينبغي أن يشك فيه
أن القرآن كله كان محفوظاً عند الكثرة الكاثرة منهم ، التي تفيد التواتر
المفيد للقطع واليقين بحيث كان مجموع القرآن عند مجموعهم .

د المشهورون بالحفظ والإقراء من الصحابة .

وقد اشتهر بحفظ القرآن الكريم ، وإقراءه من الصحابة من المهاجرين
أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن أبي
وقاص ، وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وسالم مولى أبي حذيفة ،
وأبو هريرة ، وعبد الله بن السائب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ،

وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن أم مكتوم، ومصعب بن عمير.... وغيرهم كثير.
ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو زيد قيس بن السكن أحد عمومة أنس ابن مالك، ومجمع بن حارثة، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مسلمة، وغيرهم كثير.

ومن النساء: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم ورقة وغيرهن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى على بعض أصحابه القراء المجيدين، حتى يقرأ عنهم، أو ينهج منهجهم من يريد أن يلحق بهم، وذلك أسلوب تربوي عظيم ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» (١) وابن أم عبد هو عبدالله ابن مسعود كان يعرف بذلك.

كما كان صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمعه من بعض أصحابه كإبن مسعود (٢)، ففي صحيح البخارى رضى الله عنه قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اقرأ على، اقرأ على، اقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: فكيف إذا جئنا من كل أمة شهيد، وجئناك على هؤلاء شهيدا» (٣) قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه، فإذا عيناه تدرقان، يعنى بالدموع إما فرحاً بهذه المنزلة التى تفرد بها؛ وإما حزناً وأسفاً لأنه سيشهد على أمته؛ وفيهم المسيء والعاصى وعن الصحابة حفظه الألوف من التابعين ثم ألوف الألوف من جاء بعدهم حتى وصل إلينا القرآن كما أنزله الله من غير زيادة، ولا نقصان. ولا تغيير ولا تبديل. وتحققت كلمة الله «إننا نحن نزلنا الذكر. وإناله لحافظون» صدق الله العظيم.

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة، ورواه أيضاً عن عمر، ورواه الترمذى والنسائى، وصححه الدارقطنى.

(٢) كتاب فضائل القرآن لابن كثير من ص ٤٣-٤٨. (٣) النساء ٤١-

(العوامل المساعدة على حفظ القرآن)

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمرا هيا له الأسباب ، وهذا من رحمته يخلفه . فقد أوجب على الأمة الإسلامية حفظ القرآن ، وجعل لهم القواعي والحوافز ما أعانهم على حفظه ، ومداومه قراءته ، وتلاوته فن هذه العوامل :

العامل الأول التعبد بالقرآن الكريم في الصلاة وخارجها :

وقد اتفق الفقهاء قاطبة على أن الصلاة سواء أكانت فرضاً أم نفلاً ، جماعة ، أو غيرها لا تصح إلا بالقرآن ، ولا تصح بالأحاديث القدسية ، ولا النبوية ، ولا بالأذكار المأثورة ، فالقراءة ركن في الصلاة وهذا محل إجماع ، إلا أن منهم من جعل قراءة الفاتحة ركناً لا تصح الصلاة إلا به وهم الأئمة مالك ، والشافعي ، وأحمد في المشهور عنه .

ومنهم من لم يجعل الفاتحة ركناً ، فالصلاة تصح بالفاتحة وغيرها وهو الإمام أبو حنيفة وأصحابه إلا أن الصلاة عندهم ناقصة الثواب غير كاملة ؛ لأنهم جعلوا قراءة الفاتحة واجبا لا ركناً ، فمن ترك قراءتها عمداً أساء ، وعليه إعادتها ، ومن تركها سهواً جبر بسجود السهو . ومن ذلك يتبين أن الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يحفظ من القرآن ما يصحح به صلاته .

وأيضاً فقد كان قيام الليل واجبا في صدر الإسلام على النبي ، وقيل عليه . وعلى أصحابه . وعماد القيام بالصلاة . ومن أركانها قراءة القرآن . قال تعالى : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا : نصفه (١) أو انقص منه قليلا

(١) نصفه بدل من الليل أو من قليلا فكان الواجب إما النصف ، أو الثلث ، أو الثلثان .

أورد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا ، (١) وكانوا يخبرين في هذا الوجوب بين الثلث ، أو النصف ، أو الثلثين ، وقد مكثوا على هذا عاما أو عامين ، وقيل عشر سنين حتى كانت تنتفخ أقدام بعضهم من طول القيام تخفف الله عنهم ، وصار مستحبا ، ونسخ الفرضية بقوله سبحانه في آخر السورة « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ، ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار (٢) علم أن لن تحصوه فتاب عليهم ، فاقروا ما تيسر من القرآن (٣) ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقروا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا ، وأعظم أجرا ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (٤) » وبذلك صار مستحبا مرعوبا فيه وוכל إلى كل ما يستطيعه من ساعاته .

وقد كان النبي ، وأصحابه ملازمين للقيام وقراءة القرآن حتى بعد التخفيف ونسخ الفرضية حتى استحقوا الثناء من الله عز وجل قال سبحانه « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، وبما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » (٥)

(١) المزمل / ١ - ٤ .

(٢) أي ساعاتها ، ويعلم القدر الذي يقومون منه وأنكم لا يمكنكم المواظبة على هذا ، لأن لكم طاقة ، كما أنه منكم المرضى ، ومنكم من يسعى على رزقه ، كما أنه سيفرض عليكم الجهاد فيما بعد ، فكان من حكمتي ورحمتي التخفيف عليكم .

(٣) بهذا الجزء من الآية استدل أبو حنيفة وأصحابه على صحة الصلاة بالفاتحة وغيرها .

(٤) المزمل / ٢٠ . (٥) السجدة ١٦ ، ١٧ .

وقال سبحانه : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، رفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، » (١) .

وقد كان هذا القيام لونا من ألوان التربية الإسلامية حتى تصفو نفوسهم وتبدل أخلاقهم ، وتقوى عزائمهم وتترى فيهم ملكات الصبر ، والتحمل ، وعدم الخضوع لأهواء النفس وشهواتها ، ويكونوا على استعداد للتضحية والكفاح في سبيل عقيدتهم ودينهم رضوان الله عليهم ، فلا سهر في لهو ، ولا في شرب خمر ، ولا في متابعة للجوارى والحسان ولا في قمار ، ولا ميسر إلى غير ذلك من مبادئ الجاهلية .

وإنما هو سهر في حب الله ، وفي مدارسة كتاب الله ، وفي الصلاة ، والذكر ، والدعاء خلوات ما أحلاها من خلوات ، وسمو بالأرواح إلى معارج القدس الأعلى .

فلا تعجب إذا كانوا كتب الله لهم النصر والعزة على قلوبهم ، وأن حملوا رسالة نبيهم فبلغوها إلى الدنيا كلها ، وأنهم لم يمض عليهم نصف قرن من الزمان حتى دانت لهم فارس ، والروم بل لم يمض قرن على الدعوة حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار .

وما ظنك برجال كان بعضهم يختم القرآن في ركعة يحجي بها ليله كذى النورين عثمان رضى الله عنه وتيم الدارى ، بل روى عن سليم بن عتر التجيبي أنه كان يقرأ القرآن في الليلة ثلاث مرات ! وروى عن الإمام الشافعى أنه كان يختم في اليوم ، واللييلة من شهر رمضان ختمتين ، وفي غيره ختمة ، وروى عن أبى عبد الله البخارى صاحب الصحيح أنه كان يختم القرآن في الليلة ويومها من رمضان (٢) إلى غير ذلك مما ذكر عن بعض

(١) الذاريات ١٧ - ١٩ .

(٢) كتاب فضائل القرآن لابن كثير ص ٨١ ، ٨٢ .

السلف ، وقد كان الإمام أبو حنيفة من يجتهد في ليلة ، وذلك أنه
مر على قوم ، فسمعهم يقولون : هذا يجتهد القرآن في ليلة ، فأبى عليه
نفسه وأخلاقه إلا أن يكون كما يقولون فواظب على ذلك .

(العامل الثاني)

(٣) د الترغيب في قراءة القرآن ، وحفظه . .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى من الأحاديث في
الترغيب في قراءة القرآن ، وتلاوته كما ينبغي ، وحفظه ، والوصاية به .

فالقرآن الكريم أصدق الحديث وأحسنه روى الامام أحمد في مسنده
عن جابر بن عبد الله قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ،
وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال . « أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ،
وإن أفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها
وكل بدعة ضلالة » وراه مسلم أيضاً في صحيحه .

والقرآن أفضل الكلام وأشرفه روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن
النبي صلى الله عليه وسلم . « إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله
على خلقه » ورواه البيهقي في الأسماء والصفات من حديث .

والقرآن أحب إلى الله من كل شيء ، روى الدارمي من حديث عبد الله
ابن عمرو مرفوعاً « القرآن أحب إلى الله من السموات والأرض ،
ومن فيهن . . . »

وأهل القرآن : هم أهل الله وخاصته ، روى الإمام أحمد بسنده عن
أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين (١) من الناس

(١) أى ناساً من خلقه يرعاهم ، ويكرمهم ، ويبجلهم كما يرعى ، ويكرم
الملك أهله وخاصته المنتصين به الملازمين له ، قال كلام من قبيل التتميل والمجاز

قيل : من هم يارسل الله ؟ قال : « أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته ،
وبحسبهم شرفا هذه النسبة إلى الله .

وأهل القرآن ، وحفظته هم عرفاء الجنة ففي الحديث الذي رواه الطبراني
« حملة القرآن عرفاء (١) أهل الجنة .

وتعلم القرآن ، وتعليمه يجعل صاحبه خير الناس وأفضلهم روى
الشيخان عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : خيركم من
تعلم القرآن وعلمه ، والاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة
النوافل ، روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى ذر : « لأن تعدوا
فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة . »

وقارىء القرآن ماجور على قراءته عمل به أو لم يعلم . فهم معناه : أم لم
يفهم ، وإن كان من فهم ؛ وعمل أعظم أجرا ، وأكثر ثوابا روى الشيخان
فى صحيحهما ما بسندهما عن أبى موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : « مثل
المؤمن الذى يقرأ القرآن ، ويعمل به كالأترجة (٢) طعمها طيب ، وريحها
طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن ، ويعمل به ، كالثمرة . طعمها
طيب ، ولا ريح لها ومثل المنافق (٣) الذى يقرأ القرآن كالريحانة : ريحها
طيب ، وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر
أو خبيث . وريحها مر . وفى رواية أخرى « ولا ريح لها ، وهى أصح من
جبة المعنى .

والقرآن الكريم جبل عمدود بين السماء والأرض ، يصل الإنسان

(١) رؤساء .

(٢) نوع من الفاكهة الجيدة كالنفاق ولكنها أكبر .

(٣) المراد نفاق العمل والخلق لانفاق العقيدة ، وقيل : نفاق العقيدة ،

وفى بعض الروايات « الفاجر » .

الحافظ له ، والعمل به بالله تعالى روى ابن أبي شيبة من حديث أبي شريح الخزازي ، إن هذا القرآن سبب (١) طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ، ولن تهلكوا بعده أبدا ، وروى ابن جرير مرفوعا : « إن هذا القرآن هو حبل الله الممدود من السماء والأرض » .

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » ، وفي حديث الترمذي الذي رواه عن الحارث الأعور ، عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ... وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » .

والاشتغال بحفظ القرآن عن الذكر ، وسؤال الله يعطيه الله أفضل مما يعطى السائلين في الحديث الذي رواه الترمذي بسنده عن النبي ﷺ قال : يقول الرب - عز وجل من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه . .

وقراءة القرآن ومدارسته ، تستنزل الملائكة ، والسكينة ، والرحمة ، ففي حديث : أسيد بن حضير : أنه قرأ سورة البقرة ذات ليلة ، فاضطربت فرسه ، فسكت ، فسكنت ، ثم قرأ فاضطربت ، فسكت فسكنت . .

فلما فرغ من قراءته رفع رأسه إلى السماء ، فإذا هو بمثل الظلة (٢) فيها أمثال المصاييح ، عرجت إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ بذلك فقال له : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت - أى استمرت في قراءتك - لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » ، وفي حديث

(١) حبل .

(٢) السحابة .

الصحابى الذى كان يقرأ سورة « الكهف » فتخشته مثل السحابة ، فجعلت تدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فعجب من ذلك فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر له ذلك ، فقال : « تلك السكينة (١) تنزل للقرآن ، متفق عليه وروى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فىمن عنده » (٢)

وقارىء القرآن ، وحافظه ، العامل به ، يغبطه الناس ، ويتمنون أن يكونوا مثله روى البخارى وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد (٣) إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلسكه (٤) فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

وحافظ القرآن ، وصاحبه الملازم لقراءته له بكل آية درجة يرقاها

(١) السكينة هى الطمأنينة ، وراحة القلب والنفس والمراد بها هنا الملائكة التى نزلت بها لسماع القرآن .

(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء - باب الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر .

(٣) المراد بالحسد . الغبطة ، وهى تمنى المرء أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يتمنى زواله ، بخلاف الحسد ، ففيه زوال التهمة ، وكأنه ﷺ أطلق الحسد على الغبطة المشابهة من وجه ، وللبالغة فى تحصيل الخصلتين كأنه قيل : لو لم يمكننا إلا بالحسد المذموم لترخص فيه ، فكيف وتحصيلهما يمكن بالطريق المحمود المشروع .

(٤) ينفقه .

يوم القيامة ، فانظر - أيها القارىء - كم يرتقى من الدرجات ؟

عن أبي سعيد الخدرى قال : قال نبي الله ﷺ . « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة . اقرأ ، وارق ، واضعد فيقرأ ، ويصعد ، بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه ، رواه الإمام أحمد في مسنده .

والقرآن أحد الشفعا . الذين تقبل شهادتهم يوم القيامة ، روى أبو عبيد عن أنس مرفوعا : « القرآن شافع مشفع (١) ، وما جد مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ،

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ قال : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ،

وروى أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « الصيام والقرآن بشفعان للعبد يوم القيامة ، يتول الصيام : أى رب منعه الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن منعه النوم بالليل فشفعنى فيه قال - فَيُشَفَّعَانِ ،

وحافظ القرآن عن ظهر قلب ، والعامل بما فيه يشفعه الله في أهله يوم القيامة أخرج الترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد من حديث علي ، من قرأ القرآن ، فاستظهره (٢) فأحل حلاله ، وحرم حرامه أدخله الله الجنة ، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار ، وحافظ القرآن الذى لا يغلط فيه ، ولا يغيب عنه شيء مع السفارة الكرام ، البررة من الملائكة ، روى الشيخان ، وغيرهما من حديث عائشة مرفوعا ، الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ، ويتبع فيه (٣) ، وهو

(١) شفع - بضم الميم ، وفتح اللعين ، ثم فا . مشددة مفتوحة - أى مقبول الشفاعة .

(٢) حفظه عن ظهر قلب . (٣) أى يتعثر في قراءته .

عليه شاق له أجران ، أما الأول فأجره أكثر ، وأضعاف مضاعفة .

وما من أحد يقرأ شيئاً من القرآن حين يأخذ مضجعه إلا حفظ حتى يصبح أخرجه أحمد في مسنده والترمذي في سننه من حديث شداد بن أوس ، ما من مسلم يأخذ مضجعه ، فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلا وكل الله به ملكاً يحفظه ، فلا يقر به شيء يؤذيه حتى يهب متى هب .

وفي حديث أبي هريرة وقصته مع الشيطان الذي كان يسرق من الزكاة وقوله له . « إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي ، لم يزل معك من الله حافظ ؛ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقك ، وهو كذوب (١) ، ذاك شيطان ، رواه البخاري .

والبيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، ويقبل شره روى البزار من حديث أنس مرفوعاً ، البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره .

والقلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب روى الإمام أحمد والترمذي بسندهما عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب ، ومن ذا الذي يرضى أن يكون قلبه خراباً ؟ .

والقرآن هو الغنى الحقيقي ، فمن رزقه رزق الغنى كله ، ومن حرمه فلا غنى له وإن كان عنده مال فارون ، روى الطبراني بسنده عن أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه ، (٢) .

(١) هذا تقرير من النبي لما أخبره به الشيطان ، ولعل الشيطان عرف ذلك من الرسول فأخبره أبا هريرة ، ومعنى صدقك . . أنه صدق في هذه وإن كان الشأن في قوله الكذب .

(٢) أي لا غنى في غيره .

وقارىء القرآن له بكل حرف حسنة، عن ابن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولا أقول، ألم حرف، ولكن ألف؛ حرف؛ ولام حرف وميم حرف، رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في فضل القرآن، وفضل آيات أو سور خاصة كالفاحة، وخواتيم سورة البقرة، والبقرة، وآل عمران، والكهف والإخلاص، والمعوذتين وغيرها.

فمن ذا الذى يسمع، أو يصل إليه كل هذا الترغيب الحبيب، والوعد الجميل ولا يسارع إلى حفظ القرآن وتفهمه، والعمل به، فلا تعجب إذا كان الصحابة تنافسوا في هذا المضمار الشريف، وكذلك تنافس فيه من جاء بعدهم، حتى حفظ الألو ف، بل وألوف الألو ف.

(العامل الثالث)

٣ - الأمر بتعهد القرآن والتحذير من نسيانه.

وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وكل من يجيىء من الأمة بعدم بتعهد القرآن وبممارسة قراءته حتى لا يتفقت منهم. و ضرب لهم في ذلك المثل النوابغ، والكلم الجوامع الزواجر.

ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي موسى - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

« تعاهدوا القرآن (١) فوالذى نفس محمد بيده هو أشد تنصياً من الإبل في عقلها (٢). »

(١) تعاهدوا القرآن. أى حافظوا على قراءته، وداوموا على تلاوته

(٢) التنصى: التخاص والتفقت، عقلها جمع عقال وهو جبل يعقل

به البعير أى يشد به وسط ذراعه وإنما ضرب المثل بالإبل، لأنها أشد الحيوانات نفوراً وشروداً، ويصعب إرجاعها بعد استمكان نفورها.

وزيد النبي صلى الله عليه وسلم الامر توضيحا فيقول: وإنما مثل صاحب القرآن (١) كمثل الإبل المعقلة (٢) إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت ، رواه الشيخان وفي الامر بالتعهد . والمواظبة عليه تحذير من نسيانه أو ذهابه .

وقد جاء الترهيب من نسيان القرآن في أو شيء منه ودم من يهمل حتى ينساه وذلك في غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكك منها إلا عدله . وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجنم (٣) ، ولأبي داود عن سعد بن عبادة مرفوعاً (٤) من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجنم ، قال الحافظ وفي إسناده مقال .

وروى أبو عبيد بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على أجور أمتي حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتياها رجل فنسيها .

وروى أبو داود والترمذي . وأبو يعلى والبزار وغيرهم من حديث ابن أبي داود عن ابن جريج ، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على أجور أمتي حتى

(١) أي الحافظ له . والتمكّن من حفظه والملازم له .

(٢) أي ربطت بالعقال

(٣) أي مقطوع اليد كناية عن نقصان الأجر ، وارتكاب الإثم وقيل

مقطوع السبب من الخير . وقيل صفر اليدين من الخير . ومعانيها متقاربة وقيل يحشر هكذا يوم القيامة ليكون علامة عليه .

(٤) أي منسوباً إلى النبي من قوله ، أو فعله ، أو تقريره ، وهذا من قوله .

الغذاء يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتي فلم أزدنيا أعظم من سورة من القرآن . أو آية من القرآن أو تيبها رجل ثم نسيها قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وذاكرت به البخارى فاستغربه . وقال الحافظ فى الفتح فى إسناده ضعف ولكن إيراده له فى الفتح . وإيراد بن كثير له فى كتاب فضائل القرآن يدل على أنه ضعف محتمل يحتاج به فى مثل هذا .

« نسيان القرآن كبيرة »

وقد اعتبر كثير من السلف نسيان القرآن كبيرة من الكبائر لما قدمنا من الأحاديث وغيرها وقد أخرج أبو عبيد - رحمه الله - من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفاً قال :

« ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحده ، لأن الله يقول : وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ، ونسيان القرآن من أعظم المصائب .

وروى عن أبى العالية موقوفاً أى عليه « كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ، ثم ينام عنه حتى ينساه » قال الحافظ ابن حجر : وإسناده جيد ومن طرق ابن سيرين بإسناد صحيح فى الذى ينسى القرآن ، كانوا يسكروهونه ويقولون فيه قولاً شديداً (١) .

قال ابن كثير : وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وهذا الذى قاله هذا . وإن لم يكن هو المراد جميعه .

(١) أنظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٦٧ - ٧٠ . وفتح البارى ج

٩ ص ٧٠ - ٧١ وكتاب فضائل القرآن فى صحيح البخارى وفضائل القرآن

فى رياض الصالحين وفضائل القرآن فى الاتقان ٢ ص ١٥١ - ١٥٣ .

فم وبعضه . فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للنسيان . وعدم
الاعتناء فيه تهاون كبير وتفريط شديد نعوذ بالله منه . ولهذا قال عليه السلام
تعاهدوا القرآن وفي لفظ استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال
من النعم . . . أى أن القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذ أرسلت من غير
عقال ثم قال : ولهذا قال إسحاق بن راهويه . وغيره : يكره للرجل أن يمر
عليه أربعون يوماً ؛ لا يقرأ فيها القرآن . كما يكره له أن يقرأه في أقل من
ثلاثة أيام .

(العامل الرابع)

(٤) ارتباط بعض الوظائف الدينية والدينية بحفظ القرآن

الإمامة في الصلاة بجميع أنواعها من المناصب الدينية الهامة ، ولا يتولاها
إلا أولو الفقه ، والعلم ، والفضل ، وقد كانت وظيفة رسول ﷺ طيلة
حياته ، ولم يتولها أحد في حياته إلا بإذن منه أو باستخلاف إذا سافر أو
خرج في غزوة أو نحوها ، وكذلك تولى الإمامة في الصلاة الخلفاء الراشدون
من بعده رضوان الله عليهم ، وتولاها الولاة ، والأمراء في الأمصار ،
والأقاليم ، وكذلك تولاها أمراء المؤمنين بعد الخلافة الراشدة

وقد كان حفظ القرآن ، واستظهاره ، وإجادته ، والعلم به ، والتفقه
فيه المرشح الأول لهذا المنصب الديني الخطير ، فكان الأحق بها أقروا^(٣)
الناس لكتاب الله .

(٣) ليس المراد بالقراءة مجرد الحفظ من غير فقه وعلم ، وإنما المراد
بالأقرأ الأحفظ ، والأفقه ، والأعلم وقد كان القراء هكذا في الصدر الأول
وقد مر بك عن قرب ما قاله التابعي عن القراء من أصحاب رسول الله ﷺ

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ : « يوم القوم أقرأهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلماً - أى إسلاماً - ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه (١) ولا يقعد في بيته على تكبرته (٢) إلا بإذنه ، قال الأشبح في روايته مكان سلماً سناً ، أى أكبرهم سناً

وكذلك كان حفظ القرآن وفقهه من الأسباب المرشحة لتولى الإمامة العظمى كالصديق أبي بكر ، والولاية والقضاء ، وقيادة السرايا ، والجيش كتابي موسى الأشعري ، وسالم مولى أبي حذيفة وقد كان يحمل اللواء يوم اليمامة ، فقيل له : إنا نخاف أن نؤتى من قبلك ؟؟ فقال هذه الكلمة التي تم عن إيمان عميق ، وقوة حفظ وفقه للقرآن الكريم « بئس أنا حامل القرآن إذا

نعم - والله - فما كان لحامل القرآن من أمثال سالم - رضی الله تعالى عنه - أن يفر ، أو يتكص على عقبيه ، أو لا يرغب عن الشهادة ، وقد صدق فيما عاهد الله عليه فصار يتقدم باللواء ويقا تل حتى قطعت يمينه ، فأخذ اللواء يساره ، فتمطت يساره ، فاحتضنه بهضديه وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى

(١) معناه أن صاحب البيت ، والمجلس ، وإمام المسجد أحق من غيره وإن كان ذلك الغير أفقه ، وأقرأ ، وأروع ، وأفضل منه ، فإن حضر السلطان أو نائبه قدم على صاحب البيت ، وإمام المسجد وغيرهما لأن ولايته وسلطنته عامة ، وتستحب لصاحب البيت ، أو إمام المسجد ، أن يأذن ويقدم من هو أفضل منه .

(٢) بفتح التاء وكسر الراء الفراهش أو نحوه كالسرير ، الكرسي مثلا مما ينسط ويعد لصاحب المنزل ويخص به وهذا من آداب الإسلام الاجتماعية الراقية التي تتفق والأذواق العالية

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . » (١) وقوله : « وكان من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، » (٢)

وهكذا كان حفاظ القرآن وقراؤه ، لقد كانوا أسبق الناس إلى نشر دعوة الإسلام وأرغب الناس في الجهاد ، والاستشهاد ، وأهل البطولات والتضحيات والفداء ، وما كان حفظ القرآن لهم من الخروج في السرايا والغزوات

فأصحاب « بئر معونة » (٣) كانوا من القراء ، وقد استشهدوا جميعاً في سبيل الله بنفس راضية ، فلا تعجب إذا كان النبي ﷺ حزن عليهم حزناً شديداً ، حتى لقد مكث شهراً يدعو على « رعل وذكوان ، وعصية » وهي القبائل التي غدرت بهم ، وليس أدل على رضاهم بالشهادة مارواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لما نعى القراء قال : « إن أصحابكم قد أصيبوا ، وأنهم قد سألوا ربهم ، فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ، ورضيت عنا ، فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى : « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ، ثم نسخ بعد » (٤)

وحتى بعد الوفاة كان الفضل والتقدمة لحفاظ القرآن ، وقراءه ، ففي الصحيح أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين والثلاثة من شهداء أحد في قبر واحد ، وكان يسأل : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن ، أي حفظاً له فيقدمه في اللحد » رواه البخاري فمن ثم عني المسلمون عناية فائقة بحفظ القرآن وأجاده ، فقد كان وسيلة من الوسائل للدرجات الدينية ، والدينية وقد

(٢٠١) آل عمران ١٤٤ ، ١٤٦

(٣) اسم موضع من بلاد هذيل ، بين مكة ، وعسفان وفي هذا المكان

كان الغدر والخيانة بأصحاب السرية

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب سرية الرجيع ، وبئر معونة

وروى الفاروق رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال « إن الله يرفع بهذا الكتاب قواما ويضع به آخرين ، رواه مسلم

« العامل الخامس »

(٥) تفرغ بعض الصحابة ومن بعدهم لحفظ القرآن وضبطه وقد تفرغ لحفظ القرآن ، والتفقه فيه أناس في عهد النبي ﷺ وهم أهل الصفة (٢) وهم أضياف الله ، وأضياف الإسلام ، كانوا يتطوبون بالنهار ، ويقومون الليل ويقرأون القرآن ، ويحفظونه ، ويتدارسونه ، ويعلمونه غيرهم ، ولم يكونوا رضوان الله عليهم - كسالى ولا خاملين ، ولا يناون بأنفسهم عن العمل والكساح كما يزعم بعض المتخربين عليهم ، وإنما كانوا إذا وجدوا عملا عند أحد - د عملوا ، وإذا لم يجدوا احتطبوا ، وأطعموا إخوانهم ، وجعلوا همهم حفظ القرآن ، واعدوا أنفسهم للجهاد ، فكان إذا دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد لبوا سراعا ، وليس هذا قولاً حملني عليه جهم ، أو الدفاع عنهم وإنما هو ما جاءت به الروايات الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ، قصدت تجليته للرد على هؤلاء الذين يشنعون بهم ، ويتجنون عليهم .

ففي صحيح البخارى عن أبي هريرة قال « ... وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل . ولا مال ، ولا إلى أحد ، إذا أتته ، أى النبي صلى الله عليه وسلم - صدقة بعث بها اليهم ، ولم يتناول منها شيئا ، وإذا أتته هدية أرسل اليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها ، (١) وكان أبو هريرة منهم .

(٢) مكان مظلل كان في مسجد النبي ﷺ ، كان يأوى إليه ، من لادار له ، ولا أهل ، ولا مال فكانوا يبيتون فيه ، ويطعمون ، ويعانون (١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، وتخليمهم عن الدنيا

وفي مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط عند ابن سعد ، كان أهل الصفة ناساً فقراء ، لا منازل لهم ، فكانوا ينامون في المسجد لا مأوى لهم غيره ، (١) .
وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ أن أصحاب الصفة كانوا ناسياً فقراء ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » الحديث (٢) .

وفي صحيح البخارى أيضاً عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رجلاً ، وذو كوان ، وعصية ، وبني الحيان استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسبهم القراء ، في زمانهم كانوا محتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى كانوا يبرئ معونه فقتلوه ، وغدروا بهم ، (٣) .

وفي رواية ثابت عند مسلم ، ويشترى الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، (٤) وفي صحيح البخارى أيضاً عن أبي هريرة قال : « رأيت سبعين من أصحاب الصفة ، ما منهم رجل عليه رداء (٥) ، إما إزار (٦) ، وإما كساء قد ربطوا - أى الأكسية - في أعناقهم فنما ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته ، (٧) .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : « يشعر بأنهم كانوا أكثر من سبعين ،

-
- (١) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٨ (٢) صحيح البخارى - باب علامات النبوة
(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الرجيع . . وبئر معونة . .
(٤) فتح البارى ج ٧ ص ٣٠٩ (٥) هو ما يستر أعلى البدن (٦) ما يشد في الوسط فيستر النصف الأسفل (٧) صحيح البخارى - كتاب الصلاة - باب نوم الرجال في المسجد .

وهؤلاء الذين رآهم أبو هريرة غير السبعين الذين بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر معونة ، وكانوا من أهل الصفة أيضاً لكنهم استشهدوا قيل لإسلام أبي هريرة ، وقد اعنى بجمع أصحاب الصفة ابن الأعرابي ، والسلي ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر ؛ وفي بعض ما ذكره اعتراض ومناقشة ، لكن لا يسع هذا المختصر تفصيل ذلك ، (١) .

وقال في موضع آخر من الفتح : « ولم أقف على عددهم - يعني أهل الصفة - إذ ذاك وقد تقدم في أبواب المساجد ، في أوائل كتاب الصلاة من طريق أبي حازم عن أبي هريرة ، رأيت سبعين من أصحاب الصفة ... » الحديث وفيه أشعار بأنهم كانوا أكثر من ذلك وذكرت أن أبا عبد الرحمن السلي ، وأبا سعيد بن الأعرابي ، والحاكم اعتنوا بجمع أسمائهم ، فذكر كل منهم من لم يذكر الآخر ، وجمع الجميع أبو نعيم في الحلية ، وعندهم تقرب من المائة ، لكن الكثير من ذلك لا يثبت ؛ وقد بين كثيراً من ذلك أبو نعيم ، وقد قال أبو نعيم : كان عدد أهل الصفة يختلف بحسب اختلاف الحال ، فربما اجتمعوا فكثروا ، وربما تفرقوا إما لغزو ، أو سفر ، أو استغناء ، فقلوا ، ووقع في عوارف السهروردي أنهم كانوا أربعمائة (٢) .

أقول والذي يظهر أنهم كانوا كثيرين ، وأنهم كانوا يقلون ويكثرون بحسب اختلاف الأحوال كما قال أبو نعيم

ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الصفة ثروة عظيمة للقرآن الكريم وكانوا ركائز ودعائم لحفظ القرآن ، وإشاعته ، ونشره بين المسلمين ، كما كانوا جند الله ، وجند الإسلام ، كلما سمعوا همة (٣) طاروا إليها ،

(١) فتح الباري - ١ ص ٤٢٤ (٢) فتح الباري - ١١ ص ٢٤١

(٣) الصيحة إلى الجهاد

وهكذا تبين أنهم برءاء بما رموا به وكذلك كان المشتغلون من الصحابة
ببراعتهم ، وتجاراتهم شديدي الحرص على الوحي ، ولا سيما القرآن ،
وحفظ ما نزل منه روى البخاري في صحيحه عن سيدنا عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه - أنه قال : كنت أنا وجار لي من الأضواء في بني أمية
بن زيد - أي ناحية - وهي من عوالي المدينة ، وكنا تتناوب النزول على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جنته
بخبز ذلك اليوم من الوحي ، وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك
الحديث (١) .

وهكذا نجد أنهم ما كان يشغلهم دينهم عن دنياهم ، ولا تشغلهم دنياهم
عن أمور دينهم ، وحفظ كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، ولا عجب فهم
رأس الأمة الخيرة ، الوسط .

وقد اشتهر باقراء القرآن من الصحابة سبعة . عثمان ، وعلى ؛ وأبي بن
كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري
كما ذكر الذهبي في طبقة القراء .

• التفرغ للقرآن بعد عصر الصحابة ، •

ثم تفرغ لحفظ القرآن ، وإقرائه كثير من التابعين بالامصار الإسلامية
فمنهم من كان بالمدينة . سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ،
وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان ، وعطاء
أبن يسار ، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القاري . ، وعبد الرحمن بن
هرمز المشهور بالأعرج ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري القرشي عالم
الحجاز والشام ، وجندب بن مسلم ، وزيد بن أسلم .

وكان بمكة عبيد بن عمير ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاوس بن كيسان

اليماني ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وابن أبي مليكة .
وكان بالكوفة علقمه ، والأسود ، وسروق بن الأجدع ، وعبيد
بن عمرو السلمي وعمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس والربيع بن خثيم
وعمر بن ميمون وأبو عبد الرحمن السلمي ، وذر بن حبش ، وعبيد بن
فضيلة ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ، والشعبي
وبالبصرة . أبو العالية ، وأبو دجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر
والحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وقتادة بن دعامة السدوسي وبالشام .
الغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان ، وخليفة بن سمدة صاحب
أبي الدرداء .

ثم تجرد أقوام لحفظ القرآن ، وضبط قراءاته ، وعنوا بذلك أتم حناية
حتى صاروا أئمة في القرآن ، والقراءة ، يقتدى بهم ، ويرحل لهم .

فكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم
تالغ بن أبي نعيم .

وبمسكة : عبد الله بن كثير ، وحديد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن أبي
عبيد .

وبالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان بن مهران
المعروف بالأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائي .

وبالبصرة : عبد الله بن أبي اسحق ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمر بن
العلاء وعاصم الجحدري ، ثم يعقوب الحضرمي .

وبالشام : عبد الله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلبي ، وإسماعيل
بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث الذماري ، ثم شرحبيل بن زيد
الحضرمي .

• الأئمة القراء السبعة ،

واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة

(١) نافع : قد أخذ عن سبعين من التابعين منهم : أبو جعفر ، وابن كثير ، وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابي .
(٢) وابن عامر : وأخذ عن أبي الدرداء الصحابي الجليل ، وأصحاب عثمان رضى الله عنه .

(٤) وعاصم . وأخذ عن كثير من التابعين .

(٥) وحمزة . وأخذ عن عاصم ، والأعمش ، والسيبي ، ومنصور بن المعتمر ، وغيرهم .

(٦) والكسائي . وأخذ عن حمزة ، وأبي بكر بن عباس (١) .

ثم انتشرت القراءات في الأمصار ، وكثر القراء كثرة تجاوزت الحصر وصار حفاظ القرآن ، المتقنون له ، المتفرغون لإقرانه في الأقطار الإسلامية يعدون بالآلاف الآلاف فله الحد والمث على ما أنعم به ، وعلى توفيق لامة الإسلامية لحفظ كتابه .

العامل السادس

(٦) اشتهار العرب بقوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وصفاء الفطرة لقد كان العرب تغلب عليهم البداوة والامية ، فكان من الطبيعي أن يكون معتمد في حفظ أنسابهم ، وأشعارهم ، وخطبهم ، ومفاخرهم ، ومفاخر آباتهم ، وأجدادهم وكل ما يتصل بهم على حوافظهم ، وذاكراتهم قد كانوا يعنون غاية العناية بالأنساب ، والأحساب ، والأشعار ، والمخطب ومن اعتر بشيء فلا بد أن يسجله ، ويقيده ، ولما كانوا أمة أمية فقد قامت

الحافظة ، والذاكرة مقام التسجيل بالسكتة ، فمن ثم كان من خصائصهم التي فاقوا بها كل الشعوب المعاصرة لهم قوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وقد كان الواحد منهم كـ « الشريط المسجل » الذي لا يقبل ، ولا ينسى ، وكان منهم من يحفظ أنساب قبيلته ، وأشعارها ، ومفاخرها ؛ ومنهم من كان يحفظ أنساب القبائل كلها . وأشعار العرب وخطبهم . ومفاخرهم ، ومناقبهم . وقد اشتملت كتب التواريخ والأدب على أمثال عجيبة في هذا .

وقد أعانهم على هذا ذكاء العقول . وصفاء النفوس ، وسلامة الفطوة وثقة شواغل الحياة وتكاليها ، ولا يزال أهل البوادي والقرى إلى وقتنا هذا جل اعتمادهم على حوافظهم . وإذا كراتهم تجلس للواحد منهم وهو أعمى فيقص عليك من قصص الماضين من لقبهم ، ومن لم يلقهم . الكثير من الأخبار ، بل قد وجدنا من أهل القرى عندنا في مصر من يعرف تاريخ كل أسرة وعدد أفرادها . ومن مات منها . ومن بقي . وقد يذكر لك حكاية عن كل من تذكره له . وعن غير . وعن لا يزال حيا . ومع هذا فهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب وما من أحد منا إلا وقد جلس إلى جده . وجداته وسمع منهن الكثير مما حفظوا . ووعوا فإثر عن العرب ليس بالامر المستغرب في تاريخ البشر .

وقد كان وجود هذه الخصائص العقلية . والذهنية . والنفسية عند العرب قبل الإسلام من المقدمات بين يدي النبوة المحمدية . لأن الله تبارك وتعالى يعلم أنه سيكلف هذه الأمة المحمدية بحفظ كتاب ربها ، وسنة نبيها وأنهم هم أول من يقومون بحمل هذا الدين ، ونشر رسالته ، وتلقى الوحي قرآنا ، أو سنة من النبي صلى الله عليه وسلم . وأنهم هم الذين سيضطلمون بهذا العبء حين يلغوه إلى الناس كافة ، والعرب هم حملة هذا الكتاب الكريم

وهم الذين بلغوه إلى كل أبيض ، وأسود حتى صار الإسلام مقترنا بهم .
وصلق المبلغ عن رب العالمين حيث قال : « إذا ذل العرب ، ذل الإسلام .
رواه أبو يعلى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته »

العامل السابع

القرآن هو أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، وهو الأصل الأول
من أصول التشريع في الإسلام ، الذي يرجع إليه في الأحكام ، ومعرفة
الحلال من الحرام ، وهو دستور المسلمين الأكبر ، إليه يرجعون في الحكم
والسياسة ، والولاية ، والإدارة ، والاقتصاديات ، والإخلاقيات ،
والأخلاق ، والمعاهدات والمصالحات ، والمهادنات ومعرفة حقوق
الإنسان ، وعلاقات الأفراد ، والجماعات ، فالقرآن هو الذي يضع الخطوط
العريضة ، والقواعد الدقيقة ، والأصول الأصلية لكل ذلك ، وإنه ليحسن
في هذا المقام أن تذكر بالحديث الجامع في وصف القرآن الذي سقته في
صدر الكتاب روى الترمذي في سننه عن الحارث الأعور قال : « مررت
في المسجد ، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : أوقد فعلوها ؟ قلت :
نعم قال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إلا إنها ستكون فتنه ، فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال ..
« كتاب الله . فيه نبا ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو
الفضل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في
غيره أضله الله ، وهو جبل الله المتين ، وهو الذكركم الحكيم وهو الصراط
المستقيم ، هو الذي كان لا تزيع به الأهواء ، ولا تلبس به الألسنة ،
ولا يتنجس منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد - لوفى رواية عن - ولا
تلفظ عجايبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا

قرأنا عجباً ، يهدى إلى الرشيد فأمننا به ، من قال به صدق ، ومن عمل به
أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، خذها
إليك يا أعور ، قال الترمذى : حديث غريب ، وإسناده مجهول ، وفي
حديث الحارث فقال إن كتاباً هذا بعض شأنه لا بد أن يحفظه المسلمون ،
وأن يتنافسوا فيه ، وفي ذلك فليتنا في المتنافسون ،

إننا نجد في القديم والحديث أصحاب الدساتير ، وأصحاب القوانين
يعنون غاية العناية بدساتيرهم ، وأصول قوانينهم ، ويضعون لها التفسير ،
والشروح فإياك بالقرآن ، وهو دستور الدساتير ، والقانون الذى
لا يداينه قانون ، والتشريع الذى لا يساميه تشريع وصدق الحكيم العليم
« وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد ، ومن ذا الذى يسمع من نبيه الأكرم هذا الحديث -
وأمثاله كثير - ثم لا يحفظه عن ظهر قلب ، ولا يفنى عمره فيه إن هذا
الكتاب العظيم أحق ما يفنى فيه الشباب ، وأجدر ما تنفق فيه الأعمار فلا
تعجب إذا كان المسلمون حفظوه غاية الحفظ ، وفهموه غاية الفهم ، وتدبروه
غاية التدبر ، وهذا هو ما كان وهذا هو ما شهد به تاريخ الأجيال ، وإرجع
إلى كتاب التواريخ والرجال والطبقات تقف على ما يضع العقل ، ويبلغ
الصدر ، ويطمئن القلب .

العامل الثامن

(٨) إعجاز القرآن ، وسحرياته ، وعجائب أسلوبه ، وحلاوة
كلامه وهذه خصائص للقرآن الكريم ، وقد كانت من أعظم العوامل ،
وأقوى الدوافع إلى حفظ القرآن الكريم .

والعرب كانوا أرباب الفصاحة ، والبلاغة وفرسان البيان ، فن ثم
كانت معجزة النبي العظيم القرآن الكريم وكان العربى تستويه الكلمة

الفصيحة ، ويكاد يخر ساجداً للكلام البليغ ، ويملك ناصيته البيان المعجز ،
والأساليب العجيبة ويجد في الكلام الفصيح البليغ حلاوة ليس بعدها حلاوة
لأن فيه إشباعاً لغزيبته ، وإرضاءً لفطرته ، وقيمةً لمواهبه .

وإليك ما ذكره ابن إسحاق في سيرته عن ثلاثة من فصحاء العرب
ويبلغاتهم روى عن الزهري قال . حدثت أن أبا جهل ، وأبا سفيان ،
والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسموا من رسول الله ﷺ وهو يصلي
بالليل في بيته ، فأخذ كل منهم مجلساً ، فيستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان
حاجبه ، فجمعهم الطريق ، فتلوا مواااا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا
ظهوراًكم بعض سفهائكم لا وقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه . فباتوا يستمعون
له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل
ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون
له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقالوا : لا تبرح حتى
تتأهد أن لا تعود ، فتأهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان
في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حفظة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال :
يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت
أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . فقال الأخنس : أنا - والذي
حلفت به - كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال له : يا أبا الحكم فما رأيك فيما
سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا

فأطعمنا وحملوا غملمنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحادينا على الركب ،
وكنا كغرسى رهان .

قالوا : من أنبى يأنبه الوحى من السماء ؛ فى ندرك هذه ؟ فوالله لا تؤمن
به أبداً ؛ ولا نصدقه (١) وهو يدل على اسلذاذ العرب لسماح القرآن ،
استجابة لقطرتهم العرية وإذا كان تأييد القرآن فى أهل الشرك ، فكيف
يكوى تأييده فى أهل الإيمان ؟

وهذا هو الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن ،
فكانما رقى له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأنابه ، فقال : يا عم ان قومك يريدون
أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم ؟ قال ليعطوكه ، فإتاك آتيت عمداً لتعرض
ما قبله ، قال : قد علمت فريش أئى من أكثرها مالا ، قال : فقل فى القرآن
قولا يبلغ قومك أنك مفكره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما منكم
أحد أعلم بالاشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة منى ، ولا بأشعار الجن ،
والله ما يحبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه
لظلاوة (٢) ، وإنه لشر أعلاه ، مغدق أسفله (٣) ، وإنه ليعلو ويحطم
ماتحته !!

فإذا كان هذا تأييد القرآن فى مشرك عنيد حتى استشعر هذه الطلاوة ،
وتلك الحلاوة فكيف بمسلم عمر قلبه بالإيمان ، وأشرقت نفسه بنور
القرآن ؟

(١) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة - ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) بضم الطاء وفتحها : بهجة وحسن شكل .

(٣) أى كثير الفرق أى الماء ، والشجرة إذا كان أصلها غدتاً كانت
لامية مخضرة مشمرة .

وفي الحديث الذي ذكرته آنفاً ، لا يخلق على كثرة الرد ، أى لا يمل ،
ولا تسأمه النفوس مهما تكررت ، وكلما كررت لا يزداد إلا حلاوة ، وكلما
أجلت فيه الفكر والنظر لا يزداد إلا طلاوة ، ومن قرأ القرآن غضا طريا
كما أنزل ، وبخشوع ، وتدبر استشعر هذه الحلاوة ، فأنها تسرى في لسانه
ويجدها في لسانه

وهذه الخاصية القرآنية لا تجدها عند قراءة أى كتاب آخر مهما كان
نعم قد يجد المسلم حلاوة ، ولكنها دون هذه الحلاوة ، حينما يقرأ كلام
الرسول ﷺ ، ولا سيما فى جوامع كلمه التي رويت بلفظها ، ولم يدخلها
الرواية بالمعنى

فمن ثم كانت هذه الخصائص البيانية ، والأسلوبية ، والوجدانية من
أكبر العوامل المساعدة على مداومة تلاوته ، وإجادة حفظه والمحافظة
على نصوصه .

العامل التاسع

(٩) تيسير الوسائل لحفظه فى المساجد ، والكتاتيب ، والبيوت ،
وغيرها ومن العوامل أيضاً تيسير الوسائل لحفظه فهذا المسجد الحرام ،
وهذا المسجد النبوى ومئات غيرها فى العهد النبوى ، ثم ألوف ، وألوف
فما بعد ذلك كانت عامرة بتلاوة القرآن ، وبقراءة القرآن المجيد له ،
يتورعون عن أخذ الأجرة على تعليمه ، ويرون فى قيامهم بالإقراء حسبة
لله منزلة ليس فوقها منزلة

وقد ثبت فى الصحيح أن الصديق بنى له مسجداً فى بيته ، فكان يصل
فيه ، ويقرأ القرآن حتى كاد يفتتن بقراءته نساء المشركين وأولادهم ، وكان
قد أجاده ابن الدغنة فذهبوا إليه واشتكوا من فعل الصديق ، فنقض ما بينه
وبين ابن الدغنة ، ورضى بحوار الله عز وجل

وهؤلاء هم أهل الصفة بالمسجد النبوي ، كان من مهاتهم قراءة القرآن وحفظه ، وإقرائه لغيرهم وقد قدمت طرفاً من ذلك

وكان الصحابة قليلاً من الليل ما ينامون ، ولا سيما في رمضان ؛ فلا يجب أن كان يسمع لهم دوى بالقرآن بالليل كدوى النحل في المساجد والبيوت وكان النبي صلوات الله عليه وسلم يشجعهم ويرغبهم في التلاوة زوى أبو عبيد بسنده عن عقبة ابن عامر قال . خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في المسجد فندرس القرآن قال . « تعلموا كتاب الله واقتنوه »^(١) قال وحسبت أنه قال . وتغنوا به^(٢) فوالذي نفسي بيده هو أشد تغلثاً من الخاض^(٣) من العُقل

وكذلك كانت بيوت الصحابة ومن جاء بعدهم معاهد علم ؛ ومدارس قرآن فما من من بيت إلا ويقرأ فيه القرآن ؛ ويتدارس ؛ وسواء في ذلك الكبار ؛ والصغار ؛ والرجال والنساء .

وكذلك كانت توجد الكتاتيب^(٤) لتحفيظ القرآن ، وتعليم القراءة والكتابة ؛ وقرأنت هذه الكتاتيب في عهد مبكر ، وكان لها آثارها العظيمة في حفظ القرآن الكريم فقد ثبت وصح أن النبي ﷺ أخذ من القادرين من أسرى بدر الفراء ؛ ومن لم يكن قادراً قبل منه تعليم عشرة

(١) اقتنوه كما تقتنوا الأموال ، واجعلوه رأس مالكم (٢) أى استغنوا به عن الناس (٣) الإبل (٤) الكتاتيب : جمع كتاب ، والمراد به هنا المكتب الذى يحفظ فيه القرآن ، والأصل فيه جمع كاتب ثم أطلق على المكان مجازاً وقد غلط صاحب القاموس الجوهري في صحاحه في جملة الكتاب بمعنى بمعنى المكتب ؛ ولا أرى داعياً لتغليظه فهو إطلاق مجازى من إطلاق الحال وإرادة المحل

من صبيان المسلمين القراءة ؛ والكتابة وطبعهم أنهم كانوا يداولون ذلك في مكان غير المسجد النبوي لأن المشرك ممنوع من دخوله يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة فجاء غلام يبكي إلى أمه فقالت : ماشأئك ؟ قال . ضربني معلى ؛ فقالت . الخبيث يطلب يدخل بدر ؛ والله لا تأتيه أبدا ،

ثم أذهبت الكتاتيب بعد ذلك ؛ وكثرت كثرة خارجة عن الحصر حتى لا تجد مصرا أو بلدا إلا وفيه كتاب ؛ وكتاتيب

وقد كانت مصر - حرسها الله - بمدنها ؛ وقراما ، وكفورها ودماسا كرها ونجوعها خاصة بالكتاتيب ؛ وفي هذه الكتاتيب حفظ ألوف الألوف القرآن الكريم وقد كانت هذه الكتاتيب هي الروافد التي تمد الأزهر الشريف بألوف الطلاب كل عام ؛ والكثيرون من هؤلاء صاروا أئمة في الفقه ؛ والفتوى ، وفي التفسير ؛ والحديث وعلوم اللغة واللسان ، والعلوم العقلية والكونية ، ومنهم من أثر في إصلاح حياة مصر ، بل إصلاح حياة الدول الإسلامية والعربية دينيا وسياسيا ، واجتماعيا في العصر الأخير وكان له الفضل الكبير في إزالة كابوس الاستعمار ، والحكام الظالمين المستبدين كعراي ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول وغيرهم كثير .

وبعد ، هذا المطاف الطويل نصل إلى هذه النتيجة وهي أن القرآن الكريم توفر له من دواعي الحفظ له والمحافظة عليه ما لم يتوفر لكتاب قط لا في القديم ، ولا في الحديث ، ولا سماويا ، ولا أرضيا والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

« وجوب إحياء الكتابات »

بما ذكرت يتبين أن الكتابات كانت تؤدي خدمة عظيمة في سبيل تحفظ القرآن الكريم ، ولم تكن قائمتها تقف عند حد تحفيظ القرآن الكريم فحسب ، بل كانت من أعظم الوسائل في تعليم القراءة والكتابة ، لأن التحفيظ فيها لم يكن عن طريق التشفافة والحفظ في الصدور فحسب ، وإنما كان عن طريق كتابة جزء من القرآن خمس آيات أو عشر آيات ، أو عشرين آية في اللوح (١) كل على حسب إستعداده ، وعلى قدر طاقته ، وطريقة الحفظ عن طريق الكتابة أولاً ، ثم الحفظ لا يجعل الصبي ينسى شيئاً من القرآن فيما بعد ، ومن ثم نرى أن الكتابات كانت أيضاً من أعظم وسائل إزالة الأمية ، لأن الصبي لكي يكتب لوحه ، لابد من تعلمه القراءة والكتابة أولاً ، وقد كانت الكتابة في اللوح تمرينا عملياً على إجادة القراءة والكتابة ، وقد أجدت الكتابة في الكتاب من هذا الطريق والله الحمد والمنه .

وكذلك كانت تعلم فيها مبادئ الدين الإسلامي ولا أنسى قط درس الدين من يوم الخميس كل أسبوع يلتقنا فيه الفقيه أو العريف (٢) أركان الإسلام المذكورة في الحديث المشهور الصحيح « بنى الإسلام على خمس » . ونسب

(١) عبارة عن قطعة مستطيلة من الخشب أو نحوه مطوية بطلاء أبيض . يكتب فيها كل صبي ما يريد حفظه . فإذا حفظه أزاله . وكذب غيره وهكذا .

(٢) الفقيه : وينطقها العامة الفقي هو رئيس الكتاب والعماد في تحفيظ القرآن . والعريف — ومن معانيه في اللغة العربية رئيس الجماعة — هو مساعد الفقيه .

التي صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، وأبنائه وبناته ، وفرائض الوضوء ، وأركان الصلاة ، والشهد ونحو ذلك ، وكذلك كنا نتعلم فيها مبادئ الحساب ولكن كان ذلك بقدر

فلما أنشئت المدارس الأولية ، ثم الإلزامية . . . بدأت الكتابات تضمحل شيئاً فشيئاً حتى أوشكت على الزوال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وأحب أن أقول إن جمعيات المحافظة على القرآن الكريم وإن كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها . إلا أنها - والحق يقال - لم تغن غناه الكتابات في تحفيظ القرآن ، لأن المنهاج المدرسي غلب عليها ، وأصبح التحفيظ فيها عن طريق الحفظ في المصاحف ، لا الكتابة في الألواح كما كان أسلوب التحفيظ في الكتابات ، وتكاد تكون هذه الطريقة مندثرة اليوم في الديار المصرية بعد أن كانت هي المجلية والسابقة في هذا المضمار .

في البلاد السودانية .

وبما يذكر بالاعتزاز والإكبار أن طريقة تحفيظ القرآن الكريم عن طريق الكتابة في الأنواع ، والتصحيح على الفقيه ، والعرض عليه مراراً ، حتى يسمح له بالانتقال إلى كتابة جزء آخر من القرآن وحفظه ، لا تزال في كثير من البلاد السودانية الشقيقة ، ولا يزال كثير من إخواننا السودانيين يحتفظون بالواحد للذكرى والتاريخ ، ويعرضونها على الزائر لهم وهم في غاية الغبطة والسرور ، ويعتبرون ذلك من المفاخر لهم .

وهناك كثيرون من أهل الصلاح ، والتقوى ، والقرآن يجمعون المئات من الصبيان في كتاباتهم التي يسمونها « نار القرآن الكريم » ، ويحفظونها القرآن ، ويتكفلون بهم طعاماً ، وسكنى . وكسوة . وقد زوت بعض هذه البيوت القرآنية وأنا بالجامعة الإسلامية بأم درمان أستاذتها نسأل الله سبحانه أن تدوم هذه الكتابات القرآنية لتكون نارا محرقة لأعداء الله .

وأعداء القرآن . ونوراً يملأ قلوب حفاظ القرآن الكريم وطلابه . وأن
يجزى القائمين عليها خير الجزاء . كفاء ما قدموه للقرآن .

« أمل ورجاء »

وقد كانت الديار المصرية زعيمة العالم الإسلامي في حفظ القرآن
الكريم . وحقق قراءاته وفي الكثرة الكاثرة من حفاظه وأهله وكل ذلك
كان بفضل الكتاتيب التي كانت تنتشر في كل مكان .

فهل يعمل القائمون على الشؤون الدينية في الأزهر بكلياته ومعاهده .
وجمع البحوث الإسلامية . وفي وزارة الأوقاف . وفي المجلس الأعلى
للشؤون الإسلامية على إحياء هذه الكتاتيب ولا سيما في القرى التي كانت -
ولا تزال . المورد الأكبر لحفاظ القرآن الكريم ؟ وعلى النهوض بجمعيات
المحافظة على القرآن الكريم . وإلا كثر من دروس تحفيظ القرآن الكريم
وإنصاف القائمين على التحفيظ بهم - أوسد حاجتهم حتى يقوهوا بمهمتهم
خير قيام ؟ .

إن ما يؤسف له أن المدارس التي كان يعتبر حفظ القرآن أساساً لدخولها
« كمدارس المعلمين ، أصبحت لا تشترط ذلك ، ولم يبق اشتراط الحفظ
إلا في الأزهر الشريف بمعاهده . وكلياته على تساهل كبير في هذا . فبعد
أن كان الطالب الأزهرى لا يلتحق بالفرقة الأولى الابتدائية إلا بعد حفظ
القرآن كله ونجويده . أصبح الآن يكتفى بما دون حفظه كله . قد يكتفى
بالربع . وقد يكتفى بالأجزاء الثلاثة الأخيرة في المصحف وهي مصيبة من
أعظم المصائب . لأنها تمس أصل الدين الإسلامي . ومنبع الصراط
المستقيم .

إن في أوقاف المسلمين - وما أكثرها - التي وقفت على إنشاء الكتاتيب
وتحفيظ القرآن الكريم ما يقوم مالياً بما يحتاجه إنشاء هذه الكتاتيب ، والنهوض
بجمعيات المحافظة على القرآن حتى تؤدي رسالتها كاملة .

بل في خزانة الدولة في بلد اسلامى عريق ، وأهله مسلمون مايقوم بذلك وإن الاتفاق في مثل هذا لخير ألف مرة مما ينفق بغير حساب في بعض الأبواب الأخرى التى لا تفيد الشعب بقدر ما تضره .

بل في أريحية الخيرين من أبناء هذا البلد الاسلامى العريق مايقوم بذلك ولو دعوا دعوة جادة صادقة إلى هذا المشروع القرآنى العظيم للتبوا سراعا عن طيب نفس .

لقد كان من التشريعات الموقفة في التعليم جعل الدين مادة أساسية من مواد التعليم يترتب عليها نجاح الطالب أو سقوطه ، ولكن التشريعات لا تثمر ثمرتها إلا بالعمل ، والتطبيق ، والتنفيذ ثم إن القدر المقرر حفظه على الطالب من القرآن الكريم شيء قليل مع التساهل في حفظه ، ولو جعل لتحفيظ القرآن حصص خاصة لكان أجدى وأنفع ، ولو كلف التليذ في الابتدائى والإعدادى والثانوى (١) بجزء من القرآن كل عام - وليس حفظ الجزء بالأمر المعجز - لوصل التليذ إلى الكليات الجامعية والمعاهد العليا وقد حفظ قسطا كبيرا من القرآن ثم يتم الباقي في الجامعة .

وللأنصاف للتلاميذ أرى أنه لا بد لى يمكن تحقيق ذلك أن يزاح عن كاهلهم بعض ما يكلفون به من علوم لا تفيد عشر معشار ما يفيد القرآن الكريم في بناء الأمة دينيا ، ودنيويا ، وخلقيا واجتماعيا .

ترى أيها القارى المنصف لو أن هذا الاقتراح نفذ في الأقطار الإسلامية والعربية لأرضت ربها ، ورسولها ، ولكانت الأمة الإسلامية بحق خير أمة أخرجت للناس إنها لآمال وأمانى ، فهل تتحقق ؟ ذلك ما نرجو ، وما ذلك على الله بعزيز .

(١) مدة الابتدائى في جمهورية مصر العربية ست سنوات ، والإعدادى ثلاثة والثانوى ثلاثة يعنى اثني عشر جزءا

(مسائل في آداب تلاوة القرآن، وحفظه)

لقد أفرد هذه الآداب بعض العلماء منهم الإمام النووي في كتابه «التبيان» وقد ذكر فيه ، وفي شرح «المهذب» وفي كتابه «الأذكار» جملة كبيرة منها ، وقد لحصها ، وفصلها ، وزاد عليها أضعافا مضاعفة الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه «الاتقان في علوم القرآن» (١) ،

وسأذكر في هذا الفصل خلاصة ما ذكره السيوطي ، وربما زدت عليها زيادات وتعقبات وتوضيحات لما أجمل وإزالة إشكال ما يشكل ، فأقول وبالله التوفيق :

(١) قراءة القرآن من أفضل القربات إلى الله وأعظمها بركة ، وأجلها نفعا ، والقرآن الكريم هو الكتاب المتعبد بتلاوته ، ويستحب الإكثار من قراءته لأنه يرقق القلوب ، ويشرح الصدور ، ويزيل الهموم ، ويكشف الغموم وقد روى في الصحيحين عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار . . . وروى الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « يقول الرب سبحانه وتعالى من شغله القرآن ، وذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي سقناها في الدواعي والأسباب الحاملة على حفظ القرآن .

وقد كان للسلف في قدر القراءة عادات ، فأكثر ما ورد في كثرة القراءة من كان يختم في اليوم والليلة ثمان ختمات أربعاً في الليل وأربعاً في النهار

ويليه من كان يختم في اليوم والليلة أربعاً ، ويليه ثلاثاً (١) ، ويليه ختمتين ، ويليه ختمة ، وقد ذمت السيدة عائشة ذلك فأخرج ابن أبي داود عن مسلم ابن خراق : قال : قلت لعائشة أن رجلاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثة فقالت : « قرءوا أولم يقرؤا كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب ، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا ، واستعاذ . »

ويلى ذلك من كان يختم في ليلتين ، ويليه من كان يختم في كل ثلاث وهو حسن ، وكره جماعات الختم في أقل من ذلك لما روى أبو داود والترمذى وصححه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً « لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث ، وأخرج ابن أبي داود ، وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال « اقرءوا القرآن في سبع ولا تقرؤوه في أقل من ثلاث ، وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث

ويليه من ختم في أربع ، ثم في خمس ، ثم في ست ، ثم في سبع ، وهذا أوسط الأمور وأحسنها ؛ وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم ، أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو قال : « قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن في شهر قلت : إني أجد قوة ، قال : اقرأه في عشر قلت : إني أجد قوة قال . اقرأه في سبع ولا تزد (٢) على ذلك (٣) ، وفي بعض الروايات مراجعات منه للنبي فيما كان يشير به عليه حتى انتهى الأمر إلى السبع ، قال الحافظ في الفتح ، وكان النهي عن الزيادة ليس على التحريم كما أن الأمر ليس على الوجوب

(١) لعل المراد بذلك إمراره على القلب واستعراضه في الذهن ، أما النطق بالانفاظ ولو على سبيل الإسراع فغير ممكن أن يحدث هذا العدد من الختمات في اليوم والليلة حتى ولو لم ينم ، فما بالك لو أنه قرأه بتؤدة وتمهل ونام ولو جزءاً قليلاً من الليل والنهار ؟ . (٢) أى لا تنقص عن ذلك فلما زاد بالزيادة بطريق التذلي أى لا يقرؤه في أقل من سبع

(٣) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - باب في كم يقرأ القرآن

وفي الصحيح أيضاً أنه ندم على ذلك لما كبر وقال . « فليتنى قبلت
ورخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أنى كبرت ، وضعفت ،

وبلى ذلك من ختم في ثمان ، ثم في عشر ، ثم في شهر ، ثم في شهرين
أخرج ابن داود عن مكحول قال . « كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ
يقرؤون القرآن في سبع ، وبعضهم في شهر ، وبعضهم في شهرين ، وبعضهم
في أكثر من ذلك » وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال ، من
قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقه ، لأن النبي ﷺ عرض القرآن
على جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين ، أقول : ولكن عرض القرآن
على جبريل لا ينافي أنه كان يقرؤه وحده من غير عرض

وكره بعض العلماء تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر ، نص
على ذلك الإمام أحمد لأن عبد الله بن عمر سأل النبي ﷺ في كم تختتم القرآن ؟
قال . « في أربعين يوماً ، رواه أبو داود

أقول . وليس في الحديث ما يدل على كراهة الختم في أكثر من أربعين
والعبارة ليست حاصرة حتى يكون ما عداها ليس من سنته ، وغاية ما يدل
عليه أن ذلك كان حالة من حالاته ، أو أنه كان الغالب منها

ووجهي في هذا مقاله الإمام النووي في «الأذكار» . أن ذلك يختلف
باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ، ومعارف
فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك من كان مشغولاً
ينشر العلم ، أو فصل الحكومات ، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح
فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصده ، ولا فوات كماله
وان لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد
الملل أو الهزيمة (١) في القراءة وهو تفصيل حسن

(١) الإسراع إلى حد عدم تبيين مخارج الحروف ؛ وعدم مراعاة قواعد

تجويد قراءته

(٢) نسيانه كما قلنا سابقا كبيرة صرح بذلك الإمام النووي في «الروضة»
وغيرها للحديث الذي رواه أبو داود وغيره عن النبي ﷺ «عرضت على
ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن ، أو آية أو تيها رجل
ثم نسيها ، وروى أيضاً « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة أجزم ،
وفي الصحيحين مرفوعاً « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لو أشد
تفلتاً من الإبل في عقلها ،

(٣) يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار ؛ وقد كان
النبي ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر ؛ كما ثبت في الحديث .

قال امام الحرمين . ولا تذكره القراءة للحديث ؛ لأنه صح أن النبي
ﷺ كان يقرأ مع الحدث ، قال في شرح المذهب . وإذا كان يقرأ فعرضت
له ريح أمسك عن القراءة حتى يستتم خروجها

وأما الجنب ، والحائض والنفساء فتحرم عليهم القراءة ، نعم يجوز لهم
النظر وإمرازه على القلب ، وأما متنجس الفم فتكره له القراءة ، وقيل :
تحرم كس المصحف باليد النجسة ، وأما مس المصحف بغير حائل فيحرم
على الجنب ، والحائض والنفساء ، أما حملهم له في حقيقة ، أو كس من غير
ملازمة فجوزه الجمهور سلفاً وخلفاً وشذ بعض العلماء فأجاز مسه للجنب
والحائض ، وطعن في الأحاديث الواردة في ذلك بأنها لم يصح منها شيء
وقد رد عليه بعض الأئمة بأن أكثرها صحاح فمن ذلك ما رواه الدارقطني
بسنده عن النبي ﷺ « لا يمس القرآن إلا طاهر ، ومنها قصة فاطمة بنت
الخطاب مع أخيها عمر في طلبه منها الصحيفة التي فيها قرآن فأبت وقالت له
إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون . . . رواها الدارقطني وأصحاب
السير (١)

(٤) تسن القراءة في مكان نظيف ، وأفضله المسجد ، وكره قوم القراءة في الحمام والطريق ، قال النووي : ومذهبنا لا تكره فيها ، قال : وكرهها الشعبي في الحش (١) ، ويدت الرحا وهي تدور قال : وهو مقتضى مذهبنا .

ولعل مراد الشعبي بالكراهة ، الكراهة التحريمية ، وأحربها أن تكون في الحش محرمة .

(٥) يستحب لقارئ القرآن أن يجلس مستقبلاً القبلة ، متخشعاً ، متحلياً بالسكينة والوقار ، مطرقاً رأسه كما هو شأن الخاشع المتدلل بين يدي ربه .

كما يسن أن يستاك تعظيماً للقرآن الكريم وتطهيراً لفته لأنه وسيلة النطق به ، والمعبر الذي تخرج منه ، وقد روى ابن ماجه عن علي موقوفاً ، والزار بسند جيد عنه ، مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك » : قال السيوطي : ولو قطع القراءة ، وعاد من قرب فقتضى استحباب التعوذ ، إعادة السواك أيضاً .

(٦) يسن التعوذ قبل القراءة ، قال تعالى . « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، أى أردت قراءته ، وشذ البعض فذهب إلى أنه يتعوذ بعدها لظاهر الآية ، وذهب قوم إلى وجوبها لظاهر الأمر قال الإمام النووي : فلو مر على قوم سلم عليهم ، وعاد إلى القراءة ، فإن أعاد إلى التعوذ كان حسناً .

وصفته المختارة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكان جماعة من السلف يزيدون السميع للعليم ، وعن حمزة القارىء : أستعيذ ، ونستعيذ واستعذت ، واختاره صاحب الهداية من الحنفية لمطابقة لفظ القرآن .

(١) الحش : مكان قضاء الحاجة فلذلك نزه القرآن عن أن يقرأ فيه .

وعن حميد بن قيس : أعوذ بالله القادر من الشيطان الغادر ، وعن أبي السمال : أعوذ بالله القوى ، من الشيطان القوى ، وعن قوم أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، وعن آخرين : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لأنه هو السميع العليم ، وفيها ألفاظ أخر ... قال الحلواني في جامعه : ليس للاستعاذة حد يقهى إليه ، من شاء زاد ، ومن شاء نقص .

وفي النشر لابن الجزرى : المختار عند أئمة القراءة ، الجهر بها ، وقيل يسر مطلقا ، وقيل : فيما عدا الفاتحة ، قال : وقد أطلقوا اختيار الجهر بها ، وقيد أبو شامة بقيد لا بد منه ، وهو أن يكون بحضرة من يسمعه ، قال : لأن الجهر بالتعوذ إظهار شعار القراءة كالجهر بالتلبية ، وتكبيرات العيدين أقول : والشئ إذا صار شعارا من شعارات الإسلام ، فالأفضل إعلانه ومن فوائد الجهر أن السامع ينصت للقراءة من أولها لا يفوته منها شئ ، وإذا أخفى التعوذ لم يعلم السامع بها إلا بعد أن فاتته من المقروء شئ وهذا هو الفارق بين القراءة فى الصلاة ، وخارجها

واختلف المتأخرون فى المراد بإخفائها ، فالجمهور على أن المراد به الإسرار فلا بد من التلفظ ، وإسماع نفسه ، وقيل : ، السكتمان بأن يذكرها بقلبه بلا تلفظ .

وإذا قطع القراءة إعراضاً ، أو لسكلام أجنبى ، ولو برد السلام ، استأنفها فإن كان يتعلق بالقراءة فلا ، قال ابن الجزرى وهل هى سنة كفاية أو عين حتى لو قرأ جماعة جملة فهل يكتفى استمادة واحد منهم كالسمية على الأكل أولاً ؟ لم أر فيه نصا . والظاهر الثانى لأن المقصود اعتصام القارىء ، والتجاوزه إلى الله واعتصامه به من شر الشيطان فلا يكون تعوذ واحد كافياً عن آخر .

أقول إن ظاهر الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما أن التسمية على الأكل سنة عين ، وإنما ذهب إلى أنها سنة كفاية الإمام الشافعى قال : الامام النووى فى الأذكار .

« وينبغي أن يسمى كل واحد من الأكلين ، فلو سمي واحد منهم جزءاً عن الباقي نص عليه الشافعي - رضي الله عنه - وقد ذكرته عن جماعة في كتاب « الطبقات » ، في ترجمة الإمام الشافعي ، وهو شبهه برد السلام ، وتسميت العاطس (١) فإنه يجرى فيه قول أحد الجماعة (٢) .

والذي يظهر لي أن تشبيهه بالسلام ، والتسميت غير ظاهر ولا مسلم لأن المقصود يحصل بدعاء واحد ، أما التسمية ففائدتها تعود على المسمى لله ، فلا يكتفى بتسمية غيره عنه ، وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في الاستعاذة . فلا يكتفى فيها استعاذة غيره .

(٧) قراءة البسمة . على القارئ أن يحافظ على قراءة البسمة ، أول كل سورة غير براءة ؛ لأن أكثر العلماء على أنها آية فإذا أخل بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين فإن قرأ من أثناء سورة استحبه أيضاً ، نص عليه الشافعي فيما نقله العبادي ؛ قال القراء ويتأكد عند قراءة نحو « إليه برد علم الساعة » وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ... لما في ذكر ذلك بعد الاستعاذة من البشاعة ، وإيهام رجوع الضمير إلى الشيطان قال ابن الجزري . والابتداء بالآي وسط براءة قل من تعرض له ، وقد صرح بالبسمة فيه أبو الحسن السخاوي ، ورد عليه الجعبري .

(٨) هل تحتاج قراءة القرآن إلى نية ؟

لا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار إلا إذا نذر لها خارج الصلاة فلا بد من نية النذر أو الفرض ، ولو عين الزمان ، فلو تركها لم ينجز تحمله القمولى في الجواهر .

(١) إزالة الشهامة عنه بقوله . يرحمك الله .

(٢) الأذكار للنووي ص ١٠٢ ط دار الكتب .

(٩) ترتيل القرآن .

الترتيل تبين حروف القرآن عند القراءة ، والثاني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها ، وقد روى الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله تعالى . « ورتل القرآن ، قال ؛ بعضه في أثر بعض على تؤدة ، وعن قتادة بينه بيانا (١) .

ويسن الترتيل في قراءة القرآن لقول الله سبحانه . « ورتل القرآن ترتيلا ، (٢) وقوله تعالى . « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا (٣) ، وأي على تؤده وتمهل .

وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة أنها نعتت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم قراءة مفسرة حرفا حرفا ، وروى البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « كانت مدا ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، بمد الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم ،

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا قال له : إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة فقال ، هذا كهذا الشعر (٤) انا قد سمعنا القراءة ، وأني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم ثمانى عشرة سورة من المفصل ، وسورتين من آل حم (٥) .

(١) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٦٥ ط الحلبي

(٢) المزمّل ٤ (٣) الإسراء ١٠٦

(٤) الهذّ هو الاسراع المقرط بحيث يخفى كثير من الحروف أو لا تخرج من خارجها وهو المكروه أما الاسراع في القراءة من غير وصول إلى حد الهذّ فلا شيء فيه
(٥) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن -

باب الترتيل في القراءة ، والمراد بآل حم السور التي بدئت بحم ، أو المراد بآل حم نفسها كقوله ﷺ لأبي موسى : « لقد أوتيت زمزما من زمزماير آل داود ، أي داود نفسه .

وأخرج الأجرى في «حلمة القرآن» عن ابن مسعود لا تنثروه نثر الدقل (١) ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون م أحدكم آخر السورة . .

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق في الدرجات ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها .

قال في شرح المذهب : واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع ، قالوا : وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل ، قالوا . واستحباب الترتيل للتدبر ، لأنه أقرب إلى الإجلال ، والتوقير ، وأشد تأثيراً في القلب ، ولهذا يستحب للأعجمي الذي لا يفهم معناه .

وفي «النشر» اختلف هل الأفضل الترتيب ، وقلة القراءة : أو السرعة مع كثرتها؟

وأحسن بعض أئمتنا فقال : إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرا ، وثواب الكثرة أكثر عددا ، لأن بكل حرف عشر حسنات .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : والتحقيق أن لكل من الإسراع والترتيل جهة فضل ، بشرط أن يكون المسرع لا يتخل بشيء من الحروف ، والحركات ، والسكون والواجبات فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الآخر ، وأن يستويا ، فإن من رتل ، وتأمل ، كن تصدق بجمهرة واحدة مشتمة . ومن أسرع كن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة . وقد تكون قيمة الواحدة أكبر من قيمة الآخريات . وقد يكون بالعكس وفي البرهان للزركشي كمال الترتيل تفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه ، وأن لا يدغم حرف في حرف ، وقيل : هذا أقله وأكمله أن يقرأ على منازله ، فإن قرأ تهديداً لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيماً لفظ به لفظ التعظيم .

(١) الدقل - يفتح الدال والقاف - : أردأ التمر .

وأزيد فأقول: أو ترجيها . وترقيقا لفظ به لفظ الترجيم والترقيق . أو تعجبا
لفظ به لفظ التعجب . أو تديسا لفظ به لفظ التأسيس ، أو تويخا لفظ به
لفظ التويخ أو إنابة وتوبة لفظ به لفظ الإنابة والتوبة . أو تندما نطق به نطق المتندم
أو خموعا وتذلل لفظ به نطق الخاشع المتذلل . أو فرحا وسرورا لفظ به
لفظ الفرح المسرور وهكذا وبذلك يفسر المعاني بالجرس . ونغم الكلام .
(١٠) تدبر القرآن وتفهمه :

وتسن القراءة بالتدبر . والتفهم . فهو المقصود الأعظم . والمطلوب
الآثم ، وبه تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب . قال تعالى : « كتاب
أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكر أولو الألباب » (١) وقال :
« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٢) وصفة ذلك أن يشغل
قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به فيعرف معنى كل آية . ويتأمل الأوامر
والنواهي . ويمتدق قبول ذلك . فإن كان بما قصر عنه فيما مضى اعتذر
واستغفر . وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل . أو عذاب أشفق وتعوذ
أو تنزيه نزه وعظم . أو دعاء تضرع وطلب . أخرج مسلم عن حذيفة قال
« صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة . فافتتح البقرة فقرأها . ثم
النساء فقرأها . ثم آل عمران فقرأها . يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح
سبح . وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر بتعوذ تعوذ . »

وروى أبو داود . والنسائي . وغيرهما عن عوف بن مالك قال : رقت
مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقام . فقرأ سورة البقرة . لا يمر بآية
رحمة إلا وقف وسأل . ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، وأخرج
أبو داود . والترمذي حديث « من قرأ ، والتين ، والزيتون فانهى إلى
آخرها . فليقل : « بلى (٣) . وأنا على ذلك من الشاهدين . »

(١) ص/٢٩ (٢) محمد/٢٤

(٣) بلى حرف يجاب به النفي ، وهي تنفي النفي فيصير ما بعده مثبتا
فخصر الكلام بعد الإثبات « الله أحكم الحاكمين ، ثم يزيد الأمر توكيدا
بأنه على هذه القضية من الشاهدين

ومن قرأ ، لا أقسم بيوم القيامة ، فأنتهى إلى آخرها ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، فليقل . « بلى ، ومن قرأ « والمرسلات ، فبلغ « فبأى حديث بعده يؤمنون ، فليقل : آمنا بالله .

وأخرج أحمد ، وأبو داود عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى ، قال : « سبحان ربى الأعلى » .

وأخرج الترمذى ؛ والحاكم عن جابر قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقرأ عليهم سورة « الرحمن ، من أولها إلى آخرها فسكنوا ، فقال . « لقد قرأتها على الجن ، فسكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله . « فبأى آلاء ربكنا تكذبان ، قالوا . ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ، وأخرج أبو داود ، وغيره عن وائل بن حجر قال . « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « ولا الضالين ، فقال « آمين ، (١) يمد بها صوته ، وأخرجه الطبرانى بلفظ « قال . آمين ثلاث مرات ، وأخرجه البيهقى بلفظ « قال « رب اغفرلى آمين ، وأخرج أبو عبيد عن أبي ميسرة أن جبريل لقن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خاتمة البقرة آمين ، وأخرج عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم سورة البقرة قال : آمين ، وهى بالإجماع ليست من القرآن .

قال النووى ، ومن الآداب إذا قرأ نحو « وقالت اليهود عزير ابن الله ، (٢) « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، (٣) أن يخفص بها صوته كذا كان النخعى يفعل .

(١) آمين . اسم فعل أمر معناها استجب

(٢) التوبة / ٣٠

(٣) المائدة / ٦٤

أقول : وينبغي أن يراعى هذا الأدب في الآيات التي عرضت لرسول الله ﷺ مثل « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، ومثل : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

ولا بأس بتكرير الآية وتزديدها ، روى النسائي وغيره عن أبي ذر أن النبي ﷺ قام بآية ردها حتى أصبح ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، (١) .

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن ، والتباكى لمن لا يقدر عليه ، والحزن والخشوع قال تعالى « ويخرون للأذقان يكون ، ويزيدهم خشوعا » (٢) وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود - رضى الله عنه - القرآن على النبي ﷺ حتى بلغ قوله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشييد ، وجئنا بك على هؤلاء شييدا ، وفيه « فإذا عيناه تذرفان ، أى تجريان بالدموع ، قيل : إنما بكى رسول الله رحمة لأمته ، وشفقة عليهم لأنه علم أنه لا بد أنه يشهد عليهم بعملهم ، وعلمهم قد لا يكون مستقيا ، فقد يفضى إلى تعذيبهم ، وقيل : لأنه تمثل أهوال يوم القيامة ، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق ، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف ، وهو أمر يحق له البكاء وقيل : بكى فرحاً بهذه المنزلة العالية التي لم يعطها أحد من الأنبياء .

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن سعد ابن مالك مرفوعاً : إن هذا القرآن نزل بحزن ، وكآبة (٣) ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا ، فتابكوا .

وفيه من مرسل عيد الملك بن عمير أن رسول الله ﷺ قال : إني قارىء عليكم سورة . فمن بكى فله الجنة ، فإن لم تبكوا فتابكوا .

وفي مسند أبي يعلى حديث « اقرأوا القرآن بالحزن ، فإنه نزل بالحزن »

(١) المائدة رقم ١١٨ .

(٢) الإسراء رقم ١٠٩ .

(٣) يعنى نزل فى ظروف كانت مثار أحزان ، وآلام وشدائد .

وعند الطبراني ، أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحزن ، .

قال النووي في شرح المذهب ، وطريقه تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد ، والمواثيق والعهود ، ثم يفكر في تقصيره فيها ، فإن لم يحضره عند ذلك حزن ، وبكاء ، فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب وقد سبق إلى ذلك الغزالي ، والبكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين ، وشعار الصالحين .

وقد كان الصديق الأكبر - رضى الله عنه - بكاءً بالقرآن ، لا يملك عينيه عند قراءته كما في حديث الهجرة في صحيح البخارى .

(١١) تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها .

يسن تحسين الصوت بقراءة القرآن وتزيينها وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري . وكان حسن الصوت بالقرآن . وكان النبي ﷺ قد سمعه يقرأ القرآن . فأعجبه . فقال له : « لقد أوتيت من مآرأ من مزامير آل داود ، المراد داود نفسه ، لأنه لم ينقل أن أحدا من أولاد داود . ولا من أقاربه كان أعطى من حسن الصوت ما أعطى . والمراد بالمزمار الصوت الحسن . وأصله الآلة أطلق على الصوت الحسن للشبهه .

وروى ابن حبان وغيره : « زينوا القرآن بأصواتكم ، وفي لفظ عند الدارمي « حسنوا القرآن بأصواتكم . فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، وأخرج البزار وغيره حديث « حسن الصوت زينة القرآن ، وفيه أحاديث صحيحة كثيرة . فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمليط .

« القراءة بالألحان ، والتطريب ، والترنم ، والنغم ، وإليك الحكم في هذا قال الإمام النووي : وأما القراءة بالألحان فنص الشافعى في المختصر أنه لا بأس بها . وعن رواية الربيع الجيزى أنها مكروهة . فقال أصحابه : ليس الأمر على اختلاف قولين بل على اختلاف حالين . فإن لم يخرج

بالألحان على المنهج القويم جاز ، وإلا حرم . وحكى الماوردي عن
الصافعي أن القراءة بالألحان إذا انتهت إلى إخراج بعض الألفاظ عن
مخارجها حرم . وكذا حكى ابن حمدان الحنبلي في «الرعاية» ، وقال الغزالي
والبندنجي . وصاحب الذخيرة من الحنفية : إن لم يفرط في التمتع الذي
يشوش النظم لاستحب وإلا فلا .

وأغرب الرافعي لحكى عن أمالي الرخسي أنه لا يضر التمتع مطلقا .
وحكاه ابن حمدان رواية عن الحنابلة . وهو شنود لا يعرج عليه .
والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب ، فإن لم
يكن حسنا فليحسنه ما استطاع كما قال ابن أبي مليكة أحد رواة الحديث ،
وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح ؛ ومن جملة تحسينه أن
يراعى فيه قوازين النغم فإن حسن الصوت يزداد حسنا بذلك وإن خرج عنها
أثر ذلك في حسنه ، وغير الحسن ربما أنجبر بمراعاتها ، ما لم يخرج عن شرط
الاداء المعتبر عند أهل القراءات فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح
الاداء وامل هذا مستند من كره القراءة بالانغام لان الغالب على من راعى
الانغام أن لا يراعى الاداء ؛ فإن وجد من يراعيهما معا فلا شك في أنه أرجح
من غيره ؛ لانه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ، ويحتمل الممنوع من
حرمة الاداء . (١)

وهو كلام من التحقيق والتدقيق بمكان وقد فصل القول غايته التفصيل
وأحسنه وفيه الكفاية لمن يريد معرفة الحكم الشرعي في هذه المسألة التي
كثر فيها الكلام وقد ورد في هذا المعنى حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه
عليه وسلم . قال « أقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها (٢) » ولما كرم ولحون
أهل الكتابين (٣) وأهل الفسق ، فإنه سيجي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيح

(١) فتح الباري ١٠ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ (٢) أى طريقتهم في الترنيم والاداء

(٣) يعنى كما يفعل اليهود والنصارى في قراءة كتبهم فإنها إلى الغناء والترنيم =

الغناء والرهبانية ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم « وقلوب من يعجبهم
ذاتهم ، أخرجه الطبراني والبيهقي ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت
والاصغاء إليها ، وذلك لحديث أبي موسى الذي ذكرناه آنفاً في رواية
مسلم في صحيحه وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي موسى ولورأيتني
وأنا أسمع قراءة تلك البارحة ، فقال أبو موسى : أما إنى لو علمت بمكانك لجرته
لك تحميراً ، أى لزينة ، وحسنه تحسینا .

ولابأس باجتماع الجماعة في القراءة ولا يادارتها ، وهى أن يقرأ بعض الجماعة
قطعة ثم البعض قطعة بعدها ، ويستحب قراءة التفخيم لحديث الحاكم ونزل
القرآن بالتفخيم . قال الحلبي ومضاه أن يقرأ على قراءة الرجال ، ولا يخضع
الصوت فيه ككلام النساء

(١٢) الجهر بقراءة القرآن ، والإسرار أيهما أفضل ؟

وردت أحاديث تقتضى استحباب رفع الصوت بالقراءة ، وأحاديث
تقتضى الإسرار وخفض الصوت ، فمن الاول حديث الصحيحين قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « ما أذن الله (١) لشيء ما أذن لشيء حسن الصوت
يتغنى بالقرآن يجهر به ، وقوله يجهر به تفسيره من أبي سلمة بن أبي عبد الرحمن
ليغنى ادرج في الحديث وفي رواية ابن عينية تفسيره يستغنى به (٢) وقد

= أقرب منها إلى تحسين الصوت وحسن الاداء وإلى التعمية والخفاء أقرب منها
إلى الظهور والوضوح .

(١) أذن بفتح الهمزة وكسر الذال في الماضي وكذا في المضارع مشترك
بين الاباحة والاستماع لأن مصدر الاول الإذن بكسرة الهمزة ، وسكون الذال
ومصدر الثانى الأذن بفتح الهمزة والذال والمراد بالأذن على الثانى فى حق
الله تعالى اكرام القارىء وإزالة آوابه والرضاعن فعله لأن ذلك ثمرة الاصغاء
والاستماع .

(٢) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن باب من لم يتغن بالقرآن

اختلفت العلماء في معنى يتغنى على اقوال : احدها تحسين الصوت بقراءته
والجهر به ثانيها الاستغناء ثالثها : التحزن رابعها الشاغل ، وإنما يتم
الاستدلال به على المعنى الاول (١) وهو يشهد ايضا لتحسين الصوت بالقرآن

ومن الثاني ، حديث أبي داود والترمذى والنسائى « الجاهر بالقرآن
كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة ، قال النووى : واجمع بينهما
ان الاخفاء أفضل حيث خاف الرياء ، أو تأذى مصلون ، أو نيام بجهره ،
والجهر أفضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى
السامعين ، ولأن يوظف قلوب القارىء ويجمع همه إلى الفسك ويصرف سمعه
اليه ، ويطرده النوم ويزيد في النشاط ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند
صحيح عن أبي سعيد قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في
المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف الستر وقال . ألا أن كلكم منا
ربه فلا يؤذنين بعضكم بعضا . ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة » وقال بعضهم
يستحب الجهر ببعض القراءة ، والاسرار . ببعض الا ان المسر قد يمل فيأنس
بالجهر ، والجاهر قد يكل فيستريح بالاسرار .

(١٣) أيهما أفضل القراءة من ^{المصحف} المصحف أم من الحفظ ؟

قال السيوطي القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، لأن
النظر فيه عبادة ، وقال النووى : هكذا نال أصحابنا ، والسلف أيضاً ،
ولم أر فيه خلافاً ثم قال : ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار
القراءة فيه لمن استوى خشوعه ، وتدبره في حالتى القراءة فيه ، ومن
الحفظ ، ويختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد على

خشوعه، وتدبره لو قرأ من المصحف - لكان هذا قولاً حسناً قال السيوطي:
ومن أدلة القراءة في المصحف ما أخرجه الطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان»،
« من حديث أوس الثقفي مرفوعاً « قراءة الرجل في غير المصحف ألف
درجة، وقراءته في المصحف (١) تضاعف ألفي درجة » .

وأخرج أبو عبيد بسند صحيح « فضل قراءة القرآن نظراً على ما يقرؤه
ظاهراً، كفضل الفريضة على النافلة »، وأخرج البيهقي عن ابن مسعود
مرفوعاً « من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف »، وقال .
« إنه منكر، أقول .. والمنكر لا يحتاج به وأخرج بسند حسن عنه موقوفاً
« أدبوا النظر في المصحف » .

وحكى الزركشي في البرهان ما يحثه النووي قولاً : وحكى معه قولاً ثالثاً
أن من الحفظ أفضل مطلقاً . وأن ابن عبد السلام اختاره لأن فيه من
التدبر ما لا يحصل بالقراءة من المصحف، وأنا أميل إلى هذا القول، وأرجحه
لما فيه أيضاً من تثبيت المحفوظ والتأكد منه ولا كذلك لو قرأ
من المصحف .

(١٤) قال في التبيان . إذا ارتج على القارئ فلم يدر ما بعد الموضع
الذي انتهى إليه . فسأل عنه غيره فينبغي له أن يتأدب بما جاء عن ابن
مسعود والنخعي، وبشير بن أبي مسعود قالوا . إذا سأل أحدكم أخاه
عن آية فليقرأ ما قبلها ثم يسكت ولا يقول . كيف كذا، وكذا فإنه

(١) لعل المراد بالمصحف أى قرأه من المكتوب لأن تسميه ما فيه
القرآن بالمصحف إنما كان بعد وفاة النبي ﷺ وإنما كان القرآن مكتوباً في
المهد النبوي مفرقاً لما أسلفنا ولم يبين لنا السيوطي درجة هذا الحديث من
الصحة أو الحسن أو الضعف .

يلبس عليه وقال ابن مجاهد . إذا شك القارىء في حرف هل هو بالتاء ، أو بالياء فليقرأه بالياء ، فإن القرآن مذكر ، وإن شك في حرف هل هو مهموز ، أو غير مهموز فليترك الهمزة (١) وإن شك في حرف هل يكون موصولاً ، أو مقطوعاً فليقرأ بالوصل (٢) وإن شك في حرف هل هو ممدود ، أو مقصود ، فليقرأ بالقصر وإن شك في حرف هل هو مفتوح أو مكسور ، فليقرأ بالفتح لأن الأول غير لحن في موضوع والثاني لحن في بعض المواضع .

قال السيوطى ، أخرج عبد الرازق عن ابن مسعود قال : «إذا اختلفتم في ياء وتاء فاجملوها ياء ، ذكروا القرآن ، فهم من ثعلب أن ما حمل تذكيره وتأنيته كان تذكيره أجود ، ورد بأنه يمتنع إرادة تزكير غير الحقيقي التأنيث لسكزرة ما في القرآن منه بالتأنيث نحو النار وعدها الله ، والتفت الساق بالساق ، وقالت لهم رسالهم ، وإذا امتنع إرادة غير الحقيقي ، فالحقيق أولى قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما حمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير كقوله تعالى « والنخل باسقات » أعجاز نخل خاوية ، فأنت من جواز التذكير قال تعالى « أعجاز نخل منقعر » من الشجر الأخضر ، قالوا : فليس المراد ما فهم بل المراد يذكروا بالموعظة والدعاء ، كما قال تعالى . « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

إلا أنه حذف الجار والمقصود ذكروا الناس بالقرآن أى ابعثوهم على حفظه كيلا يفسدوا قال السيوطى اول الأثر يمنع هذا الحل .

وقال الواحدى الامر ماذهب اليه ثعلب والمراد أنه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتج في التذكير إلى مخالفة المصحف ذكر نحو « ولا تقبل

(١) لان الهمزة قد تخفف

(٢) لان الاصل الوصل .

منها شفاعة ، قال : ويدل على إرادة هذا أن أصحاب عبد الله بن مسعود من قراء الكوفة كحمزة والكسائي ، ذهبوا إلى هذا ، فقرأوا ما كان من هذا القبيل بالذكير نحو ، يوم يشهد عليهم ألسنتهم ، وهذا في غير الحقيقي .

أقول : واست من هذا الذي ذكره على ثلج ، ولا اطمئنان ، فالنص القرآن لا يجوز فيه الاجتهاد ، ولا إبدال حرف منه بآخر . ولا كلمة بأخرى ولا يجوز التصرف في حروفه إلا في حدود ما تلتق عن النبي ﷺ . وتلقاه النبي عن رب العزة عن طريق جبريل . ومن شك في حرف أهو بالياء أم بالناء ، وأهو بالتذكير أم بالتأنيث ؟ فليمسك عن قراءته . وليرجع إلى المصحف . أو إلى حافظ ليتأكد من النص القرآن ، نعم : ما فيه قرءاتان أو أكثر فله أن يقرأه بإحدهما . ولعل أثر بن مسعود - رضى الله عنه - إن صح محمول على ما فيه أكثر من قراءة من هذا القبيل فيؤثر قراءة التذكير على التأنيث . لأنه يقول ذلك ما دام يجوز لغة . لأن كثيرا مما جاز لغة لم يجز قراءة وإنما القراءات في حدود المأثور . المنقول بالتواتر . وما من قراءة إلا ولها وجه في اللغة العربية .

(١٥) هل يجوز قطع القراءة لمكاملة أحد ؟

يكره قطع القراءة لمكاملة أحد . وعلل ذلك الحلبي بأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ، وأيده البيهقي بما روى في الصحيح : « كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ، ويكره أيضا الضحك والعبث . والنظر إلى ما يليه فإن اضطر إلى مكاملة أحد . أو إلى أى عمل فليختم فإذا فرغ تعوذ وبدأ من حيث انتهى .

(١٦) لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية^(١) مطلقا سواء أحسن العربية أم لا . في الصلاة أم خارجها . وعن أبي حنيفة أنه يجوز مطلقا . وعن أبي

(١) العجمية كل ما عدا اللغة العربية التي نزل بها القرآن .

يوسف ومحمد لمن لا يحسن العربية لكن في شارح البزدوى أن أبا حنيفة يرجع عن ذلك . أقول . نعم . ما صنع الإمام أبو حنيفة حينما رجع عن ذلك والرجوع إلى الحق فضيلة وهو اللائق بالإمام الجلليل

ووجه المنع وعدم الجواز أنه يذهب إعجازه المقصود منه والذي هو من أخص خصائص القرآن ، والله سبحانه الذي وحد المسلمين تحت راية القرآن يجب أن تتوحد ألسنتهم بلغة القرآن ، اللغة العربية الشريفة ، ولو جوزنا ذلك لغات هذا الغرض الشريف .

وإلى المنع ذهب الإمام القفال من الشافعية ، وكان يقول إن القراءة بالفارسية لا تتصور ؛ فقليل له : فإذا لا يقدر أحد أن يفسر القرآن !! .

فقال : ليس كذلك ، لأن المفسر يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ، ويعجز عن البعض ، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله تعالى لأن الترجمة إبدال لفظه بلفظ تقوم مقامها وذلك غير ممكن ، بخلاف التفسير .

أقول . وما ذكره القفال هو الحق والذي يجب أن يفق به ، فالترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ، أما الترجمة التفسيرية . أو إن شئت الدقة فقل ترجمة تفسيره فهي ممكنة ، وجائزة .

(١٧) لا تجوز القراءة بالشاذ من القراءات . وهو ما لم يصح سنده وذلك مثل القراءة الشاذة « ملك يوم الدين ، على أن ملك فعل ماض ؛ ونصب يوم . وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك لكن ذكر موهوب الجزرى جوازها في غير الصلاة قياساً على جواز رواية الحديث بالمعنى .

أقول . وما قاله موهوب غير مسلم . والقياس على الرواية بالمعنى قياس مع الفاروق ، فإن اللفظ في القرآن ركن من أركانه ، ولا يتحقق كونه قرآناً إلا به ولا كذلك الأحاديث فإن لفظها ليس معجزاً والمعول عليه فيها المعنى دون اللفظ . وإن كانت الرواية باللفظ أولى وأفضل عند الجمهور لمن يتيقن منه وحفظه

(١٨) الأولى والأفضل أن يقرأ القارىء على ترتيب المصحف لأن

لان هذا الترتيب ارتضاه الصحابة والسلف الصالح - رضوان الله عليهم
قال في شرح المذهب . لان ترتيبه لحكمة فلا يتركها إلا فيم ورد فيه
الشرع كصلاة صبح يوم الجمعة بالم تنزيل يعنى السجدة وهل أنى ، يعنى
سورة الانسان ، ونظائره ، فلو فرق السور ، أو عكسها جاز ، ولكن قد
ترك الأفضل .

وقال أيضاً . أما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فتنفق على منعه
لانه يذهب بعض أنواع الإعجاز - يعنى التناسب البلاغى بين الآيات
ويزيل حكمة الترتيب

قال السيوطى ؛ وفيه أثر ، أخرج الطبرانى بسند جيد عن ابن مسعود
أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوسا . قال . ذاك منكوس القلب .

وأما خلط سورة بسورة فعدا الحلبي تركه من الأداب لما أخرجه أبو
عبیده عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بلبال .
وعو يقرأ من هذه السورة . ومن هذه السورة فقال يا بلبال مررت بك .
وأنت تقرأ من هذه السورة . ومن هذه السورة ، قال . خلطت الطيب
بالطيب . فقال .

« أقرأ السورة على وجهها ، أو قال على نحوها ، مرسلاً صحيح . وهو
عند أبي داود موصول عن أبي هريرة بدون آخره . وأخرجه أبو عبيدة
من وجه آخر عن عمر بن عفرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلبال :
« إذا قرأت السورة فأنفذاها ، وقال ، حدثنا معاذ عن ابن عوف قال سألت
ابن سيرين عن الرجل يقرأ من السورة آيتين ثم يدعها ويأخذ في غيرها ؟
قال ليق أحذكم أن يأثم إنما كبيرا وهو لا يشعر . وأخرج عن ابن مسعود
قال . إذا ابتدأت في سورة فأرادت أن تتحول منها إلى غيرها فتحول إلى

وقل هو الله أحد ، فإذا ابتدأت فيها فلا تتحول حتى تختمها . وأخرج عن ابن أبي الهزبل قال . كانوا يكرهون أن يقرأوا بعض الآية ويدعوا بعضها قال أبو عبيد : الأمر عندنا على قراءة الآيات المختلفة كما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بلال ، وكما أنكره ابن سيرين على من سأله

وأما حديث عبد الله بن مسعود فوجهه عندي أن يبتدىء الرجل في السورة يريد أتمامها ، ثم يبدو له في أخرى ، فأما من ابتدأ القراءة وهو يريد التنقل من آية إلى آية ، وترك التأليف لآي القرآن فانما يفعله من لا علم له لأن الله لو شاء لأنزله على ذلك

وقد نقل القاضي أبو بكر الإجماع على عدم جواز قراءة آية آية من كل سورة .

قال البيهقي ، وأحسن ما يحتاج به أن يقال إن هذا التأليف لكتاب الله مأخوذ من جهة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذه عن جبريل فالأولى للقارىء أن يقرأه على التأليف المنقول ، وقد قال ابن سيرين « تأليف الله خير من تأليفكم »

أقول والتنقل من آية إلى أخرى ومن سورة إلى أخرى من غير داع يفعله بعض القراء اليوم وبعضهم قد يترك آية نحويف أو زجر وقرأ ما بعدها ، وبعضهم يترك آية السجدة ويستمر في القراءة والبعض حيث لا ينبغي البدء أو يقف حيث لا يتم الكلام ومن ذلك أن بعضهم إذا قرأ سورة « مريم » يبدأ بقوله تعالى « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » ، ويدع « كيعص » ، ولا أدري لم هذا ؟

ولعل فيما ذكرناه عن السلف وأهل العلم ما يكون فيه مدكر لهم .
ووازع بزعمهم .

(١٩) قال الحلیمی : یسن استیفاء کل حرف - أی قراءة - أثبتته قاری، لیكون قد أتى علی جمیع ما هو قرآن .

وقال ابن الصلاح والنووی . إذا ابتداء بقراءة أحد من القراء فینبغی أن لا يزال علی تلك القراءة مادام الكلام مرتبطاً ، فإذا انقضی ارتباطه فله أن یقرأ بقراءة أخرى والأولی دوامه علی الأولى فی هذا المجلس .

وقال غیرها : بالمنع مطلقاً یعنی سواء أ كان الكلام مرتبطاً ببعضه ببعض فی المعنی أم لا ، قال ابن الجزری : والصواب أن یقال إن كانت إحدى القراءتین . منع ذلك منع تحريم من یقرأ ، فتلقی آدم من ربه كلمات . برفعهما أو نصبهما أخذ رفع آدم من قراءة غیر ابن كثير ، وأخذ رفع كلمات من قراءته (١) ، ونحو ذلك مما لا یجوز فی العربية واللغة .

ومالم یکن كذلك فرق فیہ بین مقام الروایة ، وغیرها ، فإن كان علی سبیل الروایة حرم أيضاً لأنه کذب فی الروایة ، وتخلیط : وإن كان علی سبیل التلاوة جاز .

أقول . ولعل فی هذا زاجراً ، وواعظاً لبعض القراء الذین یدهبون جمال القرآن بذكر القراءات فی اللفظة الواحدة من غیر فصل بین قراءة وأخرى ، ویريدون إظهار المهارة فی القراءات ، وما هو علم الله - من المهارة فی شيء ، وإنما هو إغراب ؛ وإشكال علی السامعین ، وعدم مراعاة لما یلیق بالقرآن ، والتأدب فی قراءته .

(٢٠) یسن الاستماع لقراءة القرآن وترك الكلام والحديث مع الغير واللفظ ، عند القراءة والأصل فی ذلك قوله تعالی ، وإذا قرىء القرآن

(١) وأما نصبهما فأخذ نصب آدم من قراءة ابن كثير . ونصب كلمات =

فاستمعوا له ، وأنصتوا لعلكم ترحمون ، (١) .

وظاهر الأمر للوجوب وإلى هذا ذهب بعض السلف والعلماء ، والجمهور على أنه سنة وليس بواجب في غير الصلاة . وذلك لأن الآية نزلت في استماع المأموم عند قراءة الإمام منهم من عمم ذلك في الجهرية . والسرية ومنهم من فرق بين السرية والجهرية فأوجب القراءة في الأولى دون الثانية ومنهم من لم يفرق بينهما وأوجب القراءة فيهما والمراد بالاستماع التأمل والتفكير فيه . ولما كان الاستماع قد يكون مع السكوت . وقد يكون مع النطق بكلام آخر لا يحول بين المتكلم وبين فهم ما يسمع عقب الله سبحانه ذلك بالأمر بالإنصات وهو عدم الكلام .

وكذلك الإنصات قد يكون مع الاستماع أى التدبر فيما يسمع والتفكير فيه . وقد يكون مع عدم الإستماع كان يكون مفكراً في أمر آخر فن ثم جمع الله سبحانه بينهما لأن المراد بالإنصات . مع التدبر والتفكير . فلا يعنى أحدهما عن الآخر ؛ وقيل المراد بالاستماع الاجابة والعمل ، فعلى سماع القرآن أن ينصت ؛ ثم يكون العلم والعمل .

ومهما يكن من شئ . فالإصغاء والاستماع عند قراءة القرآن من الآداب التي ينبغي مراعاتها على كل مسلم تجاه القرآن الذي هو كلام .

وعسى أن يكون في هذا وازع يزع هؤلاء الذين يرفعون أصواتهم بالفاظ الاستحسان عند سماع القرآن كأنما يستمعون إلى مغن أو مغنية ، والله يعلم أنهم لا يعون شيئاً مما يسمعون ، وما يزيد الطين بلة أنهم يرفعون أصواتهم المنكرة في المساجد التي هي بيوت الله ؛ فلا يراعون لبيوت الله حرمة ، كما لا يراعون لكلامه حرمة .

= من قراءة غيره . وهو تلفيق لا يليق . ولا يمكن توجيه هذا التلفيق

لغة ونحواً أبداً (١) الأعراف ٢٥٤ .

(٢١) السجود عند قراءة آية سجدة .

يسن السجود عند قراءة آية من آيات السجدة في القرآن الكريم .
وإلى هذا ذهب الجمهور من العلماء على اختلاف بينهم في أعداد هذه
الآيات التي يسجد عندها وذهب الامام أبو حنيفة إلى وجوب السجود
للتلاوة والواجب عنده فوق السنة ، ودون الفرض على ما هو اصطلاحه
في هذا .

وآيات السجدة ذكرت في خمسة عشر موضعاً وهي (١) في الأعراف
(٣) والرعد (٣) والنحل (٤) والاسراء (٥) ومريم (٦، ٧) وفي الحج سجدة (٨)
(٨) والفرقان (٩) والنمل (١٠) وألم تنزيل (١١) وص (١٢) وحرم فصات
(١٣) والنجم (١٤) و إذا السماء انشقت ، (١٥) و اقرأ باسم ربك ،
وقد اختلفت أقوال العلماء في مواضع السجود من هذه المواضع

فذهب الامام أحمد وآخرون إلى السجود في هذه المواضع الخمسة عشر
وذهب الامام أبو حنيفة وآخرون إلى السجود في أربعة عشر موضعاً فعدها
كلها إلا سجدة الحج الثانية ؛ واعتبر سجدة ص من عزائم السجود .

وذهب إلى الامام الشافعي وطائفة إلى السجود في أربعة عشر موضعاً
أيضاً غير أنه عد آيتي الحج وترك آية (ص) وقالوا أنها سجدة شكر وليس
من عزائم السجود

وذهب الإمام مالك وآخرون إلى السجود في أحد عشر موضعاً فأسقط
سجدة المفصل - النجم ، والانشقاق ، وقرأ - وسجدة (ص) ومواضع
السجدة معروفة ومشار إليها في معظم المصاحف إن لم يكن كلها واختلفوا
في موضع سجدة (حم فصات) فقال مالك وطائفة من السلف هي عقب
قوله تعالى : **« إن كنتم إياه تعبدون ، وقال أبو حنيفة والشافعي رحمهما
الله والجمهور إلى أنها عقب قوله تعالى : « ولا يسئرون ، وسجدة التلاوة**

واجباً كان أم سنة - على القارئ ، والمستمع له ويستحب أيضاً للسامع الذى لا يسمع لكن لا يتأكد فى حقه تأكده فى حق المستمع المصغى (١)

(٢٢) قال الإمام النووى :

د الأوقات المختارة للقراءة أفضلها ما كان فى الصلاة ، ثم الليل ، ثم نصفه الأخير ، وهى بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأفضل النهار بعد الصبح ولا تنكره فى شئ من الأوقات لمعنى فيه ، وأما ما رواه ابن أبى داود عن معاذ بن رفاعة عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر وقالوا : هو دراسة يهود فغير مقبول ، ولا أصل له ، ونختار من الأيام يوم عرفة ، ثم الجمعة ، الاثنين ، والخميس ، ومن الأعياد العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة ، ومن الشهور رمضان ، ونختار لابتدائه ليلة الجمعة ، ونختمه ليلة الخميس ، فقد روى ابن أبى داود عن عثمان بن عوف أنه كان يفعل ذلك ، والأفضل الختم أول النهاو ، أو أول الليل لما رواه الدارمى بسند حسن عن سعد بن أبى وقاص قال : « إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وإن وفق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي قال فى الإحياء : ويكون الختم أول النهار فى ركعتى الفجر وأول الليل فى ركعتى سنة المغرب ، وعن ابن المبارك يستحب الختم فى الشتاء أول الليل ، وفى الصيف أول النهار ، وهى آراء على سبيل الاستحباب لأعلى سبيل الإلزام ، ولا أدرى ما وجه تفرقة ابن المبارك بين الشتاء والصيف ويسن صوم يوم الختم ، أخرجه ابن أبى داود عن جماعة من التابعين ، ويستحب أن يحضر أهله وأصدقائه ؛ أخرج الطبرانى عن أنس . أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ، ودعا ، وأخرج ابن أبى داود عن الحكم بن عتيبة

قال : أرسل إلى مجاهد ، وعنده ابن أبي أمامة وقالوا : إنا أرسلنا إليك ،
لأننا أردنا أن نختم القرآن ، ويقول : عنده تنزل الرحمة

(٢٣) التكبير عند قراءة السور القصار من القرآن

يستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن ، وهي قراءة المسكين ،
والدليل على هذا ما أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وابن خزيمة من
طريق ابن أبي بزة قال : سمعت عكرمة بن سليمان قال : قرأت على إسماعيل
ابن عبد الله المسكي فلما بلغت الضحى قال أكبر حتى تختم ، فإني قرأت على
عبد الله بن كثير فأمرني بذلك ، وقال . قرأت على مجاهد فأمرني بذلك ،
وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبر ابن عباس أنه
قرأ على أبي بن كعب ، فأمره بذلك ، كذا أخرجه موقفا ، ثم أخرجه
البيهقي من وجه آخر عن ابن أبي بزة مرفوعا ، وأخرجه من هذا الوجه -
أضنى المرفوع - الحاكم في مستدركه ، وصححه ، وله طرق كثيرة عن البزى
وعن موسى بن هارون قال . قال لي البزى قال لي محمد بن إدريس
الشافعي . ان تركت التكبير فقدت سنة من سنن نبيك ، قال الحافظ حماد
الدين بن كثير . وهذا يقتضى تصحيحه للحديث

وقد اختلفت وجهة العلماء في السر في هذا التكبير ، فروى أبو العلاء
الهمداني عن البزى ، أن الأصل في ذلك أن النبي ﷺ انقطع عنه الوحي
فقال المشركون ، فلا محمد ربه ، فنزلت سورة الضحى ، فكبر النبي ﷺ
قال ابن كثير . ولم يرد ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف

وقال الحلبي . نكتة التكبير التشبيه للقراءة بصوم رمضان ، إذا
أكمل عدته يكبر ، فكذا هنا يكبر إذا أكل عدة السورة ، قال . وصفته
أن يقف بعد كل سورة وقفة قصيرة ، ويقول . « الله أكبر » ، وكذا قال سليم
الرازي من الشافعية في تفسيره . يكبر بين كل سورتين تكبيرة ، ولا يصل

آخر السورة بالتكبير بل يفصل بينها بسكتة ، قال : ومن لا يكبر من القراء
حجتهم أن في ذلك ذريعة إلى الزيادة في القرآن ، بأن يداوم عليه
فيتوهم أنه منه

وكذلك اختلفوا في ابتدائه ، أهو من أول الضحى ، أم من آخرها وفي
انتهائه . أهو أول سورة الناس أم آخرها ، وفي وصله بأولها ، أو آخرها
وتعلمه والخلاف في الكل مبني على أصل وهو أهو لأول السورة أم لآخرها
وفي لفظه . فقيل . والله أكبر ، وقيل . لا إله إلا الله ، والله أكبر ،
وسواء في التكبير في الصلاة ، وخارجها ، صرح به السخاوي وأبو شامة

(٢٤) يسن الدعاء عقب الختم ، وذلك لحديث الطبراني ، وغيره عن
العرباض بن سارية مرفوعا «من ختم القرآن فله دعوة مستجابة» وفي شعب
الإيمان ، من حديث أنس مرفوعا إلى النبي ﷺ «من قرأ القرآن وحمد الرب
وصلى على النبي ﷺ ، واستغفر ربه ، فقد طلب الخير مكانه ،

(٢٥) يسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث
الترمذي وغيره مرفوعا «أجب الأعمال إلى الله الحال ، المرئجل الذي يضرب
من أول القرآن إلى آخره ، كلما أحل ارتحل

وأخرج الدارمي بسند حسن عن ابن عباس عن أبي بن كعب «أن
النبي ﷺ كان إذا قرأ «قل أعوذ برب الناس ، افتتح من الحمد ، ثم قرأ
من البقرة إلى وأولئك هم المفاجئون ، ثم دعا بدعاء الختمة ، ثم قام
وقد جرى عمل الناس أنهم إذا وصلوا إلى سورة الإخلاص كرروها ثلاثا
وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه منع من تكريرها عند الختم .

أقول ولعل وجهة نظر الإمام أن لا يظن ظان أنها نزلت هكذا مكررة
وقال بعضهم : الحكمة فيه ماورد أنها تعدل تلك القرآن (١) رواه البخاري

(١) قيل في تعليل كونها تعدل تلك القرآن أن القرآن عقائد وأحكام ؛
ومواعظ وأخبار ورأس العقائد مايتعلق بالله وتوحيده . وصفاته وقد =

فيحصل بذلك ختمة فإن قيل كان ينبغي أن تقرأ أربعا ليحصل له ختمتان قلنا المقصود أن يكون على يقين من ختمة إما التي قرأها . وإما التي حصل عل ثوابها بتكرار قال السيوطي . وحاصل ذلك يرجع إلى جبر ما لعله حصل في القراءة من خلل وكما قاس الحلبي التكبير عند الختم على التكبير عند إكمال رمضان فينبغي أن يقاس تكرير سورة الإخلاص على اتباع رمضان بست من شوال :

(٢٦) حكم التكسب بالقرآن .

يكره إتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها أي بقراءته أن لا يكون له عمل غيره أو بالتسول به كما يفعل بعض الناس والدليل على هذا ما أخرجه الأجرى من حديث عمران بن الحصين مرفوعا « من قرأ القرآن ، فليسأل الله به فإنه سيأتي قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به ، وقد أخرج أبو عبيد ، في فضائل القرآن ، عن أبي سعيد وصححه الحاكم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تعلموا القرآن . وأسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا ، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر ، رجل يباهى به ورجل يستأكل به (١) ورجل يقرأه الله ، وأخرج أحمد وأبو يعلى من حديث عبد الرحمن ابن شبل رفته أقرؤا القرآن ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به الحديث وسنده قوى كما قال الحافظ وأخرج أبو عبيد عن عبد الله ابن مسعود ، سيحى زمان يسأل فيه بالقرآن فإذا سألوكم فلا تعطوهم (٢) وروى البخارى في تاريخه الكبير بسند صالح

= اشتملت السورة على هذا ، وقيل معنى ذلك أن ثواب قراءتها يحصل للقارىء مثل ثواب من قرأ ثلث القرآن ، وقيل ثواب الثلث من غير تضعيف .

(١) أى يطلب الأكل والمعيشة بقراءته .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٧٨ .

حديث من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع منه لعن بكل حرف عشر لعنات ،
وذلك لأنه يريد أن يصيب به دنيا من مال أو جاه أو زلي .

ومن ثم نرى أن قراءة القرآن بأجر كما يفعل بعض القارئيين اليوم ،
أو للتسول به حرام ، أما أخذ الأجر على تحفيظ القرآن وتعليمه للناس أو بيان
ما فيه من عقاب وأحكام وحكم فهذا لا شيء . فيه ، بل فاعله ماجور وذو منزلة عند
الله ، وإن كان من لا يأخذ عليه أجرا أعظم أجرا ، وأعلى منزلة عند الله ، وقد روى
الإمام البخارى فى صحيحه عن عثمان - رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال :
خيركم من تعلم القرآن وعلمه (١) وراه أيضا أصحاب السنن الأربعة .

وقد كان بعض السلف يكرهون أخذ الأجرة على إقراء القرآن ، وتجويده
وتعليم العلم ولكن جمهور العلماء على جواز أخذ الأجرة على تعليم العلم والقراءة
وسائر الوظائف الدينية كالإمامة والخطابة والوعظ . والتذكير لأنه لو لم
يعطوا أجراً لتعطلت هذه الوظائف ، ولما وجد من يقوم بها فيدرس العلم
ويندر - إن لم يندم - العلماء ، وحفظ القرآن .

(٢٧) يكره أن يقول نسبت أية كذا ، بل يقول أنسيتها ، لأن الأولى
تفيد التخصيص فى حق القرآن ، بخلاف الثانية فإنها لا تشعر بذلك والأصل
فى ذلك ما رواه الشيخان فى صحيحهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال

(١) أى خير المعلمين من قام بتعليم القرآن وتعليمه لغيره ؛ أو المراد تعلمه
والفقه فيه كما كان الشأن فى الصدر الأول للإسلام فإن لم يكن متفقاً
فيه فهو دون الأول ويكون خيره خيرا منه ، أو أن من مقدرة فى الحديث
أى من خيركم ، ولا بد فى كل هؤلاء من مراعاة الإخلاص الذى هو أساس
الخيرية .

النبي صلى الله عليه وسلم « بنس ما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت (١) بل نسي »، أى بضم النون وتشديد السين المكسورة مبيناً للمجهول وهو الذى وقع فى جميع الروايات فى البخارى ، وكذا فى اكثر الروايات فى غيره ؛ ويؤيده ما وقع فى رواية ابى عبيد فى الغريب بعد قوله « كيت وكيت ليس هو نسي ولكنه نسى الأول بفتح النون ، وتخفيف السين ، والثانى بضم النون وتثقيب السين ، هكذا قال الحافظ فى الفتح ، وذكر الفرطى أنه رواه بعض رواة مسلم مخففاً وقال رواية التثقيب معناه انه عوقب بوقوع النسيان عليه لتفريطه فى معاهدته ، واستدكاره ، ومعنى التخفيف أن الرجل ترك غير ملتفت إليه وهو كقوله تعالى « نسوا الله فأنسيهم » ، أى تركهم فى العذاب ، أو تركهم من الرحمة (٢) ،

وقد بين الحافظ فى الفتح أن النهى عن قول نسيت آية كذا وكذا ليس للزجر عن هذا اللفظ ، بل للزجر عن أسباب تعاطى النسيان المقتضية لقول هذا اللفظ ، أقول ، أى أنه من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب وهو أسلوب معروف فى اللغة العربية ، قال الحافظ . « يمتل أن ينزل المنع والإباحة على حالتين .

(١) فن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دينى كالجهد لم يمتنع عليه قول ذلك لأن النسيان لم ينشأ عن إهمال دينى ، وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من نسبة النسيان إلى نفسه كما ورد فى الحديث الصحيح (٢) ويكون النهى للتنزيه .

(١) كناية عن الجمل الكثيرة ، والحديث الطويل فهى مثل ذب ، وذبت وكذا وكذا .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٥٦ ٤٥٧

(٣) المرجع السابق ص ٤٦٣

(٢) ومن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دنيوى ، ولا سيما إن كان محظورا امتنع عليه لتعاطى أسباب النسيان .

(٢٨) اختلف العلماء فى وصول ثواب قراءة القرآن للبيت قال السيوطى الأئمة الثلاثة على وصول ثواب القراء للبيت ، ومذهبنا - أى الشافعية - خلافه لقوله تعالى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (١) .

وإليك ما ذكره الإمام الألوسى فى تفسيره لهذه الآية فقد ذكر كلاما حسنا فى هذا المقام قال « ويعلم من مجموع ما تقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على أن العبد إذا جعل ثواب عمله أى عمل كان لغيره لا ينجعل ، ويلغو جملة - غير تام (٢) .

وكذا استدلال الإمام الشافعى بها على أن ثواب القراءة لا تلحق الاموات ، وهو مذهب الإمام مالك ، بل قال الإمام بن الهمام - هو من أئمة الحنفية ، أن مالكا ، والشافعى ، لا يقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة ، بل غيرها كالصدقة والحج ، وفى الأذكار للنووى عليه الرحمة - المشهور من مذهب الشافعى - رضى الله عنه - وجماعة أنها لا تصل ، وذهب أحمد بن حنبل ، وجماعة من العلماء ، ومن أصحاب الشافعى إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ما قرأته لفلان بقلبه كفى ، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة قال الألوسى :

وفى القاب منه شيء ، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة ،

(١) النجم ٣٩

(٢) هذا خبره أن استدلال ، . . .

أما إذا كانت بها كما يفعل الناس اليوم ، فإنهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقرأوا لموتاهم : فيقروؤن لتلك الأجرة - فلا يصل ثوابها ، إذ لا ثواب لها ليصل ، لحرمة أخذ الأجرة على قراءة القرآن ، وإن لم يحرم لتعليمه ، كما حققه خاتمة الفقهاء ، المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقي رحمه الله تعالى ، قال ، وفي الهداية من كتاب الحج عن الغير ، إطلاق صحة جعل الإنسان عمله لغيره ، ولو صلاة ، وصوما عند أهل السنة والجماعة ، وفيه ما علمت مما مر آنفا ، وقال الخفاجي هو - أن كلام صاحب الهداية - محتاج إلى التحرير ، وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فتسقط عن لزمته بفعل غيره سواء كان بإذنه أم لا بعد حياته ، أم لا ، فهذا وقع في الحج كما ورد في الأحاديث الصحيحة ، أما الصوم فلا وما ورد في حديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » ، وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوي - هو من محدثي فقهاء الحنفية - إنه كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وليس الكلام في الفدية ، وإطعام الطعام فإنه بدل ، وكذا إهداء الثواب سواء أكان بعيته أو مثله ، فإنه دعاء ، وقبوله بفضل الله - عز وجل كالصدقة فأعرفه انتهى ما ذكره الألبوسي (١) ، وفي هذا القدر كفاية في هذه المسألة التي يكثر فيها السؤال دائما

والحق أنه لا خلاف في الدعاء والصدقة لورود الأحاديث الصحيحة الكثيرة فيهما ، وكذلك الحج عند الجمهور وأما الصوم ففيه الخلاف وكذا الصلاة

(حكم الاقتباس وما جرى مجراه)

ومن المسائل المهمة معرفة حكم الاقتباس من القرآن واليك خلاصتها
ذكره العلماء في هذا

(١) تفسير الألبوسي ج ٢٧ ص ٥٨ ط منير

قال الامام السيوطى فى الاقتباس فى الاقتباس تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن لاعلى أنه منه بأن لا يقال فيه . قال الله تعالى ونحوه فإن ذلك حينئذلا يكون اقتباسا وقد اشتهر عن المالكية تحريمه ، وتشديد الزكبر على فاعله ، وأما أهل مذهبنا يريد الشافعية فلم يتعرض له الأقدمون ولا أكثر المتأخرين مع شيوع الاقتباس فى أعصارهم واستعمال الشعراء قديما وحديثا

وقد تعرض له جماعة من المتأخرين فستل عنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام فأجازه واستدل له بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله فى الصلاة وغيرها وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين (١) ، وقوله اللهم فائق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا أفض عنى الدين ، وأغننى من الفقر (٢) .

وفى سياق كلام لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، (٣) وفى آخر حديث لابن عمر قد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة (٤) .

وهذا كله يدل على جوازه فى مقام المواظ ، والثناء على الله ،

(١) هو مقتبس من قوله تعالى وإنى وجهت وجهى... الآية ٧٩ من سورة الأنعام .

(٢) هو مقتبس من قوله تعالى فائق الإصباح ، وجعل الليل سكنا . الآية ٩٦ من سورة الأنعام

(٣) هو مقتبس من قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا... الآية ٢٧ من سورة الشعراء .

(٤) هو مقتبس من قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، الآية ٢١ من الأحزاب

والدعاء وفي النثر ، ولا دلالة فيه على جوازه في الشعر ، وبينها فرق :
فإن القاضي أبا بكر من المالكية صرح بأن تضمينه في الشعر مكروه ، وفي
النثر جائز .

واستعمله أيضاً في النثر الإمام القاضي عياض في مواضع من خطبة
كتابه « الشفا » .

وقال الشرفي إسماعيل ابن المقرئ البني صاحب مختصر الروضة ، في
شرح بديعته ، ما كان منه في الخطب ، والمواضع ، ومدحه صلى الله عليه
وسلم وآله ، وصحبه ، ولو في النظم فهو مقبول ، وغيره مردود .

أقول وينبغي أن يلحق بذلك مدح الخلفاء الراشدين ، والصحابة والتابعين
والسلف الصالحين ، والعلماء العاملين .

وقال في شرح « بديعته » الاقتباس ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ،
ومردود ، فالأول : ما كان في الخطب ، والمواضع ، والعهود ، والثاني .
ما كان في الغزل ، والرسائل ، والقصاص ، والثالث على ضربين
أحدهما . ما نسبته الله إلى نفسه ، ونعوذ بالله من ينقله إلى نفسه كما قيل عن
أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله فكتب « إن إيلنا إياهم ،
ثم إن علينا حسابهم (١) » .

والآخر : تضمين آية في معنى هزل ونعوذ بالله من ذلك كقول أحد الشعراء
أرخصي إلى عشاقه طرفه هيهات ، هيهات لما توعا ون (٢)
وردفه ينطق من خلفه لمثل هذا فليعمل العاملون (٣)

(١) أخذ من قوله تعالى في آخر سورة الغاشية الآية ٢٥ و ٢٦

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى حكاية لكلام منكري البعث « هيهات

هيهات ... الآية ٣٠ من سورة المؤمنون

(٣) أخذ هذا من قوله تعالى حكاية لمثل هذا فليعمل العاملون ، الآية

٦١ من سورة الصافات

قال السيوطى . وهذا التقسيم حسن جدا ، وبه أقول ، وأنا أيضاً أستحسنه
جد الاستحسان ، وبه أقول

وقد ذكر الشيخ تاج الدين ابن السبكي فى طبقاته ، فى ترجمة الامام أبى
منصور عبد القاهر بن طاهر التيمى البغدادى من كبار الشافعية ، وأجلانهم
أن من شعره قوله

يا من عدى ، ثم اعتدى ، ثم اقرتف ثم انتهى ، ثم ارعوى ، ثم اعترف
أبشر فى قول الله فى آية وإن يذنبوا يغفر لهم ما قد سلف (١)

ثم عقب فقال . استعمال مثل الاستاذ أبى منصور مثل هذا الاقتباس
فى شعره له فائدة فإنه جليل القدر ، والناس ينهون عن هذا ، وربما أدى
بمحت بعضهم إلى أنه لا يجوز ، وقيل إن ذلك إنما يفعله الشعراء الذين هم فى
كل واد يهيمون ويثبون على الالفاظ وثبة من لا يبالي ، وهذا هو الاستاذ
أبو منصور من أئمة الدين ، وقد فعل هذا ، وأسند عنه هذين البيتين الاستاذ
أبو القاسم بن عساكر

قال الإمام السيوطى معقباً . ليس هذان البيتان من الاقتباس لتصريحه
بقول الله ، وقد قدمنا أن ذلك خارج عنه

وأما أخوه الشيخ بهاء الدين فقال فى دعوس الأفراح . الورع اجتناب
ذلك كله ، وأن ينزه عن مثله كلام الله ورسوله

ثم قال السيوطى . رأيت استعمال الاقتباس لأئمة أجلاء منهم الإمام
أبو القاسم الرافعى ؛ وأنشده فى أماليه ، ورواه عنه أئمة كبار

الملك لله الذى عنت الوجوه له ، وذلت عنده الأرباب
منفرد بالملك والسلطان قد خسر الذين تجاذبوه وخابوا

(١) هو ما أخذ من قوله تعالى : قل للذين كفروا إن يذنبوا يعفر لهم
ما قد سلف ... ، الآية ٣٨ من الأنفال

دعهم، وزعم الملك يوم غرورهم فسيعلون غدا من الكذاب (١)
وروى البيهقي في شعب الإيمان عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي قال
أنشدنا أحمد بن يزيد لنفسه

سل الله من فضله ، واتقه فإن التقى خير ما اكتسب
ومن يتق الله ينح له ويرزقه من حيث لا يحتسب (٢)
وأنا أميل إلى عدم استعماله في الشعر حتى لا يتوهم أن في القرآن
شعراً وإن كان فعله هؤلاء الأئمة الكبار.

وأختم هذا الفصل القيم الذي أمتعنا به الإمام السيوطي في إتقانه (٣)
بأن الكلمة من القرآن الكريم أو الآية يقتبسها المقتبس في كلامه مهما بلغ
هذا الكلام من الفصاحة والبلاغة ، فتضفي على الكلام نوراً وبهاء ، وروعة
ونخامة ، وتكون متميزة عما قبلها ، وما بعدها تميز الدرة اليتيمة الثمينة بين
حبات العقد ، والجوهرة المتألثة بين الحصى وحبات الرمل ، وكالغمس إذا
طلعت كسفت بقوة ضوئها ضوء النجوم والكواكب ، وهذا سر من أسرار
كتاب الله الذي لا تنقض عجائبه ، ولا تنفي أسرار

ما يجري مجرى الاقتباس

ويقرب من الاقتباس شيان

أحدهما : قراءة القرآن يراد بها الكلام لإجابة لسائل . أو رداعلى متكلم ،
أو إغماما خصم ، أو إشارة إلى ما يراد من معانيه قال الإمام النووي في التبيان ،

(١) هو مأخوذ من قوله تعالى . . سيعلون غدا من الكذاب الأشمر .

الآية ٢٦ من سورة القمر

(٢) هو مأخوذ من قوله تعالى . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه

من حيث لا يحتسب ، الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق

(٣) ١٦ ص ١١٣ ، ١١٤

ذكر ابن داوود في هذا اختلافا ، فروى عن النخعي أنه كان يكره أن يتأول القرآن بشيء يعرض من أمر الدنيا ، وأخرج عن عمر بن الخطاب أنه قرأ في صلاة المغرب بمكة ، والتين والزيتون وطور سينين ، ثم رفع صوته وقال : . وهذا البلد الأمين ، يريد بيان أن المراد به مكة

وأخرج حكيم بن سعد أن رجلا من المحكة أتى عليا ، وهو في صلاة الصبح فقال . لئن أشركت ليحبطنك عملك ، (١) فأجابته في الصلاة ، فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون ، (٢)

وقال غيره : يكره ضرب الأمثال من القرآن صرح به من الشافعية العماد البيهقي تليذ البغوي كما نقله ابن الصلاح في فوائد رحلته

الثاني : التوجيه بالألفاظ القرآنية في الشعر وغيره ، والتلويح بها إلى معانيها القرآنية وهو جائز - كما قال السيوطي - بلا شك ، قال . وروينا عن الشريف تقي الدين الحسيني أنه لما نظم قوله

مجاز حقيقتها فاعبروا ولا تعمروا هونها تم
وما حسن بيت له زخرف تراه إذا زلزلت لم يكن

خشى أن يكون ارتكبا حراما لاستعماله هذه الألفاظ القرآنية في الشعر فجاء إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد يسأله عن ذلك ، فأنشده إياها ، فقال له . قل وما حسن كهف . . . فقال ياسيدي أفدتني ، وأفتيتني ، غائمة ، قال الزركشي في كتابه البرهان : لا يجوز تعدى أمثلة القرآن

ولذلك أنكر على الحريري قوله . « فادخلني بيتنا أخرج من الثابت وأوهى من بيت العنكبوت ، ، وأي معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه حيث قال « وإن أوهم البيوت لبيت العنكبوت ، فادخل إن ، وبني أفعال التفضيل وبناء من الوهن ، وأضاله إلى الجمع ، وعرف بالجمع باللام وأتى في خبر إن باللام (١) هو من قوله تعالى ، لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من

الخاسرين ، الآية ٦٥ من سورة الزمر

(٢) هو من قوله تعالى ، فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك

الذين لا يوقنون الآية ٦٠ من سورة الروم

والإنكار على الحريري غير متجه فقد قال الله تعالى «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها ، والآية تحتل معنيين أحدها . فما فوقها في الحجم والمقدار ، وثانيهما . فما فوقها أى في الخسة والقدر يعنى فما دونها في الحجم ، ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب المثل بما دون البعوضة ، فقال « لو كانت الدنيا وزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرة ماء »

وبهذا انتهينا من هذه المسائل والفوائد التي لا يستغنى مسلم عن معرفتها والتأدب بها .

نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الأدب معه ومع كتابه ، ومع نبيه

« لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية »

كنت قد كتبت هذا العنوان ريثما أكتب تحته ما أريد ثم طبع العنوان ص ٣٦٦ من غير شيء . وها أنذا أستدرك ما فات فأقول وبالله التوفيق :

من المجمع عليه أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية لافي الصلاة ولا في خارجها لأن الله أنزله قرآناً عربياً قال تعالى « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (١) » وقال « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (٢) » ، وقال « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين (٣) » ، ولم يقل قرآناً أعجيبياً ، وركنا القرآن اللفظ والمعنى معاً ، فإذا قرأ بغير العربية لا يسمى قرآناً وما روى عن الإمام الأعظم أبي حنيفة أنه جوز القرآن بالفارسية في الصلاة للعاجزين عن العربية قد نقل بعض المحققين من أتباعه أنه رجع

(١) يوسف / ٢

(٢) الزخرف / ٣

(٣) الشعراء / ١٩٣ - ١٩٥

عنه (١) وبذلك صار الأمر إجماعاً من الفقهاء، والقرآن كما ذكرته في مقدمة الكتاب - هو الذي وحد بين المسلمين في اللسان كما وحد بينهم في العقيدة والشريعة . وبفضل القرآن كان المسلمون على اختلاف أجناسهم ولغاتهم يتكلمون اللغة العربية من المحيط إلى المحيط بل من الفرس، والرومان، وغيرهم من أجاد اللغة العربية لإجادة العرب الخالص لها، ومؤلفاتهم التي لا يحصيها العدد أكبر دليل على هذا وهذا أمر لم يكن لغير القرآن، وهو سر من أسرار الإعجاز والبيان وصدق الله تعالى في قوله ولقد يسرنا القرآن للذكريه من مذكره (٢) وكما لا يجوز قراءة القرآن بغير اللفظ العربي المبين الذي نزل به، لا يجوز بالاجماع كتابته بغير الحروف العربية لا باللاتينية ولا بغيرها من اللغات، لأن القرآن عربي في لفظه وعربي في حروفه وكتابته، ورسم القرآن كما رجحنا سابقاً توقيفي وسنة متبعة لا تجوز مخالفتها، والصحابة رضوان الله عليهم لما كتبوا المصاحف لم يكتبوها إلا بالحروف العربية، وهذا إجماع لا تجوز مخالفته ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما كاتب الملوك والأمراء بعد صلح الحديبية كاتبهم باللغة العربية (٣) حتى فيما ليس بقرآن فإذا كان هذا في غير القرآن فما بالك بالقرآن؟ ونصوص الكتب مدونة في كتب السير والحديث والتاريخ ولم أفق على كتاب منها كتب بغير اللغة العربية، والحروف العربية ومن ادعى خلاف ذلك فعليه البيان :

فالدعوة إلى كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية أو بغيرها دعوة آثمة ملحده هدامة تدعو إلى فطم العروة الوثقى التي تربط بين المسلمين جميعاً عربياً، وغير عرب، وهي القرآن ولغة القرآن .

(١) حدث الأحداث في الإسلام الاقدام على ترجمة القرآن ص ٦ ط الثانية

(٢) سورة القمر وقد تكررت فيها أربع مرات .

(٣) أنظر صورة كتاب رسول الله إلى المقوقس عظيم الروم في كتاب

الوصيطة في الأدب العربي ص ٢٢٢ ط اولى .

وكما أن اللغة العربية شعار الإسلام والمسلمين. فكذلك الحروف العربية شعارهم ومن منذ نصف قرن قام بعض المصريين وغيرهم يدعون إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، ولكن الله فوض لها من المخالصة من علماء هذه الأمة من قهرها في مهدها، ورد كيد أهلها في نحورهم، وباءوا بغضب من الله والناس .

إننا لو جوزنا هذا في كتابة القرآن الكريم لفتح باب شر مستطير، فسيكتب كل أصحاب لغة من المسلمين القرآن بحروفهم وحيث تكون الطامة الكبرى فسيكون وسيلة لتجريف القرآن الكريم ولزوال الوحدة العربية اللسانية الممثلة في لغة القرآن بين المسلمين، وما من دولة إسلامية غير عربية إلا وهي لا تحفظ القرآن إلا بلفظه العربي المبين، ولا تكتبه إلا بحروفه العربية التي أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم واجمع عليها المسلمون، بل بعض هذه الدول الإسلامية جعلت تدريس اللغة العربية في مدارسها، وجامعاتها ومعاهدها أمر لزاماً؛ بل بعضها يسمى في جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد .
إن الدعوة إلى كتابة اللغة العربية أو القرآن بالحروف اللاتينية أو غيرها هي جنائية في حق الوطن العربي، بل في حق الوطن الإسلامي، فضلاً عن كونها جريمة في حق الدين الإسلامي، وقد كانت دسيسة استعمارية أو اثر من آثار الصليبية، ولكن الله وقي الوطن العربي والإسلامي شرورها، فله الحمد والمنة .

والحمد لله في البداية كما حمدناه في النهاية، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا
وزيننا محمد وعلى آله وأصحابه، وأتباعه إلى يوم الدين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه
محمد بن محمد أبو شهبه
دون علماء الأزهر الشريف

أهم مراجع الكتاب ،

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) تفسير ابن جرير ، والبغوي ، والزخشي ، والرازي ، والقرطبي وابن كثير ، والآلوسي ، والمنار ، وغيرهم .
- (٣) أسباب النزول : لواحدي والسيوطي وغيرهما .
- (٤) سنن أبي داود ، والنسائي والترمذي . وابن ماجه . ومسند الإمام أحمد .
- (٥) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري : للحافظ ابن حجر .
- (٦) صحيح مسلم بشرحه الإمام محيي الدين النووي .
- (٧) البرهان في علوم القرآن : للزركشي .
- (٨) الإتيقان في علوم القرآن . للسيوطي .
- (٩) مناهل القرآن في علوم القرآن لأستاذنا الشيخ عبد العظيم الزرقاني
- (١٠) منهج القرآن في علوم القرآن : للعالم الشيخ محمد علي سلامة .
- (١١) التبيان ، لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، الشيخ ظاهر الجزائري .
- (١٢) نقض مطاعن القرآن : للعلامة الشيخ محمد عرفة .
- (١٣) كتاب الوحي المحمدي . للعلامة السيد محمد رشيد رضا .
- (١٤) النبأ العظيم للعلامة الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز .
- (١٥) رسالة في أصول التفسير للإمام تقي الدين أحمد بن تيمية
- (١٦) إيقاظ الأعلام في اتباع رسم المصحف الإمام : الشيخ محمد الشنقيطي
- (١٧) القراءات واللهجات . الأستاذ عبد الوهاب حودة
- (١٨) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة الدكتور محمد أبو شهبه
- (١٩) تاريخ القرآن للزنجاني
- (٢٠) مدخل إلى القرآن للمستشرق الفرنسي « بلاشير ،
- (٢١) رسالة في القراءات الشواذ للدكتور مصطفى مندور
- (٢٢) تاريخ القرآن للمستشرق . نولدكه ،
- (٢٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة « قرآن
- (٢٤) كتب اللغة : لسان العرب ، القاموس المحيط ، المصباح المنير

فهرس الكتاب

الموضوع

الصحيفة

٣-٥ مقدمة الطبعة الثانية - مقدمة الطبعة الأولى .

٦-١٥ التعريف بالقرآن الكريم : القرآن هو المعجزة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم - تكرار التحدى بالقرآن وحكمته - القرآن كتاب العربية الأكبر - القرآن الكريم كتاب الهداية الكبرى - القرآن حارب التقليد ودعا إلى النظر والتأمل فى الكون - القرآن فتح الباب للعلوم الكونية والتجريبية - القرآن حارب العنصرية ، والعنجهية الجاهلية - القرآن هو الذى كون الأمة المثالية - تقدم العلوم لا يزيد القرآن إلا ثبوتاً ورسوخاً ، ويكشف عما فيه من أسرار - حديث من جوامع الكلم فى وصف القرآن - عناية الأمة الإسلامية بالقرآن عناية بلغت الغاية .

١٦-٢٦ المبحث الأول : معنى علوم القرآن وتحليل هذا المركب الإضافى - معنى « علوم ، ومعنى « القرآن ، وأهو علم مشتق أم جامد ؟ ومهموز أم غير مهموز ؟ - تعريف القرآن ، عند الأصوليين والفقهاء ، وأهل العربية - معنى القرآن عند المتكلمين - القرآن علم شخصى ، أم مسماه أمر كلى كالمشترك المعنوى ؟ - أشهر أسماء القرآن القرآن الكريم - تعريف علوم القرآن بمعناه الإضافى - علوم القرآن بمعناه العلمى على الفن المدون - موضوع علوم القرآن على كلا المعنيين - فائدة دراسة علوم القرآن .

٢٦-٣٣ تاريخ علوم القرآن : قبل عصر التدوين - فى العهد النبوى وفى عهد الصحابة ، علم الصحابة بالقرآن - رجوعهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم إذا خفى عليهم شئ من عقائده وأحكامه وآدابه

رجوعهم إلى لغة العرب إذا غاب عنهم بعض معانيه اللغوية - جمع الصحابة بين الحفظ ، والعلم ، والعمل - عصر التدوين :

بده التدوين في علوم القرآن بمعناه العام أشهر المؤلفين في التفسير - أشهر المؤلفين في أسباب النزول ، وفي النسخ والمسنوخ . وفي مشكله وفي غريبه ومفرداته ، وفي إعرابه وفي إعجازه . وفي مجازه . وفي قراءاته وفي أقسامه . وفي أمثاله . وفي فضائله - منهج هؤلاء في تأليف كتبهم .

٣٣ - ٤١ علوم القرآن بمعنى الفن المدون : متى ظهر هذا الاصطلاح ؟ - رأى السيوطي - رأى المؤلف ودليله ، رأى أستاذنا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني - رحمه الله - والتعقيب عليه ببيان الحق - المؤلفات في القرن السادس - المؤلفات في القرن السابع - المؤلفات في القرن الثامن - المؤلفات في القرن التاسع وهو القرن الذهبي في تدوين علوم القرآن - فارس الحلبة السيوطي - جمعه خلاصة الكتب السابقة في كتابه ، الإتقان في علوم القرآن - الإتقان في الميزان ، محاسن الكتاب - مأخذى على الكتاب - محاولة المؤلف الاعتراف عن صاحب الإتقان .

٤١ - ٤٥ عصر نهضة العلوم : إدخال الدراسات العليا التخصصية في علوم القرآن في الأزهر الشريف جامعة المسلمين الكبرى - جدت مباحث أخرى أضيفت إلى مآذ كره العلماء المتقدمون - الرد على الشبه التي أثارها المبشرون . والمستشرقون ومتابعوهم على القرآن الكريم أشهر المؤلفات في العصر الأخير - رسائل وكتب في بعض علوم القرآن لعلماء ، وأدباء - كتب ورسائل حول ترجمة القرآن الكريم - استمرار التأليف في علوم القرآن ، أو بعض أنواعه .

نشاط هذه الحركة لعلماء أزهريين وغير أزهريين - من منن الله على
- وما أكثرها - مشاركتي في هذا المضمار الشريف . ظهور كتب
جيدة ، ورسائل عليية في مصر وفي غير مصر .

٤٦ - ٥٨ المبحث الثاني . نزول القرآن الكريم .

معنى النزول لغة وشرعا - وجود القرآن في اللوح المحفوظ - وجوده
في السماء الدنيا - نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم . ما هو اللوح
المحفوظ - وما الحكمة في وجوده - نزول القرآن من اللوح المحفوظ
إلى السماء الدنيا - الأدلة على ذلك - الحكمة في هذا النزول -

نزول جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا منجما
تحقيق المدة التي نزل فيها القرآن - الأدلة على نزول القرآن على النبي
مفرقا - نزول الكتب السماوية السابقة جملة - الدليل عليه

٥٩ - ٦٩ كيف كان جبريل عليه السلام يتلقى الوحي من الله ؟ كيف كان
يتلقى النبي الوحي من جبريل ؟ القرآن كله نزل على النبي عن
طريق جبريل في اليقظة لا مناما ، ولا لإلهام ، ولا مكالمة من غير
واسطة - بيان الحق في الروايات التي ظاهرها يخالف هذا - تلقى
النبي القرآن عن جبريل وهو على صفته الملائكية - الأدلة على
ذلك - ما كان يصاحب نزول جبريل بالوحي من أمارات - القرآن
لفظه ومعناه كلام الله ليس لجبريل ، ولا للنبي فيه إلا البلاغ -
رأيان باطلان مدسوسان على علماء الإسلام ذكرهما السيوطي في
الإتقان ، ولم يعقب عليهما بالبطلان - نزول جبريل بوحي السنة
كما كان ينزل بوحي القرآن - الفرق بين الوحيين .

- الموضوع - الصحيفة
- ٦٤ - ٨٣ حكم نزول القرآن الكريم مفرقا : -
- (١) الحكمة الأولى ويندرج تحتها أمران (٢) الحكمة الثانية ويندرج تحتها أربعة أمور (٣) الحكمة الثالثة ويندرج تحتها أربعة أمور (٤) الحكمة الرابعة - تنمة مهمة
- ٨٣ - ٨٩ الوحي لغة واستعمالاته - تعريف الوحي شرعاً - أقسام الوحي الشرعي وكيفياته
- (١) تكليم الله أنبياءه من وراء حجاب (٢) في المنام (٣) الإلهام أو القذف في القلب (٤) إعلام الله أنبياءه بوساطة جبريل وتحتة كيفيات ثلاثة - إمكان الوحي ووقوعه إمكان الوحي وعدم استحاله - العلم يؤيد معنى الوحي وإمكانه الدليل على وقوع الوحي
- ٩٠ - ١٠٨ العبه التي أوردت على الوحي :
- شبهة الوحي النفسى - المقدمات السسه التي استندوا إليها - إبطال هذه المقدمات فبطل ما أدت إليه من فكرة الوحي النفسى - ردعاه لهذه الفكرة - زعمهم أن قصة الوحي المحمدي كقصة دجان دارك، الفرنسية . إبطال ذلك . شبهة أخرى مزاعم بعض المبشرين والمستشرقين وأبواقهم أن ما كان يعتري النبي عند الوحي حالة من حالات الصرع . الرد على هذه المزاعم . من ناحية العقل ، والعلم ، والتاريخ الصحيح ، حجة عليية دامغة أسفر عنها الطب الحديث ترد هذه الفرية .
- ١٠٩ - ١١٧ المبحث الثالث : أول منازل من القرآن ، وآخر منازل منه : (٣١ م - المسئل)

فوائد هذا البحث . الأقوال في أول ما نزل من القرآن
(١) القول الأول : أول ما نزل صدر سورة اقرأ (٢) القول
الثاني . صدر سورة المدثر (٣) القول الثالث . أول ما نزل
سورة الفاتحة . القول الرابع . أول ما نزل بالبسملة - مناقشة
الأقوال وبيان أن القول الأول هو الراجح .

١١٧ - ١٢٧ آخر ما نزل من القرآن - فيه أقوال عشرة - الرأي المختار

أن آخر ما نزل هو قوله تعالى : **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ**
فيه إلى الله ... ، الآية - الإجابة عن باقي الأقوال - زعم أن
آية **اليوم أكملت لكم دينكم** . ، آخر ما نزل من القرآن
خطأ مشهور وقع فيه بعض العلماء المتأخرين - ما المراد بآية كمال
الدين في الآية ؟

١٢٧ - ١٣١ أوائل وأواخر مقيدة بموضوع خاص : - أول ما نزل في

الحجر وآخر ما نزل فيها - أول ما نزل في الجهاد وآخر ما نزل
فيه - أول ما نزل في شأن القتل وآخر ما نزل فيه - أول ما نزل
في الأطمعة وآخر ما نزل فيها - أول ما نزل من سورة التوبة
وآخر ما نزل منها - أول سورة نزلت بمكة وآخر سورة نزلت
بها - أول سورة نزلت بالمدينة وآخر سورة نزلت

١٣٢ - ١٣٥ المبحث الرابع : أسباب النزول : القرآن منه ما نزل بسبب

ومنه ما نزل من غير سبب - المؤلفات في أسباب النزول
ما هو سبب النزول ؟ - طريق معرفة سبب النزول - من
يرجع إليهم في معرفة سبب النزول - قول الصحابي في سبب
النزول - قول التابعي في سبب النزول - التثبت في سبب النزول .
فوائد معرفة سبب النزول :-

١٣٦ - ١٤٣ الفائدة الأولى - الاستعانة على فهم الآية وإزالة الإشكال -

أمثلة خمسة لذلك - خطأ وقع فيه الزركشى في البرهان ، ولم يتنبه له محقق الكتاب ونقله السيوطى في الإتقان في ذكر عثمان بن مظعون بدل أخيه قدامة بن مظعون في مسألة شربه الخمر متأولا وقد نبهت عليه -

الفائدة الثانية : يعين على فهم حكمة التشريع - الفائدة الثالثة . رفع توهم المحصر في بعض الآيات القرآنية - الفائدة الرابعة تعيين المبهم في بعض الآيات - الفائدة الخامسة . عدم خروج السبب من حكم الآية - الفائدة السادسة . تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب - الفائدة السابعة : تثبيت الوحى ، وتأكيده الحكم في ذهن السامع .

١٤٣ - ١٦٠ - التعبير عن سبب النزول - تعدد الأسباب والمنزل واحد - لذلك صور أربعة مع ضرب الأمثلة لكل صورة - تنبيه مهم - تعدد المنزل والسبب واحد - عموم اللفظ وخصوص السبب - رأى جمهور العلماء أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - رأى البعض أن العبرة بخصوص السبب - اتفاق الكل على أن الحكم عام - تنبيهات مهمة - ثمرة الخلاف بين الجمهور وغيرهم - أدلة الجمهور - أدلة غير الجمهور .

١٦١ - ١٦٥ مثال للفظ خاص نزل على سبب خاص . آية ، وسيجنبا الاتقى . . . ١٦٦ - شبيهه بالسبب الخاص مع اللفظ العام .

١٦٦ - ١٧٠ المبحث الخامس . حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، الحديث متواتر الروايات الواردة في الصحيحين وغيره في هذا المعنى ✓

١٧١ - ١٧٤ ما يستخلص من الروايات . التيسير على الأمة ، التوسعة في الألفاظ لا في المعانى - التوسعة في حدود المنزل من الله لا بالهوى

والتشبهى ، الأمة مخيرة في القراءة بأى حرف منها- التوسعة
كانت بعد الهجرة - حرص الصحابة البالغ على المحافظة على
النص القرآنى .

١٧٤ - ٢٠٠ الأقوال فى الأحرف السبعة . تشعب الأقوال حتى وصلت
إلى خمسة وثلاثين قولاً . - القول بأن الحديث مشكل -
ورده ، القول بأن المراد بالسبعة التسكثير لا التحديد ، ورده -
القول الثالث . وهو سبع ألفاظ (لغات) فى المعنى الواحد ،
وهو المختار عند جمهرة العلماء وعندى ، ورد ما ورد عليه من
شبهات ، منزلة اللغة القرشية بين لغات العرب - القول الرابع .
المراد سبع لغات متفرقة فى القرآن كله ومناقشته - القول
الخامس . لابن قتيبة - القول السادس ، لابن الفضل الرازى -
القول السابع . لابى بكر الباقلانى - القول الثامن . لابن
الجزرى ، نقد هذه الآراء الثلاثة - القول التاسع ومناقشته ،
الأحرف السبعة ليست هى القراءات السبع بالإجماع - القول
العاشر . المراد سبعة أنواع من الكلام ... اختلاف الرويات
فى تحديد الأنواع ، نقد هذا رأى من جهة الرواية (السند)
والدراية (المعنى) . المحامل الصحيحة لما روى فى بيان الأنواع
أقوال أخرى باطلة ووردها .

٢٠١ - ٢١٨ إزالة شبهة فى أحاديث مروية فى هذا المعنى وبيان مفصل
الحق فيها - إزالة شبهة أخرى حول ما روى من تغيير
بعض ألفاظ القرآن بألفاظ أخرى - إجماع علماء الأمة على
عدم جواز إبدال لفظ قرآنى بأخر بمعناه - زعم للمستشرق
« بلاشير » فى جواز القراءة بالمعنى ، ومتابعة تلميذه الدكتور

مصطفى مندور له فى زعمه والزيادة عليه ، رد هذه المواضع
الباطلة الآتية - جملة الأقوال فى الأحرف السبعة ونقدمه هذه
الكثرة

موقف الشيعة من حيث الأحرف السبعة . منهم موافق ،
ومنهم مخالف ، وطعن فى صحة الحديث ، وهم الأكثر ،
الرد عليهم - هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع
الأحرف ؟ آراء العلماء فى هذا .

٢١٩ - ٢٢٢ المبحث السادس : المكي والمدني : أهمية البحث ، المؤلفون
فيه - آراء العلماء فى تعريف المكي والمدني ، وبيان الرأى
المختار - أنواع السور المكية والمدنية - عدد السور المكية
باتفاق ، والسور المدنية باتفاق ، والسور المختلف فيها -
الضوابط التى يعرف بها المكي والمدني ، بميزاتها القسم المكي -
بميزات القسم المدني .

٢٢٢ - ٢٥١ الشبه التى أثيرت حول المكي والمدني . تتلذد بعض المسلمين
والعرب على المستشرقين والمبشرين ونقلهم لأرائهم ،
وإذاعتها بين شباب المسلمين باسم العلم وحرية البحث . رد
بعض العلماء الأزهريين وغيرهم عليهم ، الشبه الأولى -
الشبه الثانية - الشبه الثالثة - الشبه الرابعة - الشبه
الخامسة - الشبه السادسة .

٢٥٢ - ٢٦١ صلوات تتعلق بالمكي والمدني : الأولى : الحضري
والسفرى - الثانية : النهارى والليل - الثالثة : الصيفى
والشتائى - الرابعة . ما تأخر حكمه عن نزول ، وما تأخر
نزول عن حكمه . الخامسة ما حمل من مكة إلى المدينة ،

وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى الحبشة . وما حمل من المدينة إلى بلاد الروم - السادسة : ما نزل مفرقا ، وما نزل جمعا - ضرب أمثلة لكل ما تقدم .

٢٦٦ - ٢٦٦

المبحث السابع . جمع القرآن وتاريخه ، الجمع بمعنى الحفظ في الصدر ، حفظ النبي ﷺ للقرآن ، حفظ الصحابة رضوان الله عليهم له ، حديث أنس في أنه لم يحفظ القرآن غير أربعة ، والإجابة عنه بما يشفى ويكفى ، حفظ الألوف للقرآن حتى وصل إلينا كما أنزله الله .

٢٦٧ - ٢٨٤ كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ مفرقا ، لم لم يكتب في مكان واحد ؟ السبب الباعث على كتابته في عهد النبي صلى عليه وسلم - كتابة القرآن وجمعه في عهد الصديق أبي بكر - رضی الله عنه - تولى زيد بن ثابت - رضی الله عنه - هذه المهمة العظيمة ، معاونة بعض كبار الصحابة له كعمر - رضی الله عنه - السبب الباعث على كتابته في هذا العهد ، ما امتاز به الجمع في عهد الصديق الصنف التي كتبت في عهده هي التي تحظى بالثقة والاطمئنان ، الصحف التي كانت عند بعض الصحابة لم تقتصر على النص القرآني ، بل جمعت بعض أدعية ، وتفسيرات .

كتابة القرآن في المصاحف في عهد عثمان رضی الله الجماعة الذين قاموا بكتابة المصاحف - كتابة المصاحف مكرمة لسيدنا عثمان - إجماع الصحابة على ما ارتآه عثمان - شهادة سيدنا علي له واعترافه بفضلته في كتابة المصاحف - هل يجوز حرق كتب العلم ونحوها ؟ - السبب الباعث على كتابة المصاحف - ما امتاز به جمع القرآن في عهد ذي

النورين عثمان - ما امتاز به الجمع في عهد عثمان - متى عرف تسمية القرآن بالمصحف ، عدد المصاحف التي وجه بها عثمان إلى الأمصار - السبب في تعدد المصاحف - هل توجد المصاحف العثمانية الآن ؟

٢٨٤ - ٣١١ الشبهة التي أوردت على جمع القرآن ووردها، رد دعاوى

المستشرقين والمبشرين على القرآن - ومنهجهم في البحث .
الشبهة الأولى . الزعم بأن الصحابة لم يجمعوا على كتابة المصاحف .

الشبهة الثانية: دعوى أن بعض آيات القرآن لم تتواتر .

الشبهة الثالثة : الزعم بأن القرآن زيد فيه ما ليس منه .

الشبهة الرابعة : دعوى أن بعض القرآن لم يكتب في

المصاحف .

الشبهة الخامسة : مزاعم بعض الشيعة من أن القرآن قد نقص منه بعض الآي والسور

الشبهة السادسة : مزاعم صاحب « ذيل مقالة في الإسلام » وهي أن القرآن قد أسقط منه ما هو منه وزيد فيه ما ليس منه الشبهة السابعة . قول السيدة عائشة « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات . . . »

الشبهة الثامنة : زعم أن قول النبي « لو كان لابن آدم واديان من مال . . . من القرآن ! ! »

الشبهة التاسعة : حديث « كان مما أنزل الله آية الرجم . . . » وبيان مفصل الحق فيه

الشبهة العاشرة : الزعم بأن سورة « لم يكن الذين كفروا » قد نقص منها ما هو منها

الفهية الحادية عشر : روايات يوم ظاهرها سقوط شيء من القرآن وبيان الحق فيها

رد عام عن الشبهة بعد الردود الخاصة

٣١٢ - ٣٢٠ المبحث الثامن : ترتيب آيات القرآن وسوره

الآية في اللغة ، وفي الاصطلاح ، معنى الفاصلة ، اختلاف الآيات طولاً وقصراً

فوائد معرفة الآيات ، عدد آيات القرآن ، السبب في الاختلاف في عدد الآيات ، لمعرفة رؤوس الآيات طريقان : توقيفي ، وقياسي ، معرفة الآيات توقيفية . أي لا مجال للرأي فيها ، عدد كلمات القرآن وحروفه ، ترتيب الآيات توقيفي بالإجماع ، ترتيب آيات القرآن ليس بحسب النزول وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية

٣٢٠ - ٣٣٤ السور وترتيبها : معنى السورة لغة ، واصطلاحاً ، معرفة

السور توقيفي ، هل يقال سورة البقرة مثلاً ؟ الحكمة في جعل القرآن الكريم سوراً - عدد سور القرآن - لا يجوز إطلاق السورة والآية على إصحاحات التوراة والإنجيل وقرآنها - أسامى السور ، التسمية توقيفية أم اجتهادية - كلام حسن جيد للزركشي في هذا المقام ، تعقيب للإمام السيوطي على كلام الزركشي صاحب البرهان ، لم لم يفرّد لموسى عليه السلام سورة تسمى به ؟ وكذلك آدم عليه السلام ؟ وداود عليه السلام ؟ جواب للثؤلف لم يسبق إليه ، تقسيم السور باعتبار الطول والقصر ، الطول ، والمتون ، والمشاني ، والمفصل ، وبيان أقسام المفصل ، تقسيم السور من حيث عدد الآيات اتفاقاً واختلافاً ، ترتيب سور القرآن ، مذاهب العلماء في هذا

لا يجوز مخالفة ترتيب المصحف عند كتابة المصاحف وطبعها
بالإجماع ، ترتيب السورة في التلاوة مندوب وليس بواجب

٣٣٥ - ٣٣٧ المبحث التاسع ، كتابة القرآن ورسمه

الكتابة عند العرب ، بمن تعلموها ؟ وجودها في العرب قبيل
الإسلام إرهاب لبعثة خاتم الرسل - الإسلام والكتابة ،
الإسلام رفع من شأن الكتابة والعلم ، استفادة القرآن
والسنة النبوية بذلك - سبق النبي ﷺ إلى إزالة الأمية من منذ
أربعة عشر قرناً

٣٣٨ - ٣٤٦ كتابة القرآن الكريم ، كتاب الوحي ، رسم المصاحف

العثمانية ، ما معنى الرسم ؟ أشهر الكتب المؤلفة في الرسم
القواعد التي اتبعت في رسم المصاحف ، الحذف ، الزيادة ،
الهمز ، البدل ، الوصل والفصل ما فيه قرأتان موترتان
وكتب على إحداها

٣٤٦ - ٣٥٨ رسم المصحف توقيفي أم اصطلاحى ؟ .

مذهب الجمهور أن الرسم توقيفي - أدلتهم على هذا -
أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني - هل صار النبي قارئاً
كاتباً بعد أن لم يكن قارئاً كاتباً ؟ رأيان للعلماء ، وأدلة كل
فريق - كونه صلى الله عليه وسلم صار يعرف الكتابة وإن
لم يحسنها لا يخل بالمعجزة الكبرى وهي القرآن - فوائد الرسم
العثماني : اتصال السند بالقرآن الكريم - الدلالة على أصل
الحركة - الدلالة على بعض اللغات الفصيحة - الدلالة على معان
خفيفة دقيقة تدرك بالذوق والوجدان - تعليقات جيدة
للشيخ المراكشي - اجتهادات للثولف في تحليل رسم بعض
الآيات .

٣٥٨ - ٣٦٥ مذهب الإمام الباقر ، وابن خلدون في أن الرسم
اجتهادي - أدلتها - الرد عليهما .

رأى الشيخ العلامة عبد العزيز الدباغ في كتابه «الذهب
الإبريز» في أن الرسم توقيفي - كلام حسن له في هذا - رأى
ثالث للإمام العز بن عبد السلام ، وهو وسط بين الرأيين -
رأى جديد للؤلؤف جدير بالبحث والنظر ، وهو المحافظة
على الرسمى العثماني بالنسبة للمصاحف ، وكتابة الأجزاء ،
وكتب العلم ، والمجلات ونحوها على الرسم المعروف ،
تسيراً على الطلاب ، والتلاميذ والقارئين .

٣٦٦ - ٣٨٧ الشبهة التي أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه :

حمل لواء الإهك في هذا بعض القسس ، والمبشرين ،
والمستشرقين ، اعتمادهم على روايات ضعيفة ومكذوبة .

٣٦٧ الشبهة الأولى ما روى أن بن عثمان قال : إن في القرآن لحناً
ستقيمه العرب بألسنتها . . . ، والجواب عنها .

٣٦٩ الشبهة الثانية : اعتراضهم على قراءة « والمقيمين الصلاة »
وزعمهم أنها من لحن الكتاب والجواب عنها .

٣٧٠ الشبهة الثالثة : ما روى أن ابن عباس كان يقرأ « حتى تستأذنوا »
ويقول حتى تستأنسوا ، من خطأ الكاتب .

٣٧٣ الشبهة الرابعة : ما روى عنه أيضاً أنه كان يقرأ « أفلم يتبين »
فقيل له أنها أفلم يائس . . . ، فقال : أظن الكاتب كتبها
وهو ناعس والجواب عنها .

٣٧٤ الشبهة الخامسة : كان يقرأ أيضاً « ووصى ربك » بدل « وقضى
ربك » ، والجواب عن ذلك .

٣٧٦ الشبهة السادسة : كان يقرأ « ولقد أتينا موسى » ، وهرون
الفرقان ، وضياء ، بغيروا وقبل ضياء ، والجواب عن ذلك

- الموضوع الصحيفة
- الشبهة السابعة : ماروى عنه في قوله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها فيها مصباح ، قال هي خطأ من الكاتب هو أعظم من ذلك إنما هو مثل نور المؤمن والجواب عن ذلك ٣٧٧
- الشبهة الثامنة إنكاره قوله تعالى « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وكان يقرأ ، بما آمنتم به والجواب عن ذلك ٣٧٨
- الشبهة التاسعة ما روى عن السيدة عائشة وقولها لما سئلت عن الآيات « إن هذان لساحران » والصابتون والنصارى ، « والمقيمى الصلاة ، فقالت هذا من خطأ الكاتب ، والرد على ذلك . ٣٧٩
- الشبهة العاشرة زعمهم أن في هذه الآيات لحنا وهمي « والصابرين في البأساء والضراء ، « وأسروا النجوى الذين ظلموا » « ثم عموا ووصموا كثير منهم ، « فأصدق وأكن من الصالحين ، والجواب عن ذلك بما يشفي ويكفي ٣٨٤
- الشبهة الحادية عشرة : ماروى عنها أيضا في قوله تعالى « والذين يؤتون ما آتوا ، « وأنها « والذين يؤتون ما آتوا ، وترجيحها الثانية على الأولى ، والجواب عن ذلك . ٣٨٥
- الشبهة الثانية عشرة : ماروى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنهم قالوا لزيد : أوهمت إنما هي . « ثمانية أزواج من الضان لثنتين . لثنتين ... ، والجواب عن ذلك ، رد عام على كل الشبه المذكورة ٣٨٧
- شكل القرآن . معناه هل كان يعرف العرب الشكل ؟ من وضع الشكل المعروف ؟ . ٣٨٨
- إعجام القرآن . معناه هل كان النقط معروفا قبل الإسلام رأيان - أول من نقط المصحف ما استحدثت في كتابة المصاحف . - حكم نقط المصحف وشكله وما شابه ذلك - احترام المصحف ٣٩٠ - ٢٩٢

المبحث العاشر . ثبوت النص القرآني بالتواتر المفيد
للقطع واليقين . -

٣٩٣ - ٣٩٩

حفظ النبي للقرآن - حرص النبي على تلقي القرآن -
معارضة جبريل النبي بالقران- تكرار المعارضة في العام الذي
توفي فيه النبي صلى الله عليه وسلم - الحفظ عن ظهر قلب
خصيصة للقرآن بخلاف الكتب السماوية الأخرى - الحكمة
في تكليف الأمة الإسلامية بحفظ القرآن - الأدلة على وجوب
حفظ القرآن على الأمة الإسلامية .

حفظ الصحابة للقرآن - عنايتهم إلى الحفظ - بالفهم ،
والعلم ، والعمل - اعتمادهم في الحفظ على التلقي الشفاهي والسماع
من الرسول ، أو بمن سمع من الرسول - تفاوت الصحابة في
الحفظ - المشتهرون بالحفظ والإقراء من الصحابة والصحابيات
العوامل المساعدة على حفظ القرآن ، واستمرار تلاوته

٣٩٩ - ٤٠٢

٤٠٣ - ٤٣٤

(١) التعبد بالقرآن في الصلاة وغيرها .
(٢) الترغيب في قراءة القرآن وحفظه . (٣) الأمر بتعهد
القرآن والتحذير من نسيانه ، نسيان القرآن كبيرة
(٤) إرتباط بعض الوظائف الدينية ، والدينية بحفظ القرآن
(٥) تفرغ بعض الصحابة ومن بعدهم لحفظ القرآن ، وإقراءه
(٦) إشتهار العرب بقوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وصفاء
النفس (٧) العلم بأن القرآن هو أصل الدين ، ومنبع الصراط
المستقيم ، ودستور المسلمين الأول (٨) إعجاز القرآن وسحر
بيانه ، وعجائب أسلوبه ، وإشباعه لفطرة العرب اللغوية ،
والنفسية (٩) تيسير الوسائل لحفظه في المساجد ، والمدارس
والكتاتيب ، والبيوت - أثر الكتاب في تحفيظ القرآن ،
وتنشئة الكثيرين من مشاهير الأمة الإسلامية ، وجوب إحياء
الكتاتيب ، السكتاتيب في السودان - أمل ورجاء

٤٣٦ - ٤٦٨ مسائل متفرقة في أدب تلاوة القرآن وحفظه : -

- (١) قراءة القرآن من أفضل القربات إلى الله (٢) نسيانه
- كبيرة (٣) استحباب الوضوء لقراءته (٤) مسنونية قراءته
- في مكان طاهر (٥) استحباب استقبال القبلة حين قراءته
- (٦) سنية التعوذ قبل القراءة (٧) قراءة البسملة (٨) هل
- تحتاج قراءة القرآن لمنه نية؟ (٩) ترتيب القرآن (١٠) تدبر
- القرآن وتفهمه . (١١) تحسين الصوت بقراءة القرآن
- (١٢) الجهر بقراءة القرآن والإسرار به أيهما أفضل؟
- (١٣) أيهما أفضل القراءة من المصحف أم من الحفظ (١٤) إذا ارتج
- على القارئ ماذا يضع؟ (١٥) هل يجوز قطع القراء للكلمة؟
- (١٦) لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقا (١٧) لا يجوز
- القراءة بالشواذ . (١٨) مراعاة ترتيب المصحف في القراءة
- (١٩) استيفاء حروف القراءات . (٢٠) الاستماع للقرآن
- والإنصات إليه (٢١) السجود عند قراءة آية سجدة
- (٢٢) الأوقات المفضلة للقراءة . (٢٣) التكبير عند قراءة
- السور القصار . (٢٤) يسن الدعاء عند الختم . (٢٥) يسن إذا
- فرغ من ختمه أن يشرع في أخرى (٢٦) حكم التكسب
- بالقرآن . (٢٧) بكره أن يقول نسيت آية كذا (٢٨) اختلاف
- العلماء في وصول ثواب قراءة القرآن للبيت .

٤٦٨ - ٤٧٤ حكم الاقتباس وما جرى مجراه - ما يجري مجرى الاقتباس - لا يجوز
تعدى أمثلة القرآن

٤٧٤ - ٤٧٦ لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية .

٤٧٧ أم مراجع الكتاب .

٤٧٨ فهرس الكتاب .

٤٩٤ تصويب لبعض الأخطاء .

٤٩٥ التعريف بالمؤلف

(استدرارك)

في ص ٦١ سقط سطر ١٦ « هامش رقم ١ ، ونصه ، دحية بكسر الدال
رجل من الصحابة كان معروفاً بجمال الشكل والصورة ،
السطران الأخيران في ص ١٤٠ موضعهما في نهاية الفائدة الثالثة ص ١٤١
وهامش ص ٢١٢ مكرر من هامش ص ٢٠٧ ،
وفي ص ٣٢٣ سطر ١٦ وقع سقط ونصه ، لأنه جعل سورة الفيل
وسورة لا يلاف قريش
وفي ص ٣٤٩ سقط في منتصف السطر الثالث ونصه ،
« كلمة الربا تكتب بالواو والالف ، كما جاء في الرسم العثماني ،
ولا تكتب في القرآن بالياء أو الالف ، لأن رسمه سنة متبعة ،
وفي كتاب المحيط البرهاني في فقه الحنفية مانعه ،
« وهناك بعض أخطاء أخرى لا تخفى على القارئ الفطن ،

• التعريف بالمؤلف •

(١) أسرة « أبو شهبه » من الأسر العربية العريقة ، التي اشتهرت بالفروسية ، وحب الجهاد في سبيل الله كما ينبيء عن ذلك لقبها ، تركت أصولها في عدة قرى من محافظة البحيرة ، ثم نزح بعض فروعها قديما إلى بعض قرى محافظة كفر الشيخ ، ومحافظة الغربية

(٢) ولد في ١٥/٩/١٩١٤ في قرية « منية جناح » مركز دسوق .

(٣) وقد نذره والده من يوم ولادته للقرآن الكريم ، وحضور العلم بالأزهر الشريف ، فما أن بلغ الرابعة حتى ذهب به إلى كتاب القرية وقدرى هذا الكتاب أجيالا بالقرية منهم جيل والده رحمه الله

(٤) أتم حفظ نصف القرآن في الكتاب في سن التاسعة ، إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة ، وأصول الدين والسورة ثم فتحت المدارس الأولية فدخل مدرسة بلده فآتم حفظ القرآن بها وأخذ الشهادة الأولية في سن الثانية عشرة تقريبا .

(٥) وفي عام ١٩٢٥ دخل معهد دسوق العلمي الديني ، فأخذ الشهادة الابتدائية مئة ، وفي عام ١٩٣٠ دخل معهد طنطا الثانوي وأخذ منه الشهادة الثانوية وفي عام ١٩٣٥ دخل كلية أصول الدين إحدى كليات الأزهر المعمور

(٦) وفي عام ١٩٣٩ أخذ الشهادة العالمية وكان من الأوائل فدخل قسم الدراسات

العليا شعبة التفسير والحديث ، وبعد دراسة خمس سنوات دراسة لا تعرف الكلل ، ولا الملل نجح في الامتحان التمهيدي لشهادة العالمية من درجة أستاذ سنة ١٩٤٤ أمام لجنة من كبار العلماء ثم اشتغل بتأليف رسالة الدكتوراة ،

(٧) وفي نوفمبر عام ١٩٤٦ نوقش في رسالة العالمية من درجة أستاذ الدكتوراة مناقشة علنية أمام لجنة خماسية من كبار العلماء فحصل عليها بدرجة الإمتياز .

(٨) وفي ديسمبر من هذه السنة عين مدرسا بكلية أصول الدين ،

وما زال يترقى من مدرس إلى أستاذ مساعد ، إلى أستاذ حتى وصل إلى مرتبة العمادة

(٩) وفي أكتوبر ١٩٦٩ عين أول عميد لكلية أصول الدين ، أول كلية في

أول فرع أنشئ للجامعة الأزهر بأسسوط . وما زال يسير بالكلية قدما حتى

أكملت سنواتها الأربع عام ١٩٧٢ - ١٩٧٣ . وما زال يسعى حتى أنشئت بفرع الجامعة كليتان أخريان . كلية اللغة العربية وكلية الشريعة الإسلامية والقانون (١٠) في مطلع حياته العلمية أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعهد العالي السعودي بمكة المكرمة ، وللمشاركة في إصلاح التعليم الديني ووضع مناهجه وقد قضى أربع سنوات بجوار بيت الله الحرام هي ربيع عمره ، وفي سنة ١٩٦٣ أعير إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد فمكث فيها عاما ، وفي عام ١٩٦٦ أعير إلى الجامعة الإسلامية بأم درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات (١١) يكتب في كبرى المجلات العلمية والدينية في مصر وفي غيرها من بلاد الإسلام والعروبة ، من منذ ربع قرن أو يزيد ، والتي محاضرات وحضرن ندوات في مصر ، وفي غير مصر (١٢) أذاع في الإذاعة والتلفزيون في مصر ، وفي المملكة العربية السعودية وفي العراق ، وفي السودان .

(١٣) عني بالتأليف في القرآن وعلومه ، والسنة وعلومها والدفاع عنها ضد المبشرين ، والمستشرقين وأتباعهم ، وألف في ذلك كتباً كثيرة (١٤) كون مدرسة علمية من تلاميذه ومريديه في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية والعربية تعزز بالقرآن وعلومه ، والسنن وعلومها ، والتأليف فيها وإجلاء محاسنها وما أكثرها . وتقديم هذه العلوم والمعارف في لغة سهلة مستساغة ، وفي عرض حسن جذاب .

المؤلفات المطبوعة

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (٢) أعلام المحدثين (٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - جرآن ، (٤) في أصول الحديث (٥) علوم الحديث (٦) دفاع عن السنة ورد شبهة المستشرقين والكتاب المعاصرين (٧) شرح المختار من صحيح مسلم بن الحجاج (٨) رسالة في الإسراء والمعراج (٩) في رحاب السنة : الصحاح الستة (١٠) الربا في نظر الإسلام وحلول للمشكلة ، وهناك كتب أخرى تحت الطبع ،

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٣٩ لسنة ١٩٧٢ . القاهرة الحديثة للطباعة